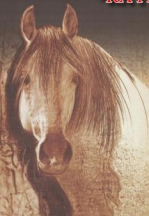


إبراهيم نصر الله فكر الحيوان البيضاء

اللمهاة الفلسطينية

رواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^





www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

مترجمة مع الذكرى الستين

لاحتلال فلسطين . تصدر

زمن الخيول البيضاء

رواية ملحمية استثنائية يتوخ بها

الشاعر والروائي

إبراهيم نصر الله

مشروعه الروائي الكبير

المهارة الفلسطينية

الذي بدأ العمل عليه منذ عام 1985 .

والذي صدر منه ست روايات لكل

رواية أجوارها الخاصة بها

وشخصها

وبناؤها الفني واستقلالها عن

الروايات الأخرى.

يتأمل نصر الله في هذا المشروع

12% عاماً من تاريخ الشعب

الفلسطيني بروية نقدية عميقة

ومستويات فنية رائعة.

انطلاقاً من تلك الحقيقة الراسخة

التي عمل عليها دائماً والتي تقول

بأن إيماننا بالقضايا الكبيرة

يحدث علينا إبداع مستويات فنية

عالية للتعبير عنها.

THE TIME OF WHITE HORSES

إِبْرَاهِيمُ نَضْرَافَهُ

زَيْنُ الْخَيْوَالِ الْبَيْضَاءِ

لقد خلق الله الحصان من الربيع... والإنسان من الخراب..
(قول عربي)
.. والبيوت من البشر
(إضافة)

المكتبة الإسلامية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. LLC

منشورات الاختلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: تشرين الأول - 2007 م

الطبعة الثانية: حزيران - 2008 م

الطبعة الثالثة: شباط - 2009 م

الطبعة الرابعة: كانون الأول - 2009 م

ردمك 0-463-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشتل

الجزائر العاصمة - الجزائر

e-mail: revucikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المقي توفيق خلد، بناية التريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يسمح نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على لشرطة أو أقراص مبرومة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المخطوطات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية: الفنان أحمد باقر / البحرين

تصميم الغلاف: الفنان محمد نصرالله

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

ملاحظات:

* في عام 1985 كتبتُ أعلن أن هذه الرواية هي (المهالة الفلسطينية)، ولهذا بدأت العمل عليها إعداداً وتسجيل شهادات وتكوين مكتبة خاصة بها، ولكن أفضل ما يحدث أن الأمور لا تسير حسب رغباتنا دائماً، إذ أصبح العمل الطويل عليها هو الباب الذي استدخل منه لمس روايات ضمن هذا المشروع، وبهذا فالرواية التي كان من المتوقع أن تكون الأولى أصبحت الأخيرة!

* أُنجزتُ العمل على جمع الشهادات الشفوية الطويلة، التي أفادت منها (زمن الحبول البيضاء) بشكل خاص، بين عامي 1985 و 1986، حيث قُدم فيها عدد من الشهود الذين أُنقلوا من وطنهم وعاشوا في الشتات، شهاداتهم الحية عن تفاصيل حياتهم التي عاشوها في فلسطين، ومن المحزن أن هؤلاء الشهود قد رحلوا جميعاً عن عالمنا قبل أن تتحقق أميتهم الكبرى بالعودة إلى وطنهم.

شهود من أربع قرى فلسطينية حللوا الحلم ذاته وماتوا الميتة ذاتها: غرباء.
هذه الرواية أُنعدت إلى أرواحهم: عتي - جمعة خليل، جمعة صلاح، مرثا خضر، كوكيب ياسين طوطح.

هذه الرواية تحية إليهم ولحمة لعشرات الشهود الآخرين الذين لم يتوانوا عن تقديم خلاصات ذكرياتهم، أو استمعتُ لبعض حكاياتهم، مصادفة، عمل مدى عشرين عاماً، وكذلك للكُتّاب الفلسطينيين والعرب الذين سامعتُ مذكراتهم وكتبهم في إضاءة الطريق لي، وقد جرى تثبيت أسماء أعمالهم في نهاية الرواية.

* هناك تنوع مدعش في العادات بين منطقة فلسطينية وأخرى وقرية وأخرى، ولهذا قد تبدو بعض العادات الواردة في الرواية غير معروفة لهذا القارئ أو ذاك.

* حكاية الذئب مع قرية (الهادية) حكاية حقيقية من أولها إلى آخرها، إنها حكاية قريزي.
* أسماء الشخصيات والعائلات غير حقيقية، وإذا ورد تشابه بينها وبين شخصيات حقيقية، فذلك بمحض الصدفة.

* اسم الشخصية وكتبتها، حيثما وردا في الرواية، فهما مرئوخان.

الكتاب الأول الريح



www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

وصول الحماية

معجزة كاملة تجسدت...

أمام المضافة، تحت شجرة التوت، كان الحاج محمود يجلس بجانب ولده خالد، مع عدد من رجال القرية، رأوا في البعيد غباراً قادمًا، داهمه حسٌّ غريب، ومع مرور اللحظات، كان الغبار يتلاشى ويختل مكانه بياضٌ لم يروه من قبل، ظلَّ توقُّعه يزداد شيئاً فشيئاً حتى بانَ كله.

ولم يكن هناك ما يفنتهم أكثر من جمال منهرة أو حصان.

قال الحاج محمود ذاهلاً: أترون ما لراه؟

لم يسمع جواباً، التفت إليهم، فوجد أن المفاجأة أخذتهم، عاقدةً ألسنتهم. هم صمت طويل، لم يكن يقطعُه سوى ذلك الغدو المجنون للكائن الذي بدا وكأنه قد خرج من حلم.

كان القارس يحاول، ما استطاع، السيطرة على كتلة الضوء المتقافزة تحته، كتلة الضوء التي تعانده غير عابئة بذلك الألم الجارح الذي يسيه لها اللجام، الألم الذي يتصاعد مهبّاتٍ مخرقة مع حرارة اللهاث. تطلعت كتلة الضوء إلى الأعلى وراحت تُطلق صهيلها المجرّوح. عند ذلك صاح الحاج محمود: يا رجال. هنالك حُرّة تستغيث. أجيروها.

توقفت القرس أمامهم، أشبه بصخرة، كما لو أنها قد قررت أن تموت على أن تخطو خطوة أخرى.



شاهد القارسُ الرجالَ يندفعون نحوه، انبال بعضهم على القرس كمن يتحرك، لكنها لم تفعل. ترجل عنها وأخذ يجري متعثراً نحو الجهة التي جاء منها. قبل أن يصل الرجال إلى القرس، كان خالد قد طارَ بفروه قاطعاً الطريق على الرجل المارِب.

دار حوله ودار، حتى رآه يسقط. سأله: من أين سرقتها؟
لم يجب.

تلقّمت نحوه، ارتفعت قائمتا فرس خالد، أطلقت صهيلاً غاضباً، ثم راحت قائمتاها تتجهان إلى الجسد المذهور.

صرخ: من عرب عابرين.

لوى خالد عنق الفرس، استقرت قائمتاها على بعد ذراع من صدر الرجل: أين؟

- غربي النهر.

- فضحتك الأصلية. قال له.

راح سارقها يستغيث طالباً الرحمة.

- منذ متى سرقتها؟

- منذ يومين.

- ألم تعرف أن سرقة الفرس مثل سرقة الروح. أُنجم بدمك، قبل غروب هذه الشمس. وإلا ستطعمك للكلاب!!

دار حوله ثانية، امتدت يده الرجل نحو كوفته وعقاله وعباءته. صاح به خالد: اتركها. لا يسر لمن لا يسر حُرّة.

فاندفع الرجل متعثراً محاولاً بلوغ حافة الأفق قبل غروب الشمس.

اقترب الرجال من الفرس، دارت حول نفسها بجنون، ابتعدوا قليلاً، توقفت، أشار لهم خالد: اتركوها. صعدوا التل نحو ساحة المضائق، بقي خالد بجوارها، لكنه لم يفكر بالاقتراب منها أكثر. تأملها، رأى فيها جمالاً لم يغبّر هذا السهل من قبل. وفي النهاية أدرك أن أفضل ما يفعله هو الابتعاد عنها. صعد التل حيث والده والرجال.

في البعيد، راحت العتمة تغمر قامة السارق شيئاً فشيئاً، اختفى، لكن الشيء الذي لم يخف هو قامة تلك الفرس التي بدت أشبه ما تكون بقطعة من بهار.

- من الخطأ أن تبقى الفرس في الخارج. قال أحد الرجال.

- اتركوها فهي حُرّة. قال الحاج محمود.

ثم راح ينشد:

إذا ما الحيل ضيّعها أناسٌ حينها فأشركت العيالا
نُقاسمها المعيشة كل يوم ونكسوها البراقع والجلالا

تفرّقوا في آخر سهرتهم، كل نحو بيته، لم يتحرك خالد، ظلّ ساهراً يحدّق فيها، خائفاً من كل شيء، خائفاً من أن تخفي، خائفاً من أن تبقى فيتعلق بها أكثر وهي ليست له، خائفاً من أن يُطل أصحابها، لأنه لو أضاع فرساً مثلها لأضفى العمر باحثاً عنها.

أولم يحدث له ذلك!!؟

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الهَبَاب!

لم يعرف أحد من أين يزغ هذا الاسم: الهَبَاب. لم يعرفوا إن كان ثمة اسم آخر له قبل هذا.

كان افتخارُ الأكابر والكرام، جناب صاحب الرفعة، ذو العِزَّة القائمقام الجديد (للقضاء) يستطلعُ الوضع في جولة هي الأولى له، لفتَّ انتباهه ذلك الرجل الذي يسير معتدًا بنفسه، التفتَّ نظرانيها، لم يرتبك الهَبَاب، حنَّ ذلك صاحب العِزَّة كثيراً، ناداه، اقترب الرجل، رُبَّت على كتفه، دار حوله وظلَّ الرجل ثابتاً كما لو أن الأمر لا يعنيه. كان ذلك كافياً لأن يغيط قائداً لم يمرَّ أكثر من يومين على وجوده في مدينة يتطلعُ لحضوعها له. استل القائد سيفه، قلبَ السيف، القبط على الأرض، رأسه يتأرجح بين إبهامه والسبابة، امتدَّت يده اليمنى لكتف الرجل، أمالَتْ اليسرى رأس السيف نحو خاصرته، ثبته هناك، وبقي الرجل ثابتاً.

تجمَّع الناس لمشاهدة الواقعة الغريبة. تلقى القائد بذراعه فوق كتف الرجل، شدَّه نحوه، نحو السيف الذي عثر بسهولة على موطن: رأس له في لحم الخاصرة الطري. وظلَّ ثابتاً.

شقَّ المعدن طريقه دون جهد، بدأ دم ينساب من الخاصرة متحدراً حتى القبضة المغروسة في الأرض. التفتَّ القائد، رأى بقعة دم تتجمَّع وتنتسج بنسارج، أبلن معها، أن آخر ما يمكن أن يقوله الرجل: أه، حتى لو كانت حياته الشمن. تراجع القائد ثلاث خطوات. سألَه: من أين أنت؟ أشار الرجل إلى ذلك المدى الشرقي الممتد الذي تحجب شمس الصباح لثلاله البعيدة بهالتها الرمادية.

دهاه القائد أن يسير معه. سار. سألَه عن اسمه واسم قريته، ثم قال له: لا تغادر هذا الحان. لا تبتعد..

بعد يومين جاءه ثلاثة جنود أثراك وأخذوه.

غاب..

انكسر الشر

لم يكن جرح خالد قد التأم بعد. فمرارة الغياب الحافظ الذي هبَّ وباغته لم تزل تحجِّره، كيف اتَّسَلَّت من بين يديه؟ كيف اختطفها الموت وهو متشبَّث بها؟ أحبَّها ذات موسم غادروا فيه الهادية إلى القدس، كان الحاج محمود يعرف والدها منذ زمن بعيد.

بمجرد عودته للبيت أمسك بأحد الصحن وكسره.
سمعتُ ثميرة - أمه تهشَّم الصحن، قالت: انكسر الشر !!
أمسك بالثاني وكسره.

فكالت أمه: انكسر الشر كمان مرَّة !! والتفتَّ إليه تسألَه: ما بك هذا اليوم؟ وقبل أن تتبسَّ مؤلفاً كان واحدٌ آخر من عدة صحن صينية مُوردة، اشتراها الحاج محمود من دُكَّانٍ تركي، ينتال على الأرض. رآه يرفع الصحن فصرخت: الحق يا حاج إبنك قبل أن يَكْشُر لنا البيت !!
هبَّ الحاج محمود راكضاً. وقد أدرك أن الشوق لامرأة قد ضيَّع في عروق ولده!

كانت تلك واحدة من العادات المُكَلِّفَة المؤدَّبة التي يعلن فيها الشباب، في كثير من قرى هذه المنطقة، أنهم لم يعودوا قادرين على احتفال العزوبية أكثر مما احتملوها.

وللعق، كانت منيرة تنتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي تسمع فيه تهشَّم أيُّ من صحن البيت، أما الصحن الصينية، فلم تكن على استعداد للتضحية بها، مهما كان السبب. ولذا، راحت تصرخ ما إن أدركت حجم ذلك الخطر الذي بات يُحَوِّق بصحنها.

فوق رأسه، كان الصحن، أما البقية فقد استقرت بين كفِّ اليسرى وخاصرته.
دخل الحاج محمود.

- قل لي ونحن جاهزون. جاء الوعد قاطعاً.

وظل مصير الصحن مُعلّقاً في يده.

قال: أمل ابنه أبو سليم.

- أبو سليم من؟

- تاجر القمح في القدس.

- وما بين يثا البلد؟

- لا شيء، ولكنني أريد ابنه أبو سليم.

- هذه ابنة مدينة، لن تتعلم هنا.

تحرك الصحن في يد خالد، خلق قلب منيرة، قالت وعينها لا تفارقان اليد

العالية: ابنة أبو سليم ابنة أبو سليم، ومالو؟

- ما الذي تقولينه يا امرأة؟ هؤلاء لن يعطوننا حتى معزلة لو كانت لديهم، فما

بالك بابتهم!

التفت عينا خالد بعيني أمه، فهبت الرسالة: تأخرها في التدخّل سيحوّل

الصحن الذي طالما قاخرت به، مع بقية الصحن، إلى حطام.

- برضاي عليك يا حاج، لا تكسر خاطره!! إنه أول العتود، فترخي به.

- سأفكّر.

التفتت إلى ابنها مويخة: قال لك سيفكر، يعني سيفكر. هات الصحن. حاولت

أن تصل إلى أعلى امتداد ذراعه، لم تستطع، اختلطت الصحن المحشورة ما بين يده

اليسرى وخاصرته، نراجعت فرجةً بها بين يديها، قالت لزوجها: ثم من أين فهم

بعميس لابنتهم بهذا الطول؟

صامتاً ظلّ الحاج محمود. أضافت: والشقار، والعيون الحضر!!

تأمل الحاج محمود ولده، هرّ رأسه: إن شاء الله يكون خير.

ناولها خالد الصحن الذي لم تستطع الوصول إليه.

ثلاثة أيام كاملة اختفت فيها الصحن، كما لو أنها لم تكن ذات يوم في البيت،

ثلاثة أيام صامتة لم يقطعها سوى عتاب أمه: ولو يا خالد هانت عليك إمك لماحد

حتى تكسر صحنها!!

لم تجب.

اختلّت بالحاج محمود، قالت له: لا تحبّي الصحن التي اتكسرت تروح

خسارة!! انتفض الحاج محمود، باحساً عن بقية الصحن ليهشّمها. لم يجدها.

فحمدت الله على أنه ألقاها إغفاء أغلّ مملكتها.

في الديوان الكبير جلس الرجال، كانت علامات الشّعة واضحة: الكرسي

الكبير، الصّور المعلقة على الحائط، الأواني الزجاجية الموزّعة بإتقان فوق الرفوف

وعلى الطاولات في الزوايا، المرأة الكبيرة، الفوانيس الغريبة وكؤوس الكريستال

التي تلعب في خزائنها العسيلة.

- قال لي الهرحوم أبي ذات يوم، كان أبو سليم واحداً من أكثر التجار احتراماً،

ياخذون منه حاجتهم من كل شيء، وفي موسم جني محصول، يأتي ليأخذ قمحاً

وشعيراً ومسماً مقابل ما أخذوه. لم يخلّفوا معه، كان سعر الحبوب معروفًا كسعر

الطوايع في هذه الأيام!!

دارت القهوة، أمسك الشيخ ناصر العلي رئيس المجاعة بفنجانها، وضعه على

الطاولة التي أمامه. كما فعل الرجال القادمون معه.

- اشرب قهوتك يا شيخ. قال أبو سليم.

- نشربها إن شاء الله، أدام الله عزك وحفظ بيتك عامراً. ولكنّ لنا طلباً.

- وصلت يا شيخ.

- جئنا نطلب القرب منكم طالين يد مھر تكم¹. لخالد ابن الحاج محمود.

خيّم الصمت للحظات، راحت عينا أبو سليم تحدقان في ضيوفه، استقرتا على

وجه الحاج محمود: مكاتك كبيرة يا شيخ ناصر وهذه الوجوه الطيبة، اشربوا

قهوتكم، من أين لنا بعميس أصيل لابنتنا مثله؟

كبيرة كانت المفاجأة، احتاج معها الرجال إلى وقت أطول من المعتاد لشرب

قهوتهم، كانوا قد جهّزوا أنفسهم لوقف لا يتر، ولم يكن الشيخ ناصر العلي بعيداً

عن إحسانهم هذا.

- كنا نخشى أن نقول لنا لن نُعْرَب مْهرتنا، وكنا سنعلرك. قال الحاج محمود.

- هذه بلاد بحجم القلب يا حاج، لا شيء فيها بعيد ولا شيء فيها قريب. ردّ

أبو سليم.

¹ - يستخدم الملاحون هذا الوصف نادياً واحتراماً.

المحترمون السبعة

يذكر الحاج محمود تماماً ذلك اليوم الذي وصل فيه المحترمون السبعة: الشيء الذي يمكن أن نعدكم به هو أننا ستكون أخف من النسمة فوق هذا التل، بحيث لا تشعر بوجودنا، ولكننا نؤكد لكم أيضاً، ستكونون أقوى بنا، وحين نقول (بنا) نقصد عالماً خلفنا تمثله الكنيسة، ولعلكم تعرفون أن الباب العالي هو الذي يختار مطران القدس، ومنذ زمن طويل، من رجال الدين في طائفتنا. وأننا رغم ذلك نتبع لسلطة بلادنا كما لو أننا هناك فيها، وهكذا، نحن نحت حمايتين مستعَم القرية بها.

وعندما سألهم الحاج محمود: ولماذا الهادية بالذات؟ قال رئيسهم: وهل تعتقد أنها سَئِيت باسمها صدقة؟ وأشار للسُهل الممتد حتى حدود الساء، وقال: في مكان كهذا، وصفاء كهذا، واستداد لا يُعيق البصر ولا البصيرة، يمكن أن يكون المرء أكثر قرباً إلى الله.

فصنم الحاج محمود: لا إله إلا الله.

عسل للبيع!!

فرحة خالد بعروسه، كانت تفوق الوصف، يلاحقها في البيت، يُمسك بها، يحملها فوق ذراعيه، يخرج بها قاطعاً الشاحة الترابية للحوش نحو المكان الذي يكون فيه والده وأمه وأخوته وهو يصيح بفرح: عَسَا عسل للبيع، ورد للبيع!! ويظل يكرر ذلك وهو يدور حولهم! وفي واحدة من المرات، أوشك أن يصعد بها للسطح لولا أن الحاج محمود أمسك به في اللحظة الأخيرة.

- إركز يا ولد. قالت منيرة. لكنها كانت قَرَحَةً بفرحه.

انتشرت أخبار تعلُّق عروسه، بانت حديث أهل الهادية، الرجال لم يَقبلوا بالأمر، وبهاست النساء فيما بينهن: هيك الرجال ولا بلاش!! وبعد أقل من شهر كانت نظرات الحسد لِرُزَق العروس حينما ظهرت. ولم يَقف الأمر عند هذا الحد: ذات يوم كان يجلس مع عدد من شباب القرية، وحين راحوا يتهامسون، انتفض، وقال: لماذا تستغربون، عليّ الطلاق إنها أحل من الشمس وأحل من القمر!! فصمتوا.

بعد يومين كانوا يتناولون طعام الغداء في الحقل، حين راحوا يشكون بها سمعوها منه، فما كان منه إلا أن قال: عليّ الطلاق إنها أحل من الشمس ومن القمر!!

فقالوا له: ما الذي قلته يا رجل، هل يُمَثَّل أن تكون هناك امرأة أحل من الشمس والقمر وهما أبهى وأجل خلق الله، نغيي لنا الشمس نهارنا ونغير لنا القمر ليلنا!!

راح يفكر فيما قالوه له، نظر إلى امرأته، لم يكن لديه أي شك: إنها أحل.

اكتمال القمر بعد سبع ليال كان مناسبة للحديث في ذلك من جديد، حدّق رمضان نصر الله في البدر وقال: أنظروا. هل يمكن لإنسان أن يكون أجمل من هذا الذي أبدعه الله !!!

فهم خالد الملاحقة، فالتفت إليه وقال: هي. علي الطلاق انا أجمل.

عند ذلك ساد الصمت فجأة: سأل: شو في !!!

- لقد طلّقت امرأتك التي تحب ثلاث مرات دون أن تدري. من ذلك المجنون الذي يمكن أن يقول بأن هناك امرأة أحلى من الشمس والقمر معاً؟ قال له عميد شحادة.

قطعة مباحثة أحسّ بالكارثة.

جُرّ، راح يركض نحو أبيه، أمه. ذهب إلى الشيخ حسني الذي اعتصر عمامته كما لو أنه يعتصر رأسه: وقال، دعني أفكر. من أين أثبتت لي ولنفسك بهذه المصيبة؟!

نظر إلى امرأته، أحس بأن مسافة هائلة تفصله عنها، كما لو أن بينهما بحر، عاد للشيخ حسني صباح اليوم التالي فوجده يعتصر عمامته كما تركه، جلس بباب المسجد منتظراً، لكن ثلاثة أيام أخرى لم يحمل له ما يعيد الأمان لقلبه.

ترك الهادية، هام على وجهه، حتى وصل القدس، وكلما التفت بشيخ راح يروح أن يقول له شيئاً، وألاً يكتفي بالصمت كما يفعل الجميع.

مضى قاطعاً البلاد من شهايا إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها دون جدوى، وذات يوم، وجّه الشيخ ناصر العلي ثلثي على طرف حقله، وبجانبه فرسه، اتحنى عليه، سقا قليلاً من الماء، وأستند.

لم يعرف خالد كيف وصل إليه، لأن الإنسان الوحيد الذي كان يؤذ الفرار منه، طوال الوقت، هو ذلك الإنسان، الذي ذهب بنفسه رئيساً للجماعة، وما هو يسود وجهه برعونه.

- ما الذي أصابك يا ولدي؟ إن كنا نستطيع أن نعينك أعناك، وإن كانت لك حاجة في هذه البلاد سعيانا معك من أجلها.

كان الصمت الذي قابله به الجميع قد استقر عميقاً فيه لا يبادره، نظر خالد إلى الشيخ ناصر وبدأ يبكي.

بعد ثلاثة أيام سأله الشيخ ثانية، فراح يبكي من جديد.

لكن شيئاً ما ألبأ في وجه الشيخ ناصر أطلق لسانه من جديد: لقد زوّجتها لي وأضعمتها أنا. وانفطرت مسبحة الكلام..

صمت الشيخ، راح يعبث بلحيته البيضاء، وقب، تمسّ ما بين جداري الحوش عاقداً يديه خلف ظهره، محدّقاً في السماء بعيني العميقين، كما لو أنه يريد تقلب صفحاتها بقاته القصيرة الشديدة ووجهه الصغير كوجوه الأطفال، وقال: والدك عزيز علي يا خالد، ومن قبله جدك، لقد كنت ضيفي لثلاثة أيام، فأرجو أن تكون ضيفي ليوم رابع. وعسى الله يلهمني حللاً لهذه القضية التي ير العقول. بعد ساعات اقترب منه الشيخ، قال له: أعرف أنك بحاجة إلى أن تعود أكثر من حاجتك لأن تبقى.

هزّ خالد رأسه: وهل وجدت الحل يا والذي؟

- إن شاء الله، هيا ابهض، جهّز فرسك وتوكل على الله، عسانا نصلي المصبر في الهادية.

راحا يقطعان السهول، يصعدان التلال، ويلتفنان بفرسيهما حول الحقول والكروم الخضراء، وبين لحظة وأخرى، كان الشيخ يستحثّه: توكل على الله يا ولدي، لا يكون إلا الخير إن شاء الله.

لاحق لهم الهادية عالية فوق التل، شدّ خالد الرسن، توقفت فرسه. اعتصر جبينه بأصابع يده اليسرى مُطرقاً، عاد الشيخ بفرسه للوراء: لم يبقَ الكثير، ها قد وصلنا، لقد انتظرت كثيراً، ولم يبقَ إلا القليل.

من فوق التلال اتدفعت الهادية، تجمّع الرجال الذين يعملون في الحقول، وكثير منهم يبرّقه الندم، بسبب ذهابهم في تحدّيهِ إلى تلك الدرجة. أما فرحة الحاج محمود وأمه وأخوته وأخته العزيزة وعمته الأنيسة، برؤيته ثانية، فقد كانت تلصق الوصف. وقبل أن يتوجّه الحاج محمود إلى ولده اتدفع نحو الشيخ وهو يصيح: الشيخ ناصر العلي!! لقد أعدت لنا الروح بنشر بركت قريننا، وأعدت لنا الروح بعونك بابنا. يا هالا، يا هالا. عشاؤك عندنا الليلة، وعشاء أهل البلد كلهم.

- أشار لأحد الرجال فاندفع طائر، اتقى عدداً من الخراف، وبدأ العمل على التفور.

كان الشيخ ناصر العلي واحداً من أهم القضاة العشائريين في البلاد كلها وأشجعهم وأكثرهم حكمة؛ وهذا ما أعاد الأمل ثانية إليهم.
تلفت خالد، عساه يرى امرأته، لم يجدها، قال له والده: إنها في البيت، ولكن تذكر أنها مخمّمة عليك.
هز رأسه بأسى موافقاً.

في المضافة التي وصلوا إليها أخيراً، صامتاً ظلّ الشيخ ناصر، إلى ذلك الحد الذي لم يستطع معه حمدان أن يضع قهوة جديدة في مهباشه ليعدّها للضيف، فحمل المهباش وابتعد به كثيراً، وبدؤوا راح يطحن القهوة ودموه تسيل.
حين عاد، لاحظ الناس آثار الدموع في عينيه بوضوح، تناول سالم ابن الحاج محمود (الذلة) والفناجين منه، صبّ القهوة، دقّ مصبّب القهوة بطرف الفناجين حتى لا تسقط أي قطرة على الأرض، أمسك الحاج محمود الفناجين بيده اليمنى وقدمه بنفسه للشيخ ناصر العلي.²

حان وقت الأذان، قال لهم الشيخ ناصر، لتصلّ اليوم هنا، ولنسمحوا في بأن أكون إمامكم. أذنّ الشيخ حسني للصلاة. استوت الصفوف، قرأ الشيخ ناصر الفاتحة، ثم راح يقرأ سورة التين (بسم الله الرحمن الرحيم) والتين والزيتون وطور سينين. وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الشمس والقمر في أحسن تقويم) وعندما سمع المصلّون ذلك ناز بعضهم، وقالوا: أخطأت يا شيخ!!
صمت قليلاً، فصمتوا، ثم قطع الصلاة، استدار وسأهم: وما الذي يقوله الله تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم).

راح الشيخ ناصر يهز رأسه كما لو أنه يفكر في مسألة ليس لها حلّ، ثم قال: ما دعمتم تعرفون أن الله يقول ذلك، وأن الإنسان هو أجل خلق الله، فلماذا تُفَرَّقون بين الرجل وامرأته!!?

عمّ الصمت من جديد، وإذا أدرك خالد ما يقصده الشيخ، اتدفع نحوه يعانقه ويُغَيِّل يديه. أما الشيخ حسني فقد ضرب جبهته: كيف لم يخطر ببال هذا!!
فقال له الحاج محمود: لأنه لم يخطر ببال أحد.

لكن فرحتهم لم تمش طويلاً، ذات يوم خرجت من حوشها عندما سمعت بانها يصيح مُعلنًا عن بضاعته، بإدلة ثلاث بيضات بحفتي قُطَيْن، وعند المساء كانت تصيح: بطني!

في البداية ظنوا أنها على وشك أن تُسَيِّطَ محلّها، لكن شارة، دابة البلد أكدت لهم ما إن حضرت (هذه المسألة لا تتعلق بجينيتها). وبعد ساعتين من ألم لا يوصف، استلّها الموت وخالد متشبّ بها.

.. ولزم طويل ظل يهذي: كيف استطاع أن يأخذها من بين يدي وأنا ممسك بها. كيف!!! ويقولون له: وحّد الله يا رجل. وحّد الله.
وفجأة وصلت الحمامة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

² - عادة يهز الشارب الفناجين بعد الشرب للمرة الثانية، ويمتنع عن شرب الثالث تالفاً.

نظرة مختلفة

اندفعت الهادية كلها للعمل، حين تقرر البدء ببناء الدَّير، وبعد أقل من ثلاثة أشهر، كان يمكن أن يُشاهد المرء منه ليلاً، أضواء سبع قرى على الأقل تنتشر في السهول والتلال المحيطة بالقرية.

كان على ديميترس، المهندس الأشهر ذي الشعر الطويل المعقود كذيل فرس أن يُشير، ولم يكن أهل البلد عاجزين عن التنفيذ بدقة، وقد بنوا كل يسوعهم بأيديهم. وبعد ثلاثة أشهر من اكتمال بناء الدَّير حضر الخوري جورجي في عربة يجرها حصانان سودان، ظنَّت تسير إلى أن توقفت أمام الباب الكبير الذي أحضره المهندس من أئينا، وقد كان الباب والشبابيك الأشياء الوحيدة التي لم يكن باستطاعة أهل البلد صنعها على النحو الذي تقتضيه الحاجة.

كان ثمة صليبان ومسيح مصلوب وشبابيك بزجاج ملون تُفصل ما بين شرائحه عرائش خشبية داكنة على شكل صليبان. لكن ما شغل الناس، فيها بعد، هو ذلك الصليب الكبير المصنوع من خشب الزيتون حين رُفِعَ عالياً فوق بوابة الدَّير. صحيح أنهم رأوا من الصليبان الشيء الكثير، لكن صليباً بهذا الحجم ودخول الشيخ حسني، إمام الجامع في النقاش، كاد يجول الأمر إلى مشكلة، حين قال: حتى أنه أكثر علواً من القنطرة!! وهنا تدخل الحاج محمود جاساً الأمر: إن كنا فوق هذه الأرض أو كنا تحتها، فالمسافة التي تفصلنا عن الله جلَّ جلاله واحدة. ثم صمَّت وقال: لن نختلف على شيء يتعلق بالله نفسه، ويعرفه أكثر منا جميعاً. هم يقولون صليب، والقرآن يقول (وما صليبه وما قتلوه ولكن شبه لهم) صدق الله العظيم؛ ولذلك فهناك شيء واحد مؤكد بالنسبة للجميع، وهو أن هناك شخصاً قد تمَّ صليبه، وسواء كان هذا الشخص نبياً أو إنساناً عادياً يشبه ذلك النبي فإن علينا أن نحسن بعبادته.

عند هذا الحد انتهى النقاش، وعاد الناس ينظرون للصليب نظرة مختلفة.

قرآن كريم

ثلاثة أيام متواصلة رفضت الحماية أن تغادر مكانها، حاول أكثر من رجل يعرفون طبائع الحيل، حاول الحاج محمود، خالد. حاول الشيخ حسني، الذي قرأ عليها آيات من القرآن الكريم (والعادات ضيحا). فالموريات قدحاً. فالمغريات صبحاً. فأثرن به تقعا. فوسطن به جمعا. إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد...} صدق الله العظيم. وإذا صادف وصول الحماية الأربعة، فإنه خصص خطبة الجمعة للحديث عن الحيل، بعد أن شغل وقوفها الناس الذين توافدوا على الهادية من قرى مجاورة لحضور سوق الخميس الذي يقام أسبوعياً في الهادية، وبات كثيرون منهم فيها.

بدأ الحاج حسني خطبته بقول الرسول عليه السلام: عن جابر بن عبد الله وجابر بن عمر رضي الله عنهما أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قال: (كل شيء ليس من دُخْر الله فهو لسهوٍ وليسبٍ إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة). وقد قالت العرب: ثلاثة أنواع من الخدمة لا تعيب المرء: خدمته لبيته، وخدمته لفرسه، وخدمته لضيفه.

وفي نهاية الصلاة كانوا أكثر اندفاعاً لرؤية الحماية من قبل، إذ بدت وكأنها واحدة من معجزات الله التي كرم الهادية بها.

كان الحاج محمود أكثر المأخوذين بجهاها بعد ابنه. لكنه احتفظ بتلك المسافة التي لا بد منها للشيخ القرية كي يبدو أكثر هبة أمام ما يُقرى الناس. لكن الأمر لم يكن كذلك في غياب كل تلك الجموع، فقد اتسل من فراشه في القيلة الثانية لوجود الحماية. اتبه خالد الذي بنام في الحوش، عرف خطوات أبيه، أشرع عينيه، لم يتحرك. كانت الحماية أشبه بيدر لا يعرف الأقول، اقترب الحاج

محمود منها بصمت، راح ضوؤها يلمره أكثر فأكثر، كلما دنا منها، اقتعد حجرها، تسرَّ فوقه دون حراك، ولم ينهض من مكانه إلا حين انطلق أنان الفجر. عاد لبيته وقد سرَّه أن ولده يغط في النوم!!
 همس لنفسه: دأبنا كنت أقول إن الخيل من معجزات الله، لكني حين رأيت هذه أصبحت أشدَّ إيماناً.

مع غروب شمس مساء الجمعة، تحوَّل الفرح بوجودها إلى خوف، خوف فقدانها. رفضت أن تأكل أو تشرب أو تتحرك، ولم يعد يخفى اهتزاز قوائمها المشيرة بانهبائها في أي لحظة؛ ولم يعد الخوف يطرُق أبواب روح خالد وحده، خالد الذي أحس أنه لم يحمِلَ فراقين مُتَمَثِّلِينَ بهذا الحُجْم، بل تسرَّب إلى قلوب أسرته وقلوب أهل الحادية، بعد أن أحسَّ كثيرون منهم أن وصول الفرس قال غير عليهم.

ذلك المساء، قدَّ خالد الصبر، نظر إليها، وبدأ يهبط التلة، دون أن تغادر عيناه قائمتها، وصل، لم تتحرك، بدت وكأنها مستسلمة لشيء غريب خارج حدود هذا العالم، اقترب أكثر، لم تتحرك، مدَّ يده خائفاً نحو عُرفها وظلَّت ساكنة، لاسمه، اندحرت كَفَّ بانجاء وجهها، نظرت إليه، أصبحا وجها لوجه، وعنددها راح الدمع يتحدر من عينيها، فوجد نفسه يكي معها بصمت.

هل كان يبكىها، أم يكي شيئاً صامتاً كالذي تكيه؟

بعد زمن عاد صاعداً نحو البيت، وهناك كان بإمكانهم أن يشاهدوا بقايا الدمع في عينيها. التفت سطل ماء وعاد، غسل لها وجهها بيديه، بلل فيها، أخرجت لسانها، لحست أطراف شفتيها يوهن، رفع لها الماء، اختفى رأسها داخل السطل قليلاً، عذبت حشرات أنفاسها؛ لم يتركها تشرب الكثير، فهو يعرف عواقب ذلك، أنزل السطل، ويراحته راح يتحنن فكبها، تاركا إبهاميه تصعدان نحو مقدمة رأسها ولذاعبان حينها يرفق.

ذلك كان كأنها بالنسبة له، هو الذي قدَّ الأمل تماماً.

استدار عائداً.

رثَّ الحاج محمود على كنف ابنه مهتأ، احتضنته أمه، ولو كانت عُمته الأنيسة حاضرة لكانت فخوره به. وحين عادوا برافقوها، لاحظوا أن الفرس تلتفت

نحوهم، كنتموا أنفاسهم، وبعد دقائق رأوها تستدير يكامل جسدها، ثم تحطو ثلاث خطوات باتجاههم، وتعود لتوقف.

لم تتحرك بعد ذلك، لكنهم كانوا سعداء بما تحقق.
 تلك الليلة تركوا باب الحوش مشرعا، نام خالد أمام عتبة الدار كما يفعل كل ليلة، وفجأة راح في نوم عميق؛ ثمة سكون هبَّط على قلبه غامرة جسده بالرضا. نام.

عند الفجر، أحس بأنفاس دافئة تلمع وجهه. فتح عينيه، وقربه، رأى وجهها أبيض كما لم يره من قبل وقد أغلقت عينيها السوداوين ونابت مطمئنة لأول مرة.

تحوَّل المدى كله إلى عرس، وغمر الفرح الجميع، زغردت النساء، وغشيت ورقص الرجال بسيوفهم، وبعضهم أخرج بندقيته ملوَّحاً بها. في حين راح الأولاد، وكل بمسك طرف قميازه بأسنانه، يميرون في السهل مُقَلِّدين حُبَّ الحماية وجريها. ولم تعد الأرض تسع تلك السعادة التي لم يكن خالد يعتقد أنها مستمكن قلبه في أي يوم من الأيام، حين تأكد أنه لا يعلم وأنه فوق ظهرها.

قال له الحاج محمود: كنت اعتقد أنك قد بددت تصدا، وأنت تعرف، ليس هناك أكثر حزناً من أن يصدا الرجل وهو في ريعان شبابه. أيام قليلة معها غيرتلك، أعادت لنا ما فقدناه فبك، هل أوصيك بشيء؟
 هرَّ خالد رأسه.

- لا تنزل عن ظهرها حتى تحس بأننا قد أصبحنا فبك.

وعلى مدى أسبوعين، راح يحس بأن الحماية قد استعادت قوتها، دون أن يستطيع طرد ذلك الخوف الغامض الذي يراه مُغَيَّراً عليه، دائماً، دائماً، من الجهة المعاكسة لاندفاعه معها.

تذكر خالد ذلك اليوم البعيد الذي بدأت فيه علاقته مع الجبال والخيول (كان عمره حينها ثنائي سنوات، حين ركب بجلاً، وكان سعيداً بتلك التجربة الأولى على ظهر ذلك المخلوق الضخم.. كانت إطلالته الأولى على العالم المحيط من ارتفاع لم يعتد عليه من قبل، وبعد جولة طويلة على ظهر الجمل أراد النزول، ولكنه نسي الكلمة التي يجب أن تُقال للجمل كي يتوقف ويركع: (أخست). وبدلاً منها راح يردد: (جيث) فيواصل الجمل مسيره! حتى وصل به إلى قرية عجُور. وحين ازداد

إعياؤه ويأسه من المحاولات الفاشلة لإيقاظه، لم يجد حلاً في النهاية سوى القفز من فوقه غير عابٍ بالنتائج.)

ذات ليل ألقى بسرج الحماية بعيداً، وقد أحس أن لا شيء يجب أن يُفَصِّله عنها، هبط السفح، وصل إلى طرف السهل بعيداً عن بيوت القرية، نزع ثيابه، طواها بعناية، وضعها تحت جذع زيتونة، وقفز فوق ظهر الحماية.

ليلة بأكملها انطلقا معاً، لم يتوقفا فيها لحظة، حتى أحس بأن ثمة أجنحة قد نبث لها، وأنها يحلقان في السماء؛ لاحظ له الحيوط الأولى من الفجر، أثنى، ولكنه لم يعد يحس بجسده، لم يعد قادراً على معرفة حدود أعضائه، كأنها متصيّنين بعرقها، كما لو أنها ولدا كذلك منذ الأزل، وأدرك أنه وصل إلى ذلك الحد الذي أحس معه أن جسده قد نُسِّب واستقر عميقاً فيها، كما نُسِّب جسدها واستقر عميقاً فيه. عاد إلى جذع الزيتون، حيث ترك ثيابه، فأحس بأن عليه أن يبذل الكثير كي يستطيع الانفصال عنها.

هبط أخيراً. ارتدى ملابسه، كان هنالك شيء غريب يملؤه شيء لا يوصف. وحين راح يخطف عطلاته بجانبها، لاحظ مشيته، فأدرك أنه قد تحول إلى حصان.

عودة الهَيَّاب

اختفى الهَيَّاب طويلاً، وحين عاد، كان قد تغيَّر كل شيء فيه. استدعاء القاتمقام، قال له: الآن سنُكْمَل معروفنا. تعرف أننا نختار دائماً من التجار والوجهاء والمرابطين الذين نشق بهم، ليدخلوا في مزاد عام كل سنة، والذي يفوز يدفع لنا الضرائب المقرَّبة على أهل منطقته مُقَدَّماً، ثم نمدّه بالقوة اللازمة لتحصيل ما دفعه وما يجب أن يربحه بالطبع. هذا الموسم لن أفعل ذلك، سأترك نُحْصِل ما نستطيع دفعه لنا هذا العام، والعام المقبل أيضاً، أنا واثق من ذلك. كل ما نريده سيكون لديك، القوة التي نحتاجها وحايثنا، أما ما نريده منك فهو إذلالهم، أولئك الذين باتوا يتجراؤون على رفع أصواتهم مطالبين بالانفصال ومحرضين الناس على الدولة العَلِيَّة.

لا يستطيع الهَيَّاب أن ينسى تلك اللحظة،

فمنها أشرقت شمس حياته

وبات اسمه على كلِّ لسان.

كانت قاضات رجال الهادية كافة لأن يعرف الفرسان إلى أين يتوجهون. وكلما كانوا يقتربون أكثر كانت ألوانهم تعود إليهم.

ثمانية رجال على ظهور ثمانية خيول لا تحصى أصالتها، ليس هنالك بيننا فرس أو حصان يبيض الهامة.

وصلوا، تزلجوا عنها برشاقة فرسان بارعين، رنح الحاج محمود بهم، ومضى أكثر من فتي من أهالي القرية بالحيل نحو شجرة التوت.

أفرغ حدان ما في الدلال من قهوة، عند طرف حوش المضافة، وعاد لحظلات وتساعد صوت مهباشه.

في كل مرة كان حدان يتنكر لإيقاعا لدقات مهباشه، حتى ليكاد المرء أن يعرف من هو الضيف، وما هي مكانته، وإذا ما كان قادما في سبيل غاية نصح، أم حاملا أخبارا لا تشر.

في ذلك المساء أدرك الجميع أنه كان يودع شيئا عزيزا، وأنه يسوح بها في قلوب سكان الهادية. كان أول من أحس بذلك خالد، بدت دقات المهباش كما لو أنها وقع على ذابغة للمجهول، شيئا تنظر إليه، ولكنه رغم ذلك يتلاشى، فلا العين التي تحدق به قادرة على أن توقف اختفاءه، ولا الأيدي التي تحيط به قادرة على منعه من التسرب من بين أصابعها.

تذكر خالد امرأته. مرّت صورتها ببطء، خطفًا.

جلس الفرسان صامتين.

- ما بكم يا رجال، أرجو الله ألا يكون قد أصابكم مكروه أو حل بكم ظلم أو أصابكم دم.

هزّ أحدهم رأسه بحزن: أننا طارق بن الشيخ محمد السعادات، وهؤلاء أخوتي وأولاد عمي.

أهلا بكم في بيتكم.

- حيّاك الله يا ابن الكرام.

- ما تريدونه وصلكم، ما عليكم إلا أن تشيروا إلى مطلبكم. قال الحاج محمود.

رجال بعباءات مقصّبة

حملت الريح التي انطلقت من سوق الخميس أخبار الهامة، طافت بها البلاد كلها، وذات صبيحة توقّف رجل في ديار أصحابها، وحذّتهم عن أصيلة بيشاء وصلت قرية الهادية، وكيف خلّصوها من يد سارقها وأجاروها.

عند المساء وصل رجال بعباءات سود مقصّبة على ظهور خيولهم، أبصرهم رجال الهادية من بعيد. انتفض قلب خالد، أيقن أن ما كان يحسب حسابه قد جاء، اعتصر جبينه بأصابع يده اليسرى، التفّت إلى والده وقال: راحت الهامة.

- بل عادت لأصحابها. رد الحاج محمود، وقد ضيق ما بين حاجبيه، بحيث لم يعد أحد يعرف إن كان بهذا يحاول أن يراهم بصورة الفضل في البعيد، أم يرى شيئا غامضا قادما من السبيل.

أشار إلى عدد من رجال القرية، فهموا، انطلقوا لتحضير ما يليق برجال، لا بدّ أنهم بذلوا الكثير من أجل الوصول إلى أصيلتهم.

جنوح الشمس نحو المغرب، أعطى الشّهل كلّ لونا غريبا، فبدأ القادمون كما لو أنهم يرتدون ملابس لم يبر أحد من قبل ألوانها كالوانها، وتغيّرت ألوان الخيول، فكان بإمكان المرء أن يرى فرسا برتقالية، أو حصانا أخضر.

- بمحذّني قلبي، أن الهامة لم تكن إلا رسول صداقة، ولذلك سيبتلى لنا شيء منها مهما ابتعدت.

- ماذا لو كانوا أناسا غيرهم. قال خالد.

- أتريد أن تطمئنّ، أم تتمنّى ألا تنقدها. إذا كنت تخشى أن تنقدها، فالمرء لا يستطيع أن يلقّد شيئا هو في الأصل لغبر، ولا سوف يعذب نفسه مرتين، مرة ببجله ومرة بفقدان ما ليس له. وأضاف: خلّعها وأغفها وراء المضافة، ولنر ما سيحدث.

فجر اليوم التالي، استيقظ الحاج محمود، ألقى بأفضل سرج يملكه فوق ظهر الفرس، زينها بشرائط ملونة وأجراس فضية، ووضع قلادة من خرز أزرق فوق جبينها.

- لقد وصلنا عارية، ولا يجوز أن تعود إلى أهلها بأقل من هذا. قال لابته. وقالوا له عندما رأوها: لن ننسى ذلك يا حاج، فقد وصلت سبيبة، وهما أنت تبعدها لنا حرة مُعَزَّزة.

وقبل أن يتحركوا، خلَّع الحاج محمود عيافته وألقاها على ظهرها. كان ما فعله يتجاوز كل حدود الكرم، فأصاب ذلك أرواح الرجال برعشة لم تُخفيها ملامحهم، فما هو يُحْمِلُهُمْ دِينًا لا يستطيعون رده منها فعلوا.

حاول طارق بن الشيخ محمد السعادات العثور على شيء يقوله، حدَّق في وجه الحاج محمود، في وجه ولده؛ وبغرامة رجال يعرفون مكانة الخليل في نفوس الرجال، أدرك أن فرسهم قد أصابت قلب خالد، حين لح طيف الدمع بتقلُّب من عينيه.

- من يجير الخيل نجبره، ومن يعرف قدرها فهي فيه. تستودعكم الله، ولكننا بعونه لن نغيب طويلا.

لو كان باستطاعة خالد أن يركض خلفهم لفعل، ولكن ساقيه لم تكونا له ذلك الفجر، كانتا للغياب الذي هبَّ واعتطف جسده كله، وتركه خيالا لا غير، ريشة تعبت بها الريح أو قسَّة يملو بها الشيل.

أما الشيء الذي لم يكن يعرفه، فهو أن الحمامة التي لم تمتحهُ، ولو نظيرة واحدة، قبل أن تحفي معهم للبعيد، كانت تُشرع لأبامه القادمة كل الأبواب.

- ما نريده عزيزة غالية، فقدناها منذ أكثر من أربعة أسابيع ومن يومها ندور الأرض باحثين عنها. ما فقدناها أصيلة مخطوفة، قبل لنا أنها مرَّت من هنا!

أدرك الحاج محمود أن الذين يُعْمَرُونَ مضافة البلد بحضورهم هذا النساء رجال كبار في قوهم وفي أخلاقهم. تأمل قوهم (مرَّت من هنا) وكان يمكن أن يكون (إنها هنا)، وبذلك يتقلب الأمر.

- وما أوصافها؟ سأل الحاج محمود.

- بيضاء، لم تر العين مثلهما.

- إنها هنا.

لعب الفرح في أرواح الرجال، إلى ذلك الحد الذي بدوا فيه أقل رزانة مما هم عليه فعلا، وأسكت بعضهم بطرف عيافته يودُّ أن ينهض ليراهما. - اعلمتوا.

وصل حمدان بالقهوة، كان الحاج محمود يهيم بالوقوف، وقبل أن يفعل، رُئِيت طارق بن الشيخ محمد السعادات على فخذ الحاج وقال له: ساعنا يا حاج، لا نستطيع أن نشرب قهوتنا قبل أن نراها. هل هي بعيدة من هنا؟ - بإمكانها أن تسمعك.

عندما صاح طارق بقوة: يا فحمة.

وقبل أن يكررها راحت الحمامة تصهّل خلف المضافة استجابة لندائه.

نهض طارق من مكانه، وتوجّه نحو مصدر الصوت، دار حول المضافة حتى وجد نفسه معها وجها لوجه، أطلقت صهيلًا خافتا قادمًا من أعماقها، وهزّت عُرْيَها بفرح، اقترب منها. كان الجميع قد لحقوا به ليروا ما يحدث. أخذ وجهها بين راحتيه، أخفضت رأسها، هدأت ثَمَامًا، وأمام دهشة العيون المتطلّعة إليه اتحن أمامها حتى استوى على ركبتيه، أسك حافرهما الأول، رقبته برقت، وقد منحنه إياه، جثَّه يهدوء وأعادته إلى الأرض يهدوء أكثر، ثم أسك بحافرها الثاني، وقبَّله بالطريقة نفسها وهي تراقبه بانتفعال.

أمام ذلك الصمت الذي انتشر، أدرك خالد أن هناك من يجتأ أكثر منه، استعاد دقائق مهياش حمدان، فرأى الحمامة تختفي في الاتجاه الذي جاءت منه كما لو أن هناك غيمة وحيدة عجيبة تحاذي الأرض راحت تخفيها.

عند ذلك أنصت الخوري باهتافاً، فهو يعرف أن رجلاً كالذي أمامه لا يجوز بأي حال تجاوز رأيه وحكمته أيضاً.

- ما تدعوني إليه أنا مؤمن به أصلاً. قال الحاج، ولعل عدد الأنبياء الذين أؤمن بهم أكثر بكثير من أولئك الذين تؤمن بهم كمسيحي، وكما نلاحظ، نحن نُقيِّمُ حياة سنّا مريم، وسيدنا عيسى وموسى، كما نُقسم بحياة محمد. ولذلك أؤكد لك، مع أنك تعرف ذلك جيداً، أن ليس لنا خصومة مع أي نبي، ولا مع أي إنسان ما دمنا نلتقي في النهاية معاً على الإيمان بالله واحد. وصمت الحاج عمود قليلاً، غيَّرَ بصره البَرَّ حتى آخر المدى، ولم يكن قد عاد من ذلك البعيد حين قال: ثم لا ننس أن عيسى ابننا، وداثنا كان يقول في أبي: لو أنني بُكِّرْتُ قليلاً في المحيَّة إلى هذا العالم لرأيتُه وعشتُ زمانه... جثمت هنا أبانا، ومعكم بيتنا الدبر في المكان الذي اخترقوه، لم نعرض، ومن يومها ونحن نعتبركم مثل أهل البلد، لا فرق بيننا. ولم ننس أنكم ولقتم معنا ومددتم لنا يديكم في سنوات القحط، وثقتا بكم، ورحنا ندفع لكم عُشر محصولنا، وأكثر، مسلمين ومسيحيين، وهما نحن ندفع لكم وأنتم تدفعون وتسددون الضرائب عنا، وطوال العام لا نُفَصِّر في شيء، وكل غير يبرزقنا الله به يكون لكم نصيب فيه، وما تقدّمه العائلات المسيحية تقدّمه لكم كل عائلة، لأننا أبناء بلد واحد، ونحن لا نتذكر أننا مسلمون ومسيحيون إلا حين نذكرونا ونذكروهم بهذا.

ذات يوم قال خالد لأبيه: ولكن الشيء الذي لا أفهمه، لماذا ندفع للدبر ليقوم بتسديد الضرائب عنا.

- لأنه يعرف أكثر منا، ويستطيع أن يتصرّف هناك بصورة أفضل. فلو ذهبنا نحن، لنضاعف ما علينا ربحاً، وما أنت ترى، نحن نحاول الإنفلات من بين أنياب الأتراك بأي طريقة، حتى أن كثيرين منا لم يسجلوا الأرض بأسمائهم، لكن كل واحد فينا يعرف ما هي حدود أراضيهم تماماً، وليس هذا منذ اليوم، بل من أيام قديمة قديمة.

وصمت الحاج محمود ثم قال: كان أبي الحاج عمر - رحمه الله - يروي عن أبيه، أنه ذات يوم أشار عليه أصدقاؤه في (الرملة) أن يسجّل الأرض باسمه، لأن (الكوشان) حجة الخبيج في هذا، ولكنه كان يعرف أن وجود الكوشان كان يعني شيئاً واحداً، هو أن تدفع ضرائب أكثر.

على عتبة الدّير

منذ وصوله بنا جورجيو رجل دين محترم³، وهذا ما أكسبه احترام أهل القرية، والحاج محمود، شيخها، بشكل خاص. في المسامات كان يمكن أن يراها الناس منهمكين في أحاديث كثيرة على عتبة الدّير، أو في المضافة التي لم يكن الخوري يغيب عنها طويلاً.

البدليات حلت كثيراً من المشاكل التي لم تكن في الحسبان، وأوشك الأمر أن يتحول إلى كارثة حين هاجم عدد من رجال الحادية الميشر أنطونيوس، الذي لم يكن يجد فرصة متاحة إلا ويدسّ في جيوب الصغار كتباً من قصص الكتاب المقدس تتضمن أصول تعليم المسيحية بشكل مُبسّط، قائلاً لهم: من يحفظها مكافأته تنتظرو. متجاوزاً بذلك، الاتفاق الذي تمّ مع أهل القرية الذين قبلوا بإرسال أبنائهم إلى الدّير لتعلّم القراءة والكتابة بعيداً عن الدخول في مسائل الدين.

قال إن الخوري لم يكن على علم بالأمر، وإن ذلك كله تمّ بتحريض من الراهبتين سارة وميري اللتين تحلمان رأياً واحداً في هذه المسألة.

الحاج محمود والخوري جورجيو انتبذا مكاناً قصياً في طرف البلد، مكاناً عالياً يطلّ على سهلها الكبير. ولأن الخوري يدرك سبب المشكلة حاول أن يبدأ الحديث، إلا أن الحاج محمود قال له: سأريكم من شرح أي شيء، لأنني سأقول كلاماً قد يساعدنا في أن نضع حداً لأي سوء تفاهم يمكن أن يحدث.

³ - (كان أول بطريرق يوناني، تم تعيينه من قبل الباب العالي، في كنيسة القدس هو البطريرك جرماس 1934-1979) وأصبح تعيين البطريرك في القدس متوجهاً بسلاطين القسطنطينية الذين حلوا محل الأباطرة اليونانيين. وعهد البطريرك جرماس إلى تقوية جمعية القبر المقدس للمحافظة على المصالح اليونانية في بطريركية القدس، ولا سيما في الأماكن المقدسة، وانتهت سياسة قصد بها إقصاء العناصر العربية عن إدارة البطريركية وعن المناصب العليا. وقد بدأت العناصر العربية في الكنيسة الأرثوذكسية تطالب بحقوقها منذ القرن التاسع عشر.

فرد: أموذ بالله، وهل أنا مجنون، ثم إن هذه الأرض أرضي منذ جد جد جد جدي، والكل يعرف هذا.

فقالوا له: افرض، لا سمح الله، أن أحداً جاء وقال هذه الأرض هي أرضي، وإذا كنت تقول غير ذلك، فهات الكوشان!!

- من يستطيع أن يطلقني من امرأتي؟ صاح غاضباً، ثم استل سيفه ولوح به أمام وجوههم وهو في غاية الانفعال: سأقول لهم هذا هو الكوشان!!

المُحَرَّرَات

في بيت الحاج محمود، وقبله بيت أبيه الحاج عمر، كان الشيء الوحيد الذي لا يُسمح بأن يقع: إهانة امرأة أو إهانة فرس.

تتذكر منيرة تلك الأيام البعيدة حينما وصلت لهذا البيت، صغيرة كانت، في الرابعة عشرة من عمرها، ولفرط محبة للشيخ عمر، احتار أبوها، أي بنت من بناته يمكن أن تصلح لمحمود، كانت منيرة هي الأصغر، لكنها كانت الأجل، ولذا قرر في النهاية أن تكون هي العروس.

قالت زوجته: صحيح أن البنت ليست صغيرة، ولكنها الأصغر، فما الذي نقوله لأخواتها؟

- لقد فُكِّرْتُ كثيراً، وقلت لنفسي، إذا ما تصبَّحوا وفتسوا بوجه شبر كوجهها، فأنهم سيذكروننا بالخير دائماً، أما إذا كان الأمر غير هذا، فيقولون كلاماً مختلفاً. وما دام الإنسان قد قرر أن يُعطي، فلْيُعط أفضل ما لديه.

وذكرها أن الحاج عُتْر عاش أربعين عاماً مع امرأته، ولم يقبل بالزواج عليها، رغم أنها لم يبرزقا بأي ولد، وظل وفيها لها حتى ماتت، وبعد ذلك والحق على الزوج فرزقه الله محمود والأنيسة.

لم يكن الناس كلهم يتفكرون على هذا النحو، ولطالما حدثت مشكلات لا أول لها ولا آخر، حين فوجئ أهل العريس بعروس غير تلك التي رأوها، أو عقدوا زواج بدل، وفاجأهم الطرف الثاني بواحدة لم يتصوروا يوماً أنها ستكون زوجة لآبائهم. لكن الشيء الذي لا يمكن أن يُنكره أحد، أن منيرة كانت خفيفة ظل وهذا ما كان يزيدها جمالاً.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

في بدايات العشرينات من عمره، كان محمود، عندما تزوجاً، أما إذا سألتها عن نفسها فإنها ستقول: كنت جاهلة، ولم أكن أعرف شيئاً من عمل البيت أو سواء. حتى شعري، لم أكن أستطيع أن أمشطه، فكان يقول لي: تعالي. ويجلسني أمامه ويمشطه لي. لقد طَوَّلَ روحه كثيراً عليّ. كانت تقول دائماً لأولادها.

لكنها لم تزل تذكر بفخر كيف أن الشيخ الذي عقد قرانها جاء من القدس الشريف نفسها، وكيف اجتمع الرجال في بيت أبيها لعقد القران، وكيف راحت تتقافز فرحة خلف الجدران وهي تسمع استمها يتردد على لسان الشيخ ولسان أبيها ولسان عريسها.

(...) لقد أجرينا عقد الفتاة الحليّة من العيوب الشرعية، منيرة ابنة عبيد الرحمن على الرجل الرشيد السيد محمود عمر القاطن قرية الحادية على مهر قدره مائة وثمانون قرشاً، واصل الزوجة نقداً، وسوخر الصداق ثمانون قرشاً باقية في ذمة الزوج وقد صار العقد مستوعباً الأركان المعبرة شرعاً.)

ذات مرة قررت منيرة أن تصحب ربة بيت معها حدث، ولأنها لم تجد في البيت شيئاً غير (البامية) يمكن أن يطبخ في ذلك اليوم، فقد أعدت له طبقاً بامية. كان ذلك في واحد من أيام شهر رمضان.

قاطعها الحاج محمود: لا أعرف لماذا تُصرّين على أن تقول كل هذا الأسر بحق نفسك، في الوقت الذي عليك أن تسكتي، لأن أحداً لم يتحدث في هذا، ولن يتحدث.

فترد: حتى تتعلموا كيف يحترموا بنات الناس حينما يتزوجون. وحتى يعرفوا أنهم مهما صبروا على أخطاء زوجة من زوجاتهم، فإنهم لن يفعلوا جزءاً مما فعلته أنت.

- حين بدأ يتناول طعام الإفطار، رحّت أنظر في وجهه، لأعرف ماذا سيقول. لم يقل شيئاً. ورحت أكل معه، ومن اللقمة الأولى فهمت أن عليّ ألا أعبدها، ولكن الذي حيرني أنه لم يقل شيئاً، ولذلك سأله حين انتهى، كيف الطبخة؟ فقال: الحمد لله أفضل من هذا مسحبل. حلوا ما الأكل!! نقلت له: أحطلكت كيان!!

فقال: لا، يكفيني صحن واحد حتى أظن أنك هذه الطبخة وأحن إليها! ولكنني كنت أعرف أنها أكثر ملوحة من مياه البحر الميت التي يتحدثون عنها.

كان يصمت، ولا يقلل أن يتناول الطعام في بيت أخته، أو حتى عند أمه حتى لا يشعرها بشيء. وذات مرة زارني أمي، فطبخت لها. قلت: حتى تعرف أن ابنتها ست بيت! وما إن وضعت اللقمة الأولى في فمها حتى راحت تسألني: تطبخين لزوجك مثل هذا الطعام كل يوم!!؟

فأجبتها بفخر: طبعاً.

- وهل طبخك دائماً مثل هذه الطبخة!!

- طبعاً.

- وهل يأكله زوجك كل مرة!!

- طبعاً.

- ولا يقول شيئاً؟ أي شيء!!

- طبعاً.

عندها انقضت عليها صائحة: يا ويلي، زوجانها لتبكي وجهها، فإذا بها مصيبة. الله يعين زوجك عليك، الله يعينه. والله لو طلب مني أن أزوجه غيرك لزوجه، وطرقت الباب وخرجت.

ثم تصمت منيرة وهي تتطلع إلى زوجها: ولكن، الصحيح أنني حاولت. أم أحاول يا حاج!!

- يشهد الله أنك حاولت أكثر مما يجب!! وراح يضحك.

نظرت إليه منيرة معاتبة، لكن ضحكه لم يتوقف: هيك بذك تشمتهم في.

وبعد أن تلاشي صدى ضحكاته التي رجّت البيت، وراح يسمح دموعه قالت: الصحيح، كنت أسأل كل امرأة ألقاها لأتعلم. هل تستطيع أن تقول غير هذا الكلام؟ قل لهم. قل لأولادك هؤلاء.

وعاد يضحك.

ولكن، هنالك دائماً ما يقال.

فحين ولدت ابنتها الأولى، العزيزة، وجدت نفسها محارة، لا تعرف ما الذي يمكن أن تفعله، كانت ترى براز الصغيرة فتصيح: (تخ). وترفض أن تنظفه، فيأتي محمود، ينظف العزيزة، ويحتمها.

- الصحيح، العزيزة بنت أبوها أكثر ما هي بنتي. أنا أعترف!!

لكن الأمر لم يكن ينتهي عند هذا، فعندما تصحو الصغيرة في الليل وتطلق في البكاء، لم تكن منيرة تتحرك، يوقظها زوجها بصعوبة، ولكنها ترفض. تقول له: إنت دير بالك عليها، أنا ما بعرف.

فيصرخ: يا امرأة البنت تريد أن ترضع.

- وشو أصعل إلها.

- وضعيها.

- أنا نمسنة!!

- طيب! سأخذك إلى القدس يوم الجمعة.

- لا أريد.

- سأشتري لك ما تريدين من يافا.

- لا أريد.

- سأعطيك (بشلك).

- الصحيح: كنت أحب المصاري، وأفرح عندما أراها، لأن البيع والشراء في القرية كان معظمه ببادل الأشياء، تعطيني زيت أعطيك جبنة، تعطيني سُكَّر أعطيك بيض.

وتعود للنوم، في حين تواصل صغيرها البكاء، فيعود ويلكزها، منيرة، سأعطيك (بشلكين).

- موافقة!!

وعند ذلك تنهض، تتناول ابنتها من بين ذراعيه، وترضعها. وهكذا استمر الأمر حتى عجي خالده.

- يبكي الولد، فنسألني أمي التي جاءت لزيارتي: لماذا يبكي؟ فأقول لها: والله ما إن عارفة!! فتتاوله وهي تقول لي: يلعن أبو اللي كتب كتابك!!

ذات مرة أذكر أن ابنها مريض، لم يكن سواها في البيت، تَحْتَلِّه. أحسّت أنه أطول منها، كانت رجلاه توشكان أن تلامسا الأرض. دارت في البيت لا تعرف ما الذي عليها أن تفعله: في ذلك اليوم أحسّت بأنها أم للمرة الأولى، وبدأت تكي عليه.

تصمت منيرة، تحمّق في وجوه أبنائها وزوجها، ثم تقول: الصحيح! بَشَيْتْ، ولكنني كنت صغيرة. وألا لا يا حاج!!

مهرة من الصين

طوال ثلاث سنوات، تتنّع خالد أخبار الحماة، عاقت روحه الحيل، كما عاقت النساء منذ رحيل امرأته، حتى بات الحاج محمود على يدين من أنه فقد ولده.

.. ولم يسمعوا من أخبار أهل الحماة شيئاً، حتى نُحِلَّ إليهم أن الحماة لم تكن هنا ولا أصحابها، ولولا ذلك الضياع الذي استلَّ فتاهم من بين أيديهم، لأكدوا، أن ما مرَّ حلم، عاشوه كلهم، وعاشته قرى حصدتهم، كما يستعيدون اليوم شتاء بعيداً لم يتكرر أو عرساً لم يروا مثله أو فقداناً.

لم يعد خالد يتكلم سوى أقل الكلام، وغالباً ما يكون ذلك مع أمه، كان يدرك أن صمته أمامها يعني لها أمراً واحداً: موتها. موتها في الحياة.

ذيل، يدت قاتنه أقصر، اختلى ذلك البريق العشي من عينيه، وبدأ صلوه أضيئ بكثير وكثفاء، وانكمش وجهه المستدير وانطفأ كسحابة صيف، إلى ذلك الحد الذي دفع منيرة لأن تفرج الصحن ثانية، وتعملها إلى أي مكان تتوقع أن يجلس فيه. حاملة بذلك اليوم الذي تسمع فيه تناثر حطام أغل محتلكها.

رجلاً ملتفاً على نفسه كان، رجلاً مجذولاً يحاول منع أي صوت للآلَم الذي يمتصره من الوصول للخارج.

لم يكن يكذب على نفسه، فكل شيء واضح كالشمس، كامتداد السهل الذي اختصر وأصغر ثلاث دورات، وأحرقته الشمس وأفرقه المطر ثلاث دورات، وامتلاً بالزآرعين والحاصدين ثلاث دورات وامتلاً بفنائهم وصدى ضحكاتهم حول البادر، امتلاً بالطعام وضيح السوق منه مرة.

فتنَّ الحاج محمود عن مهرة تشبه الحماة، لم يجده، أوصى كل رجل غادر الحادية أن يعود إذا ما رأى في أي مكان فرساً مثلها.

كان على استعداد لأن يفعل كل شيء كي يُعيد الحضرة إلى قلب ولده.

لكن ذلك كان مستحيلاً.

لا حمامة مثل الحمامة، كما لا هادبة مثل الهادبة، أو أمًا مثل الأم أو أبا مثل الأب.

ذات ليلة ألقى الحاج محمود رأسه لينام، حاولت امرأته أن تحدثه، قاطعها بالناس: لا تقولي شيئاً. لو كان باستطاعتي أن أحضر له شهرةً مثلها من أرض الصين للعبت. إنه يطلب مستحيلاً، إنه يريد ما هي، لا غيرها. أما الذين ذهبوا بها فكانهم ظلموا يسرون ويسرون منذ ثلاث سنوات دون أن يفكروا، ولو مرةً، بأن ينظروا وراءهم.

ذات فجر، أشرق خالد عينيه. عاد فأغلقها. لقد أبصر الحمامة أمامه، تماماً كما بدت له في ذلك الليل البعيد، قمرًا مضئاً، أيقن أنه في الطريق لكي يَفْقِد عقله، استدار إلى الجهة الأخرى، متوشِّحاً ذراعه الأيمن.

نداءً غامض جعله يستدير ثانية، إلا أنه لم يجرؤ على فتح عينيه، وحين أدرك أنه لن يفسر أكثر مما حسره لو أنه فتحها، راح يُسِر عليها ببطء شديد. كانت الحمامة هنالك لم تزل. أغمضها. وقبل أن يستدير كان يسمع حمة البقرة، ومعها، أدرك أنه لا يعلم، أنه لا يتوهم، لكنه لم يجرؤ على أن يفتقر فرحاً، لأن قفزةً بحجم أسواقه لن تعيده للأرض ثانية. تشبَّت بغطائه، بالقراش، بتراب الحوش، تشبَّت بجسده خالقاً من أن يُعثره المفاجأة. ويهدوء نهض.

حين أيقن أنه قد بات واقفاً على قدميه، أدرك أنه لا يعلم وأن ما يراه حقيقة. اقترب من القُرس، لم تراجع، كان رسماً مزينا وأطراف سرجها، وعلى ظهرها عباءة بيضاء تلتصق في العتمة خيطان قضيها. ولم يكن هناك أحد.

كان الأمر يبدو كما لو أن القُرس كانت تعدو في الفضاء فلم يبق أحد على وقع أقدامها.

خائفاً يملؤه الشك بعينه وبمقله، خطا نحوها، مُشرعاً كفيه، احتضن فكَّها، ثم راح إيهاماً بصعدان نحو جبينها.

لم تتحرك.

إنها الحمامة إذن. إنها تعود.

ملأه الخوف ثانية: أن تعود وحدها، فإن ذلك يعني أن هنالك من سيأتي بأحسأ عنها؛ ثم كيف تعود فرس بعد ثلاث سنوات! لو كانت تريد العودة لمعادت بعد يومين، أسبوع، شهر، أما بعد ثلاث سنوات فهذا أمر مستحيل.

طمأنه وجود العبادة، الرِّبّة. لا تخرج أصيلةً من بيت أهلها على هذا النحو إن لم يكونوا قد باركوا طريقها الجديد وحياتها القادمة خارج عتاجهم.

فكر أن يدخل، أن يوقظ أباه، أمه، أن يصيح فيوقف القرية، لكنه خاف إذا ما فعل ذلك أن يعود فلا يجدها، أو يغيبها بهذا فتختفي فجأة كما ظهرت.

واقفاً في مكانه ظل، وبداهة تحتضنان وجهها إلى أن سمع أذان الفجر يتطلق، وصوت الشيخ حسني يملأ المدى.

لم تكن دهشة الحاج محمود أقل من دهشة خالد، حين وقف على بوابة البيت، وفي غيبش العتمة، رأى عيني ولده تلتصقان، رأى الحياة إليها تعود، رأى خضرتها، اقترب منه. حدّق فيها، استدار حولها، قال له: فرس كهذه تستحق أن ينتظرها الإنسان كل هذا الوقت. وبعد صمت قال له: سئسلي هنا، معاً، قُرْبها، قُرْب معجزة الله هذه.

توضاً أولاً، ثم توضاً ولده، خرجت متيرة، فوجشت بها فوجشاً به. ألم الحاج محمود فيها، وفي نهاية صلاته راح يدعو الله أَيْسلاً برحمته وبرعايته لولده ولهذا القُرس: اللهم اجمعها، أنت خالقها وملائمتها في الدنيا والآخرة.

عندما أنهى الصلاة نظر إلى ولده: لن أوصيك بها، فأنت تعرف ما يتوجب عليك. لقد جاءت إليك حُرّة هذه المرة وعبرت عباتنا حُرّة، فلنتمش حُرّة دائماً كما جاءت. ثم عاد لصعته من جديد، وبعد وقت طويل من تأمله الحمامة قال: وتذكّر أن من تعرفه الحبل لن يجهله الناس.

ظل وصول الحمامة لغزاً محمّراً، لكن ذلك لم يمنع أهل الهادبة من استعادة فرحهم القديم، وكان بإمكان أهل القرى القريبة مثل زكريا وعجسور وعراق سويدان والربيع والسبية وقطرة والمغار وسواها أن يلتفتوا ما يجمله الليل ثم من غناء راح يغمر صدر الحاج محمود ويفيض وهو ينشد:

شمس في الدار

طلتها خديّة

ضُجُجَ أَوْ ظَهَرَ أَوْ بَعْدَ الْعِشِيِّ
 شَيْسٌ فِي الْقَلْبِ
 فِي صَدْرِي وَصَدْرِكَ
 وَتَحْفَنُ نُورَهَا إِيذَكَ وَإِيَدِي
 شَمْسٌ مَشْيَى وَتُرْكُضُ فِي الْبَرَارِي
 تَلَوُّعٌ هَاشِقٌ وَتَفْنِينٌ ضَبَّةٌ
 شَمْسٌ مَا مَسَّهَا لَيْلٌ أَيْجَنَّا
 وَسَكَنَتْ دَارَنَا وَصَرْنَا أَهْلَهَا
 وَصَارَتْ أَهْلُنَا يَا أَهْلَ الْبَرَّةِ

بعد يومين قالت له أمه: أوليس لي في الحمامة حُصَّةٌ؟؟
 - حَصَّتِكَ كبيرة، فأنت تعرفين أن روحي فيها.
 قالت له: اتركنا وحدنا إذن، في معناها كلام!!

خرج، كان بوهه أن يسمع ما سئره به أمه للحمامة، لكنه أدرك أن لا يجوز له
 التطفل على أمر يتعلق بأصليتين.
 اقتربت منيرة من الحمامة، رُبَّتْ على عنقها، كانت قد سَلَقَتْ كمية من القمح
 ورُبَّتْ عليها شُكْرًا. ويديها راحت تُطْعِمُهَا، وحينما انتهت من ذلك، ممست لها:
 ديري بالك على ولدي. هو أمانة عندك، وأنتو الاثنين أمانة عند الله. وتعيد: ديري
 بالك على ولدي. هو أمانة عندك، وأنتو الاثنين أمانة عند الله.

مفاوضات طويلة!

يتذكر الخوري جورجيو ذلك اليوم الشتائي البارد الذي وافق فيه أهل القرية له
 على أن يقوم بتدريس أبنائهم في الدير، كانت المفاوضات طويلة، ولم يكن السبب
 أنهم سيذهبون للتعلم في الدير، بل لأن أهل الأطفال كانوا بحاجة إليهم في
 الحقول، وهذا ما كان يراعيه الشيخ حسني حين يقوم بتدريسهم.
 دخول الشتاء مبكرًا ذلك العام حسَّ الأمر، ورأى الخوري في هذا علامة مهمة
 على أن الساء تدخلت لصالحه في اللحظة المناسبة.

حين جمع الأولاد والبنات في القاعة الخلفية للكنيسة، كانوا يرتحفون، النار
 مشتعلة خلفه في الزاوية المخصصة لها، وقد كان ذلك كفيلاً بالإنارة. صحيح أن
 بعضهم سبق له وأن رأى الدخان يتصاعد من جوف ذلك العمود الحجري العالي،
 كما يتصاعد الدخان أمام العتبات إذ يوقدون نار الكواثرين قبل أن يدخلوها، أو من
 طوابيقهم ومواقف النار التي يشعلونها لتسخين المياه، أو من أي فتحة يمرُّ عبرها
 دخان (وجاق) لا تغلق منه كثير من بيوتهم، إلا أن مجرد مشاهدتهم لتلك النار من
 قرب بثَّ فيهم تداءً مجاورها.

قَبِلَ الخوري جورجيو بالشرط الذي وضعه الحاج محمود: يتعلم الأولاد القراءة
 والكتابة، وإذا أراد أولاد العائلات المسيحية أن يحضروا دروس الدين فلهم ذلك.
 أول شيء طلبه أنطونيوس بعد دخول الأولاد، وقبل وصول الأب جورجيو، هو
 الصمت، فالدير له حرمة كالمسجد تمامًا، وحين صمتوا فجأة، وقد أحسوا أن هذا
 البيت هو بيت الله مثل المسجد الذي يدعونه كذلك، اختفى قليلاً في إحدى الزوايا
 المعتمنة وحين أطل من جديد كما لو أنه يفرج من الجدار، شهقوا: قلل يسير إلى أن
 امتدَّتْ يده بعلبة داتكة نحوهم، لم يميزوا لونها تمامًا، لم تكن خضراء زيتونية ولا

تربية، لكنهم أبصروا تلك المساحات المتعرجة فوقها والتي لم يكن يلزمهم الكثير من الذكاء كي يعرفوا أنها كتابة.

أمام دةشة الضبيّة، رفع أنطونيوس إنجيله وقال: من يفهم هذا جيداً، يكون له هذا دائماً! وامتدّت يده إلى العلبة، فتحها، وأخرج مكعبات مستطيلة بدأ بتوزيعها على الأولاد الذين راحت أيديهم وأصواتهم تنثر القوضى. لقد نسوا تماماً أنهم في واحد من بيوت الله. كما نسي أنطونيوس أنه طلب منهم الصمت قبل قليل.

كانت ألواح الشوكلاتة من ماركة (نستله)، لا تشبه في شيء طعم (الحلقوم) و (الملبس بقضامة) أو (الحامض حلو) أو (النعناع) الذي يشترونه من دكان أبو ربحي القريب أو يحضره لهم أهلهم من القدس أو من مدن الساحل. بعضهم أكل ما في يده وأمضى بقية الوقت يلحس شفتيه ويمصمص رؤوس أصابعه التي أسكت قطعة الشوكلاتة! وحين أدركوا أن أصابعهم لم تعد تحمل أي أثر لطعمها انتقلوا للأصابع الأخرى التي قد تكون التفتت بعض الرائحة الشهية! وعندما رفع أنطونيوس الكتاب من جديده يشير إلى النعيم الذي ينتظر البشر إذا ما اتبعوا تعاليم الله، كانت عيون الأطفال تتابع الصندوق في يده وهم يشاءلون: إن كان ثمة شيء قد يتقى فيه.

عاد أنطونيوس للعتمة من جديد، إلى تلك النقطة الداكنة التي خرج منها، وعندما عاد، لم تكن تلك العلبة السحرية في يده، التفت إلى الأولاد وقد أدرك حجم تلعفهم وانبهارهم بما تذوقوه. دخل الخوري جورجيو أخيراً، قال: المبحيون في جهة، والمسلمون يجلسون في جهة أخرى. نظروا الأولاد بعضهم إلى، كما لو أنهم لم يفهموا السؤال، وحين نبض أحدهم وتوجه هناك إلى جانب النار وتبعه آخر، سأله خالد الحاج عمود: أولئك الذين بجانب النار مسيحيون أم مسلمون، فقال أنطونيوس: مسيحيون. ليس كذلك؟!

هز الأولاد الذين أصبحوا بجانب النار رؤوسهم موافقين. فقال خالد: وأنا مسيحي أيضاً. وما هي إلا لحظات حتى كان الأولاد كلهم هناك إلى جانب النار.

دم وخنجر

ليس ثمة سر كبير كهذا يمكن أن يخفي، طار غير تعينه ليعبر حقول وبيارات وكروم المنطقة كلها، طاراً الأبواب بعنف.

متوسط القامة كان، لكن سقوطه كانت توحى لأهل تلك التلال، وحيناً رأوه، جالساً أو راكباً، أنه لم يزل فوق حصانه.

دائماً كان غامضاً، وحاداً كنصل خنجره الذي لا يفارق حزامه.

في الشاحنة الكبرى التي انتصبت فيها الخيام جمع رجال قرى المنطقة وطلب منهم أن يدفعوا ما عليهم من أموال له.

- أية أموال هذه التي تدفعها لك؟ قال أحد الرجال.

نبض الهباب عن كرسية الأسود المحاط بزئار ذهبي، كرسية الذي أحضره من يافا خصيصاً لهذه المناسبة، وجده سار نحو ذلك الرجل. توقفت أمامه، وفي لحظة خاطفة لم يترك فيها أحد ما يدور، كان خنجره ينفص صاعداً نحو المنطقة العليا من بطن الرجل باتجاه قلبه ويستقر هناك. وحين تأكد له أن الجميع يرون ما يحدث جيداً، أدار النصل في صدر الرجل دورتين قبل أن يستعيده.

لم يكن ثمة دم كثير يغطي النصل حين قال (الخوف هو الذي قتله)، فلذعب قوله مثلاً، وقبل أن يسقط الرجل الذي بدا وكأنه غير جازم للموت في تلك اللحظة، مرّ الهباب طرفي خنجره على كتف الضحية فالتصم الدم واضحاً على طرف الكوفية البيضاء المسدلة.

دفع القامة المنعجة، سقطت.

كان ذلك كافياً لكي يجعل القرى المنتشرة في ذلك المدى تنصاع.

عشق الإمبراطورية

لم يخل الأمر من مشكلات كثيرة حدثت بعد ذلك، لكن الشيء المؤكد أن المحوري جورجيو قد أبقن أخيراً أن ما يمكن أن يحققه من وجوده هنا هو ذلك (العُشْر) الذي يتصرّف به على هواه، وسلال الفاكهة والخضار وجرار الحليب والألبان التي لا تنقطع عن الذّير في أيّ من مواسمها، ولذا، حين كان يدعو الله برجوه مطراً وخيراً بعمّ البلاد كان صادقاً تماماً، فقد كان يعرف أن وجود الذّير في القرية الأكثر خصبا، نعمة من الله لا يمكن أن يتصورها سوى ذلك الذي فتح بها.

يوماً بعد يوم، كانت سلطة الحُباب تتضاعف، إلا أن الحاج محمود رفض أن يكون ضمن القرى الخاضعة لنفوذه، ولم يكن ذلك بسبب الذّير وحده، بل، أيضاً، بسبب ذلك الاحترام الذي يتمتع به الحاج محمود ومن قبله والده الحاج عُمر، إلا أن كل شيء بدأ يتأرجح حين راحت الإمبراطورية العثمانية تتأرجح وبدأت مستعدة لأن تفعل أيّ شيء مقابل الحصول على المال والرجال كمجندين، فاطمئن مأمورو الضرائب على القرى من جميع الاتجاهات. وسأت على الناس أن يدفعوا الضرائب لا عن محصولهم وحده، بل عن رؤوس خيلهم وأغناسهم وبناتهم، ووصل الأمر إلى أن يدفعوا الضرائب عن كل رأس آدمي، ولن يتأخر الوقت الذي سيبدأون فيه دفع ضريبة (الثانية) عن كل من يضع على رأسه غطاء من القماش كالكوفية والعمامة والطربوش!!

يوم حدان

لم ينجف على أحد أن الحمامة التي جاءت غير تلك التي ذهبت، أما الذين يعرفون الخيل فقد كانوا على يقين من أن اللهرة قد أنهت عامها الثاني. وأنها لا بد أبنة (فقتة).

لكن الذي لم يكن يتوقعه أحد، هو أن وصول الحمامة كان بمثابة السطر الأول في حياة خالد الجديدة، فما سيخطه صهيلاً من بهجة على سفوح الهادية وسهوها، سيتعدى ذلك إلى ما هو أبعد بكثير.

بعد ثلاثة أيام وصلوا.

ثلاثة رجال، على رأسهم طارق بن محمد السعادات، هبّ أهل القرية كلهم لاستقبالهم، وحين راح الحاج محمود يجنّسهم، كان يُعطي ذلك، حتى ظلّ أهل البلد أنه لن يتركهم، وبخاصة طارق، ذلك الشاب التحيل الطويل ذو العينين البرّاقتين والوجه النضر ككأس ماء.

دلّق حدان ما في الدّلال من قهوة، كعادته، رغم أن أحداً لم يذقها بعد، وراح يظن قهوة جديدة.

الذين سمعوا دقات مهياشه ذلك اليوم، أكدوا أنهم لم يسمعوا مثلها من قبل، كان فرحاً إلى ذلك الحد الذي راح يدور فيه حول الهياش، كما لو أنه في حلقة من حلقات الدّكر، وبين فينة وأخرى كانوا يرونه يقفز في الهواء صائماً من وقع جسده المُخلّق لحظة صمت لا بدّ منها لاكتئال الإيقاع، ثم يجتحم تحليقه بوقع ملاسة قدميه للأرض. كانت واحدة من المرات النادرة، حتى أن أنظار الجميع راحت تنجّه إليه دون أن ينتبه.

فاحت رائحة القهوة تملأ المكان، طاقّت في حوش المضافة، حُلّقت داخلها، ثم مضت أثيرة نحو السهل، عابرة حقول القمح والذرة والسمسم وكروم الزيتون.

شربوا القهوة أخيراً، تداخلت الأحاديثُ، وفجأةً قال الحاج محمود: ولكن لي سؤال.

- تفضل يا حاج.

- لماذا أوصلتموها، وغادرتن.

- لشيء بسيط. كنا لا نريد أن نُفسد لحظة لقاء فتاكم بها.

هزّ الحاج محمود رأسه، في حين تبادل طارق وخالد نظرات صافية.

بعد الظهيرة ودّعوا الهادية، وقبل أن يتعمدوا، استدار طارق بفرسه ثم عاد، ظلّ يسير إلى أن وصلَ حيث يقف خالد، ولم يكن عليه أن ينحني كثيراً وهو يمسس في أذنه: إنها المرة الأولى التي تخرج فيها فرس من بنات (فَصّة) خارج حدود أهلها، صُنّها تَصْنُكَ، وزَعَهَا يرفق تكن جِصْكَ. هذه وصيتي والله بمحبيها.

تجمّع الأولاد على أطراف المضافة مُصَغِّقِينَ، في حين كان الصغير (راشد) أكثر الأطفال انبهاراً به، وهو يراقب المشهد بعينيه المأخوذتين صامتاً، وعندما انتقل حمدان للجزء الثاني من تحضيره القهوة كان كل ما فيه يتسهم، عيناه، يدها، وساقه التي تمرج.

وأخيراً، نهض من جانب النار حاملاً الدلّة والفناجين إلى داخل المضافة يتبعه الصغار الذين توقفوا بعداً عن الباب.

تناول خالد الدلّة، صبّ القهوة في الفنجان، طرق الفنجان بالمصب، مدّ يده بالفنجان إلى الحاج محمود، أمسك به، امتدت يده نحو طارق، وعند ذلك حدث ما لم يكن في الحسبان.

- لنا عندكم طلب، نشرب القهوة بعد أن نعدوننا به. قال طارق ذلك وهو يُحدّق في عيني الحاج.

- لو طلبتم أرواحنا فإن ذلك ليس بكثير.

- يا حاج، أنت تعرف أن خيولنا مثل أهلنا، وتعرف أن ما بيننا وبينكم اليوم شيء جليل.

هزّ الحاج محمود رأسه بتأثر: كل ما تريدونه بتحقيق بإذن الله.

- أن تكونوا ضيوفنا في مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل.

- أنتم تغمروننا بكرم نخشى أننا لن نستطيع أن نرده طوال عمرنا. قال الحاج محمود.

- تَرُدُّونَه بقبولكم أن تكونوا ضيوفنا، ومهما فعلنا، فلن ننسى أنكم أنتم الذين أكرمتمونا يوم أكرمتم أصلتنا.

- الأسبوع المقبل تكون عندكم إن شاء الله. اشربوا قهوتكم.

- ولكن لنا طلباً آخر.

- المهرة الأولى من بطن الحماة لكم، هذا هو طلبكم الثاني.

- صدقت يا حاج. لكنك تعرف أن المهرة الأصلية لا يقربها سوى فحل أصيل،

وذلك الفحل الذي من سلالتها في ديارنا، فإذا ما أصيحت (حابل) فاحضروا أن يقربها أي حصان. ما عليكم إلا أن تأتونا في ذلك الوقت ضيوفاً معزّزين مكرّمين.

- وصلتم. ونرجو الله أن يُلهمنا دائباً ما علينا أن نؤديه من واجب سواء

للخيول أو أهل الأصول.

كان خوفهم منه قد جعلهم يتشارون الفرس الأفضل لديهم، الفرس التي تستحمل العروس، زوّجوها كما لو أنهم هم من اختاروا زوج ابنتهم.

نظر إلى رسن الفرس، فهموا، لم يكن يريد أن ينحني ليتناوله، اتدفع أحدهم، ناوله إياه، أمسك بالرسن واستدار قاصدا التلال، وبعد نصف ساعة من السير في طريق محيط به كروم الزيتون انعطفت فجأة صاعدا السطح الوعر. الشمس توشك أن تحاذيه تماما من جهة اليسار، كروم العنب تمتد إلى آخر البصر، وثغاء أغنام يأتي من البعيد. لكنّها لم تسمع شيئا من ذلك أو تروى. كانت تنظر إليه كخيط غليظ يربطها بقدر غامض يُفضي بها إلى هوة لا قاع لها.

حين تمثّر حصانه تبيّنت كل حواسها دفعة واحدة، وقبل أن تُدرك طبيعة الإحساس الذي انتابها سمعته يقول: واحد!! كان الطريق صاعداً، ضيقاً، وبصوبة كان حصانه، كفرسها، يحاول العثور على المساحة الصغيرة الكافية التي يمكن أن يضع قدمه فوقها باطمئنان. فكّرت في معنى لما سمعته. لم تصل لشيء.

عثره أخرى أوشكت أن تُفقد الحصان توازنه، جعلته يلعبن سلاطة الخيل. راحت العروس ترتقب اللحظة التالية خائفة، وبعد عشرة أمتار سمعته يقول من بين أسنانه بنقاد صبر واضح: ثان!! وحكيّ إليها أن الأرض قد توقفت عن الدوران، حين أحسّت أن مصيبتها هنالك أمامها تنتظر.

بعد تجاوزه لقمة التلّ ألقى نظرة باتجاه الغرب، فرأى البحر أزرق واضحاً، تمتد بلا نهاية قرية مئات السيارات. وفي الجهة المقابلة، بعيداً، لم يكن بيته قد لاح. كان الانحدار سهلاً، ولا يتنرّ يخوف، وبدت العروس راضية بهذا الانسياب لحصانه وفرسها، لكن ذلك كله تغيّر فجأة.

كانت نظراتها مثبتة بخطوات الحصان، وكما لو أن الحصان تعثر بنظرها، شاهدت قدّمه اليميني تنثني، وتبعها اليسرى، ويكاد وجهه يلامس الأرض. تدارك الحصان عثره، لكن شيئاً ما قد تغيّر في مشيته.

ثُلثُ الحياة!

صرخ الجباب، التمتع عيناه، نفث ملأه وتلاشى ضمور غذبه تحت اللحية السوداء الموشاة بشعيرات بيضاء لا تكاد تُلاحظ. - للمرة الأخيرة أقول لك قُتّي عن الكياء.

دوى الصوت قوياً بين الجبال، لكن ردّ الطيور الذي يستجيب بفرح في المياه المتجمّعة حول حافة البئر لم يُعزّ صرخته انتباهها. شيء ما دفع العروس لأن تكتم أنفاسها، وقد أيقنت أنها قد أصبحت بلا أهل منذ أن استلّها من بين أيديهم رغماً عنهم.

دار حول بيتها دورتين، وحده، وكان باستطاعة الجميع أن يُبصروا عاصفة الغبار الداكنة التي أحاطت بالنزل حتى كادت تحجب. منذ يومين أبصرها، ومنذ يومين قال لهم: أريدّها جاهزة ضحى الخميس.

وصلّ، مُطلقاً العنان لحصانه، وحين طلبوا منه أن يدخل البيت، قال لهم: لم أت للزيارة، وواصل دوراته. ولم يتوقف إلا حين بدا له أن كل ترتيبات الزواج قد تمت. كانت بدا الشيخ الذي جاء لعقد القران ترغيفان كلياً وجه سؤالاً جديداً للهبّاب الذي لم يترجل عن حصانه في لحظة كذلك.

لا شك أنهم قوجتوا، كانوا يتوقعون وصوله مع عدد من رجاله، لكنه لم يفعل؛ ربما إيمعانا في إهانتهم.

حين أبصرها فوق الفرس التي ستحملها، تقدّم نحوها، رفع غطاء وجهها، كانت تبكي، ولكن جريان الدمع لم يمنعه من أن يرى ذلك السحر العجيب، لقد أيقن أنه لم يخطئ. كانت أجمل فتاة تقع عيناه عليها. أسدل الغطاء..

كان الصمت الذي ازداد ثقلاً كافياً ليجملها تلاحظ وتحسب بها لم تلاحظه أو تحس به في أي يوم من أيام حياتها.
وسمعتة أخيراً يقول: ثلاثة!!

في الوقت الذي امتدَّت يده إلى خصره، أخرج مسدسه، توقفت الحصان وقد أحس بشيء غريب يحدث، حاذته العروس بفرسها، وقد ترك لها الفرصة، عامداً، لكي تفعل ذلك، كان المسدس يتجه ببطء نحو رأس الحصان ليستقر بارداً بين أذنيه، وقبل أن تُقذّر العروس ما يمكن أن تحمله اللحظة التالية، سمعت انفجاراً صوت الرصاصة مدوّياً.

مثل حجر سقط الحصان في مكانه، ولم يجد الهَيَّاب صعوبة في أن يترجل عنه في اللحظة المناسبة. في حين راحت دوائر الصدى تنتشر، وظل يستمع إليها إلى أن تلاشت تماماً.

عمّ الصمت مرة أخرى، وبدت الطريق أكثر طولاً مع هذه الفرس التي باتت تحملها معاً.

كانت حنجرة العروس تشقق خوفاً وعطشاً. وحين مرّت قرب بئر جبلية ورأت الماء يلعب في الخوض الحجري، لم تستطع مقاومة ذلك، قالت: عطشٌ.

استدار برأسه نحوها، التذمت عيناها القابعتان تحت حاجبين أسودين كثيفين، تراجعت بوجهها بعيداً وقد رأت غيب النار يمسور في عينيه، وسمعتة يقول: واحداً!!

وعندها أدركت أن ثلاث حياتها قد مضى إلى غير رجعة.

عودة العربية السوداء

لم يتطّل وجود الخوري جورجيو، فالعربة السوداء التي يجرها حصانان أسودان، العربية السوداء نفسها التي أثبت به ذات يوم، توقفت ثانية أمام باب الدّير. ومن جوفها خرج الخوري الجديد ليودّوس.

لم يكن الأمر مفاجئاً بالنسبة للأب جورجيو، لكنه رغم ذلك لم يغير أحداً من القرية أنه بسيط، حتى الحاج محمود فوجئ بالأمر. كان قد جهّز حقيبة وصندوقه الخشبي الكبير، واكتفى بمصافحة القادم الجديد على بوابة الدّير، كما لو أنه لا يريد أن يجمعها مكان واحد.

راحت العربة تسير، والناس يتابعونها بأعينهم، وعندما بلغت الطرف الشرقي من سهل الهادئة، بدأ الفجار، ثم بدأ تلالاً، فأصبح بإمكان الكثيرين أن يروا العربة التي توقفت. ساد صمت ثقيل، ظلّ معه البعض أن العربة ستظل عاتدة. لكن ذلك لم يحدث. ومع استمرار وقوفها، فكّر أكثر من رجل أن يستطي حصانه للذهاب إلى هناك ومعرفته ما يدور. وبينما هم في حيرتهم، رأوا باب العربة يُفتح، وترجل منها الأب جورجيو. استدار نحو القرية، يتأملها من بعيد، يتأمل امتداد السهل وزيوتونه، وصعود البيوت خفيفة بانحاء قمة التل.

كان يودّع جزءاً عزيزاً من حياته، وتساءل: أكان يجب عليّ أن أهاجرها حتى أراها من هنا. (هادئة) أخرى؟

زمن طويل مرّ على وقوفه، وعندما صعد العربة من جديد واختفى في جوفها، لم يبق في البعيد سوى تلك السحابة من الفجار واندفاعها المتصاعد صوب المجهول.

أن يصل بحصانه الجديد (شَدَاد) إلى الحماة، معناه أن يحوز شهادة سيمضي
لفخورا بها بين القرى، وسيكون بإمكانه أن يتوقف أمام أي فرس أخرى دون
اكتراث، وهو يفاخر: لقد وافقوا لهذا الفحل أن (يسب) على الحماة!
ورغم أنه يعرف أن حُلْمًا بحجم هذا الخلم لن يتحقق، فإنه عاش على أمل
تحقيقه. وكان على الدوام مستعداً لأن يدفع من جيبه للوصول إلى هذه الغاية
الكبرى، أما حصانه فلم يكن أقل تلهفاً.

كان اليرمكي يدرك المكانة التي تحتلها الحماة في بيت الحاج محمود، صحيح أن
اسم المهرة بات مقترناً باسم خالد وحده، لكنهم كانوا يتعاملون معها كواحدة من
بناتهم، أكثر مما يتعاملون معها كواحدة من خيولهم، وهم لديهم الخضراء، وريح،
والجليلة.

في ذلك اليوم مرّ بقرىها، أحس بها وقد تحولت إلى فرس، أحسّ بذلك الشُّبُّ
يعرق دمها ويحوّنها إلى شعلة نار. وعندها خطرَتْ بباله فكرة أن يعرض على الحاج
عمود أو خالد، وهو يجلس في الضافة معها، تقديم خدمات حصاته بلا مقابل.
لكنه لم يجرؤ على هذا.

وحسناً فعل، وإلا لكانوا اعتبروا الأمر إهانة كبرى لهم شخصياً.

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

أحلام اليرمكي

منذ ظهور الحماة في الهادية، جُنَّ اليرمكي، حتى قيل إنه لم يعد يفاخر حدود
الهادية إلا قليلاً.

واحداً من رجالها الأكثر شهرة كان، أما رزقه فيأتيه من مصدر واحد، هو
تلقح حصانه لأفراس الناس؛ ولأنه حصان معروف بأصاته، وغالباً ما تكون مثل
هذه الفحول معروفة الأصول، فإن مردود عمله كان جيداً باستمرار.

كل رجل من هؤلاء، الذين يستهنون هذا العمل، كان يُسمى اليرمكي، وكان
أسماءهم تتلأح بمجرد أن يتخذوا هذه المهنة وسيلة رزق. أما يرمكي الهادية، فقد
عرفه الناس منذ زمن طويل، ويعود نصف أنساب خيولهم إليه. هكذا، فقد كان
دائماً موضع ترحيب. وللسنوات طويلة تعاقبت، كان فحله (عنتر) التبغ الذي
فاضت منه كل الأفراس التي ولدت على مدى سنوات.

لقد أثبت الأيام أن تمارجهم معه طيبة، وحتى حين كان يغيب فحلل إلى الأبد،
ويحل محله فحل آخر من فحول، كما حدث منذ عامين، فإنه لم يكن يأتهم إلا
بفحل أصيل، وأفضل، يعمل كثيرين يتنون لو أن أفراسهم تلقحها هذا الفحل
وليس ذلك.

لكن الفصول كانت تمرُّ، والأفراس تلد، ويأتي دائماً ذلك الوقت الذي (تحل)

فيه من جديد.

وصول الحماة، بعث في اليرمكي الأمل، وهو رجل نحيف البنية، جاحظُ
العينين، بسبب كثرة نقله وتحديثه في الأفاق بحثاً عن فرس.

ثالثاً: قال لها بغضب: أين الليرة؟ وفوجئت إلى ذلك الحشد الذي راحت يدها تمتد منبسطة نحوه قبل أن تُفكر: ها هي!

انقضت أصابعه مثل غالب صقر يُغير على فريسته، واختفت الليرة من يدها: أم يقولوا لك أن تُسجل اسمه في شهادة ميلاده (غازي).

- ولكن امرأتك كانت تريد أن يكون على اسم أبيها: يونس.

- إذن اذهبي وخذي الليرة من زوجتي!!

واستدار غاضباً من حيث أتى.

بعد أيام هداً قليلاً، أحس أن شئراً لا تستحق ذلك كله، وفي أول مرة صادفها اعترض طريقها، وقال لها: سامحيني يا شئراً.

- ولو هيك يا أبو يونس!

فعدا بصرخ بها: لا تقول لي أبو يونس.

- وماذا أقول؟

- قولي أبو غازي.

- حاضر.

ولكنها لم تقلها.

- حاضر، ماذا؟

- يا أبو. ولم تكمل.

- لا تستطعين قولها، ها!

- ولكن يونس اسم حلو.

- حلو، مش حلو، لا يمضي. عليك أن تعيدي حلاً هذه المشكلة.

- وكيف أجده حلاً.

- لا أعرف. أنت دابة أمه، وأنت التي قلبت لهم إن اسمه يونس.

- ولكن هل يمكنك الانتظار تسعة أشهر... ستة، حتى أغير الاسم؟

قالت ذلك وقد حلت عليها الشكينة فجأة إذ وجدت الحل.

فردة بغضب: أنتظر لي يوم القيامة!

- وهل ستعطيني الليرة عندها؟

- ليرة وربال أيضاً.

لعنة الاسم!

نادى البرمكي: غازي!!

وحين أطل ولده ملياً: حاضر يا يا.

قال له: اتنى لك عروسا كهذه، وأشار إلى الحماة.

فردة الولد بحسرة: ومن أين أتى بواحدة مثلها يا يا؟

كانت حكاية البرمكي مع ولده واحدة من حكايات الهادية الكبيرة، وسنظل دائماً، فحين ولد ابنه، وهو الأول، كان خارج القرية في واحدة من جولاته التي تستمر أسابيع كثيرة. وعندما عاد، زغردت (شئارة)، دابة البلد، وبشّره بغلام قبل أن يصل البيت، وقد كان يعرف ما تريد من وراء ذلك، يعرف أنها قد تكون أمضت أياماً على العتبة في انتظار عودة الأب من أجل الفوز بشيء يستحق مقابل هذه البشارة الكبيرة.

ساج الدع في عينيه، وسألها غير مُصدق، مستعيراً كلمة منيرة التي تُرَدّها دائماً: صحيح؟

- صحيح ونص!

انطلق نحو البيت فوق ظهر حصانه، كما لو أن الأمر مفاجأة لم يحسب لها حساباً! كما لو قيل له: امرأتك حامل. في وقت فقد الأمل فيه بذلك.

قلبت شئارة الليرة القضية التي استقرت في يدها غير مُصدقة عنها، ثم راحت تعدو نحو صندوقها لتختبئ، وعندما وصلته توقفت حائرة، إذ خطر لها أن تبحث عن مكان أكثر أماناً، وهكذا راحت تفكر وتفكر، وقبل أن تحسم أمرها سمعت طرقة قويا على الباب فخشبت أن لوصوا قادمون لسرقه كنزها. ترددت في أن تفتح، لكنها حين سمعت صوت البرمكي اطمانت قليلاً. أشرعت الباب فوجدته

أغرب ما حدث بعد ذلك، أن البرمكي لم يستطع أن يأخذ ابنة بين يديه، لم يستطع أن ينظر إليه إلا خفياً. كان الاسم يُفصيه بعيداً عنه، ويقف حاجزاً يمنعه من رؤيته أو احتضانه أو لفظ اسمه إذا ما بكى أو مرض أو راح يُصير تلك الأصوات الفرحة التي لا تبلغ مرتبة الضحك أو حتى الإسهام.

وفي تلك الفترة التي بدت له أطول من دهر، كان يُراقب بطن زوجته دون أن يلحظ أي أثر لحمل جديد. وقد كان فُكر في حل وسط، بين حين وآخر، أن يُشي على اسم يونس وأن يُطلق اسم غازي على الولد الثاني. لكن أفكاره هذه، كانت تؤدي به دائماً إلى أن يثور على نفسه موبخاً إياها لأبها تفكر بهذه الطريقة.

أما شئارة فكانت، رغم كل ما حدث، تواصل زيارتها للزوجة البرمكي لتطمئن إن كان هنالك مولود آخر على الطريق أم لا.

ذات مرة تصادف البرمكي وشئارة على بوابة الدار فقال لها: أه. هل وجدت الحل؟

- وجدتته.

- وما هو؟

- سأذهب وأبلغ أن زوجتك ولدت ابناً آخر وأتلك أسميته غازي؟

- وهل هناك ولد آخر؟

- لا. ولكن هذا هو الحل الوحيد. تأخذ الشهادة الجديدة وتزق القديمة، ولا من شاف ولا من دري.

- معقول! قال لها. والله معقول! وراح يمز حصاته وراءه مبتعداً دون أن يتوقف عن ترديد جملة: معقول والله معقول!

الصرخة الأولى

كان موسم الزيتون طياً في ذلك العام، ولم تتأخر الساء، فقد جاء مطر بعث الحياة في الأشجار، فسرّت في عروقها خضرة عميقة، وأضاءت ثمارها فاندفع الجميع نحو الكروم.

أما الشيء الجديد الذي دخل القرية فكان معصرة الزيتون التي عمل الأب ثيودورس على إحضارها، وقد أصبحت جزءاً من الباحة الخلفية للسدير. وحمل ذلك الكثير من الراحة لأهل الحادية، وحزّهم من متاعب سفر طويل يتسبب زيتونهم والعودة به.

لكن الأب ثيودورس حَسِبَ بذلك أجرة العُسر، وإليه عُسر الحصول الذي يقطعهم كاملاً، وما يُقدّم له بين حين وآخر خارج هذا وذاك. وإذا كان من كلام يقال في هذا، فهو أن الأب ثيودورس لم يكن يثق بأحد، لم يكن يثق إلا بعينه، بها يراه، وقد حَبِرَ ذلك الحاج عمود في أحيان كثيرة، وهو يراه يتصرّف كأسوأ تجار المدن أكثر مما يتصرّف كرجل دين.

ولكن الخوري ثيودورس، كان يملك الحجة على هذا الحرص: لا تنس يا حاج أن ما تقدمونه هو أمانة في عني للدولة، وأنا لا أريد أن أذهب إليها مُسَرَّ مقتوصاً!

بات يحرّم كل هذا الحرص، فلم يكن قد مرّ يوم واحد على وصوله للحادية، حتى رآوه يتجوّل في سهول القرية ويساتنها، وخلفه تنعثر الراهبان سارة وميري، لقد كانت المرة الأولى التي يرون فيها الراهبتين بعيداً عن حدود الدبر، وبخاصة أن كل شيء كان يُقدّم إليهن جاهزاً، من جرعة الماء حتى حزمة الخبط.

وحين عاد

كان دهشاً بها رآه.

من القصيدة سوى هذه، لماذا لم يقرأ في أي يوم هذه الأبيات مثلاً، وهي أقرب كثيراً لروح أي رجل دين:

أرى قبر نحام بخيل بباله
كثير غوي في البطالة مُفْسِد
تري جُثوثين من تراب، عليها
صفائح صم من صفيح مُتَضَيّد
أرى الموت بعنام الكرام، وبصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كسراً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدرع يتبدّل
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتي
لكالطول المرعى ونباه في اليد

أما الشيء الغريب فهو أن ثيودورس الشاب الوسيم ذا العينين الزرقاوين والقامة المنتصبة كسارية علم، راح يتصرف في أحيان كثيرة، وهذا ما أحسنه أهل البلد، كما لو أن القرية تعود إليه شخصياً.

الحاج محمود كان مضطراً لطرده هذه الفواجس التي تعذّبه، فقد كان يعرف أن وجود الذئب لا يذمّ منه، بعد أن قام الأتراك ببيع عشرات القرى في المزار العلني لملك من سوريا ولبنان بعد أن عجزت هذه القرى عن دفع العُشر لسنوات متتالية، وتراكت عليها الديون.

لكن ذلك لم يقف عند هذا الحد.

ذات يوم راح يصرخ بمجموعة من الأولاد يتسلّقون شجرة زيتون، ويوبخهم بكلام لا يقوله أحد، إلا إذا كان المال ماله كما يقال.

وفي أكثر من مرة أبدى ملاحظات لا تفهم حول كثرة الاعتداء على البشر، وضرورة تقبّل النساء بكميات محدودة من المياه، لأن (السَاء ليست أجيرة تعمل هذه الأرض، بل هذه الأرض تعمل لترضي السَاء). لكن ما كان يبدد شكوكهم كلها، هو إتقانه الشديد للغة العربية، الذي جعلهم ينظرون إليه كواحد منهم، حتى أنه كان قادراً على الخوض في مسائل النحو والصرف بطريقة تُربك أحياناً الشيخ حسني نفسه. وفي أيام كثيرة كان يجلس مفتوناً وهو يقرأ معلّقة طرفه بين العيد، وهو يردد: هذا هو الشعر. هذا هو الشعر...

ألا أيّها اللاتمي أحضر الوغي

وأن أشهد اللذات، هل أنت تحلدي؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منتهي

فدعني أبادرها يا ملكك يدي

ولو لا ثلاث هنّ من عيشة الفتي

وجدك لم أحفل متى قام عوّدي...

كانت العربية معجزته، وهذا ما طمأن أهل القرية كثيراً، أما الذي لم يطمئن الحاج محمود، وهو الذي عرف المُعلّقة وقرأها على يد والد الشيخ حسني، فهو أن ثيودورس كلياً كان يقرأ من قصيدة طرفه كان يبدأ بهذه الأبيات وكان القصيدة تبدأ منها؛ وفي مرة من المرات فاض به الأمر فسأل الشيخ حسني: ولماذا لا يبتدئ

لم يعرف أحد تفاصيل ما حدث، فهناك من أشار إلى صفة أرض وهناك من تحدث عن مصالح مشتركة أكبر بدأت تلوح في الأفق، مع بدء القوضى التي راحت تعم أرجاء الدولة، الدولة التي هبت عليها من كل مكان ديوبها المتفائمة والتي باتت تدفعها لمزيد من القسوة، بدءا من فرض ضرائب جديدة وانتهاء باقتياد الرجال إلى حروب لم يعرفوا الأماكن التي تدور فيها أو يسمعون بها من قبل.

حملتها الريح

من زمن بعيد كانت أحياء الحماية قد وصلت إلى الفيّاب، ولم تكن بحاجة إلى من ينقلها، فقد حملتها الريح ولجأ سوق الحميس الذين يتوافدون أسبوعيا على الهادية.

لكن ما أشعل ناره هو ذلك الكلام الذي كان يحمله عبد المجيد، زوج العزيزة، كلما زار قرية الفيّاب، وهو منها.

أكثر من فكرة راودته باختطافها، إلا أنه كان يعرف أن عملا كهذا سيثير الكثيرين عليه، ومنهم أهلها الذين ينتظرون المهرة الأولى منها، وكذلك الأمر بالنسبة للحاج محمود.

لقد سبق لها أن تقابلا في أكثر من مكان، وقد كان كل منهما يُمضي الوقت وهو يزن ثقل الرجل الآخر. التقي في بيوت عزاء، في مواسم البيع والشراء، بدءا من يافا مروراً بالرملة وصولاً إلى عكا.

في النهاية طرد الفكرة، وعمل ما استطاع على أن يصل إلى الحاج محمود من مقتل آخر. لأنه سيتحول في نظر الجميع إلى مجرد سارق خيول، هو المالك الفعلي لأراضي عدة قرى، ويأثر بأمره رجال ودرك ولا يخل عليه قادة وولاة مدن بدعهم.

ولكنه طوى كل هذه الأفكار، حتى دون أن يعلم، أن الزمن سيقدّم له هدية ما كان يحلم بها من قبل!

الشيء الذي أثار الكثير من الكلام فيها بعد، ولم يؤكد أحد، هو ذلك اللقاء الغريب الذي تم بين الفيّاب والخورى ثودورس، وقد قيل إن عبد المجيد كان مرسل الغرام الذي رتب الأمر من أوله إلى آخره. وحتى لا يثير اللقاء كثيراً من القيل والقال تم في يافا نفسها.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

كان عمر الطفل؛ ولأن البرمكي لم يعد قادراً على الاعتماد عن ولده ما دام في القرية، فقد كان يأخذه معه للمضافة باستمرار.

عجوزاً بالمخاطر دائماً بظل هذا الأمر، لأن الأب يكون مسؤولاً عما قد (يُضُرُّ) عن ابنه. فإذا بال أثناء وجوده في المضافة فإن الأب أن يمضي إلى البيت ويُحضّر غداء أو عشاء لكل الحضور تكثيراً عن فعله صغيره، أما إذا (صَدَرَ) عن الولد أكثر من ذلك، فإن عليه أن يُحضّر ذبيحة. إلا أن هذا لم يثن البرمكي عن حمل ولده إلى المضافة، وفي حالات كثيرة كان يبدو فرحاً بما يُضُرُّ عن الولد! كما لو أن ما يصدر عنه إعلان جديد عن مولده، فيتطلع حوله منتظراً تلك العبارة التي بات الحاج محمود يرددتها كثيراً: جاءت في وقتها. أظن أن الرجال جاعوا!!

فينهض البرمكي مهرولاً نحو بيته. يغيب قليلاً أو كثيراً، كما تقتضي الحاجة، ويعود بالطعام للرجال وهو أكثر حرصاً على أن يكون ابنه معه.

وكما لو أن الولد قد أحسّ بزهو أبيه، راح يواصل بالتدافع نداء الطبيعة الذي لا يُنتظر منه شيء سواه.

سنوات كثيرة مرّت وهو على هذه الحال، إلى أن أحس البرمكي أن ذلك يكفي، فخاف أن يواصل الولد عادته إلى ما لا نهاية. وحين رأى استدارة بطن امرأته ذات يوم، صرخ فرحاً: أقسم، إذا كان ولداً سأسميه يونس. ارحمته!

- بعد إيش!! ردت زوجته معاتبة. ولكنّها قبلت الأمر بفرح.

وجاءت شمية، شمية التي أغلقت الباب خلفها بإحكام.

نداء الطبيعة!

بمجرد أن أحضرت شارة شهادة الميلاد الجديدة للبرمكي، وتأكد مما فيها بعد أن قرأه له الشيخ حسني، عاد إلى بيتها، طرّق الباب، خرجت شارة.

- تأكدت؟

- تأكدت.

وامتدت يده إليها بليرة وريال. وهو يقول: الحق حتى.

وقبل أن تغلق الباب ثانية عاد: انتظري. فأشرعت ما أغلق منه.

- شو في يا أبو غازي؟

- وهذه أيضاً لك!

وناولها ثلاثة ريالاً. وهو يقول: لقد أتمعتك.

- الله يخليك إياه. ويرزقك بأخوة له.

ظلّ البرمكي يركض حتى وصل البيت. على عجل أشرع الباب ومضى نحو السرير الخشبي لابنه، السرير الذي كان اشتراه من (الرملة) خصيصاً لغازي.

انحنى، تناول الولد بين ذراعيه، اعتدل، خرج به للحوش.

- إلى أين؟ سألت زوجته برعب.

- اطمئني. أريد أن أراه في الضوء!

ومنذ ذلك اليوم، أصبح مجرد ابتعاده، ولو قليلاً، عن البيت، أمراً يثير أشواقه. وعندما بات على يقين أن الولد سيعيش وحيداً بلا أخ، أصبح الأمر أكثر تعقيداً.

لم يكن دخول الأطفال إلى المضافة شيئاً محبباً، هكذا كان الأمر في الحادية، كما في سواها، وبخاصة إذا كانوا دون الثالثة من عمرهم. لكن هنالك بعض الاستثناءات، إذ كانوا يسمحون للأب أن يُحضّر ابنه معه، إذا كان وحيداً أبوي، مهما

الضرائب؟ ما الذي يأخذه الدير من أهل القرية؟ هل يُعطي العُشر كَلَّه للحكومة أم يترك شيئاً منه للدير؟

كانت الإجابات التي استمع إليها الخوري إلياس هي نفسها التي يعرفها أهل القرية، وحين لم يصل لشيء، قرر الخروج للقاء الناس، قال لنفسه: تجلس هنا وتقرأ ثم تقرأ وتعلن إعجابك على اللأ وحيتها كنت بكتابات نصّار الذي تعتبره أستاذك، تجلس هنا لتجيز ما تقرأه بين هذه الجسدان مثلياً تجز أي بقرة ما يُقدّم لها من أعشاب. في القدس كنت تريد أن تكون مثله، وكنت غير ذلك، فلياذ لا تكون هنا؟ أم أن هذه القرية أقل من مقامك!!؟

ذات مساء فتح باب الدير، واندفع خارجاً، أثار ذلك دهشة الأب ثيودوروس الذي لم يسبق له أن رأى الباب يُفتح بعد مغيب الشمس، إلا في حالات نادرة.

- إلى أين؟ لاحقه صوت الأب ثيودوروس.
- إلى مضافة الحاج محمود.
- ولكنك تعرف أن علينا الاحتفاظ بمسافة بيننا وبينهم.
- ولماذا؟ البسوا من البشر؟
- لا أقصد ذلك، ولكن لهم حياتهم ولنا حياتنا. نحن جئنا إلى هنا لننقطع إلى الله.

- وهل تعتقد أن الله غير موجود في مضافة الحاج محمود؟

- يبدو أننا سنتخلف، لن أناقش الآن.

حين وقف الخوري إلياس بباب المضافة، سقطت الدعشة على رؤوس الجميع، بحيث عقدت المفاجأة الستهم، فهي المرة الأولى منذ سنوات طويلة التي يحدث فيها أمر كهذا. كما أن عزلة الخوري إلياس تركت مسافة قاحلة بينه وبينهم: فرائش الصيوف. صاح الحاج محمود.

هَب الشباب وتناولوا فرشتين وضعوا إحداهما فوق الأخرى، ودعاه الحاج محمود للجلوس. ورغم أنه لم يأت من مكان بعيد، إلا أن حمدان، الذي أحس بشيء جديد يحدث، دلف ما في الدلة وصنع قهوة جديدة للضيف. وكما يحدث حين يصل رجل غالي من مكان بعيد، نهض خالد، صبّ القهوة، تناول التفجنان لأبيه الذي قدّمه للضيف.

وصول إلياس سليم

لم يجدوا مكاناً أفضل من الهادية كي يرسلوه إليه بعد سلسلة المتاعب التي سببها للكنيسة الأرثوذكسية في القدس. في ذلك المكان يمكنه أن يشارع الأب ثيودوروس كما يريد!

وصل الهادية غاضباً، كان يجب القدس كثيراً، ويجد فيها حياته الفعلية، وإذا به في هذه القرية الأكثر هدوءاً من أي مكان دخله من قبل.

لم يجد صحفاً ولا مجلات، وقد كان من قراء (الأصمعي) و (القدس)، وغدت صباحات الثلاثاء والجمعة التي تصدر فيها جريدة (الكرمل) جافة لأنه لا يستطيع قراءة مقالات نجيب نصار.⁴

الأب ثيودوروس كان يعرف أسباب إبعاده، ولهذا أصبح أكثر حرصاً، وعندما اختار إلياس العزلة، وجد الأب ثيودوروس في هذا الخيار الحل الأمثل. فلم يطالبه بشيء. لم يكن يريد منه سوى أن يظل بعيداً. أما أهل الهادية فراؤا في إبعاده عنهم ترفعاً لا يليق برجل دين من أهل البلاد.

كان قد أحضر عدداً كبيراً من الكتب التي وجد فيها صديقاً لعزله، وكلما ذهب للقدس لزبارة أهله عاد بكتب جديدة ورزمة من الجرائد التي تشتريها أمه وتحفظها له بها.

أربعة أشهر مرّت هادئة، لم يعكر فيها صفو الأب إلياس شيء، لكن ذلك كله تغير ما إن جاء موسم الحصاد وحين موعد دفع الأعشار للدير. عند ذلك أحس برائحة غريبة، فبدأ يتخلّل في تفاصيل لم تحظر للأب ثيودوروس على بال: لماذا تأخذون العشر؟ لماذا لا يذهبون بأنفسهم لدفع ما عليهم؟ لماذا لا يأتي جياة

⁴ - شيخ الصحفيين الفلسطينيين، صاحب صحيفة (الكرمل) التي صدرت في حينها عام 1909 ورئيس تحريرها، كان واحداً من أحرار الكتاب وأكثرهم استمرراً للخطر الصهيوني قبل فلسطين، طارده السلطات التركية وعاش متخفياً لقرارات طويلة.

شرب القليل من القليل الذي في القنجان، أغمض عينيه، ثم رفعها نحو الحاج محمود وقال: هذه هي القهوة.

- أعجبتك؟!

- ما كان عليّ أن أخسرها كل تلك الأشهر التي مرّت.

- أهلا بك. ومتى أردتها فتكون جاهزة بانتظارك.

تلك الليلة رأوا في إلياس وجها آخر لم يعرفوه من قبل، وبدا لهم واحدا من أهل القرية، وحين راح يتحدث عن القدس بكل ذلك الشغف، أحس كل من رأى القدس منهم بأنه يراها من جديد، قدسا أخرى، ساحرة.

سأله خالد عن سبب تركه للديانة ما دام يجيها إلى هذا الحد، فأجاب: لم أتركها، لكنهم أبعدوني عنها.

- أبعدوك؟!

- نعم، وجودي هنا نوع من العقاب. تستطيعون أن تقولوا هذا؟

- ولماذا؟

- لا أحب أن أقول لكم، هذه حكاية أخرى. كما يقول شعراء سيرة الهلالي. ولكنها حكاية أخرى فعلا..

أمام باب المضافة قال له الحاج محمود: أتعرف، منذ زمن طويل لم يدخل إنسان قلبي كما حدث الليلة.

- هذا أجل ما سمعته من زمن طويل. يبدو أن الله قد استجاب لدعاء الوالدة.

- وما هو دعاؤها؟

- إنه الدعاء الأعلى: اللهم حبّ كل من يراه به. ولكن الذي يعبرني أنهم لم يعبوني في "أخوية القبر المقدس".

- ولماذا؟

- أخشى أن أقول كلاماً كبيراً.

- قل يا ولدي!

- ربي لأن الله يا ولدي لا يسكن قلوب الجميع!!

عشرة الحكمة

كلما كان الحاج محمود يسمع أن أحد رجال القرية الذين يُعرّفون بسوئهم في طريقه لمغادرة المغادرة، كان يقول لرجائها: الحقوه وأعيده، لأنه سيبيء إلى سمعة بلدنا بين الناس. وكلما سمع أن أحد رجال القرية الأصليين يغادرها كان يقول: أتركوه سينثر رائحة وشكها حيثما وصل.

لكن الشيء الذي لم يكن قد فكّر فيه من قبل، هو كيف سمح بأن تكون العزيزة، ابنته، امرأة لرجل مثل عبد المجيد، هذا الذي نشر وسينثر الأسى في قلبه إلى الأبد.

التي لمعت مُتَلَوِّدًا، وَمَنْ لَمْ يَر من قبل حصانًا يتحوَّل إلى وحش فقد رآه في ذلك الصباح.

ازديادُ عدد الناس الذين وقفوا أمامه سُدًّا، ساعدَ الآخرين أن يصلوا للحمامة، على ظهور خيولهم، لكنها وقد رأت مزيدًا من الحيوول حَوْفًا جُنَّتْ أكثر، إلى أن وصل خالد فوق ظهر (ريح)، ترجل بسرعة، وانطلق يعدو فوق السنائل نحو الحمامة، الحمامة التي ما إن رآته حتى اطمأنت قليلًا، وظل يقترب منها يحاول ما استطاع تبديدتها حتى نَمَّ له ذلك، وعندها، قفز فوق ظهرها. كان يحتاج الكثير من الثبات كي لا يسقط عنها وهي تتلطف طائفة تقوده أكثر مما يقودها، صاعدة التل نحو بيتهم.

وقف الناس يراقبون المشهد مذهولين، وهم يرون شداد يتدفع خلفها طائرًا. وصلت الحمامة، قفز بخفة، أشرع لها الباب دخلت، أغلق الباب خلفه، حاول أن يُسند عنقه، يجتصن وجهها، لكنها كانت في مكان آخر، عينها تدوران بسرع وهي تتصفَّح المكان، وجسدها يرحف كما لو أنها مصابة بالحمى. لأيام طويلة ظَلَّتْ هكذا، وتغيَّرت أحوال البرمكي.

رأى الرجال يُغيرون على بيته، يذبحون شداد، ويمزقون قطع غنمه والأبقار الثلاث، يشتتون أسرته، يلاحقونه لمسافات طويلة ويتركونه في الشمس ثم يعودون إليه ثانية.. ويُغيرون على بيوت أخوته، ويمزقون بيت أبيه. ثلاثة نهارات وثلاث نهار تواصلت (قوة الدَّم) إلى أن هدأت. لقد تحوَّل الأمر باتجاه آخر، فهِم أهل الهادية ذلك، كانت محاولة شداد موافقة الحمامة، بالنسبة لهم، لا تختلف عن محاولة رجل الاعتداء على شرف فتاة. بعد ظهيرة اليوم الرابع وصل الشيخ ناصر العلي، ومعه وصل رجال من قري المنطقة كلها لحل تلك المشكلة العويصة التي لم تحظر بيال. كان الشيخ ناصر يدرك ما تعنيه الحمامة لبيت الحاج محمود، وما تعنيه لأهلها الذين قبلوا أن تُقدَّم هدية للهادية، والثيق بأنها ستكون مُحَسَّنَةً لا يقرها أي فعل غير فحولهم. اختفى البرمكي وأسرته تمامًا.

شياطين البرمكي

لم يكن ذلك أقل من الجنون نفسه، ذلك الذي فكَّر فيه البرمكي، حتى وهو يستعيد فكرته بعد أيام طويلة قبالة حصانه (شداد) وقد قُبِدَ من قدميه الأماميتين. - هكذا لن تستطيع القفز على ظهر عنزة. كان يقول له مويخاً. إنه يعترف، أن كثرة تفكيره بالأمر هي السبب، فلطالما راودته شياطينه أن يُدبِّر فرصة للشقاء شداد بها، كما لو أن الأمر نَمَّ وغيما عنه. راقب البرمكي الحمامة من بعيد، تاركًا مسافة أمان بين شداد وبينها، لكن كل شيء انهار دفعة واحدة.

كانت الحمامة تتقافز في السهل، جلد، تنفض غُرْبها فتَحُلُق في الهواء تعبرها الشمس فتحوَّل إلى ذهب، ويشال ذيلها كما لو أنها تمسح وجه الألق به، فيبدو النهار أكثر إشراقًا، تعدو وتعدو بعيدا، وتعود مُغْبِرَةً على شيء ما لا يراه سواها، وعندما تصل تنحنى لانقطاع وتلفظ ثانية نحو السماء، إلى درجة يحس معها الإنسان أنها ستظل محلقة في الهواء إلى الأبد. وما كان يمكن للمشاهد أن يكتمل بغيرها.

اندفع (شداد) خلفها، بعد أيام طويلة لم يقرب فيها فرسًا، اندفع مجنونًا، رآته الحمامة فانطلقت هاربة، كان الأمر مباغتًا لها، راحت تعدو غير ذلك العدو الجلد الذي كان يُعطي المدى النساءه، تمثرت مرة، مرتين، وفي الثالثة كَبَتْ فلامس جسدها الأرض، وعندما فقدت الأمل بنجاحها راحت تصهل وتصهل، اتبته الجميع، فاندفعوا يركضون نحوها، في حين كان هنالك رجال أقرب استطاعوا قطع الطريق على شداد، صهل مجنونًا وقد جِبِلَّ بينه وبينها، التف على نفسه، أنشَب حافريه في جسد الأرض مثيرًا الغبار، وفجأة أغار عليهم يريد أن يمزقهم بألسناته

وظهرت (جاجة) كبيرة تضم رجالا كثيرين جاءوا بظليون الصلح مستعدين
لفعل أي شيء وتقديم أي شيء من أجل حل المعضلة.

جلس الشيخ ناصر العلي وسط الرجال في المصاغة، وبدأ كلامه: لم يسبق لي أن
سمعت بشيء من هذا طيلة حياتي، ولعل الأمر يختلف لأننا نتحدث عن أصيلة
حرة مختلفة، نتحدث عن فرس ليست فرسا بل هي أكثر، نتحدث عن الحماية كما
يمكن أن نتحدث عن أي بنت كريمة لا يجوز الاعتداء عليها، وإذا حصل ذلك،
فلأهلها أن يفعلوا ما يريدونه طيلة ثلاثة نهارات وثلاث نهار. وقد حدث ذلك،
وأنتم معذورون. قال هذا وهو يتجه بصره إلى الحاج محمود وينقله إلى خالد. لقد
فكرت في هذه المشكلة طويلا حين سمعت بها، وبقيت أفكر بها حتى بعد أن
وصلت. وحكمي هو الآتي:

لقد رأيت بأن الحماية في منزلتها وفي وجودها هنا أمانة لا تختلف عن أي بنت
بكر، ولذلك يحق لها ما يحق لأي فتاة. لقد سهلت حين لحق بها الحصان، وسأعتبر
صهليها تماما مثل (مصايغة الضحى) التي تطلقها الفتاة مستغنية، ولذلك اعتبر كل
ما حدث أثناء فورة الدم خلال الأيام الماضية مقابل (مصايغة الضحى) هذه، أو ما
نسبه في بلادنا (تحت القيراش)، أي أنه لا يجنب جزءا من حقها الفعلي. لكن
هناك أشياء لا أستطيع الحكم بها كما لو أن الحماية فتاة.

وهنا بدأت المهمات تتعالى، وتأثر الشرر في الأجواء.

- صلوا على النبي. طلب منهم الشيخ ناصر.

فيما طلبه يحمل معنيين، الصلاة على النبي والدعوة هم كي يبدأوا.

- اللهم صلي على النبي. ردّد الجميع.

- لن أحكم لها كما أحكم لفتاة، لأن سرعة الحماية في محاولتها صون نفسها، غير
سرعة أي فتاة، رغم أن الذي طاردها حصان، ولذلك إذا ما قدرتم أنها عدت ألف
خطوة، فسأعتبرها عدت مائتين، أما عثراتها، فهي نفس عشرات الفتاة، وقوقعها
أيضا.

تأثّل الوجوه وبعد أن أدرك أن الصمت لم يعكره صوت، أضاف: كل خطوة
أقدّمها بعشرة (صاغات) وكل عشرة بخمسين. أما وقوقعها على الأرض فأقدّمه
بمائة وخمسين صاغا ونهوضها عن الأرض بالشيء نفسه.

عند ذلك تعالت مهمات رجال (الجاجة) الذي يُمثلون البرمكي وعائلته.

- صلوا على النبي. طلب منهم الشيخ ناصر.

ولم تكن هذه المرة تحمل سوى معنى واحد. لأنه لم يكن يُفضل أن يُشعرهم بأنه
أحسن بنضيبهم.

- اللهم صلي عليه.

- أعرف أن هذا الحق كبير، ولكنتكم تعرفون، أننا بهذه الأحكام قد صُنّا
أعراض الناس، بحيث لا يستطيع أحد أن يفكر بالاعتداء على شرف إحداهن. ثم
التفت إليهم وقال: عليكم أن تدفعوا لأهل الحماية الفين وأربعمائة صاغ، وأن تحملوا
عن القرية ثلاثة أعوام.

كان الجميع يدركون أن حكم الشيخ ناصر العلي صائب وحكيم، ولذلك قبلوا
به.

أما البرمكي نفسه، فما إن سمع به حتى انتفض فجأة، واستيقظ فزعاً تحت
شجرة التين التي كانت تظله. وحمد الله أن ما رآه لم يكن سوى حلم!!
تلفت حوله بذعر، وجد أن (شداد) لم يزل مقيدا.

أما الحماية فقد كانت تتصاعد في الهواء حرة تحلقه كطائر ذهبي.

فالتفت إلى حصانه، وقال: والله إنك معذور في شوقك إليها، ولكنني أخاف
عليك، كما أخاف عليّ.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الشيء الذي كان لا بد منه: أن يعبروا بالحمامة من أمام قرية الحباب. ولكن الأمر لم يكن سراً، فقد علم كل من في المنطقة أنهم سيتوجهون بها إلى ديار الشيخ السعادات.

وعلى طول الطريق الذي سلكته عبر الهادية، كان هناك بشر يلوحون للموكب المكون من سبعة رجال يحملون الهدايا، ويمضون نحو الشرق.

بعد أن قطعوا السهل، بدأت الطريق صعودها، لكن الرجال كانوا مطمئنين تماماً، إذ لا يمكن لأحد أن يجرى على اعتراضهم حتى لو كان مجنوناً، فمعها كان حجم العداوات بين القرى فإن (العدو) يستطيع المرور بأمان في حالتيه: إذا ما تعلق الأمر بأصيلة أو بعودة مهرة ولدها إلى أصحاب الفرس الأصليين. ولا يستطيع أحد كسر هذا العرف.

في علية بيته، على يسارهم، لم يكن الحباب أقل فضولاً من بقية الناس، فقد انتصب هناك بعمامة الشكرية وطربوشه الأحمر وقامته المتوسطة التي بدت عالية. ولسب ما، كان خالد على يقين من أن عينيه كانتا تحدقان مباشرة في عيني الحباب، وحتى بعد أن ابتعدوا وجد أنه لم يزل ينظر إلى هناك، وظل هكذا حتى اختفى البيت واختفت القرية وانطلقوا في دروب أكثر سهولة لا تخفى امتداداتها.

تحول وصول الحمامة إلى عرس ما إن لحها أهلها قادمة تضيء السهول الغربية، اندفع الأولاد والنساء والرجال، كما لو أنهم يستقبلون قافلة تعود برجالهم من أرض مكة.

وهناك، في السهل، حول البيوت، كان يمكن لخالد وأبيه أن يروا وينهروا بتلك الأرض التي تضيئها الأفراس البيضاء. الأفراس التي راحت تصهل، وتتساقز في الهواء، مما جعل الحمامة تنطلق نحوها بجذل واضح وسعادة خضراء.

ترك لها خالد الرسن فراحت تعدو تحلقه، مثل ذلك اليوم الذي لن ينساه، حين طارت الحمامة الأم به، عبر السهول والتلال في ليلة لا تنسبها أي من ليالي حياته. وقف الناس بينها وبين بقية الحيوول، بدأت تدور، أدركوا أن عليهم كبت شوقها الشديد في دماها لخصان، لأن الأمور لا تتم على هذا النحو.

ترجل الحاج محمود وعالده ومن معها بخفة، كما لو أنهم يؤكدون لأهل الحمامة أن فرسهم خرجت من بيت فرسان إلى بيت فرسان، عانقوا الشيخ السعادات،

أرض الأفراس البيضاء

ثلاثة أشياء جعلت الحمامة مختلفة، غير جماعها: ذلك الحب الذي يكنه خالد لها، وذلك الطعام الحاصل الذي يُقدّمه لها على كفيه، والمكون دائماً من الشعير أو القمح المسلوق، وحربتها، حيث لم يدخل فيها لجام.

في الشهور الأولى لوصولها، لم يكن يفارقها، لكن العائلة لم تكن تضيق بذلك، كان يكفيها أن ولدهم عاد إليهم من غيابه ومن ضياعه.

لكن متيرة فقدت الأمل أخيراً، حين لم تعد سيرة الزواج جزءاً من حديثهم اليومي، بل وتجاوز الأمر حدوده حين قالت لها عمته الأثنية ذات يوم: صحيح، اللي ما إلو عيلة بقتاله عجيلة، بس إبنك زادها وخوفي يكون ركوبه الطويل للفرس خرب (جذته)!!

- بعيد الشر!! ردّت متيرة بغضب.

أما الشيء الذي لم يتصوره أحد فهو أن الحمامة بنفسها، ستضحي لتفتح له ذلك الباب المغلق.

ذات يوم سمعت متيرة صرخة الأثنية: إلخسي يا متيرة، الفرس (حالت) والولد ما خن. وكما لو أن الحمامة راحت تكسر الصحون على طريقتها، بدأت تصهل صهيلاً متواصلًا، وتبول كثيراً، وكلما رأت حصاناً وقفت له، حتى تلك الخيول التي لم تكن تُعبرها أيّ اتية، ومن بينها (شداد).

وقبل أن يصل الأمر إلى ما لا يُحمد عقباه، قال الحاج محمود لولده: هيا بنا. لا نيت الليلة إلا في مضارب الشيخ السعادات.

عند الظهر كانت الهادية قد عرفت بالخبر، فراحت العيون تراقب رجلاً الحمامة، حتى اختفت تماماً في الأفق الشرقي، في رحلة لم يكن هناك ما يشبهها.

ومرة حين أجزأوها، وبذلك أرحمونا من بحث عنها كان يمكن أن يستمر ثلاثين سنة.

ثم صمت الشيخ السعادات، التفت للحاج محمود وسأل: هل تعرف يا حاج ما الذي يعنيه أن تبحث عن شيء تحبه ثلاثين سنة، دون أن تصل إليه؟ كان السؤال مفاجئاً، حتى لحاله الذي عاش مرارات الفقد. ولذلك لم يجد كلاماً يقول، لم يجد سوى أن يبرأ رأسه بتأثر.

- إيه!! قال الشيخ السعادات، كما لو أنه يتخلص من كتلة أم ربيشت على صدره سنوات وسنوات. وبعد صمت ريث على ساق الحاج محمود وقال: لن نتركها نتحرق أكثر.

رجال كثيرين كانوا قد اجتمعوا في المضافة، ومن بينهم عدد من الشيوخ الذين يعرفون أن عليهم مسؤولية كبيرة في مثل هذا اليوم، أن يكونوا شهود لقاء الحماة بشحل من فحولهم الأصيلة. في الوقت الذي لم تفارق عنا خالد عدة خيول بيضاء كانت تنفث بدورها صوب الحماة، وهو يسأل نفسه: أيها سيكون حصانها؟ كانت خيولاً ذات جمال نادر، ولا بد أن العناية المستمرة بها كانت تجعلها أكثر فنة وكبرياء.

أشار الشيخ السعادات لواحد من رجاله، سبتين هم أنه سائس خيلهم، فانطلق من فور، وما هي إلا دقائق قليلة حتى عاد ثانية، وفي يده رسن ذلك الفحل الأبيض العجيب الذي لم يروا مثله من قبل. بُيئت خالد، بهت الحاج محمود، وأدركا من أي نوع عال تنطق الأفراس في هذه الأرض.

سأل الحاج محمود: وهل كلها من بطن فرس واحدة؟

- لا، إنها من سلالة واحدة، لكنها ليست من بطن واحدة. فالخصان منها لا يمكن أن يقرب أخته. تعرف ذلك من زمن قديم، وفي القلب حادثة البعثة أقسمنا بالله أن الأعداء سأتوهم اليوم، لأن مهرتنا لديمك، ولكي تحذروا وقوع حدث جلجل مثل ذلك الذي حدثنا عنه أبائنا وأجدادنا.

وعمّ الصمت.

طارق، وبقية الرجال الذين اجتمعوا، وقيل أن يسيروا باتجاه المضافة عبر الشيخ محمد السعادات من بين القادمين نحو الحماة، رثت على عقبتها، دنا منها، أخذ رأسها في حضنه معانقاً، ولما رأى العرق ينساب فوق جبينها، أسك بطرف عباته وراح يمسحه. عاد خطوتين. تأملها، ثم قال: اشتغالك.

فوجئ الحاج محمود بهذا الحب الذي يكنونه لمهرتهم، وأدرك أنهم قدموا له أكثر مما يتصور، حين قبلوا أن يهدوها إلى أسرته.

أما خالد، فقد أحس بأنه كان أهلاً لحمل الأمانة حينما أعطى الحماة كل اعتمائه. وعادت له ذكرى ذلك الحلم الذي لم يقله لأحد، حين رأى نفسه في اللثام يحمل الحماة بين يديه، ويصيح بفرح: صلل للبع، ورد للبع. لكن شيئاً ما هز طراوة وشفاقة حلمه فاستيقظ مذعوراً.

كانت المرة الوحيدة التي يمس فيها بهذا، أن ينهض فزعاً بسبب حلم جيل، فكر أن يذهب للشيخ حسني ويسأله لتفسير، أن يسأل عمته الألبسة، أن.. لكنه ظل مذعوراً..

هو يعرف، وأمه تعرف، والقرية تعرف، أن الحماة قد احتلت مكان زوجته الراحلة، لكن الشيء الذي كانوا على يقين منه، هو أن الأشياء نجمة في وقتها، فالطير يجيء في وقتها، والشمس تشرق في وقتها والبرق تنال ينضج في وقتها وكذلك الفصح، والفناء تكبر في وقتها ويستمر دم الشاب شوقاً للمرأة في وقتها. أما الشيء الذي كان يفلتهم حياءً فكان: من أين له أن يعثر على امرأة كالحماة!!

لم يتجف على الشيخ سعادات ما يحدث في قلب القرس التي راحت تدور حول نفسها تنطلق صوب الأفراس وتفتلت.

- كبرت ما شاء الله وصارت عروسة. قال الشيخ السعادات، كما لو أنه يتحدث عن ابنته.

ثم قال: هذه القرس عندنا منذ سبعة جدد. ولم تخرج من بيتنا سوى مرتين. مرة حين سرقتها لصوص منذ زمن طويل، ولم تعد؛ قلنا الأرض بحثاً عنها، ولم نغلق الأمل إلا بعد مرور الوقت الذي نعيشه خيولنا، بعد أن تأكدنا أنها لا بد ماتت، وأنها لا يمكن مواصلة البحث عن عظامها. لكنها ظلت حسرة في قلوبنا،

- ذات يوم (حالت) فرس، ولم يكن لدينا من فحول غير أعيها، وكان يشتغل مثلها، ولكنهم حين ساقوه نحوها انكمشت فحولته وبدأ كما لو أنه تحوّل إلى أنثى مثلها. حيرهم هذا كثيراً، ولكنهم أدركوا السبب، هذا فحول أصيل، وهذه أخته. عبّ الشيخ السعادات كمية من الفواء تكفي لإشعال نار عظيمة في جرة داوية: كانوا يعرفون، أن قيام الفحول بها عليه الوسيلة الوحيدة ليلاد أنثى تنواصل بها السلالة. ولذلك لم يجدوا حلاً سوى أن يكتسبوا عينيه، وهذا ما حدث. ثم ساقوه نحوها، وحين تمّ لهم الأمر، رفعوا الغطاء عن عينيه؛ وعندها أدرك الحصان ما الذي فعله، فبدأت دموعه تنساب. ساقوه بعيداً، فتيهم كما لو أنه حبيل يُجرّ على الأرض، لا حياة فيه. وبعددها، رفض أن يأكل، أن يشرب، وظل هكذا حتى مات. ... كان خوفهم عظيماً على الفرس، خوفاً من أن تحمل فتكون الذكرى حية بينهم إلى زمن طويل في حصان يعدو أو مهرة تتخايل، وخوفهم ألا تحمل فتتعرض السلالة في أرضهم. وقد راحوا ينتظرون يوماً بعد يوم وهم يتطلعون لبطن الفرس، خائفين من كل شيء، إلا أن الأمر انقضى بنصف مصيبة، لأنها لم تحمل. وهكذا انطلقوا في البرية باحثين عن فحول يليق بها إلى أن وجدوه في سهول حوران. وظلّت الحيل تتكاثر بعد ذلك من بطنين ومن ظهريين. وما تروونه الآن يمكن أن تقولوا بأنه ابن عمها.

دلال امرأة

طيلة شهور تخليها تعاملت معها أهل الهادية، كأهل بناتهم، ولم يكن رجل يمسّ بجانبها، إلا ويتمنّى لها الخير، أما النساء، فكان دعاءهن الدائم: يا رب تقوّفها بالسّلامة. وهو الدعاء نفسه الذي يرفقته للنساء كي تسهل ولادة ابنة أو جارية أو أخت...

طويلاً ترقبوا بروز بطنها، استدارته، ورأوا فيها دلال امرأة تعرف حق المعرفة أي كثر ذلك الذي في رحمها. أولاً يقول الناس أنفسهم: إن ظهر الفرس عزّ وبطنها كثر؟

كانت الهامة تدرك ذلك، وبدأ سلوكها مع خالدها مختلفاً، ففدت أكثر هدوءاً واتقدت عيناها بفرح ناعس، وفي أحيان كثيرة كان يبدو له أنها تسير مثل بنت صغيرة لم تحبّ يجديلتها، تُلقبها مرةً على كتفها الأيمن ومرة على كتفها الأيسر، ومرة نحو النساء، أو تركض فتشغل بوقفيها على ظهرها.

حاولوا أن يتذكروا فرساً واحدة بدت على هذا النحو من التشوق، لم يتذكروا. أخيراً قالوا: لعل صفاء لونها هو ما يجعلنا نرى كل هذا؛ في حين أكدت منيرة أن السر يكمن في عينيها لا في بياضها.

الحاج محمود كان يخشى ألا يحمل، مما يضطرهم للعودة ثانية بها إلى أهلها من جديد، ولم يكن يريد أن يقلّ عليهم بضيافته، فقد تعاملوا معهم هناك كما لو أنهم أمراء.

لثلاثة أيام ظلت الذبائح تُذبح، والحفاوة بهم تسوق أي حفاوة عرفوها، أو سمعوا عنها من قبل. صحيح أن الحاج محمود كان كريماً، ولم ينزل في الهادية ضيف إلا عامله كأنه شيخ، فكل الرجال كانوا ضيوفاً أهزاء وتذبح لهم الذبائح باستثناء رجال الدرك التركي، أيها كانت الرتبة التي يعملونها، فهؤلاء، كانوا

يتصرفون أحيانا كثيرة على هواهم، فتعتمد أيديهم لأي حروف أو مسخل يريسون، يذبحونه بأيديهم، ولا يكتفون بذلك، بل يأخذون معهم ما تظالهم أيديهم، لوجباتهم التالية، من حمام ودجاج وديوك رومية. لكن هذه الفتنة من الضيوف الضال لم تكن تجدد في النهاية واحدا يمكن أن يصب الماء على يده أي منهم بعد الأكل. أما الأكل نفسه، فدائما كان الملح هو طعمه الوحيد.

في اليوم الثاني من وصولهم إلى ديار السعادات، بدأت طقوس الزواج، كانت الحمامة مثل حبة القمح في المقل، تتقاذف، أما الفحل الأبيض فقد بدا وكأنهم ادخروا ماء النيل لئلا ينفد هذا اليوم. دار حول نفسه، مُطِيلًا صهيلا عقيقاً ونائراً خصللات فترته، أما شعر عرقه فقد كان يتهايل في كل الاتجاهات في الوقت نفسه وهو يسر عتقه، فيرى المرء جزءا منه طائراً وجزءا هابطا نحو يمين وقبضه وجزءا صاعدا، وجزءا لا يكاد يمس الجانب الأيسر منها حتى يصعد ثانية في الهواء. كان شعره أشبه ما يكون بغزالة تركض، لا يعرف المرء إن كانت قوائمه مسّت الأرض قبل أن تعلق في الهواء، أم أنها انكثت على هواه لئلا يتلفتها ويُلقي بها ثانية للفضاء.

أما الحمامة، فلم تكن أقل جمالا بعنفها الطويل ورأسها الصغير وعينها المضيبتين بالرغبة. كان الفحل أضخم منها وأقرب ما يكون إلى فارس ممتلئ بالرجولة والرحمة والشوق المستعر في أن. لكنهما كانتا ممتلئة بالرفقة وذلك الشيء الساحر الذي يشع من جسد صبيّة تصعد بلهفة نحو أنوثتها.

يذكر الشيخ محمود تلك الوثيقة التي وقّعها ثلاثة شيوخ، تؤكد نسب الحمامة وأصلاتها. وما جد جاء اليوم لتوقيع وثيقة ثانية تؤكد أصالة ما في بطنها. راقب الشيوخ والرجال بعيون يقطعة لقاء التهاوين، صهلت وتلوت، وأطلق الفحل أسنانه برقة في عتفها، وحين تم له الأمر راح بعض الريح. ثلاث مرات سمحوا له (بالشبابية) عليها، وعندما انتهى الأمر، أشار الشيخ السعادات لخالد، تلكت فرسك، فَم إليها، لقد آن أوان الطراد. وكلهم يعرفون أن امتطاءها والطراد يجعل ماء الحياة يذهب بعيدا فيها.

بارتباك نهض، أحس بأن العيون كلها تَحْدَق فيه، تَحْسَل، فتى ألا تغدله الحمامة. تذكر أنها لم تفعل ذلك أبدا. وما إن وصلها حتى كان جلى ارتباكها قد فارقها، كانوا

قد جهّزوها، ثبّوا الشرج وألقوا بالرسن على عتفها. رأتها مليلا، منحت تلك النظرة التي كان يتمنى أن يراها، النظرة المَطْمَئِنَّة، النظرة التي تقول له إنها لم تنزل تذكرة. بخفة قفز على ظهرها.. فانطلقت تعدو.

... وحتى بعد ثلاثين سنة، حين سيستعيد تلك اللحظة، فإنه سيظل عاجزا عن تصوير إحساسها بما حدث في الحمامة وما حدث فيه. لقد راح يتعدى بها ويتعدى به، حتى ظنوا أنها لم يعودا أبدا، أو يتوقفا أبدا في أي مكان.

دارت عيون الرجال في محاورها تستغرب ما يحدث، كانت عينا الحاج محمود أكثر دهشة وخوفا.

لكنهما في النهاية أطلتا من جديد، فعاد الهواء إلى صدور الرجال ثانية، حاذت الحمامة الجنب، كما لو أنها وحدها، وليس ثمة من فارس على ظهرها، وظلت تعدو حتى اختفت في الجنوب البعيد، لكنهم كانوا هذه المرة أكثر ثقة في أنها ستعاود الظهور.

ثلاثة أختام، لثلاثة شيوخ أكَدَّت لقاء الحمامة بفخلها، وعادت وثبتت نسبها ونسبه.

حين انتهوا منها، نهضوا، تعانقوا بفرح كبير. متمنين لها السلامة ولسلالتها حياة كريمة في ظلال فرسانها.

بعد ذلك شق الشيخ السعادات الجنب ومضى نحوها، احتضن وجهها بين يديه، ثم انحنى حتى لامست إحدى ركبتيه الأرض، وبدأه قَسْلَ حافريها الأماميين، ثم نهض، احتضن وجهها من جديد وقبّل جبينها. وقبل أن يستدير بعينه للرجال، أخذ نفسا عميقا، ومعه انصهبت كل تلك الأحاسيس الجاثية قليلا قليلا من ملامحه، لتستقر عريضة في داخله.

توقفت، راحت تتأمل القرس، وكان يتأملها. ويبدو استدارت عنها نحو
وحدقت فيه. ولم تقل سوى ثلاث كلمات ستكون كافية لتغيير حياته: أتعرف...
هذه أنا! قالتها وهي تشير للحمامة.

حدق في وجهها، أدرك تلك المعجزة التي تحيل امرأة إلى شهرة؛ كما لو أنها كانت
واحد قد انقسم إلى نصفين.

انسلت من أمامه وهو يحدق فيها، وبدا وكأن جسدها قد انسحب غلظاً طيفه
بضيء المكان ويُعَمَّره بحضور لا مثيل له.

عادت الريح فهتت، ولم تكن لمة سيقان ذرة، كانت تهتت على وقع خطواتها. لقد
تركته الموسيقى مُسَمَّراً مكاته ومضت تتبعها. انتفض جسده انتفاضة سرية لم يشعر
بها أحد مثل الحمامة التي أطلقت صهيلاً عذبا. استدار، رآها تبتعد، غطاء رأسها
مرفوع على كتفي ريح خفيفة لا تفعل شيئا سوى أن تحمله برفق ليُخَلَق موازيا
اتسباب كتفها الصغير؛ حينها عاد من لحظة غيابه يبقن أي امرأة تلك التي تمضي
خفيفة وعالية لا تلامس قدمها الأرض.

صاح: ما اسمك؟

ودون أن تستدير أجابت: أسأفاً! وأطلقت ضحكة وهي تحاذي حقل الذرة،
فسمع تلك الموسيقى التي يثبث من رنة الضحكة وهبوب الريح وصوت طرف
غطاء رأسها المُحَلَّق ووقع خطواتها، تلك الموسيقى التي سيظل يستعيدها كلما
دأمت أحزان يرقها بها، وكلما احتضنت أفراس بمضي بها نحو كمالها.

هذه أنا!

في الطريق الطويل الذي يحاذي حقل الذرة، كان خالد يسير إلى جانب الحمامة
مسكاً برسها. ريح خفيفة تُسَدُّ الحقل، ناشرة في الهواء موسيقى خضراء ترتب
إيقاع المكان كله وخطوات الساترين فيه.

في تلك المساءات المضيئة بحمرة شمس الغروب كان يُحِبُّ أن يسير، مفتونا
بذلك التنوع السحري في لون الحمامة. لكن الأمر كان مختلفاً ذلك المساء، لأن
الريح الخفيفة التي كانت تهتت كانت مختلفة تماماً، حيث وجد نفسه يسير داخل
تلك الموسيقى، شبه متوهم لمسافة طويلة، وحتى بعد أن انتهى حقل الذرة، لم تتوقف
الموسيقى فواصل سيره. وقد تحولت ملاسة حوافر الحمامة للأرض إلى إيقاع
متناغم يرفع هذا اللحن العميق الذي احتل روحه وجسده على السواء، نحو ذرى
لا يبلغها أحد.

وفجأة تغير كل شيء.

وجهاً لوجه، وجد نفسه مع تلك الفتاة التي لم يرها من قبل، فتاة طويلة بعينين
عسلتين واسنتين وصدر ناهد وخصر نحيل. من تحت غطاء رأسها الأبيض
انحدرت جدلة وسارت طويلاً طويلاً قبل أن تبلغ كتفها وترغي على صدرها
المورّد بحرير ثوب أسود تغلظه زهور حمراء وزرقاء وصفراء وخضراء، تجتمع
كلها لتحتضن استدارة الصدر، وتندرد رويدا ورويدا مُشَكَّلَةً شلالات من أزهار
صغيرة نحو قدميها.

لم يكن هذا الثوب غريباً عليه، فكل نساء المنطقة يرتدينه، لكن المفاجأة كانت
تكمُن في سؤاله الذي مرّه فجأة: كيف يمكن لثوب أن يحتضن كل هذا الجمال في
داخله!؟

بهضت منيرة بائسة، كما لو أنها ذاهبة لوداع أمل لن يطرُق ثالثة أبواب حياتها.
صحوها في بدعها، وقطاع رأسها يسيل. وقيل أن تبلغ ساحة الحوش سمعته
يمن: واحضري معك أي صحنون لا تحبها.
تسُرت منيرة في مكانها، صرخت: صحيح؟

- صحيح.

وعندها راحت ترفع الصحنون واحداً تلو الآخر وتطرقة في الأرض.

هَبّ الحاج محمود راضاً نحو مصدر الصوت خارجاً من الإسطبل، عابراً
الحوش، بشعره المتكوش وسرواله الأسود ولحيته البيضاء التي عُلِقَ بها القش.
وعندما أهرأه نُكُشِر الصحنون صاح: شو.. بَدُكْ عريس!!

وكا لو أنها لم تسمع، كما لو أنه ليس هناك سواهما هي والقرح الظلمآن، راحت
تدور حول نفسها راقصة مُثَقِّلَةً وغاربعها، وفنامها:

يا ويها، وأنا اللي صيرت كثير

يا ويها، يا قلب الحبيب الي امتلا عصفير

ويا ويها، واحد بغتي والثاني فوقه يطير

يا ويها، ويا هالحير الي كسا روعي ابحير

...

ثم راحت ترقص، وتغني:

ما نغُرب حبيبي.. لكنه رجع

حامل فرحة كبيرة وقلبي ما وسع

فرحة غسلت روعي من غم ووجع

وضوت لي سهاي ووشعتْها الدار

- الله يعوض علينا انجُت المرا. راح الحاج محمود يردد، دون أن يُعير كلامه
انتباهها.

يا فلة حبيبي، يا ذهب والماس

يا تاج من الفرحه، زين روس الناس

وهاتوني ها الصحن، لكسر فوقه الكاس

85

صحنون منيرة

انشغال خالد بأحزانه كان كفيلاً بأن يرفع حائلها من ضباب رمادي بينه وبين ما
يجري في الهادية، أما انشغاله بالحمامة، فيما بعد، فقد بَدَأَ حائل الرماد، لكنه لم يتركه
يرى سواها.

.. فعل مدى أكثر من خمس سنوات، تزوّجت صباها كثيرات، وأنجبن،
وكبرت صغيرات وأصبحن صباها، ومن بينهن تلك الصبية التي يزغث فجأة في
ذلك الغروب ويددث عتمة سكنت صدره طويلاً، عتمة ما كان يظن أنها ستبدد
في أي يوم من الأيام.

لم تكن الهادية واحدة من القرى الصغيرة، لكنها في الوقت نفسه لم تكن تلك
القرية التي يمكن أن يجهل فيها الناس بعضهم بعضاً. وقد فُكّر خالد لأيام طويلة
فيما حدث، إلى أن أصبح على يقين من أنه ما أعظم حينه طوال هذه السنوات إلا
ليفتحها فجأة ويرى تلك الصبية، ولعله لو فعل غير ذلك لضاعت منه.

- كان لا بد أن تعيش في العتمة طويلاً حتى يقاچك النور. قال لنفسه.

الشيء ذاته حدث مع الحمامة، التي قُضتْ بابا، وتحولت إلى باب. ولولا
وجودها لما عبر ذلك الدرب عند الغروب، هكذا راح يفكر. ثم ما الذي يمكن أن
تفعله تلك الصبية لو كانت هناك فرس أخرى غير الحمامة؟ كانت ستتمرد دون أن
تلمحه، دون أن تشير إليها قاتلة: أتعرف.. هذه أنا. وهل كان يمكن أن يعرف من
هي وأي جمالها لو لم يقارنه بجبال الحمامة؟

- عيشي صحوئك. قال لأمته.

- ولكنني أنتظر ذلك اليوم الذي أسمعها فيه تتكسر.

- أرجوك عيشها.

84

عاشاتك لغتي حتى يطل نهار

...

يا طلة حبيبي، أحل من العسل
صافي زي الفسة ومشعشع بالأمل
لاطلع ظهر بيتي وأنادي الجبل
نا ترقص في حوشي غزلان وأشجار

...

يا طلة حبيبي يا عيول النبي
اتشرفي بغزال إيشر بالضبي
قلي: قلبي مال، ولا تتعذي
جانيك اعمل بأحل الأخبار

...

يا طلة حبيبي يا زهرة بنميل
على أسوار القدس وكروم الخليل
وعلى غرة وصفد .. والرملة وعيل
وحاملها يمتقارها وطايرها الشنار

...

يا ويا، وأنا اللي صبرت كثير
يا ويا، يا قلب الحبيب اللي امتلا عصفير
ويا ويا، واحد بغني والثاني فوقه يطير
يا ويا، ويا هالخير اللي كسا روعي ابخير

المقاطعة

انحدرت الشمس باتجاه البحر البعيد، لكن ما خلّفته وراءها من غيب كان
يوقد كل شيء، يكفي أن يضع المرء يده على حجر ليعرف أي ظهيرة عاشتها
المدينة، الطيور التجأت إلى شجرتي الصنوبر في بيت والذي إلياس. أصواتها تبعث
فوضى غريبة كما لو أن هنالك شجارا دائما بين الأغصان.

كانت الأمور آخذة في التطور، عرف إلياس ذلك حتى قبل ذهابه لحضور
اجتماع الطائفة الذي خصصته لمناقشة أوضاعها، وعلاقتها بأخوية القبر المقدس،
(وساءت الأمور بحيث أصبح كثيرون يطالبون بالعمل على طرد هذه الأخوية من
البلاد وتطهير الكرسي من مفايدها وآثارها. حيث لا حق لليونان في الرئاسة لا
كنسيا ولا سياسيا ولا أدبيا

- لقد احترقونا واتغمسوا في شهواتهم ولاموا علينا إذ نبذلناهم وعملنا على
طردهم..)

تم تشكيل لجنة من عشرة أعضاء لمقابلة الارشمندرت. استمع لمطالبهم صامتا
حتى النهاية ثم قال: الامتيازات الممنوحة لنا هي من حقنا، بحق لنا أن نتصرف
بالمال وأن تكون أماكن الزيارة بيدينا، وإذا ما أعطيتنا فإننا نعطى على سبيل الإحسان
لا أكثر!!

غضب خليل السكاكيني، أحد أعضاء اللجنة، وغادر المكان.

- ما الذي حدث؟ سأله أبناء الطائفة.

- ليس أمانتا سوى الحرب.

في ذلك المساء قرروا عقد اجتماع في بيت غنايل طليل.

- إذا عقدنا النية على الحرب فأول ما نحتاجه المال لأن في الطائفة فقراء
وأرامل لا يستطيعون الإستغناء عن الذهب.

- لا يستطيعون لأهم اعتادوا عليه، ولكن إذا كان لا بد من المال فعندنا طرق كثيرة لجمعها.

- إن الكلام الذي توجبه لنا الظروف الحاضرة هو أن نكون رجالاً أشداء، أن نكون بداً واحدة في هذه الحرب المستعرة بيننا وبين رجال الدين، سقط استبداد الحكومة وبقي استبداد الرئاسة الروحية فلتعمل على إسقاطه، ولا تخشوا في ذلك أساساً، لا تخافوا الساء لأن سلطتهم ليست من السماء، ولا تخافوا أن تُتهموا بكنز الجليل فليس لهم علينا أقل جيل، بل كلكم تعرفون السماء والأرض تعرفان أهم أساطيل معاملتنا، احقرونا، آذِلونا. قال خليل السكاكيني.

حين خرج الأب إلياس عصراً، أحس بشيء غريب، كان الطريق مزدحماً بطلبة المدرسة اللاهوتية للروم الأرثوذكس التي يلتحق بها طلبة يونانيون ويديرها اليونانيون أيضاً، كان المزدحم أن يعرضوا قوتهم أمام الطائفة، وقبل أن تتطور الأمور إلى درجة سيئة تدخل خيالة الحكومة والجند المسلحون، في الوقت الذي وصلت فيه أخبار تقول إن الرهبان مجتمعون على سطح الدير للوقوف في وجه مطالب الطائفة.

في مكتب متري تادرس اجتمع جورجى زخريا، إلياس حليبي، حنا العيسى، خليل السكاكيني وإلياس سليم، وقرروا كتابة عريضة احتجاج للمتصرف بسبب قيام أخوية القبر المقدس بالتحرش بالطائفة والهجوم عليها طيلة يومي الأربعاء والخميس. ثم قرروا كتابة بلاغ إلى البطريرك أعلموه فيه أنهم هازمون على الانقطاع عن الكنيسة إلى أن تنال الطائفة حقوقها.

ساء عقد اجتمع ثم فيه إقرار العريضة والبلاغ والتوقيع عليها. لكن الشيء الكبير الذي حدث تلك الليلة هو قرار المجلس المالي بأن يمتنع الكهنة العرب عن الصلاة وعيشت لجنة لتبلغهم ذلك والتعهد لهم أن الملة مستعدة لدفع رواتبهم.

- كنا نعتقد أننا سنراك في هذه الزيارة. قالت أم إلياس له.
- تعرفين، إذا ما استقر الوضع لصالحنا فسنرثني كثيراً، وأظن أن الأمور تسير بهذا الاتجاه، فما دامت الطائفة قد طلبت من الرهبان الفلسطينيين أن يساطعوا الكنيسة فهذا يعني أنني لن أعود إلى الهادبة إلا لإحضار ما لي من أراض هناك.
(بعد قليل نهض، وراح يلبف البريش على عنق الأرجيلة الزجاجي.

- إلى أين؟ أنت لم تجلس بعد!

- هناك مادية في (الفندق الكبير) وعلى أن أحضرها، سيكون هناك المتصرف وبعض أعيان المدينة والأدياء ورئيس البلدية فيضي أفندي العلمي.

المفاجأة التي غيرت الكثير كانت وصول منشور مطبوع من الطائفة الأرثوذكسية العربية في يافا يعلن انقطاع الطائفة عن الكنيسة، فقرر المجلس المالي أن تنزل الطائفة صباح الثلاثاء عن بكرة أبيها إلى دار الحكومة لمطالبة المتصرف بمخاطبة الصدارة العظمى ودعوتها للاستجابة لمطالب الطائفة..

اكتظت كنيسة مار يعقوب وساحة كنيسة القيامة حين اندفع الجميع لتلبية الدعوة، وسار موكب مهيب لا ترى العين آخره يتقدمه الكهنة الوطنيون إلى ديوان المتصرف.

كان الرد على تلك المسيرة سريعاً من البطريرك: بصفتي رئيساً عليكم، أمركم أن تُصلوا غداً وإلا اضطررت أن أعمل ما يكدركم.

غضب الناس كثيراً.

- وهل يريدنا أن نصلي بالقوة.

- إذا رَسَم البطريرك كاهناً فإنني سأقتل ذلك الكاهن وسط الطريق. صاح جورجى سمعان.

- وإذا صليت فاقتلوني حتى لو كنت أحاكم. قال إلياس.

سرّان دفينان

سرّان دفينان سيمضيان بالهجاب إلى نهاية غير متوقعة، الأول يسكن بيته والثاني ينتظره في السوق.

لم يكن أحد من الناس يعرف ما يدور خلف أسواره، سوى نسائه الثلاث، سلمى التي حبلت وولدت وملاّت الدار بسنة أبناء؛ وريحانة التي لم يستطع لمسها، وصبيحة التي اختطفها من بين يدي أهلها، وجاءت بولدين، وخلال السنوات الخمس التي أمضتها في بيته كانت مطبوعة إلى ذلك الحد الذي لم يكن مضطراً أن يعدّها لها حتى الثلاثة. بعد أن سمعته يقول لها (الثنين) بعد قدوم لينها الأول مباشرة.

وجود صبيحة كان لا بد منه لترميم حياته، في الوقت الذي غدت وريحانة غصته الكبرى، ومنذ اليوم الأول الذي رآها فيه، أحبها ذلك الحب الذي لم يحسّ به نحو امرأة أبداً، فسلمى كانت بنتا لعائلة كبيرة، أمها تركية وأبوها من باغا، وقد رفضوا في البداية زواجه منها، لولا تدخل القاتم مقام نفسه الذي أشرع له أبواب حياته.

- هذا رجل له مستقبل. قال لأهلها.

لكن الأيام مرّوا، وها لميتها، لأن الهجاب الذي بدا وكأنه بزغ من الأرض فجأة عارياً من ماضيه، سجد نفسه في النهاية عارياً على بوابة مستقبله. أما بيته الذي كان بأسواره العالية، قادراً على أن يعجب ألسنة النار، فلم يعد باستطاعته أن يجذب شحْب الدخان.

بين باغا والهادية عاشت سلمى، وكان على أولاده في النهاية أن يستقروا في باغا، كلها وصل واحد منهم إلى مرحلة الدراسة. وبات عليه أن يمضي معظم الوقت بجانب صبيحة وعلى مقربة من وريحانة، وريحانة التي حوّل صمئها البيت إلى قبر.

هي تعرف تماماً، أنه قتل زوجها، ولكن الشيء الغريب الذي حدث للمرة الأولى، أنه أحبها إلى ذلك الحد الذي لم يستطع معه أبداً أن يعترف بأنه قتلها. أما

الأغرب، فقد قيل بأن ينتظر فترة (العدة) قبل أن يتزوجها رغم الرفض المرتعد الذي أبداه أهلها.

كانت وريحانة تعرف حكاياته كلّها، وكيف يمكن أن يتزوج على الطريق ويُطلق خلف سلسلة الخقل المحاذي، أو يأخذ امرأة ويبيدها ذليلة بعد أيام. لكنها رضخت في النهاية، وحين خرجت من البيت بعينين جافتين، كما لو أن بكاءها على زوجها لم يترك في مأكبيها دموعاً واحدة، قالت له: لا أخرج من البيت إلا ومعى (الأدهم).

سألهم: ومن هو الأدهم؟

ردّوا: حصان زوجها. وتداركوا: حصان المرحوم!

أشار برأسه موافقاً.

بعد قليل سمع صهيل الأدهم، وحين رآه أدرك أنه أمام وحش لا أمام حصان. كان الأدهم فحلاً أسود، عاليًا، خفيًا بأستانه البيضاء وعينه الليليتين المشعّتين كجوهرتين سوداوين، قفز في الهواء، وأطلق ساقيه الخلفيتين فيدّجّ الناس الذين تحلقوا في المكان. ومنذ مقتل صاحبه، لم يستطيعوا وضع سرج على ظهره. كل ما نجحوا فيه وضع رسن.

لكن ثورة (الأدهم) هدأت قليلاً وقد أبصر وريحانة أخيراً والنقش عيناه بعينيهما؛ أشارت له برأسها، ولهم الإشارة. أغلقت جفنيها، أحتت جبينها، وعندما رفعت ثانية كان الأمر قد انتهى. ومنذ تلك اللحظة أصبح الهجاب والثاقم أن ما بين وريحانة والأدهم، أكبر مما يمكن أن يتصوره.

قاطعة كانت تلك الكلمات التي فجّرت في وجهه ما إن أغلق الباب، وخلع نصف ثيابه.

- تستطيع أن تأخذي عتوق، ولكنني بهذا لن أكون لك.

- وما الذي تريدني مقابل أن تكوني لي؟

- بسيط. قالت، وقد أحسّ برأسها يلمس سقف الغرفة الواسعة التي تحمّهمها.

- وما هو؟

- إذا استطعت أن تحمّي الأدهم، سأكون امرأتك!

كان الأمر أشبه بلعبة ساذجة لامرأة لم تعرف ذلك الرجل الذي يقف أمامها.
هكذا فكر. ولكن رعشة غريبة اخترقته كنصل دقيق، أحس بها تبلغ منتصف
صدره وتتوزع نصالاً أصغر في أنحاء جسمه كلها.
لكنه ابتسم

- وما هي الهلة التي تعطيني إياها لأفعل ذلك؟

- العمر كله! قالت بثبات أصبحت معه الشهام في جسده أشد اندفاعاً وأكبر
حجماً.

تقدم خطوة باتجاهها. لكنه تجمّد ثانية.

بعدها عمّ صمت طويل، ظلّ كلّ منهما يحدّق إلى الآخر، دون أن تطرف أي
عين لها حتى ملا صوت أذان القجر كل الجهات، عاد من وجوهه، اتحنى، تناول
نصف ثيابه عن الأرض وعن طرف السرير الذي لم تر رجاءة من قبل سريراً مثله،
وخطفاً استدار مغادراً الغرفة.

كان على وشك أن يقول لها: أراك مساء غد إذن. لكنه ابتلع كلامه قبل أن
يلامس شفتيه. وعصف به إحساس غامض بأنه قد وقع في حب قاتله التي أتى بها
مزعزعة إلى بيته، وكما لم يفعل، من قبل، مع أي امرأة، غير زوجته الأولى.

وصاح: إنني أحلم!

بكت منيرة سبعة أيام بلياليها، أما الجملة التي لم تتوقف عن ترديدها.

- يا حسارة صحوئك يا منيرة.

أما خالد، فقد بات على يقين أن ما رآه كان مجرد حلم، حلم فروب يوم صيفي،
عبر روعة خفّفاً، ولم يكن أكثر من شوق مجنون لبداية جديدة. توقّف أمام الحماة
في المكان نفسه الذي التقى فيه تلك الصبية، حدّق في عينيها وسألها: هل كنت
أحلم؟ هل ما رأيته كان حقيقة؟ هل سمعت ما قالته قبل أن تخفي؟ هل تذكرين
ضحكتها كما أستعيدها الآن؟ لم تنل الحماة شيئاً، هزّت رأسها، صهلت ثلاث
مرات، وفي المرة الرابعة سارت مبتعدة غير عابئة به، تركها، وحين استدار ورآها،
أوشك أن يسقط من فرط الدهشة: لقد كانت هناك. الصبية كانت هناك. بلحمها
ودمها، والحماة تفرك غرّتها بذلك الصدر المحاط بأزهاره الحمريرية الملونة.

- هل أراك فعلاً؟ سأها.

- إن كنت تراه!

- وأين اختفيت كل هذه المدة؟

- أنا لم أخف؟ ولكنك لم تكن تراه.

- ما اسمك إذن؟

- قلت لك أسأها؟ هل سألته؟

- لا.

- أسأها إذن؟

تناولت سلتها عن الأرض، رفعتها إلى رأسها، سلّة لم يكن رآها، خطت
باتجاهه، وظلّت تسير وعيناها تحدّقان في العمر الضيق، حتى أصبحت على بعد
خطوة واحدة منه. رفعت عينيها. كانت جملة إلى ذلك الحدّ الذي جعله يصرخ
محاولاً أن يوقظ نفسه: إنني أحلم. إنني أحلم. فتح عيني، ولم تكن هناك. وأثناء

صوبها، وقد أصبحت على بعد خطوات خلفه: ستحلم بي كثيراً.. ولكن ليس الآن.

- ما اسم أبيك إذن؟

- أسألفا.

وضحك. عادت الريح تهب على وقع خطواتها. لقد تركته الموسيقى تستر مكانه ومضت تتبعها. انتفض جسده انتفاضة سريعة لم يشعر بها أحد مثل الحماية التي أطلقت صهيلاً عذياً. استدأر، وأما تبعه، غطاء رأسها مرفوع على كفي ربح خفيفة لا تفعل شيئاً سوى أن تحمله برفق ليحلق موازياً لانسحاب كتفها الصغير، ومن لحظة غيابه عاد وقد أيقن أي امرأة تلك التي تضي خفيفة وعالية لا تلامس قدمها الأرض. صرخ: لقد رأيت هذا من قبل، إنني أحلم.

- لا، ليس الآن!

واختفت في حقل الذرة. انطلق ورامها راكضاً، تبعه الحماية، ولم يكن قصيرا في أي يوم من الأيام، مثلاً كان قصيرا ذلك العام، وقد أوشكت خضرة الحقل أن تبلغ السواء. كان ارتفاع سيقان الحقل يفوق ارتفاع قامته بكثير، قفز فوق ظهر الحماية، حينها تحرثان الحقل باحثين عن أي أثر لخرقة، أذناه تستمعان باحثين عن أي حفيف لتؤدبه ملاصقاً جسم أخضر هذه الخضرة. صرخ: إنني أحلم.

وجاء الصوت من كل مكان: لا، ليس الآن!

نادى: ما اسمك إذن؟

رد الصوت: أسألفا.

- ما اسمها؟ ما اسمها؟ صرخ في أذني الحماية اللثريتين كانتظار طويل.

- هل أخبرتك؟

عاد الصوت يتردد.

- لا.

- ستخبرك. كن مطمئناً.

ترجّل عن الحماية أكثر حيرة، وعندما رفع يده، ليربّت على وجهها، ويرجوها. اصطدمت أصابعه بملبس لم يعتده من قبل، ملمس ناعم، وأصلمت أصابعه الميت به، رفع عينيه، وهناك رأى ما بين وجهها والرسن، ذلك المنديل الشكري. تناوله، قرّبه من أنفه وراح يتشممه بعمق.

حروب غريبة

طيلة اليوم التالي لم تَزْ ريحانة الحباب، اختفى كما لو أن الأرض ابتلعته، رغبة مجنونة سيطرت عليه: أن يكون في متأى عن البشر.

لم يكن قد نام بعد الذي حصل، مضى نحو الأدهم حاول أن يضع عليه الترح، مع إدراكه أن الأمر ليس أقل من مستحيل. وحين لم يستطع همس لنفسه مويخاً: يُضَرُّ نظري يصل حد العمى.

بصعوبة تمكن من الوصول إلى الرسن، فحج مجنون رجّ المكان، وتناثر الشرر في الهواء مُنذرًا بالنار. لكنه لم يكن يريد العودة إلى امرأته في المساء إلا فوق ظهر الأدهم. قاومه الحصان، مزّق الريح يحرقه، ولو كان باستطاعة البشر أن يروا ما حدث بأعينهم، لرأوا تلك الحدوش العميقة في جسد الفواء.

استطى فرسه الحمداينة، بُثّ رسن الأدهم بسرجهما، تقافز الأدهم ثانية، حين رأى ريحانة في الوعكة هناك، فازداد جنونه.

متقدماً نحو البوابة الكبيرة للوحوش سار الأدهم أخيراً، لكن عينيه كانتا في مكان آخر حيث تلك القامة العالية.

ليس ثمة حيوان أذكى من الحصان، هذا ما يعرفه الناس هنا، ويؤمنون به، وقد فهم الأدهم ما تريده ريحانة منذ البداية، منذ اختلاطها به، حين طلبت من أهلها أن تراه على انفراد قبل مغادرتها بينهم.

ما الذي يمكن أن تقول امرأة لخصان تختلي به؟

نصف الحكاية كان واضحاً بالنسبة لهم، أما نصفها الثاني فيربض هناك في مجاهل المستقبل.

ابتعد الحباب، حتى بات على يقين من أن المكان الذي هو فيه لم يصله من قبل بشر، ولن يصله من بعد. واد سحق، ارتمى مرهقاً بين سلسلتين جبليتين، سهل

رمليّ شكّلته السيول عاما بعد عام، حاملة إليه مالا وأثربة وحجارة من كل أراضي المنطقة العالية الممتدة حوله.

أشبه بالدخول إلى حفرة عميقة كان الأمر. قاوم الأدهم، في حين غالبت الحمدانية برشاقة غير عادية تمرّجات طريقها الذي لم تسلكه فرس قبلها، لم يكن يعيقها سوى ثورة الأدهم، الذي كلما تقطع رأسه في الهواء عاتما، أحسّت أنه يرفعها عن الأرض ويعمل حزام السرج بنوع عميق في لحم بطنها.

سلطت الشمس حارقة، تصبّب العرق فوق جباه الثلاثة، والتمتعت خطوطه جذاول من رصاص ثقيلة. وقبل أن يبلغ طرف الوادي، فكّر الهباب بتلك المهمة الغبية التي يمضي لتنفيذها، وقد قَبِلَ تحدياً أرعن كهذا.

استدار بعنقه، ألقى نظرة غاضبة على الأدهم، فهمها الحصان، الذي راح ينظر في عينيه مباشرة.

في قاع ذلك الوادي، اكتشف أنه يُحِبُّ تلك المرأة وأنه أسير هوى مجنون يعصف به دون رحمة، هوى كان قد جعله يفكر لأول مرة بالتراجع عن قتل زوج امرأة اشتهاها يديه. لقد هزمت جنوناً وقد وجد نفسه مضطراً لإرسال رجاله لقتل الزوج، في الوقت الذي ذهب فيه لحضور واحد من أعراس قرية مجاورة على غير عادته.

للمرة الأولى، كان بحاجة إلى دليل براعة. لمن الحب، ومن يقعون في حباله، لمن سلالته كلّها، لمن العالم بأسره، والزمان الذي مَهَّد له سبيله دائماً، لكنه ترك له في منتصفه هذه المرأة بحصانها المجنون.

لم تغادر ريمانة العلية، بقيت واقفة هناك، عموداً حجريا يُراقب أيّ غبار يمكن أن تُثيره نسمة ضائعة وجدت نفسها صدفة في ذلك الفضي الحار الذي راح يتحول إلى ظهيرة متلذذة.

لقد أدركت ليلة الأس مرين، أي امرأة قد أصبحت، حين قَبِلَ بوجود الأدهم، مع ما يعنيه من وجود صورة ورائحة القتل، وقبوله بالتحدي الذي ألقته عليه، ولكنها وجدت نفسها في قبضة مخاوف متصارعة، وطمأنينة مفتوحة أبوابها على فجعية غير متوقّعة.

- لم يهزمه أحد من قبل. قالت لنفسها.

وأخافها هذا كثيراً. إنه وحش، وحين تتمكن من إصابة وحش بجرح، ستكون بين احتمالين: أن يثور أكثر ويشرّ ويقتل كما لم يفعل من قبل، كما لو أنه يودع القتل بقتل لا مثيل له، وإما أن يسكن ويراقب ما حوله بعينين كسيرتين ويودّع الحياة نازفاً على مهل.

أدركت ريمانة أنها قوية، ولكنها أدركت أكثر، أن كل ما حوفاً يمكن أن يندو رماداً لنار لم تر مثلاً.

- لا تقولي لي إنك قلقة عليه. جاءها الصوت من قاع الحوش!

- لن أقلق على أحد أكثر منه!

- الهباب!!؟ سألت صبيحة مستغربة.

- الأدهم! أجابت ريمانة.

بعد قليل كانت صبيحة تقف إلى جانبها.

ألقت ريمانة نظرة خاطفة عليها ثم استدارت تنظر إلى الأفق: زوجته الثانية أتت؟

- آه.. صبيحة. إن شاء الله ما يصير له شيء.

- الأدهم؟ سألتها ريمانة.

- الأدهم والهاب؟

- والهاب!!؟ سألتها ريمانة بغضب.

- لا تنسي أنه زوجي. ثم إن كل حياتي الآن مُعلّقة بكلمة واحدة يقولها.

- كلمة واحدة؟

- آه.

- وما هي؟

- ثلاثة!!

وقت طويل سيمرّ قبل أن تعرف ريمانة حكاية (ثلاثة) هذه، وحين ستعرف، ستكون أكثر اعطمتان تلك القوة الغامضة التي لم تزلّ تحميها حتى الآن، القوة التي لا مثيل لها، القوة التي تفصلها عن تلك المرأة في جميعهما المشترك.

بعد العصر بقليل شاهدت سحابة الغبار قادمة تجري نحوها. ولم يكن عليها أن تفكر طويلاً فيما يجنيه عمود الغبار المتصاعد للساه. الشمس خلفها والسهل مضاء بلهب لم يجن وقت انطفائه. حسّ دأيم بالخوف فاجأها. لكنها بانت على يقين من أن المسافة التي تجلفها الأدهم وراءه، ما بينه وبين الحجاب، هي المسافة التي يديها إياها على عتبة ليلتها الثانية، كي تترامى بينها وبين الحجاب نفسه.

اندفعت نازلة درجات العلقة، وأمام دهشة كثير من الرجال والنساء الذين يسخرهم للعمل في البيت، انطلقت نحو البوابة الكبيرة، أشرعتها.

ولفت ثابتة، ترأب اندفاع الأدهم نحوها، ويراقبها من وقتوا خلفها وقد تجتمعوا مع إحساسهم بأن شيئاً غريباً يحدث لأول مرة بين هذه الأسوار.

وكلما كان الأدهم يقترب أكثر كان يجيل هم أنه يطير، وأن قوائمه لا تمس الأرض أبداً، ومع ثلاثي المسافة، تأكد لهم ذلك، حتى أن صبحية أقسمت فيما بعد أنه نزل من الهواء كي يضع رأسه بين يدي ريمانة. لكنها أنكرت أنها قالت كلاماً مثل هذا فيما بعد، وقد أحسّت بخطورة وصول عبارة كهذه إلى مسامع الحجاب.

بعد الغروب، سمعت بوابة الحوش تفتح، وأصاحت الشمع أكثر، فالتقطت أذانها وقّعت حوافر فرس على الأرض وترجل ركبها. وبعد لحظات تقاطعت خطى كثيرة، حتى لم تعد تعرف إلى أي اتجاه مضت خطى الحجاب.

وقالت الحمامة شيئاً!!

الشمس في وسط الساء والظل نقطة محاصرة، الحاسين التجأت لأشجار الشرو.. اندثت في الخصرة الداكنة، أما حقل الذرة فقد هدا كما لو أن الموت سينزع منه فجأة.

اعتصر خالد جبينه بأصابع يده اليسرى، فكر أن يبقى في هذا اللهب واقفاً، حتى تظهر، لا بد أن أحداً سيُعلمها بالأمر، تعرف وتأتي، بعد ساعات اكتشف أنه لم يكن يفكر في الأمر بل كان يفعله.

تحول الطريق إلى خيط من الصمت، وانفجرت في الأعلى صرخات صغر حلق طويلاً، قبل أن يُغير على فريسة لا بد أن تكون قد تحركت. لم يتحرك.

لم تكن منيرة تريد أن تلفت الانتباه لما يفعله ابنها بعيداً عن بيوت القرية، طوشت لسانها، وجلس على قلبها خافة أن يسمع أحد دبيب الرعب الذي يبرّه. ولم يدم الصمت طويلاً.

راقبوا الشمس تدور حوله، راقبوا الظل يتقصر ويطول، مرّ اليوم الأول كما لو أن أحداً لا يرى ما يراه، وفي اليوم الثاني تماسوا، وفي اليوم الثالث اندفعوا من كل الجهات نحوه. وفي اليوم الرابع قال لهم: كل ما تستطيعون فعله، أن تأخذوا الحمامة بعيداً عن هذه النار.

كان قد صمّم أن يواصل بقاءه في المكان نفسه، حتى النهاية.

ابتعدوا بالحمامة، لكنها في اليوم الخامس عادت وحدها، ألقت عنقها على كتفه، حيرة: كم كان رأسها خفيفاً. تلمسها لكي يتأكد من أنها معه. كانت أقرب ما تكون إلى ريشة أو نسمة. دامه الرعب فجأة، أمسك بها خافة أن تهب ريح وتلعلمها عن جسده.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

همَّتَ الحِمامَةُ بشيء لم يفهمه، وكان الناس يراقبون عن بُعد.

- الحِمامَةُ وحدها تستطيع أن تعيده إليها. قالت منيرة: يخاف عليها أكثر مما يخاف على نفسه، لن يقبل أن تنفل في الشمس وافقة هكذا. لكن الحِمامَةُ تسَرت إلى جانبهِ.

في اليوم التالي، رأوه يخلع عيائه السوداء ويلقيها على رأس الحِمامَةُ: قالت منيرة: لقد جُرحَ الاثنان.

كانوا يودون أن ينتهي الأمر قبل يوم السَّوق، قبل أن تندفع القرى والمضارب من كل الاتجاهات نحو الحامية، قبل أن يأتي الغُيَّاب ورجاله، قبل أن يتحوَّل الأمر إلى حكاية يعرفون أي مدى ذاك الذي يمكن أن تبلغه.

جاء يوم السَّوق..

قبل شروق الشمس، اندفع الحاج محمود نحوه غاضباً، اندفع أخوته: سالم، محمد ومصطفى، منيرة، عمته الأنيسة، العزيزة، حاولوا أن يعودوا به، لكنه كان قد تحوَّل إلى رمح غاص في التراب، ولم يبق سوى القليل خارجه، القليل الذي بالكاد، يمكن أن تحيط به يد.

جاؤا بالشيخ ناصر العلي، وقف أمامه، سأله، وظلَّ صامتاً، وكان يعرف الشر: أعدتْ لك ذات يوم من كانت موجودة، لكنني لا أستطيع أن أوجد لك من لم توجد.

وللمرة الأولى سمعوه يتكلم: ستهلر.

مرَّ الغُيَّاب على ظهر فرسه الحمدانية قاصداً السَّوق، كان بعيداً، وخجِلَ إليه، خالد، أن أعينها التفت. بدا الغُيَّاب أقلَّ طولاً من أي يوم، ورأه الغُيَّاب كذلك، الغُيَّاب الذي لعن اليوم الذي وجدَتْ فيه المرأة على الأرض.

كل ما لم يقبله الناس قالته الريح، وهي تلتفَّ بصمت حوله، تدور وغضي بأسراره بعيداً، ولم يكن هناك من حل سوى أن تظهر.

فكَّرَ الغُيَّاب بمصيبتِهِ، ولم يعرف إن كان أكثر حظاً من ذلك الذي لحقه الشمس، أم لا. ورأى حياته أكثر حلقة.

ظهورها سيفتح خالد بوابة الأمل. لكن الغُيَّاب كان على يقين من أن الأمل لم يكن موجوداً من قبل.

لُمة شيء غريب أبْقَظَ شهية الجوارح في السماء، راتحة موت، ربما، أو الإحساس بوجود فريسة سهلة.

تكاثرت الصقور في الجو وأثَّرتْ نسور لم تظهر من قبل وغريان.

يعرف الحاج محمود أن ابنه لم يكن يقبل في أي يوم من الأيام، أقل من أن يمضي بالأمر حتى نهايته، ولم يكن ذلك جليداً، كان مستعداً لأن يمست شهراً كاملاً، أو بغضب شهراً كاملاً، أو أن يندفع حتى حافة الدنيا.

ذات يوم خرج خالد يقطع الأبقار نحو السهول التي كانت ضمن أراضي الحامية، وهناك وجد مجموعة من الرجال يرعون مواشيهم ويعتَون. كان يحب صوت (الشيابة) فظلَّ ينتظر إلى أن انتهوا من غنائهم. ذهب إليهم وطلب منهم أن يأخذوا أبقارهم ويرحلوا لأن المرعى للحامية. وكان النزاع على مناطق الرعي في بعض مواسم التَّحْطُّط يصل إلى إراقة الدماء. رفضوا. هددهم، سخرُوا منه، وقد تحلقوا حوله. عندها أدرك أنه لن يستطيع الدفاع عن نفسه ما دام في وسطهم. ادَّعى أنه سيذهب، وحين ابتعد قليلاً رمى حجراً أصاب أحدهم. لحقوه، وكان هذا ما يريد. هرب، إلى أن اعتل سفح تل صغير، وكلما اتقوا حجراً نحوه تلقاه بغضاه وأبعده، إلى أن أحسَّ بتعبهم، فبدأ بإلقاء حجراته، وبعد نصف ساعة كان قد أصابهم كلهم. بعضهم كان يصرخ وبعضهم لا يستطيع رفع يده وبعضهم انفجر الدم من رأسه مغضباً عينيه. تركهم على جانبيه، وعاد إلى القرية كأن شيئاً لم يكن.

كان لا بدَّ للفضاء من أن يتدخَّل لحلَّ المشكلة، مع وجود كل تلك الإصابات، رغم أن خالد لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره. كانت تلك هي المرة الأولى التي يلق فيها خالد أماً الشيخ ناصر العلي. سأله: ما الذي حدث؟ فقال خالد: كنت ذاهباً لرعي الأبقار في أراضينا فمتموني وتجمَّعوا عليَّ كلهم وضربوني، وكما ترى لا أستطيع اللُشي. ورفع طرف قُبْازِهِ، ليرى الشيخ ناصر قدمه التي لُقها خالد بقطع من القماش.

سألم الشيخ ناصر: وأنتم؟ وكانوا شباباً ورجالا وآثار إصاباتهم واضحة، فقال الأول: هذا الأشقر ضربني. وهو يشير إلى خالد. وقال الثاني: الأشقر. وهكذا راحوا يرددون الكلمة نفسها والشيخ ناصر العلي يزيُّ رأسه إلى أن انتهوا؛ وعندها

نظر إليهم وقال: إخش عليكم أكثر من عشر رجال يغلبهم ولد. وطلب منهم أن ينصرفوا. وقبل أن يفرجوا إسنى خالد وأبعد الزباط عن قدمه وهو يقول: وأعترف يا سيدي إني ما أصابني ولا حجر، وهاذي رجل سليمة وما فيها إشي!! وعندما راح الشيخ ناصر العلي يضحك من قلبه وهو يردد: والله إني حينئذ! روح الله ينصرك على كل من عاداك!

يذكر الحاج محمود ذلك اليوم البعيد الذي ذهبوا فيه لصيد الغزلان، يذكر كيف أصاب خالد غزالة كانت قد أنفلتتهم غفلة، وراحت تنوارى في سفوح لا تصمد لها الخيل.

فجأة ترجل، وصاح: ولكنني لي!! وانتقل يعدو خلفها. اغشى. انتظروه حتى تبعوا. تركوا خيولهم في الوادي. صعدوا خلفه متتبعين آثار خطاه وغيط دم راح يتحول إلى نقاط صغيرة حتى تلاشى في النهاية، كما لو أن جرح الغزالة قد جففته رياح اندفاعها.

عندما فقدوا الأمل عادوا. لعل الأمل وراءهم هناك. لعله عاد من طريق آخر، لعله مضى نحو الهادية وقد أصبحت أقرب إليه عند بلوغ السفوح البعيدة. عادوا..

ولم يكن هناك.

كان أكثر ما يقلقهم عدم وجود سلاح معه سوى يديه العاريتين.

اختبأ في السفوح يومين، حتى باتوا على يقين من أن الغزالة لن تعيده، أنها مضت به إلى (بلاد الزادود إيلي بتوذي وما بتعاود) كما تقول أمه، البلاد التي لم تعد يوماً أحداً أخذته.

طمأنهم الحاج محمود: سيعود.

في النهاية عاد خالد، الغزالة تنفلت حول عنقه، وتطوح الهواء بقرنيها الصغيرين، وصدره يثقلها الموقنة.

أنزلها عن عنقه، كما ينزل طفلاً، يهدوه وعبة.

- لو كنت مثلك لفلعت ما فلعت، ولو كنت مثلي لفلعت ما فعلت. ليس هنالك غالب ولا مغلوب، قال لها. أفتقنا؟!

لكنها كانت مغلوبة..

احتنى، حلّ وثاقها، تراجع خطوات قليلة، أصبحت في المنتصف تماماً، عيون البشر تحقّق فيها، وتعدّ بطوتهم بوجبة شمتها. بصعوبة وقفت، دارت حول نفسها، دون أن تفارق عيناها العشيّتان وجوه الناس. وعندما أدركت أنها بحاجة لجناحين على الأقل كي تتجاوز الحائط البشري المَحْكَم.

احتنّ رأسها لدقائق، وحين رفعت، كانت تحقّق في عينية مباشرة. وأمام دهشة الجميع سارت نحوه حتى وقفت أمامه ساكنةً تماماً. رفعت رأسها ثانية، لكنه لم يجرؤ على النظر في عينيها من جديد. وفهمت ذلك؛ ولذلك كان لا بدّ لها من أن تخطو الخطوة الأخيرة لتلاصقه، وأدرك أنها ستفعلها، وأن ذلك سيعني الكثير، لكنه لم يتحرّك، وتحركت هي، مثت طرف قمازها بوجهها. أحس بده أنفاسها، ولم يكن عليها سوى أن تجعله يحس أكثر بلمستها.

قطعت المسافة الباقية بين قمازها وجسده بملامستين رقيقتين له برأس قربها الأيمن. عندها هس الحاج محمود: إنها تستجير بك. وتراكم الصمت أكثر.

استدار بجسده قليلاً، كما لو أن قائمه قد تحوّلت إلى باب، ومنه خطت الغزالة خطوتها الأولى خارج الدائرة البشرية، وعلم مهلهل ظلت تسير إلى أن اختفت في البعيد.

- كيف عدت؟ يا سألوه.

- مثلاً قعيت. هدموه. انتظروني في الطريق الذي لا بدّ أن تعودت له، وكان لا بدّ أن تعود. اختفيت وراء صخرة دون حركة إلى أن سمعت وقع خطواتها يقترب، حبست أنفاسي، إلى أن وصلت، وعندما التفتينا معاً وجهاً لوجه، بقينا صامتين، وقبل أن ندرّك ما يدور كنت قد أمسكت بها.

بعد ثلاثة أيام من انقضاء السوق، كانوا قد فقدوا الأمل تماماً، وباتوا مستسلمين للفضيحة التي لم تعد سرّاً، تركوه وحده مع الهامة، نصفهم غضبٌ ونصفهم شفقة. امتدت يده إلى جيب قبتازها، ما إن ابتعدوا، أخرج منديلها الشكري وراح ينشمه.

عند الغروب سمع خطواتها، حبست أنفاسه، أطلقت الهامة سهيلاً مكتوماً، ربت على عنقها طالباً منها أن تهدأ، واقتربت الخطى أكثر وأكثر، إلى أن تأكد من

أنا خطوئها؛ وفي تلك اللحظة دأبهم حسٌ عميق بأنه لن يسمع بعد اليوم خطاها
تبتعد.

هدأ كل شيء فيه، لم يكن بحاجة إلى أن يتحفظ، أو يقفز، أو يفلت، ظلت تسير إلى أن
وصلت ووقفت أمامه وجها لوجه.

وحين سارت من جديد احتك ذراعاه به، فاستيقظت هناك لمسة الغزالة.
ويبدو راحت تبتعد.

هبت ريحٌ خفيفة فجأة، حركت عيدان القصب، استدار، وراح يسير وراءها
بالهدوء نفسه، وخلفه كانت تسير سحابة بيضاء.

خنجر ومخلدة بيضاء

وقف فوق رأسها، خنجره لامع في يده، وصوتُ تنفسها ينشر في الغرفة إشراق
ذلك الهواء الهادئ الذاهب إلى عمق رثيها، والخارج منها أكثر هدوءاً.

يقتله اطمئنانها، تقتله تلك الثقة العارية من أي شيء يجمعها سوى نفسها.

عل المخلدة البيضاء المزيّنة بورود حريرية يحتضن الليل ألوانها، كان وجهها
القمحي تحت ضوء الصباح الخافت قد تحوّل إلى ذهب خالص، في حين ارتدى
شعرها مضيقاً بترقالية لم يرها من قبل.

- هل كان عليّ أن أطيع أحاسيسي. قال الهباب لنفسه.

إياها المرة الأولى التي يحسّ فيها بأنه يرتكب خطأ بهذا الحجم، لكنها كانت
هناك، ورآها، وشكّلتها إلى نصفين، وهوى.

لم تكن أكثر من امرأة خجول، مثل بقية النساء وهنّ يقابلن غربياً في الطريق،
سحبت طرف عطاء رأسها بسرعة، شدّت عليه بطرف قمها، وسارت تحلق في
الأرض. ولم ير فيها سوى امرأة جملة خجول، لا تُنذر بشيء. امرأة هادئة، تتعثر
خطواتها ارتباكاً، وتكاد تدخل بين شجيرات الصبار، غير عابئة بأشواكها، وهي
تحاول الانتماء ما استطاعت.

لكنه رأى وجهها ملائكياً لا شبيه له.

أطلق العنان للحمداية حتى اختفى، تملّقا إياها وراءه، وحين توارى في
التعطف بعيداً، ترجل بسرعة، ربط فرسه بغصن شجرة مشمش فاضت ثمارها
فملأت الأرض تحتها بشموس صغيرة ناضجة تُشتهي. بحث بعينه عن موقع
يمكّنه من رؤيتها جيداً، دون أن تراه بسهولة.
وجَدَهُ.

سمع خطاها تقترب شيئاً فشيئاً، وللمرة الأولى أحس بأن تلك الخطوات تُرْتَبُ
إيقاع نبضات قلبه على صوت نهديها.

طويلة كانت، لم يستطع معرفة ذلك تمام عندما كان فوق ظهر فرسه.

فلّت تسير إلى أن وجدت نفسها ثانية أمامه.

وقفت.

حدثت فيه بغضب: لقد أكرمك هناك حين داريت وجهي لأنني كنت أظن
أنك رجل أصيل. أما الآن فلن أمتحك هذا الاحترام.

لم تكن ريمانة قد رأتَه من قبل، لكن أخباره كانت تغمر الأرجاء برائحة ننتة، لا
تطيقها امرأة ولا يطمئن لانبعاثها رجل.

ولللحظة، دامها ذلك الإحساس اليوم بقوة: إنه هو. ولعلها ربطت بين ما
سمعتَه عن فرسه الحمدانية والفرس التي يمتطيها.

أدارت وجهها باحثة عن الفرس، وأثأ بعيدا.

- لا يتسلل حرٌّ من خلف فرس حرٍّ للتخلص على أصائل غيره. قالت
بغضب أدهشه.

بحثت عن أولئك الملائكة الذين رآهم قبل قليل في ملاعها..

لم يجد أياً منهم.

جيلة كما لو أنها لم تطأ تراباً، كما لو أنها ليست من تراب، أنفها المستدق، وجهها
الشدود الذي يزداد جمالا بالتخاضين ما بين فكها وخديها، عتقها الطويل، المسافة
العظيمة ما بين كتفيها وأذنيها، شفتاها المثلثتان اللتان تنتهيان بتلفطين غامضتين
شهيتين، أسنانها البيضاء القوية وجبينها الصافي كالماء.

راقبها وهي تبعد، غارقاً في مشاهير لم يعرفها من قبل، مشاعر مُستمرّة انفجرت
متلاطمةً تمزّق روحه: وبعد زمن قصير، لم يبق منها سوى ذلك الوجه الملائكي.
الوجه الملائكي نفسه الذي يتأملُه في نومه المطمئن الآن، كما لو أن الساء بنفسها
جاءت تحمره.

سقطت يده إلى جانبه واعنةً، ولم تكن أصابعه أكثر من قطعة قماش مُسدلة،
وقد سقط خنجره على الأرض أعزل من كل ذلك الشر الذي طالما سكنه.

- أتى عث هذا، أن تكون لك امرأة بهذا الجمال، ولكن رغبا عنها؟ تستطيع أن
تأخذها الآن، لكنها لن تكون لك كما تشتهي: امرأة للأبد. تصحو على قلبها مقلية
عليك بحج الصباح، وتنام على صدى ضحكها التي غلا البيت. امرأة تستطيع أن
تطمئن لأصابعها وهي تمتد لك بكمب الماء أو صحن الطعام.

يهدهو خرج دون أن يدري أن خنجره لم يعد في يده.

نزل درجات العلية، صاح أكثر من ديك مُعْتَباً قدوم فجر لم ير منه الحباب شيئاً
في الأفق.

سار عبر الساحة الموحشة للبيت حتى الإسطبل. أحس الأدهم بخطواته،
سهل متقافزا في الهواء، تبعته بقية الحيو، وضاعف هدوء المزيج الأخير من الليل
فوضى الصهيل، فتراجع الحباب ثلاث خطوات للوراء، كما لو أنه ليس أكثر من
سارق خيل.

لقد حرم، هذا ما أحس به منذ أيام، رأى الشيب يتدفع مجنوناً مثل شلال من
جانبي رأسه نحو لحيت التي بدت طويلة أكثر مما يجب، ورأى شاربيه أكثر بعداً
من أي يوم مضى. قويل طويلاً على أن يرفعها، أن يفتلها مرات كثرات ولكنها لم
يكونا مثلها كاتاً.

تعمد أن يمر أمام ريمانة، يقف، يراقب عينيها ويسمع ما يقوله صمتها حين
تنظر إليه: تعمد أن يظهر شعره، أن يُبصر فيها ما يمكن أن تلاحظه من فرق بين ما
كان وبين ما أصبح، لكنها كانت أكثر ذكاء من أن تسخر من رجل مجروح، وأكثر
بعداً من أن ترى شيئاً بعينه.

كتمت كل شيء في داخلها، وحين ابتعد، حين أصبح خارج بوابة الحوش،
سمع ضحكة قادمة من العلية، صرخة انتصار، وقيل أن يستدير ليتأكد، سمع
صرخة ذلك العقاب في السماء، ورأه، فلم يجد ما يطمئن به روحه الممزقة سوى أن
يلن أن الصرخة الأولى أطلقها العقاب نفسه.

من طرف الشباك شاهدت ريمانة الحباب يتبعد والعقاب يمر من فوق البيت،
كان قريباً إلى ذلك الحد الذي ظنّت معه أنه كان فوق السطح.

لقد حرم وشاب قبل أن يمتطي ظهر الأدهم.

هبطت من العلبة، مضت نحو الأسفل، أبصرتها زوجته صبيحة، وحيرها أن ربحانة فرحة إلى درجة لم تكن تتصور أن امرأة متبلغها في هذا البيت، أحست بغيرة لم تعرف سببها، وحين اختفت ربحانة داخل الأسفل وكشفت وراءها، وهناك رأته ما لم يسبق لها أن رأيته في حياتها السابقة تلك، رأته ربحانة تحتضن رأس الأدهم وتقبله من أعلى نقطة في أذنيه حتى فمه المريض.

ارتعدت، رجعت خطوات للخلف. لمجدت، حتى أنها لم تسمع خطوات ربحانة القادمة من الداخل نحوها، وفوجئت بها لتر أمامها، تلقى عليها تحية الصباح، ولا ترد، وهكذا بقيت في مكانها إلى أن راح أولادها يشدونها من أطراف ثوبها طالبين منها أن تتحرك..

سنة البنات

سنة الخير كلها خير، هذا ما أدركه أهل الغادية منذ بدايتها، كانت غالبية المواليد ذلك العام بنات، وهم يقولون دائماً (سنة البنات ثبات وسنة الفحول تحول ١١). وزادت الخير خيراً تلك الصبية التي اكتمل بحضورها عودة قلب خالد من ضياعه.

كان العرس عرس الجميع، وكانت (ياسمين) الفتاة التي يتمناها كل رجل وامرأة لابنتها: جميلة وجذابة وبنات أصل.

وقف حمدان على ظهر المضافة، وصاح: يا سامعين الصوت، صلوا على النبي محمد، يكره ما حدا يسرح، لأنه في خطبة لخالد ابن الحجاج محمود. وأعاد نداءه ثلاث مرات أخرى، وفي كل مرة كان يدير وجهه إلى جهة مختلفة.

لم يكن حمدان وثقاً من ندائه وفرحاً به من قبل، مثلما يحدث معه الآن، كان السهل يتناول في المدي يستأله التي تضجت، الريح تحمل حفيف الزرع وتشره في الأذن، وأشجار الزيتون لم تكن أكثر خضرة في عينيه مثلما يراها تحت الشمس الداعية للمغيب، أشجار مضية تعبد بموسم لم يروا من قبل مثله.

أما أخوته سالم ومحمد ومصطفى فقد انطلقوا على ظهور ربح والجليلة والخضراء لدعوة رجال من قري بعيدة للانضمام للجاعة.

كان الأمر قد تم قبل يوم، حيث زار الحاج محمود مع الشيخ حسني وعدد من رجال القرية بيت والد ياسمين؛ اتفقوا على كل شيء، ولم يكن قد تبقى سوى حضور (الجاعة) الرسمية.

توافد رجال من قري المنطقة كلها، وعلى رأسهم الشيخ ناصر العلي. ضجت الحياة في ساحات القرية وشوارعها كما لم يحدث في أي عيد، امتلأ الضحى بالبهجة، انطلق الفرسان على ظهور الحبل يسابقون الريح، وحضر الأب ثيودورس بثوبه

الأسود الطويل، ولم يكن من اللائق أن يتخلّف عن مناسبة كهذه، رغم شكواه المتكررة للحاج محمود من القرية التي "بيّأ لي أنها لم تعد تدفع ما عليها كما كانت تفعل، وإن العُشْر تضاعل كثيراً بحيث أصبح أقل من نصفه."
- أنت تعرف أن السنوات مثل أصابع اليد، لا تشبه سنة منها أختها.
- إني أسمعك جيداً هنا، ولكنهم لا يفهمون ما نقوله هناك!

...

في البعيد رأوا أهل عروستهم بانتظارهم، ولم يكن أي منهم غريباً، فأراضي قرية العروس ملاصقة لأراضي الهادية، وكان الليل كفيلاً دائماً بأن يجعل سهرات أعراس القرينين وأحزانها للقرية الأخرى بطريقة أسرع مما تحملها الخيول، ولطالما قيل إن صدى الأعراس في إحداها كان يجعل الناس يرقصون في ساحات القرية الأخرى.

الرجال في المقدمة، يتوسطهم الشيخ ناصر العلي والأب ثيودورس، وخلفهم النساء اللواتي تصاعدت أغانيهن خلال المتحدث:

قطعنا البحر يا عمّي على اللي خصرها طمّو
قطعنا البحر بحرين على مكحولة العين
قطعنا سهلنا الأخضر لضحكة ما القمر لشمر
ومشينا لك تشي الطير حتى ما تكوني لغيري
ومشينا لك يا أصيله حتى نفرح فيك الليلة
ومشينا لك من الهادية نغني والنية صافية

وحينما أصبحوا أكثر قرباً، انتطلت أغاني أخرى، تجلّد أهل العروس وتُمدد بحاستهم:

يا بّي محمد جيتالك جيتالك
قوم استقبلنا بخيولك ورجالك
يا بّي محمد يا كبير الشان
يا حصان اعوط باشوّة وغزلان
يا بّي محمد يا شباك العليّة
يا ألف شمعة جزّاروحي مطوية

ثم ارتفعت حرارة الحناجر أكثر:

قوليل وين دارك يا ياسمين يا مليحة
والله لتبع أثارك لو حتى على (ريحا)
قوليل وين دارك يا ياسمين يا لطيفة
والله لتبع أثارك حتى القُدس الشريفة

...

يا طول الشعر الأسمر من عكا حتى (يافا)
ومن (غزة) حتى (الجدل) من حيفا لـ (صفاقة)
وكنا لو أن والد العروس راح يحيي الجماعة غنت النساء على لسانه:
يا هلا ومرحّب بالي هلوّا علينا!
بنرحب فيهم وينحطهم في عينا!
يا هلا ومرحّب بالناس الأجاويد!
عطوة عزيزة خضرا زي يوم العيد!

بعد أن شربوا قهوتهم، قال الحاج محمود لولده: قم قبل يد عمك، فنهض، أخذ يد أبي محمد، والد ياسمين، لكن والدها سحب يده.
- الرجال الذين مثلك نعاتهم. واحتضنه بين ذراعيه، وهمس له: أعطيناك (ياسمين) فأحرص على أن تظل ندية دائماً.
- ستكون في عيني دائماً يا عمّي.

- الصحيح يا منيرة أنا لم أترك، ولكن الله هو الذي اختارك لي، ومن حسن حظي أن الله يحبني، وإلا لكان نصيبي واحدة أخرى.

- صحيح؟

- طبعاً صحيح. ما هم يكبرون، ويتزوجون، وليس لنا في نهاية الأمر إلا بعضنا بعضاً.

- إن شاء الله يكبروا في عزك، تحت ظلك، وتبقى سنداً لنا كلنا.

بعد يومين مالت منيرة نحو الحاج محمود وهمت: مرت خمسة أيام ولم أر العروس.

- الجمعة إن شاء الله نذهب.

- الجمعة بعد.

- أخبريه سنذهب الجمعة. وهو وحظه، قد يراها وقد لا يسمحون له بذلك.

كانت في الحقل، حين لمحتهم قادمين من بعيد، راحت تجري. كانوا أكثر قريباً للبيت منها. أدركت أنها لن تسبقهم، فاحتضت في كرم العنب، وظلّت هناك، حتى دخلوا البيت. خرجت من بجبتها، تسلك خاتمة، دارت حول البيت، قفزت عن السور الجانبي، وعلل رؤوس أصابعها ظلت تسير إلى أن وصلت قرب الطابون، ولسب ما فتح الباب، وسمعت خطوات تبعه نحو الحويل، فالتفت بنفسها في جوف الطابون.

حدثت الله أن النار انطفأت من زمن بعيد، لكن ذلك لم يمنع أن تحس بحرارة الطابون ترتفع قليلاً قليلاً. مسح العرق المنصب من جبينها، تطلعت للباب الذي تحول إلى طوق نجاتها. ثلاثي وقّع الخطوات، لكن ضجة كبيرة باغتتها، فحشرت جسدها في المنطقة الأكثر سواداً.

تعرف، أنه لا يجوز أن يراها أو تراه، وسيظل الأمر هكذا حتى يوم الزواج. انشغلت بعد الأيام، وحين انتهت، لم يكن هنالك أي صوت.

خرجت زاحقة، مرّت من تحت أعتاق الحيل، ولم تكن الحاماة هناك، حتى وصلت شباك الغرفة الغربية، تسلفت حافته وألقت بنفسها للدخول.

- ما الذي فعلته بنفسك؟! صرخت أمها.

- اختبأت في الطابون.

أشواق

الشيء الذي لم يحسب له خالد حساباً، أن الشوق سيعصف به، ويتركه عرضة لليال لا آخرها.

راح يتحين فرصة ليراه، ولم يكن الأمر سهلاً، لأنها في قرية أخرى، وبجزة مروءة من هناك لن يكون سراً. انتظرها في المكان الذي رآها فيه دون جدوى، إلى أن أدرك أن ما قبل الخطبة لا يشبه ما بعدها. وأن عليه اليوم أن ينتظر طويلاً حتى تكون له.

استدت يده إلى جيب قمبازه، أخرج منديلها السكري وراح يتشممه بانتشاء.

لقد اتلفوا: الزواج يعون الله مع موسم الزيتون.

هكذا كانت تتم الأفراح، في مواعيد المواسم، حيث الخير كثير، وفرح الناس يتحول إلى التين، فرح العرس وفرح قطف ثمار عزيهم الذي فاض طوال العام.

الشيء الذي لم يستطع خالد أن يفكر فيه، هو أن يذهب بمفرده، فهو يعرف أن ذلك لن يكون لانقا، لأن أهل الخطبة يشكون دائماً من كل عيطب يبلغ في محاولاته كي يرى عروس المستقبل. ذلك سيحوّله إلى مجرد ولد صغير لا غير، يتلقى ملاحظات قاسية، وإن كان ظاهرها العنب، لكنها أقرب ما تكون إلى خيبة الأمل.

أحسّت منيرة بذلك، مالت نحو الحاج محمود وهمت له: شو رأيك نزور العروس.

- ما الذي تقوله يا امرأة. نحن كنا عندهم منذ ثلاثة أيام؟

- والله اشتقت لها!

- أنت التي اشتقت لها أم قرة عينك، أنظفني أعمى؟

- أعمى؟! أستغفر الله، وهل هناك صاحب نظر أكثر منك، يكفي أنك

اخترتني!!

- والله لو راوك هكذا لفسخوا الخطبة!
ولم يطمئن قلب أمها إلا بعد أن رأتهم يغادرون أرض القرية. عندها صرخت
بها: أمان.
خرجت، وحين رآها أبوها راح يضحك ويضحك، ثم نظر إلى أمها وهو
يضحك: لم أكن أعرف أن في بيتنا فترانا بهذا الحجم!

مواسم الرياح

فجأة راحت الأمور تسير في اتجاه آخر؛
ذات مساء وصلت إلى الحادية مجموعة من رجال الدرك، على رأسهم (ياور) أو
ما يسمونه المساعد العسكري، مع أحد محضلي الضرائب، ظنوا يصعدون التل
حتى وصلوا باب المضافة. ربطوا خيولهم بجذع شجرة التوت، لكن أحداً لم يخرج
ليرحب بهم، كانت المضافة خالية، وليس هناك سوى حمدان الذي ما إن رآهم حتى
استدار بوجهه بعيداً، كما لو أنهم ليسوا هناك.
قاسية جاءت من الضربة من الخلف، غاصت بجرمة الياور في ظهره واقتلعت من
مكانه، فسقط على وجهه فوق موقد النار ودلال القهوة.
وعندما حاول التهوض، تلقى ضربة أخرى بعقب بندقيّة الياور، فرقع الألم
عالياً وألقى به عند باب المضافة.
وقت طويل مرّ قبل أن يصل الرجال إليه، كان ملطخاً بالقهوة، وأصابه عثرة
وراحت يديه؛ يش بصمت متكوراً على نفسه وخائفاً من ضربة ثالثة تبتدئ جسده.

- ما تدفعونه من ضرائب أقل بكثير من هذا المُشرّ النافه الذي تسلمونه للذير.
لقد راقنا الأمر طويلاً. وكانت النتيجة أن ما يصل لا يشمل ما لديكم من أبقار
وأغنام وماشية وخيول وجمال وبشر. قال محضّل الضرائب، ذو الوجه المستدير
والرأس الملتصق بكتفيه تماماً بسبب عدم وجود رقبة.
حدّق في وجه الحاج محمود: لن نخرج من هنا، قبل أن نحصى كل شيء.
استدار، توجه نحو باب المضافة، خلفه الياور وعدد من الجنود، وقبل أن
يصلوا البوابة، صاح الياور بجنتي لم يروا من قبل أحداً طويلاً مثله: إنذهب
واحضر ما تراه مناسباً لغداًتنا.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

بعد مرور ساعة، كانت البلد كلها قد تجتمعت أمام المضافة، تفلّت الشباب نحو أولئك الذين كانت تصل ضحكاتهم من الداخل مجلجلة، لكن الحاج محمود أشار لهم أن يهدأوا.

تراجع خالد، سالم، مصطفى، ومحمد.

بعد قليل، عاد الدكتور الطويل يجرّ بقرّة، عرفوا أنها واحدة من أبقار الشيخ حسني. سار بها نحو الزاوية اليمنى خوفاً من المضافة، أمسك بها من رأسها، وبحركة واحدة أدهشت الجميع أطاح بها أرضاً. تقدّم لثان من الجنود، أولئها، ويلمح البصر استلّ خنجرا من مكان خفي ونحرها. تناثر الدم حتى لطفح أطراف ثياب كثيرين ممن كانوا يقفون بعيداً، ووصلت قطرات منه إلى خية الحاج محمود البيضاء الطويلة. لم يلاحظ ذلك. اعتصر خالد جبينه بأصابع يده اليسرى دون أن تتفارق عيناه قطرات الدماء، امتدّت يده اليمنى، مسحت الدم. أمسك الحاج بيد ابنه، نظر إليها، وهناك، رأى الدم يُطْفِئُ أصابع ولده. لاحت منه التفتاة إلى صدره فرأى الدم قد لطفح فُجْئاً من الرقبة حتى آخر نقطة قرب النعل، وتواصل غيط الدم حتى عتق البقرة.

على مدى يومين، لم يظهر أي من رجال القرية في المضافة، أو في حوشها، كان الجنود يتصرّفون كما لو أن القرية قد تحوّلت إلى معسكرهم.

ذبحوا ما فاض عن حاجتهم من ماشية ودجاج وحمم، وبخيوهم طافوا حول القرية مرات ومرات وعبر حقولها، بحيث تحوّل كثير من حقول المسمم إلى امتدادات لا نفع منها. وفي ظهيرة اليوم الثالث حدّدوا الضراب التي على الناس أن يدفعوها لهم. وعندما وصلوا لتحديد الضرائب المترتبة على بيت الحاج محمود، قال محصل الضرائب دون مقدمات: وعلى هذه الفرس البيضاء ضريبة، وعلى ما في بطنها ضريبة. ثم صمت قليلاً وقال تلك العبارة التي كانوا يخشونها: بل، ستكون هذه الفرس هديتكم لوالينا بدل الضرائب المستحقة على هذا البيت!

تقدم سالم خطوتين، وقبل أن يخطو الثالثة، أمسك به خالد من كتفه. مطبقاً بقوة، وعزّها أصابعه بطريقة أدرك معها سالم أن عليه أن يبدأ لأن أخاه يفكر بطريقة أخرى.

اعتصر خالد جبينه بأصابع يده اليسرى، تراجع الغضب واستقر عميقاً في الأحشاء.

الشيء الغريب الذي لاحظوه أن الحوري ثيودورس لم يظهر طيلة الأيام الثلاثة. أهلك باب الدبر، وبدأ وكأنه يعيش في عالم آخر تماماً. أحس الحاج محمود بذلك، فلم يفعل أكثر من أن يمز رأسه وهو يفكر في هذا الأمر.

- إنها رسالة إلينا.

عند المغيب ركب رجال الدرك غيولهم، قاصدين التلال الغربية، عمليين بكل ما وقعت عليه أعينهم من أشياء ثمينة، وما امتلأ به سروجهم من أموال. ظلّ خالد يراقبهم حتى اختفوا تماماً، ولم يبق في الأفق سوى ذلك السطوع البهيم للحمامة. حدّق أهل القرية فيه كما لو أنهم يلمعنوه، والجنون يكاد يعصف بعقولهم: كيف صمّت إلى هذا الحد؟ كيف تخلّ عن الحماة وما في بطنها، وماذا سيقول للشيخ السعادات؟

استداروا بوجوههم بعيداً، ولم تكن منيرة أقل دهشة ولا الحاج محمود. أما سالم فلم يقل أي كلمة، ابتعد قبل الجميع، وهو على يقين من أنه قد أخاه إلى الأبد، أنه لن يُكَلِّمَهُ.. ولن يجتمعها بعد اليوم بيت. أما محمد ومصطفى فكان الدمع يغمر أعينها.

أطبق الليل تماماً على الدنيا بعد أقل من ساعة. الصمت وحده يحرث المكان بالأسئلة المقطوعة وأطيافه التي تسير ملتصقة بالجدران مخافة أن يراها أحد.

في الغرفة الطويلة كان الدمع يجري متحدراً، وثمة عجل يعتصر الجميع.

- الآن، أمضي. قال خالد.

- إلى أين؟ الليل ليس لك. قالت منيرة.

- الليل ليس لي، والليل ليس لسواي.

سمعوا عطاء يتبعه بانهاج الإسطبل، وبعد دقائق سمعوا وقع أقدام رجل يسير إلى جانب حصان.

- لقد أخذ (ريح). قالت منيرة. وهتّ بالنهوض، لكن الحاج محمود أمسكها من ذراعها وشدّها نحو الأرض ثانية: أقمدي.

سمعوا بوابة الحوش تُنْزَع، ويهدوء تغلق، كما لو أن من يناديها لص يخشى انتباه أهل البيت. وظلوا يتعمون وقع أقدام (ريح)، حتى تحلّل إليهم أن الصوت

سيبقى يرث في آذانهم للأبد. وبعد دقائق تغير إيقاع الحوافر على الأرض، تسارع غدوُ الفرس وتسارع، وعندما اختفى الصوت، دامهم حس غريب بأن (ريح) طارت حاملة ولدهم إلى بلاد لا يعود منها أحد.

في منقطعات يعرفها كما يعرف راحة يده، أدركهم خالد أخيراً، منقطعات والتحدرات وصخور طلالاً تجول فيها بحثاً عن الحجل والغزلان. وفي ليل مضاء بهلال شاحب يزيد البرية تساعاً، كان لا بد من أن يلمحوه وقد أصبح على مسافة أمان منهم. صاحوا متذرين: من هناك؟ وظل صامتاً.

ترجل عن فرسه، ربطها بعيداً، وتقدم نحوهم. رؤيته للحمامة أعادت الطمأنينة إلى قلبه. قفز فوق صخرة عالية، جلس. فصاحوا ثانية: من هناك؟

- هي أو حياتكم. أتركوها وغدوا كل ما سرقتموه منّا!!

- ماذا؟ سمع صوت الباور ينطلق.

- هي أو حياتكم. أتركوها وغدوا كل ما سرقتموه منّا!!

- أنج بحياتك، وغدو للطريق الذي جاء بك.

وسمع صوت غطى تتقدم نحوه، نزل عن الصخرة، واختفى. بعد دقائق سمعوا صوت صرعة وتهشم عظم وأثبات تتلوى. وهذا كل شيء ثانية.

- هي أو حياتكم. أتركوها وغدوا ثلاثة أرباع ما سرقتموه منّا!! ولم يكذ يكتبلها حتى سمع صوت غطى تتقدم نحوه.

اختفى.

تَمَثَّرَ الجندي بجثة رفيقه جعله يُدرك أنه وصل إلى موقع الصوت، لكنه لم ير أحداً.

صاح برعب، وقبل أن يكتمل الصرخة كان نصل الخنجر يغمص بعيداً في جسده ويجعل نصف صرخته الثاني أكثر وحشية.

وهذا كل شيء من جديد.

أدرك الباور أن الأمر ليس سهلاً، فطلب منهم أن ينطلقوا بعيداً عن تلك البقعة التي لن يستطيعوا أن يفعلوا فيها شيئاً.

عاد خالد إلى الوراء، قفز فوق ظهر (ريح) ومضى يتابعهم على تهمل.

بعد زمن تحيل إليهم فيه أن مسافة أمان باتت تفصلهم عنه، ظهر لهم من جديد على يسارهم، فوق تلة عالية، كانت قامته التي التحدت بقامة الحصان تثير الرعب على نحو غامض.

صوبت الباور بتدقيقه وأطلق رصاصة وبعد أن هدا ضوء انطلاقها وتلاشى دخانها لم ير في المكان أحداً.

- أمثلة لسوا بحاجة إلى أكثر من رصاصة. قال بفخر وهو ينظر نحو تحصيل الضرائب الذي كانت عيناه تلمعان على نحو غريب.

ساروا.

لم يكونوا قد قطعوا أكثر من متي خطوة حين رأوا الظل فوق التل من جديد. لكنه ظل الفرس وحدها وقد تلاشى ظل الفارس.

- فلاحون أغبياء، لا يعرفون بأن كل مراجعهم لا تصمد أمام لسة زنار. قال الباور.

لكن الصوت عاد ثانية؛ وتحيل إليهم أنه يأتي هذه المرة من الجهة الأخرى. عن يمينهم.

أطلق الباور رصاصة أخرى في الفضاء، فسهلت الحبل واشتدت حلقة الليل أكثر.

- هي أو حياتكم، أتركوها وغدوا نصف ما سرقتموه منّا!!

لم يعد الأمر يحتمل العبث أكثر، ترجل الباور عن حصانه، أشار لاثنتين من جنوده أن يلحقا في اتجاه، ومضى صحبة جنديه الطويل في اتجاه آخر. في حين هبط محصل الضرائب، ودس جسده بين الحيويل.

ارتفع الغلال أكثر فتلاشى بعض شحوبه، ورأى خالد الحمامة تسطع، أراد أن يصبح باسمها كما يفعل دائماً، لكنه يعرف أن ذلك سيكون كفتلاً بإثارتها، وذلك آخر ما يريد.

كان هروباً يعني موباً. لكنها فاجأته، سهلت فبدا له وكأنها تنطق باسمه.

الليل في أوله، يعرف ذلك، تركهم يَتَلَبَّون حجارة السطح بحثاً عنه، دون أن يتحرك. وعندما بدأ الإنهائك يَزُج أجسادهم، وقد أيقنوا أن أفضل ما يمكن أن يفعلوه هو أن يعودوا إلى حيث كانوا، تحركوا..

فلم يعد منهم في النهاية سوى اثنين: الباور وجندته الطويل. انتظروا لكن الآخرين لم يظهروا، وليس بيسط لم يكن الباور يريد أن يتنادى عليها، فلعلها هناك يتخبتان ويعدنان شَرَكاً يُخَالِصُه من هذا الذي لم يحسبوا له حساباً.

توَعَّل الليل في عتته، وبدا الهلال صديقاً له وهو يُظَل عليه من بين أشجار البلوط حيناً ومن بين الصخور حيناً آخر، أكثر مما كان صديقاً لهم في اكتشافهم.

حاول الباور أن يستعيد وجوه أولئك الذين رآهم، الحاج محمود وأبائه، ولم يحضر في النهاية سوى وجه خالد، لقد بدا له أنه الأقوى وأنه الأهدأ في تلك اللحظة التي قرروا فيها أخذ الحماة. ولكن فكرة مصادرها لم تكن قابلة للمراجعة. بعد أقل من ساعة فَقَدَ الأمل بعودة الجندتين، فقرر الباور أن يسير لعلّه يصل موقعاً أكثر أماناً أو قرية يُمضي ما تبقى من الليل فيها. وفي تلك اللحظة بالذات دامعه الخوف، ولعلّه الندم، أو حسٌّ غريب نَكُون منها ووخز عميقاً.

كان التنب قد بدأ يظهر عليه، وربما فاقض التوتر الذي كان قبل ساعات فائض اطمئنان. وفي البعيد كان خالد يراقب الظلال الشاحبة والقائمة البيضاء ويُسَدِّد عتق ربح، وهو على يقين من أن زمناً مختلفاً جديداً في طريقه إليه.

لم يكن الوقت في صالح أحد، ليس أمامه سوى القليل كي ينم مهنته، وليس أمامهم سوى القليل كي يفرجوا من قبضة هذا الغموض المحدث بهم.

- هي أو حياتكم. جاء الصوت. أتركوها وغدوا رُبْع ما سرقتموه منا!!

وعندها أدرك الباور أن الرياح ما زالت تسير عكس ما تنهيه أشرعته.

على سفح التل الأيمن هذه المرة، برغَ ظل الفارس أكثر رهبة في الحادة بظل فرسه.

قرر الباور استخدام أقوى أسلحته التي أدخرها للنهاية. لكن المفاجأة لم تكن بيده.

لم يكن صعباً على خالد أن يرى تسلل الجندي الطويل، فحتى الليل يلا قمره لا يستطيع أن يحجب قامة هذا الحجم.

تَسَرَّطَ الخيول مكانها، وعاد الصمت من جديد، ففكر خالد في الأمر، وأيقن أنه لو كان مكان الباور لما توقف، لأنه يتيح له فرصة سماع ديبب النمل في هذه العتمة، لكن الباور كان يفعل ذلك لسبب آخر، كان مثلهما لسلاح صوت جندته وهو يعن له: لقد تمَّ الأمر.

بعد زمن، سمع صرخةً فأحسَّ الباور بقلبه يقفز من حلقه، كانت الصرخة غامضة، وبعد أقل من لحظة جاء صوت جندته: هل أذبحه!!!

- وهل أرسلتكم لتاعنه؟! فوراً.

وفجأة رَجَّ الليل صوت الرُعب حيث راحت الصرخة تصطك بجدار العتمة الوحش وتصعد وتصعد إلى أعالي السماء نائرةً الدم في الأرجاء.

انطلقت ضحكات الباور معزوجة ببقايا فزع وأمل ما كان يتوقع أن يُبْرِ ليلته ابداً. اندفع صوب المحصل، عاقته بشدة على غير عادته. وسار حتى أصبح أمام الحماة مباشرة: أنت أو حياتنا!! آه، أنت أو حياتنا، ثلاثة أرباع، نصف، ربع.!!! هل خطر له من قَبْل أنه سيفقد في ليل كهذا شامتا بفرس؟ بالتأكيد لا، لكنه يقف شامتا بهذه القرس البيضاء التي كادت تتحول إلى لعنة لا نجاة منها.

فوق التل لبصر الباور تلك القامة متجهة نحوه، كان بوذ أن يطير ويعانقها، لكنها كانت بعيدة، وما إن اقتربت حتى راح يركض بانهاجها، سهلت الحماة، وحين أصبح على مسافة خس خطوات، خجل إليه أن القامة لا تعود لجندته رغم لباسه الذي لم يتغير، وطوله، خجل إليه أنه أصبح أعرض وأضخم، ولكن الوقت كان قد فات، فقد غاص الخنجر عميقاً في صدر الباور.

عاد الصمت ثانية، فصرخ المحصل: ماذا حدث؟

- هي أو حياتك؟ أتركها وكل ما سرقتموه منا!!

- حيان. صرخ بفزع.

- لكنك تأخرت!

تُطَلِّقاً يتمتر باحثاً عن معجزة تحميه، راقبه خالد وهو يتعد.

عادت الحماة تصهل، فدفع الجثة التشبث به، سقطت، وبهذه مضى نحو القامة البيضاء، أمسك بوجهها بين راحتيه، قبله، ثم انحنى حتى لامست ركبته التراب، أمسك بقائماتها اليمنى، رفعها نحو شفتيه، قبلها، ويرفأ أعادها إلى حيث كانت، ثم تناول قائمتها اليسرى وفعل الشيء نفسه.

كانت المرة الأولى التي يُقبل فيها قوائم مهرة، لكنه أحس كم أصبح عاليا حين انحنى، وكم أصبح فرسا أكثر.

وقف. كان القل يواصل تعثره في البعيد، ولم تكن مهمة خالد قد انتهت.

فهمته الحماة فصهلت.

- لا، من العيب أن ألاحق سارقاً مثله على ظهر فرس أصيلة مثلك. انتظريني هنا.

قفز فوق ظهر واحد من خيول الدرك، وبعد دقائق دَوَّت الصرعة الأخيرة، الصرعة التي كان عليه أن يسمعها كي يعود مطمئناً إلى الهادية.

سَرَّ عام

حين رأى أهل الهادية الحماة صبيحة اليوم التالي، عرفوا ما جرى، لكن أحداً لم يتحدث في الموضوع أبداً.

كان ثمة سرٌ يعرفه الجميع ولا يوح به أحد لأخر.

لا المرأة توح به لزوجها ولا الولد لأبيه ولا الأخ لأخيه أو أخته. ولذلك، حين راحت أخبار رجال الدرك والمحفل تتوارد بعد ذلك على دفعات، كانوا يكتفون بهز رؤوسهم، وحينما يخلطون بأنفسهم كان كل واحد منهم يبدأ بتجميع فئات الحكاية، ولما يتم له ذلك، يتنابه حسٌ غريب، ويبدأ بالنظر إلى خالد على نحو مختلف تماماً.

لا يستطيع أيٌ منهم أن يتناسى انتظاره لتلك الفتاة، وحتى أكثرهم تساهلاً وطيشاً، كان لا يستطيع تبرير الأمر كله، وإن حاول أحياناً إيجاد أعذار مخففة، لكن ما حدث بعد ذلك، أعاد رسم صورته في أعينهم من جديد، إذ إن العاشق لم يكن أقل شجاعة في معركته من أجل عشقه من معركته من أجل فرسه. أما هو فما إن اختل بأبيه حتى فاجأه بصوت ملؤه الأسى: أتعرف يا أبا. اتنى ألا تُربق هذه اليد الدم مرة أخرى!!

فرد الحاج محمود: ليس هنا عاقل يتبنى غير ذلك.

لم يعد مرور خالد بأي جماعة مروراً عابراً، وسرعان ما بدأت دعوات لا حصر لها تنهال عليه، كل يريد أن يكون ضيفه الخاص، ولم يكن ذلك سائداً على هذا النحو، لا في الهادية ولا في القرى التي تشبهها.

أصبح الناس يُلحون عليه كلما ظهر، وغداً مروره مع الحماة أمام أي بيت حَدَثاً، ولم يعد من الصعب أن تقع ضيعة ما في حبه، وقد تحول فجأة إلى ما هو أكثر من بشر.

وهكذا وقعت شمية ابنة البرمكي.

بدأ الأمر بأن أصبحت عيناها لا تريان في الهادية إنسانا غيره، وفي كل مرة يمر أمامها تظل تحدق فيه حتى يخفى، وتظل عيناها معلقتين في النقطة التي اختفى فيها حتى يظهر من جديد. وكان يمكن أن يستمر ذلك من مطلع الفجر حتى مغيب الشمس.

وفي أحيان كثيرة حتى بعد المغيب.

لكن ذلك لم يلبث عند هذا الحد، إذ فجأة راحت خطاها، رغا عنها، تشدها إلى حيث يسير، تتابعه.

في البداية كانت تعود بعد خطوات قليلة، بعد نصف المسافة، أو أكثر بقليل، لكن خطاها لم تعد تأثر إلا بأمر قلبها.

أما الشيء الأغرب الذي حدث، فهو أن أهل الهادية تعاملوا مع ما يرونه منها، كما تعاملوا مع ما لم يروه وعرفوه من أمر استعادة الحماية واستعادة كل ما سلب منهم وعاد إلى بيوتهم بسريرة مطلقاً. لأن كل رجل في القرية عسى أن يكون خالد حصن ابنته، رغم معرفتهم أن خالد قد اختار، وأن كل ما بقي من فصول الحكاية هو تحديد يوم الزواج.

انتشر رجال الدرك في كل مكان باحثين عن أثر يصلهم بالبحث المبعثرة التي وجدوها فوق التلال والوديان، قلبوا القرى رأساً على عقب، لكنهم لم يصلوا إلى شيء، وما كان باستطاعتهم أن يصلوا شيء، ما دام قم الهادية مغطى إلى هذا الحد، والحياة تسير فيها كما كانت تسير دائماً.

لكن ذلك لن يدوم طويلاً.

صحيح أن حوادث كثيرة تعرض لها جياة الضرائب ورجال الدرك الذين يرافقونهم في العادة، من قبل أولئك (الفرارية) الذين التجأوا للجبال هرباً من التجنيد والبطش التركي، لكن طبيعة الحادثة هذه المرة كانت مختلفة، لأنها شئت على مراحل ولأن من تابعهم كان يعرف ما يريد تماماً. وفي الوقت الذي بدت فيه الهادية أكثر دهشاً من غيرها، لأنها الأكثر زهواً بالحكاية، كانت قرى أخرى تتناقلها وتضيف فصولاً جديدة. لكن المثير، أن الجميع باتوا يرددون حكاية فارس واحد هو بطل تلك الواقعة، وهذا ما جعل الهادية تحالف وصول الحيوط إليها أخيراً.

لكن الأمر، وفي كل الأحوال، لم يكن يتعلق بفارس. بعض الحكايات كانت تُرجم انتقاماً بسبب ثأر، لأن والد الفارس شئت على أيدي الأتراك وبعضهم رأى أن الأمر أكبر، لأن أكثر من شخص من عائلته قد شئت وسجن، وبعضهم اتى بأن الأمر يتعلق باعتداء على العرض. أما ما كان يعلمهم أكثر واقعية، فهو تأكيد الجميع أن من قتلهم لم يستول على أفراسهم أو سلاحهم، وأنه اكتفى بما في سروجهم. ولكي تظل الفكرة بيضاء من غير سوء، باتوا يؤكدون أن الأموال التي كانت بحوزة رجال الدرك لم يمسها الفارس أبداً، وأن من استولوا عليها هم رجال الدرك الآخرون الذين جاؤوا للبحث عن رفاقهم. وكانت رواية كهذه تُسر الناس أكثر لأنها تؤكد لهم حجم ذلك الجشع الذي يعرفونه تماماً في رجال الدرك.

الحاج محمود، تأكد من أن ابنه كان أكثر حكمة من الجميع؛ ثلاث من صدره تماماً تلك الغاية الرعادية التي ظهرت بسبب وقوعه المدوي في حب باسمين. وبات أكثر من أي يوم مضى على استعداد للتنهي جانباً وترك المكان لابنه وهو أكثر اطمئناناً من كونه الأقدر على زعامة الهادية.

أما أخوته الثلاثة فقد باتوا أكثر انقياداً له، ولم يكن كثير من رجال البلد يعيدون عن هذا، لكن ما كان يمنهم هو يقينهم بأن الحاج محمود سيبنى دالماً في نظره رؤس النبع الذي جاء منه ولده.

وخبأت السر

اتحتنت منيرة، أمسكت بأصابعها النحيلة بعض الأعشاب الجافة، تحسنتها، اعتدلت، نظرت إلى السماء، رأينا بعيدة، هزّت رأسها، لم تكن بدايات أمطار تلك السنة تشير إلى جمر أواسطها الذي أحرق الربيع بصبره واحدة، كانت شمس آب قد استقرت في منتصف نيسان حارقة. التفت نظرة بعيدة نحو السهل، لم تغدعها حينها، كان أكثر صفرة من أي مرة رآته فيها من قبل، أكثر صفرة من أواخر حزيران، لكنها طوّت أحاسيسها، وتعاملت مع الأمر وكأنه سرّاً لا يجب البوح به. تأملت كروم الزيتون في البعيد، أحسّت أن الوضع لن يكون أقل قسوة هناك أيضاً بعد عدة أشهر، وعذبا أن قلبها بات مليئا بالأسرار المجلوبة بأكثر من خوف.

وتفكرت: هل كانت هذه السنة سنة بنات حقاً، أم أننا أردناها كذلك؟ وراحت تُعصي أساء المواليد على أصابع يديها.

الحاج محمود قرر المفئي مع ولده وزوجته لزيارة أهل الخطيبة، كان يريد أن يُظهر للجميع أن الحياة تسير، كما كانت تسير ذاتها، لكنه في أعماقه كان يدرك أن حكاية كبيرة كهذه لن تنقل سرّاً إلى الأبد.

في الطريق مرّوا بحقول الذرة، أدركوا ما يحدث، أدركوا أنها لم تعد تنتمي لحضرها المعتادة في مثل هذا الوقت، أما خالد فلم يكن ينظر إلى الحقل بل كان يسمع حفيف أوراقها، وحيزه أنه لم يكن يسمع تلك الموسيقى التي كاد يُمسك بها لفرط حضورها ذات يوم، حيزه أن الصوت كان أقرب لمرور ريح خماسينية يتوافد مغلفاً بإحكام، واكتشف للمرة الأولى أن للموسيقى ألوانها، فيها هو يسمع موسيقى صفراء لا تُفقد بصلته لتلك الموسيقى الخضراء التي كان يعنى بها.

أما الشيء الغريب، فهو أن منيرة لم تلتفت يميناً أو شمالاً، كانت تنظر أمامها بما يتبع لها أن تواصل طريقها فوق ظهر الحصان لا أكثر، فمع مرور الأيام بات خوفها أكبر من قلبها، وبدأ يفيض ليغمر كل ما تراه بصفرة باردة. تأملت خالد أمامها، تلتفت نظرها إلى زوجها، حسّت: اللهم الطف بنا.

وقال الحاج محمود وقد قطع الصمت فجأة: يجيل إلي، أن علينا الحديث في أمر الزواج من جديد.

- ما الذي تفكر به يايا؟

- لا أظن أن الانتظار سيكون لصالح أحد، لا لصالحك، ولا لصالح العروس، من الواضح أن السنة ستكون صعبة، وأن الموسم الذي انتظرتاه لن يكون على هوانا.

- تحسّ بها أحس به إذن! قالت منيرة.

- لم أر ربيعاً حارقاً كهذا منذ أربعين عاماً على الأقل. وأعرف معنى أن يبدأ الربيع بشمس حارقة كهذه.

- صدقت يا حاج. قالت منيرة.

- توافقيني في أمر تقديم موعد الزواج إذن؟

- الصحيح، والله ما أنا عارفة.

وقل خالد صامتاً.

راح كل منهم يُصغي لوقع أقدام الخيول التي يمتطونها، وقد اختلطت، فلم يعد أحد منهم قادراً على تمييز وقع أقدام ما تحته من وقع أقدام أي حصان آخر.

- الصحيح يا حاج، هناك الكثير الذي أريد أن أقوله، ولكن أحسّ بأن على خالد أن يقول ما يفكر فيه، لأن الأمر بعيني، وأظنه يعرف ويحسّ بما يدور أكثر منا. لكن خالد لم يتكلم.

مضت الخيول صاعدة كما لو أنها تعرف طريقها، دون حاجة لتوجيه. ولحّت شمس ذلك الضحى راح خالد يتبع قطرة عرق التبتّ من جبين (رياح)، التمتعت، وبقيت هناك أشبه ببلورة، أحسّ خالد أنها تتألم الجهات قبل أن تقرر في أي اتجاه تضي، وللحظة خاطلة رأها تنجّه للأعلى قليلاً، نحو، ارتبك، وفجأة أخذته قطرة العرق إلى أعماقه، حيث الضوء الذي ما لبث أن بدأ يتلاشى وحلّت هنالك في قلبه عتمة قاسية مثل قطعة قلم.

كيف كان بإمكان خالد أن يرى ذلك كله في لحظات، هو نفسه لن يعرف فيها بعد. أطلقت بكياها الذي سيظل عالقا بقلبه إلى الأبد وهو الذي كان يظن أنه لن يراها أجمل مما رآها في ذلك اليوم على طريق الحقل.

اتحتت، فبكت يد الحاج محمود، متيرة، ثم أمسكت بيد خالد، رفعتها إلى شفتيها وقبل أن يدرك ما يحدث التصقت شفتاها ببقاها يده فارتعش جسده كله، وهو يحس بأن قبلتها راحت تسير عبر جلده وتتجول في جسده وتتجول، عائدة إلى مكانها الأول، تغفو قليلا على سطحه ولا تلبث أن تعود من جديد. كان الأمر أكثر من حقيقي، ولكنه بدا له في غمرة تلك الأحاسيس التي فاضت غامرة روحه، بأن ما يعيشه الآن هو حلم لا غير، بل ذكرى.

وكم أفرحه هذا.

- لا أظن أن الأيام المقبلة ستكون لنا. قال خالد. لا أريد أن أجرب بنت الناس لشفتاها، هكذا منذ البداية. هناك شيء يحدث الآن، أحسه، وأظن أنكم تحسونه معي، هناك شيء قادم نعرفه، ولكن، لا أحد منا يريد أن يعترف بأنه أصعب مما يتصوره. وصمت قليلا ثم قال: دعونا نؤجل الحديث في أمر الزواج، دعونا نفكر في الأمر أكثر.

- قرارك هذا! علّق الحاج محمود دون أن يلتفت إليه.

- أظنه قرارنا كلنا، اليس كذلك؟

لكن متيرة لم تجب، واكتفى الحاج محمود بإلقاء نظرة على ما وراءه من امتدادات سهل الهادية، وأحس بأنه يقف تلك الوقفة التي وقفها ذات يوم الحوري جورجيو حين غادر القرية إلى غير رجعة.

لم يكن الأمر أقل حلقة عندما وصلوا بيت أهل العروس، لأن الحديث كله راح يدور حول موسم في مهيب فليب لم يعرفوا مثله.

- لم يكن الضحى في أي يوم من الأيام، على ما أتذكر، كما هو عليه في هذه الأيام. قال والد باسمين.

أما الشيء الغريب فإن أحدا منهم لم يسأل عن أخبار العروس، كما أن خالد نفسه بدا أكثر قلقاً من أن يتلقّت باحثا عنها، لكن أباهما فاجأهما حين صاح: باسمين.

- نعم بابا. ردّت.

فارتجف قلب خالد.

- تعالي، سلّمي على أمّيك.

لم يكن خالد يتوقع أن يراها، ولكن شيئا ما، أيضاً، كان يحدث في قلب والد العروس، يدفعه للتفكير على نحو مختلف.

حين أطلقت، كان وجهها مضاه بحمرة الخجل واتمكاس الألوان الحمرية التي تغمر ثوبها السكريّ، الثوب المزين بسنابل حريرية حمراء وزرقاء، وعلى طرفيّ فتحة الرقبة كانت هناك أغصان بنفسجية تتأرجح لتغطي فتحة الثوب تماماً. وكان غطاء رأسها السكريّ المطرزة أطرافه بنعومة تجمع ألوان الثوب كلها، يجعل طلتها أكثر اكتمالا..

سر القتل

تحول بيت الحباب إلى مركز للبحث عن سر القتل، وقد شغله هذا الأمر كثيراً، بحيث نسي مصيبيته، نُصِبَتْ حوله الحيام، وحل البيكاشي كامل أفندي أغا ضيفاً شخصياً عليه.

كان البحث باتساً تاماً، فالمنطقة واسعة، ولا يمكن لأحد أن يعيط بكل قراها، في الوقت الذي تحرك فيه رجال الدرك بين سهولها وجبالها وهم ينتظرون مصيراً غامضاً مماثلًا، ولعلّ هذا ما جعلهم أكثر قسوة في تعاملهم مع الناس، ما زاد الناس كرهاً لهم.

كانت استراتيجية البيكاشي قائمة على استغلال العدادات بين كثير من العائلات، وقد أفضى ذلك إلى بعض النتائج، التي تبيّن له فيها بعد، أنها لم تكن أكثر من وشايات.

وكما كان الأثرak يُطلقون سراخ شخص كانت الحكاية تزداد تعقيداً. فالرحمة كانت يَدْحًا لا مكان له، لا بين أولئك الذين يُحْضِرُونَ المتهمين مُكْبِلِينَ ولا بين أولئك الذين يُعْضُونَ اللبالي الطويلة في التحقيق معهم. وبعد أيام خطرت ببال البيكاشي فكرة أكثر جهنمية، لم تُرَقْ للهِاب، وهي الإعلان عن جائزة كبيرة مقدارها عشرون ألف قرش لكل من يُدلي بمعلومات تساعد في إلقاء القبض على المجرمين الفارين.

كانار في الحشيم انتشر الخبر، ووصل الحادية، كما وصل سواها. ولم يطل الوقت، حيث بدأت وشايات تَرُدُّ من هنا وهناك، لكنها لم تكن تُقْضِي إلا للشين: فصول التعذيب المؤلمة للبعض، واحتجاز للبعض الآخر مع مواصلة فصول التعذيب.

ذات يوم وصل خير بدا كما لو أنه الأكثر دقة، وكان الحباب قد أبقي على مصدره كورقة أخيرة يثبّت من خلالها أنه سيد اللعبة في هذه المنطقة، وأهم حين يعجزون فإن الحل يكمن لديه. لكن خطأ الكبير كان قائماً في أنه لم يُلقِ بأوراقه كلها دفعة واحدة، وستبث له الأيام ذلك.

لقد حصر الأمر في الحادية، باعتبارها آخر القرى التي حلّ بها الياور ورجاله، وحين تجاوز الأمر حدود الحس، ليصل إلى حدود الكلام، قادما من قرى مجاورة، أصبح ذلك كافياً لتوجيه ضربة قوية لحطّط البيكاشي، ورياحه التي هبّت فلم يحصد من ورائها سوى مزيد من الكراعية التي زرعتها حملات التنفيس والإهانة والاعتداء على كلّ ما يملكه الناس. لكن ما جعل الحباب يُخَيّر، أنه حين وصلت الحادية تلك القوة الكبيرة التي أحاط جزء منها بالقرية واقتحمها الجزء الثاني، كانت شبه فارغة من كل الرجال الذين يمكن أن يكونوا على قائمة التهمين.

لتجديد الحادية بهذه الثقة كان يعني الكثير بالنسبة للهِاب، فما هي تسقط أخيراً بين يديه فريسة سهلة، لعلّا تنتظر وقوعها. ولم يكن هناك بيت يريد عموه أكثر من بيت الحاج محمود الذي يعني بالنسبة إليه الحادية كلها.

الحادية، إنها الشوكة الأخيرة التي كان عليه أن يقتلعها من زمن، وما هي الفرصة جيّدة أخيراً على صينية من ذهب، فرصة كاملة، بها يستطيع أن يقض أجنحة الحاج محمود كلها، وبضربة واحدة.

الشيء الذي غناه الحباب هو أن يكون مع العساكر في طليعة القوة، لكن شيئاً ما جعله يعدل عن ذلك، وقد ظل لزمن طويل يبحث عن تفسير لإحجامه عن الذهاب، فلم يجد في داخله ما يقنعه. كان فرحاً، إلا أنه لم يملك القدرة على ممارسة الرقص في ساحة قرجو.

أما الحاج محمود فقد بدا مُغامراً، وقد أحسّ بأنه على وشك أن يفقد كل شيء: فحين سأله البيكاشي عن أولاده، قال: وهل كنتم تتوقعون أن يخلصوا هنا في انتظاركم؟! فأخبار ما تفعلونه في كل مكان لا تجعل أحداً ينتظر وصولكم، لأنه لا يعني لنا سوى الإهانة، التعذيب والسجن، ومن يدري ما الذي يمكن أن تفعلوه أكثر من ذلك.

- إذن. هربوا. أولادكم هربوا. قال البيكاشي وهو يرمّ رأسه متوعداً.

- أولادي وأولاد غيري.

تحولت الهادية إلى معسكر، ولم يبق شيء يمكن أن يفعله رجال الدرك ويقلّب حياتها إلى جحيم إلا وفعلوه. لكن الحاج محمود لم يتوقف عن ترديد تلك العبارة التي سكنت فيه كلها واجهه البيكاشي أو أحد رجاله: إنها وشاية وأنتم تعرفون ذلك أكثر منا.

بعد خمسة أيام طويلة حدث ما لا يتوقّعه أحد، سبق ما تبقى من رجال الهادية إلى ساحة المضافة، وتحجّر بعضهم داخلها، وسبقت النساء والأولاد إلى المسجد وأقبلت عليهم الأبواب، وفي كلّ حارة أخرى من حارات القرية كان الشيء نفسه يحدث.

لم تكن ليلة عادية تلك التي عاشوها، حيث التفوضى تغمر الأرجاء وأصوات الجنود تختلط مع أصوات الحيوانات وأصوات تحطم الأشياء. وفي انتظار ما سيؤول إليه الليل وحلّته أمضوا الوقت بأعين مشرعة تنتظر أول غيوب التور.

بعد الضحى بقليل، هذأت أصوات كثيرة، وبدا كما لو أن أصوات البشر اغتصت تماماً، فأشرعت الأبواب، تصفّح الناس الشوارع، كانت خالية من أي جندي، ونادى صوت:
لقد رحلوا.

فاندفع البشر يترافضون كلّ نحو بيته. لكنهم، وكما لو أن العالم كله توقف فجأة، وقفوا دهشين أمام الخراب الذي طال كل شيء، ثمّ رقاً أحشاء البيوت وأبراج الحمام وحظائر المواشي والأبقار التي كانت تنن بأرجلها المقطّعة وهي تحاول عبثاً الزحف أو الوقوف.

أحلام طائشة

الشيء الذي غفّف عن خالد قسوة ذلك التشرّد في الأودية والجبال هو أن الحماية كانت في أمان بعد أن أوصلها إلى أهلها، صحيح أنهم لم يكونوا مرتاحين لفكرة أن أسرة الحاج محمود غير قادرة على حمايتها في الهادية، لكن الحماية كانت تحمل في بطنها ما هو أهم، أما الحبيب فلم يكن على قلق مثلاً كان في تلك الأيام التي أمضاها البيكاشي وجنوده في الهادية، ورغم أن الأخبار كانت تصله أولاً بأول، إلا أنها لم تكن تحمل شيئاً مما حلّم به أو خطط له.

- أحرقت، خرّبت، عقرت مواشيهم. صدقني، ذلك لا يعني بالنسبة لهم أي شيء في النهاية، ما دام شبابهم قد أفلتوا من قبضتنا، فنعار حياتهم (في المال ولا في العيال). قال الحبيب ذلك من حافة العليّة، وعبثاً ثقلّبان السهول والمتحدرات البعيدة متسائلة عن حمايتهم.

لم يكن البيكاشي قد ترحّل عن حصانه حين سمع هذه الكلمات. ولذلك أمضى بعض الوقت يفتكر، وأخيراً قال: أماننا الكثير من الوقت لخلافتهم.
- في رأيي أن علينا عمل الكثير فوراً، حتى لا نترك لهم فرصة النقاط أنفاسهم. ودة الحبيب.

- ولكن عليّ أن أنتبه لأنفاسي أيضاً. أجابه البيكاشي بجفاء.

كان عبد المجيد، زوج العزيرة، واحداً من رجال كثيرين ساقهم الدرك مكبلين؛ رآه الحبيب، ابتسم، ولكنّه لم يقل شيئاً.

عند المساء طلب من البيكاشي ألا يقسو كثيراً على عبد المجيد.

كنت أعظّد أنك أكثر شدة منا. قال البيكاشي.

- أكثر شدة أجل، ولكن ليس على رجلي. ودة الحبيب.

- ورجلك!

- بإمكانك أن تحتجز البقية إلى أي مدى تريد، ولكنني أحتاجه بعد أيام هناك في الهادية، لأن ذلك وحده ما يبقينا جميعاً.

بعد يومين.. وفي اللحظة التي كان فيها الخيالة يغادرون ووجهتهم السفوح البعيدة، تم إطلاق سراح جميع رجال الهادية. لا شيء، إلّا من أجل عودة عبد المجيد. لكن الشيء الأكيد أن الغيابة اختل به وتحدث معه في أكثر من أمر: أعرف أنك احتملت الكثير هذه المرة، ولكن تأكد، سأرضيك بحيث تنسى كل ما مر بك. أنصت عبد المجيد، حاول ما استطاع كبح جماح ذلك الألم الذي يعتصر جسده التحيف، تقلصت ملامحه فدا وجهه أكثر جفافاً وسعرة، وضافت عيناه كأنه يحاول أن يرى شيئاً لا يستطيع التحديق فيه. وحينما عاد ومن معه، كانت آثار اللكيات على وجوههم وآثار العصي على أجسادهم واضحة كبقايا الحراب.

بالنسبة كان البحث، رغم أن البيكياشي وجد في القرى الكثيرة استراحات ملائمة يُعطي فيها ليلةً وسحابات من قيط ناره.

لم تكن الشمس معهم، وهذا ما كان يزيد الأمر عناء، وأصبح مجرد أمر التحرك كافياً لكي يبدأ عرق رجال الذرك بالتدفق حتى قبل أن يغادروا المضافات التي يجلبون فيها ضيوفاً رغم أنوف أصحابها.

أما الشيء الأكيد الذي كان باستطاعة البيكياشي تحقيقه فهو إصدار مزيد من الأوامر لجنوده، الجنود الذين لم يعودوا قادرين على الإسك باي من أولئك الذين يطاردهم لفرط التعب.

كان خالد يعرف أن عليه أن يتعمد بحيث يغدو، ومن معه، خارج المنطقة كلها، ولم يكن الأمر صعباً في ظل تلك المودة التي يبديها الناس تجاه ضيوفهم. وطوال ذلك التنقل من مكان إلى مكان كان يستعيد كلمات أبيه: لا تذهب إلى بلد ماؤها طيب، بل اذهب إلى بلد قلوب أهلها صافية، ولا تذهب إلى بلد محصنة بالأسوار بل اذهب إلى بلد محصنة بالأصدقاء.

ونفروا..

(ابتعد خالد حتى وصل إلى (القالوجة)، فكر أن يمر على الشيخ جبريل، فهو صديق قديم لوالده، ولكن ما إن وصل حتى وجد رجال الذرك أمام الباب، فلوى

عنى فرسه وسار في الطريق العام؛ لاحظ خيال من رجال الذرك حركة خالد فامتدلى جواده وسبقه إلى حيث تلتقي الطريق المختصرة بالطريق العام.

أدرك خالد ما يدور، ولكنه لم يبال لأنه كان وثاقاً من أصالة وسرعة (ريح) بعد أن ألقى نظرة خاطفة على فرس الذركي، وهكذا مضى يسير بالهدوء ذاته الذي أقبل فيه، وقد ساعد ذلك الذركي أن يلتصق بسهولة وسبقه إلى ملتقى الطريقين.

انصب أمامه فوق فرسه وبهذه يندقيه.

- السلام عليكم. قال خالد.

- إلى أين؟ سأله الذركي.

- إلى غرة. وقبل أن يُعلق الذركي بشيء قال له خالد: سألتك بكرةً والديك

ألسنت رُعيياً؟

وقد كان الذركي أشقر.

ردّ الذركي: إن صدقت الوالدة فأنا زهبي.

- كيف حال محمد سعيد؟

- أي محمد سعيد منها؟

- كلاهما، محمد سعيد العبيد ومحمد سعيد السولي.

- الاثنان بخير.

- بالله عليك سلّم عليها كثير السلام.

- تسلّمت. من أنت لأقول لها؟

- قل لها صديقكما من الريح.

- الله يسلمك. قال الذركي ولوى رأس فرسه وعاد إلى حيث كان. وقد خجل

من أن يتبادى في طرح الأسئلة على واحد من أصدقاء أهله.

عند الغروب وجد خالد نفسه وحيداً، ولم يكن هناك في الأفق غير بيت شمر، فتوجه إليه. كانت الحركة كثيرة، وغيل إليه أن إحدى الأفراس هي فرس الشيخ ناصر العلي. طمأنه ذلك كثيراً، فواصل تقدمه دون أن يفقد حذره، وما إن أبصره حتى راوحا برحبون به. سأله الشيخ ناصر عما يدور خلفه في الهادية، وهل صحيح ما سمعه. فأكد له ذلك، وأضاف: إنها واحدة من السنين الصعبة.

- شوف يا ولدي. هذا الحال لن يبقى على ما هو عليه، ربما يصبح أسوأ وقد يتحسن، ولكن كل بني آدم وله نقطة ضعفه ونقطة قوته، بعضهم يدرك ذلك

وبعضهم لا يدركه، ولكنه في الخالين يثير الشفقة، وبخاصة ذلك الذي يظهر في النهاية أن نقطة قوته لم تكن سوى نقطة ضعفه.

- سلم الله قلبك. قال رجل يرتدي لباس البدو وقد أضاء عينه بريق عقيق.

بعد صمت نظر خالد إلى ذلك الرجل الذي بدا متطلعا في الحديث معهم أكثر من غيره، وسأل: ولكنكم لم تعرفونا بأعيننا الكرم.

نطق الرجل اسمه بسرعة مُعْطِياً الآخرين من ترددهم، وأضاف وكأنه يكمل حديثاً: (لولا الظلم يا شيخ ناصر لما وصلنا إلى ما نحن فيه من الضعف والاحتياط، فما أنت ترى كيف أصبحت معاملة الضباط الأتراك للجنود العرب وكيف أصبح هؤلاء يفترون من الجيش، وبدأت النزعة العربية تنسحق، في وقت استسلم فيه كثيرون من الوجهاء والزعماء لحطاب الأتراك، ولك أن تأمل حادثة قيام جمال باشا يشق ابن فوزي العظم، حيث لم يُبَدِّ الأخير غير الاستحسان في الظاهر، فاحترق جمال هذه الأمة التي تعبد زعماء يتظاهرون كذلياً بالرضا عن تعليق أبنائهم على أحوال الشائت، ولذا فإن النفوس التي عانت الضغط والاضطهاد كان لا بد من أن تُضمر السوء لجمال وللدولة العثمانية من ورائه. ثم صمت طويلاً وقال: مشكلتنا أننا لا نستطيع استغلال شيء، فما هم العرب يتفككون، ويقون آلة صماء بيد الأتراك، كما أن الأتراك أصبحوا آلة صماء بيد الألمان الذين يسوقونهم لعمليات عسكرية ولا هم هم إلا إشغال بال الإنجليز، وما نحن لا نستطيع تنظيم أنفسنا اجتماعياً، فنحن لا نتق بعضنا بعض كما أن فكرة الاشتغال بالمسائل العامة تنقصنا، وإذا اشتغل أحد فيها فإننا نأخذها وسيلة للظهور والمنفعة.)⁵

كان وقع الكلام قويا على خالد، وعندما عرفت (نجيب نصار) في آخر الليل أنه مثله قال له: نحن إذن في مركب واحد!

فرد خالد: أتمنى أن تزورنا حين تنقش هذه الغمامة، وتأكد أننا ستكون أسعد الناس في الهادئة، أما الذي سيكون أسعد من الجميع فهو الحوري إلياس، الذي يردد دائماً كلما قرأ شيئاً لك: أستاذ. هذا هو الأستاذ، أستاذي.

- وماذا يفعل الأب إلياس في قريبتكم؟

- هناك دير. وقد أرسلوه من القدس عقباً له.

- ولماذا يعاقبون رجلاً ديناً؟

- إنها حكاية تطول؟

- وماذا وراءنا؟ أسمعنا إياها.

عند الصباح طلب نجيب من مضييه أن يأذنوا له بالمسير، وقد كان يخشى أن يُقرب بيت الشعر من الطريق العام لا يخلو من خطر. وكان خالد قد طلب إذن المغادرة أيضاً. ولكن صاحب البيت قال: لقد بُدِعت فيحكمكم، تغدوا والله يسهل عليكم.

فلم يبق لهم ما يُقال، فجلسوا يواصلون الحديث.

فبما بعد، قال خالد: كان لهذا العذاب نافذة واحدة، فلولاء لما التفتت بذلك الرجل النبيل: نجيب نصار.

⁵ - (وفوجنا يوماً بزيارة جمال باشا لنا في الحفير (بئر السبع)، وكان الباشا آنذ قادماً من دمشق على إثر تنفيذ حكم إعدام الحياة بالقائلة الثانية من الشهداء العرب، فطلب تفشيش الوحدات فأدعته له كل شيء. تقدم جمال باشا بصفحة القائد الأتقي فون لايزر، وأثنى في صفحته، إلى التفشيش... وشرع جمال باشا يسألني عن بعض التفاصيل فكانت أسرد ما له بصراحة وإسهاب أشراً دهشته، ثم شرع بسؤالني عن أساء الضباط الذين مروا من أمامه أثناء المرض، وعن موطنهم، فكانت كلما مرَّ ضابط عربي وعرفته به ازداد استغراباً وريبة، فقلت في سائلاً: وأنت، ما اسمك؟ قلت فوزي الشاولجي. لسألني: من أي بلد؟ قلت له من طرابلس الشام. فهز رأسه، وقال بالعرف الواحد: "طرابلس شامل لم جدق وطن يروى مدرس" أي أن الطرابلسيين جد وعظيمين وأذكيا... ولكن بينهم من العائلات ما يجب أن يُحسب على شرهم ماء الكبريت أليس كذلك؟ فأجبت: إن مولاي الباشا أدى مني بهذا، على أنه، وإن كنت طرابلسياً، فإني لا أعرف طرابلس جيداً، لأن خرجت منها منذ الطفولة للدراسة في استنبول، ولأداء الواجب كضابط. ثم سألني: ما قولك فيمن عظمهم على أحوال الشائت في الشام؟ فأجبت: لقد عهد بطفرات البلاد السورية إليكم، ولا شك في أنكم قد قسمتم بها أرواحاً إليكم ضميركم.)

الليل خلعة

انشغال الدولة في حروبها، مكَّن كثيراً من المطاردين أن يعودوا خلعة إلى بيوتهم، يمكنون فيها ليلة أو بعض ليلة في أغلب الأحيان. إلا أن كل نزول من الجبال كان يعني خطورة أكيدة، إذ بات أمر إصدار أمر بشتق إنسان أكثر سهولة من أي شيء آخر.

ولم يكن يشغل بال خالد في البعيد سوى أمرين: الحماية وعطيته. حتى قيل أن يعرف أن أهل الخطية كانوا يعمدون التفكير بالأمر كله على نار ذلك الغياب الغامض الذي يرسم مصير خالد في بعيد لا يعرفون أراضيه.

- غمُرَ الدول أطول من عمر الناس! وهذه الدولة باقية. قال والد ياسمين لها. ولم يحدث أن نجا أحد من المطاردة، إلا إذا اختفى للأبد، وبهذا أيضا تكون الدولة قد نالت منه. أحيينا أجل، ولكن هنالك شيئاً يحكيه الأقدار، بل حاكته، يفوق بقوته ما تتناهى قلوبنا. عليك أن تفكري جيدا بما أقوله.

- إلّا هذا. ودّت باكية بصمت.

- لذلك قلْتُ لك عليك أن تُفَكِّرِي جيداً.

أما الحاج محمود فقد أحسَّ بأن الوقت قد حان لاستعادة الحماية. فمضى مع عدد من رجال البلد إلى ديار السعادات، وعندما أصبحوا قبالة بيت الحجاب، لم يمنع نفسه من أن يلتفت، وهناك، رآه كما رآه كل مرة قطع فيها هذا الطريق، يلتف فوق العلية أشبه بتمثال، بطربوشه الأحمر وعباءته الشكرية أشبه بقدرٍ يرتدِّد البرِّ بغموضه الذي لا يستطيع المرء تصوُّره.

وفي طريق عودتهم، كان الأمر نفسه. يل بدا وكأنه ظلٌّ ينتظرهم طيلة الأيام الثلاثة التي غابوا فيها بعيداً. لكن الشيء الأكيد أن الحاج محمود رأى التمثال يتحرك هذه المرة وقد أبصرَ الحماية، لكنه عاد إلى سكوته الحجري ثابة.

كان بطن الحماية آخذاً في التكور أكثر فأكثر. عرض عليهم أهلها أن تبقى لديهم إلى أن تلد، لكن الحاج محمود قال: إنها الكائن الوحيد الذي يُدَكِّرُنَا بخالد. وهو يشوق لرؤيتها من جديد في البيت.

- ولكن بإمكانه أن يأتي هنا ويراعها متى أراد.

- لقد أشرتُ عليه بهذا. ولكنك تعرفه، لا يريد أن يجرَّ النار التي تحرق أطراف ثوبه إلى يستانكم.

روية الحماية من جديد بعثت في البيت كثيراً من الأمل، وباتت منيرة على يقين بأن حضورها يعني أن غياب أولادها لن يطول. وفي واحدة من الليالي المظلمة تسلل خالد إلى الحادية، ولكنه قبل أن يصلها طاف حول بيت (ياسمين)، جلس قبالة في البعيد، كما كان يفعل دائماً كلما أتيح له في ليالي تشوَّده، امتدت يده إلى جيب قمباز، أخرج متدليها السكري وراح يتشممه بعنق كما لو أن هواء العالم كله فيه، وحين أحسَّ بأن الوقت دامه، نهض وهو على يقين بأنه سيراعها هناك. ألم تقل له: هذه أنا.

في العتمة وقف أمام الحماية، كفاء تحتضان وجهها، تحس جبينها، ولم يكن الليل قادراً على إخفاء استدارة بطنها الأبيض النير، استدار قليلاً، تاركاً راحته اليسرى على جبينها وراح يتلَّسَّس براحته اليمنى استدارة بطنها، وفي تلك اللحظة أصدرت صهيلاً خافتاً، واستدارت إليه مدخلة في عينه مباشرة، فبال بجسده كله عليها يحتضنها.

في الداخل، استقبلت منيرة فجأة على غير عادتها، كما لو أن أحداً صاح باسمها. فوقفَتْ، تأملت بيتها في العتمة التي تبدَّده بصعوبة شعله الفانوس الصغيرة، حدَّثت في وجه زوجها، لم تعرف إن كان كبر أم صغر أم أنه مثلاً رآه في يوم عرسها.

تذكَّرت ذلك اليوم حين رفع الغطاء عن وجهها، كمادة العرسان الذين يرون عراستهم للمرة الأولى في يوم عرسهم، تذكَّرت كيف كان من المفترض أن تغمض عينها خجلاً بمجرد أن تلمس يده الغطاء، ولكنها وبشقاوة البنت الصغيرة فتحنتها فجأة، فابست لها وابست له، تذكَّرت كيف جثَّت أعنتها وراحت تقول لها مؤذبة بصمت يكاد يتفجر: يا ويلي. يا ويلي. فضحيتها. سأقول لأبي.

فقلات لها منيرة: إن قلبك له شيتا، سأدوخ الآن وأقع وأصلها مصيبة!!

تذكّرت منيرة ذلك بسعادة، وأحسّت كما كانت تحس دائما بأنها استطاعت إشعال ثورة بمقردها! ولطالما رددت بفخر: من يومها صارت المرأى يفتّح عنهن!

تذكّرت ذلك اليوم الذي سألتها فيه الأنيسة: هل تعتقدين أن الحاج يملك. فقالت بعد صمت طال: يمكن آه، يمكن لا، لكن الشيء الذي أنا متأكدة منه أنه يخاف الله، هل يكفي ذلك لأن أقول إنه يميني؟

وقلت منيرة صامتة، وقد أدركت أخيراً أن شيئاً آخر هو الذي أيقظها، تلفتت نحو الباب، سارت بهدوء على رؤوس أصابعها حتى بلغت، أشرعت، فأصدر ذلك الصرير العناد: شو في؟! سألتها الحاج محمود.

- كُلْ خير. ردت.

وقبل أن تصل الإسطبل كانت على يقين أن ابنها هناك.

ووراءها كان يسير الحاج محمود.

هدوء جاف

لم يترك رجال الدرك وسيلة إلا وأتبعوها للإسكاف برجال الحادية، وبات أولاد الحاج محمود على رأس قائمة المطلوبين. ضاعفت الرياح قوتها، وعصف هيب ذلك العام بكل محاصيل الصيف تاركاً النثار حجارة لا أمل فيها. وهكذا أمضى خالد وأخوته الشتاء التالي الذي لم يعرف سوى قليل من الغيم العالي، أمضوه في ترحال متواصل، فعملوا فلاحين ورعاة وسائسي غيل. أما الشيء الأكيد فهو أن البيكاشي، ولأسباب كثيرة، بات يلاحق شخصاً واحداً لا غير، هو خالد، وقد قيل إن كثيراً من الرجال قد عادوا إلى قراهم، وبعضهم من الحادية، دون أن يحدث لهم شيء، ومنهم غازي ابن البرمكي، لكن ما كان ينتظرهم كان أقسى مما كانوا يتوقعونه وهم هناك مطاردون في الجبال.

فجأة ضاعفت الحكومة أعداد الشباب الذين تحتاجهم جنوداً، ولم يقلت من ذلك سوى قلة قليلة، أولئك الذين كان بإمكانهم أن يدفعوا بدلاً للحكومة مقداره ستون ليرة عشائرية، ولم يكن بالبالغ القليل، إلا أن ذلك لم يكن يعفيهم من الخدمة لمدة خمسة أشهر في أقرب موقع للقراهم ومدنهم، أما أولئك الذين لم يكونوا يستطيعون الإنفلات بأنهم أو بقرارهم فقد كانت الفطارات في انتظارهم لنقلهم لأداء الخدمة في أماكن لا يعرفون عنها شيئاً.

وكان يعنى من ذلك التزوج من غريبة ليست من أهل قريته، أو التزوج من قاصر ليس لها معيل، وحكام الشرع الشريف والمدرسون الذين يشتغلون بتدريس العلوم الدينية وسدنة مقامات الرسل والأولياء، ومشايخ الطرق الصوفية وأئمة المساجد والجوامع والخطباء وذوو العلل والمعاهات المزمعة، على أن يثبت ذلك عليهم من خلال فحص طبي سنوي خمس سنوات متتالية للتأكد من عجزهم التام عن الخدمة.

سمعها أغويها الذين كانوا قد أدركوا أن ثمة امرأة غريباً يدور، وهكذا راحوا يبتعدون عن القرية.

بعد نصف ساعة من نزولها عن السطح، قال لها الجنود الذين كانوا يتحدثون بعبية مكسرة: الآن نلدنا أنت عليهم. أنت أختهم، أم سنحبر أمهم على فعل ذلك، أم هذا الولد، وأشاروا إلى ابنها.

راحت تقسم أنها لا تعرف شيئاً، وأنهم ربما سيمودون في أي لحظة، لكنهم قالوا لها: ستعرفين إذن عنهم أنت. ستعرفين.

كان الجنود يدركون أن الاعتداء على أي امرأة سيغير الأمر، ولكن قائدهم الذي فُتس البيت جيداً مرتين، لم ينس تلك الدجاجة التي كانت ترقد على بيضها، الدجاجة التي تفضت جناحيها في وجهه تذره إذا ما اقترب أكثر.

أنه نحو الفن، أزاح الدجاجة غير عابى بثورة غضبها، تناول بيضة وألقاها على الأرض، فأدرك أن نصف الحياة قد اكتمل فيها.

وحين فُتزت الدجاجة نحوه تنفرد، وجّه إليها ضربة يسقطها الأسود الطويل ألقنتها بالحائط، وما لبث أن استقرت أسفل مية.

طلب من جنتين أن يُحضرا البيض كله، فأحضرا ست عشرة بيضة، تناول قائدهم التين، امتدّت يده بواحدة نحو الميززة والثانية نحو أمها: إما تعترف، وإما تشرب هذا!!

نظرت كل من المرأتين إلى عيني الأخرى، ونظرت الميززة إلى عيني أولادها الثلاثة فايز وزيد وحسين، كسرت رأس البيضة بطرف الحائط، أغمضت عينيها، أغلقت أنفها، وابتلعت ما فيها من حياة، ولم تتردد الأم التي فعلت مثلها، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، إذ راحت يد القائد تمتد بيضه بعد أخرى حتى لم يبق من البيض شيء.

غادر الجنود الحادية بعد أن غلطوا زيتها بطحيتها، وتركوا أحشاء البيوت ممتزة في شوارعها وأحواشها للمرة الثانية.

أما منيرة والعزیزة، فقد ظننا تنسفرغان أيام طويلة فيما بعد، وقد ظل ذلك المذاق الكريه جزءاً من عذابها، إلى أن فوجئتا بها هو أمراً مذاقاً!

كان الحاج محمود يعرف أن الحباب وراء حلة التفشي هذه، فأرسل إلى أبنائه أن يكونوا أكثر حذراً، ويطمئنهم بالعبارة التي طألموا ردها منذ أن رأوا أول دركي

ورغم أن وحيد والدين كان يُعفى، إلا أن ما حدث مع غازي ابن البرمكي لم يكن في الحسبان.

كان كل من في الحادية يعرفون أنه وحيد أبويه، ومن خارجها أيضاً، لكن الوثائق الرسمية كانت تثبت أن له أخاً آخر يكبره بعام اسمه بونس! ولأن هذا الأخ لم يظهر، فقد تم التعامل مع غازي كواحد من الطوليين لأداء الخدمة العسكرية، وهكذا سبق للحرب..

ذات يوم هبط الجنود ببنادقهم الطويلة وسيوفهم. لم يتركوا أحداً يخرج من القرية، حتى الخوري ثيودورس الذي قال له البيكباشي: الزم كنيتك. في حين جمعوا الرجال في المضائق وأغلقت الأبواب عليهم.

ساعات طويلة انظر الجنود، لكن أحداً من أبناء الحاج محمود لم يظهر، وقد كانوا على يقين، أن خالد وأخوته يمودون سراً ويعملون في الأرض ليلاً لتقديم ما يستطيعون تقديمه.

- ما الذي تفعلونه؟ سأل الحاج محمود أولاده ذات يوم وهو يراهم يحرثون أرضهم في العتمة. ما الذي تفعلونه، ولا شيء. يشتر بأن هذا القحط سيتهيء! لكنهم واصلوا وقطرات العرق تلتنع على جباههم.

أمضى الجنود سحابة يومهم تحت سماء كانوا الأول الصافية، كانت الشمس تذرع الجهات وتقلّب ما تحتها على لبيب لم يعرفوا مثيلاً له، لكن أحداً لم يظهر، ومع اقتراب المساء، وقد فقدوا الصبر، قالوا للميززة: اصعدي للسطح ونادي عليهم.

رفضت، كانت تعرف أنهم ليسوا بعيدين، لكن فكرة غريبة التمتع في عينيها، إذ ما هي إلا دقائق حتى قالت: سأصعد. وسط دهشة الجميع. وأولهم أمها منيرة التي صرخت: إياك أن تتحركي من مكانك.

لكنها صعدت، وحين أصبحت فوق السطح، حدثت في السهول المحيطة، لم تر شيئاً، كانت القرية كلها بمنحرجة بخيولها وبقراها وأغنامها، وشيوخها وأطفالها.

وفجأة راحت تصيح: يا أخواتي، يا خالد، يا سالم، يا محمد، يا مصطفى. تعالوا ولا تيجوا. وتعيد. يا خالد، يا سالم، يا محمد، يا مصطفى. تعالوا ولا تيجوا. وهي على ثقة بأن الجنود لن يفهموا كلامها كله.

تركي يعبر عتبة البيت بلا استئذان: تذكروا، لا يمكن لأحد أن يتنصر إلى الأبد، لم يحدث أبداً أن ظلت أمة متنصرة إلى الأبد.

العزيزة وحدها كانت تراهم، وكان زوجها عبد المجيد يعرف ذلك، يعرف أين تخفي بصرة الحبر والطعام التي تخبئها بين حين وآخر وتخفي لساعات من أمام عينيه. وكيف تعود كل مرة محملة بأشياء كثيرة، بعد أن دفعهم القحط والضرائب التي راحت تكس البيوت من كل ما فيها، إلى الإغارة على رجال الدرك والمحضلين للاستيلاء على ما سرقوه من أفواه الناس.

ذات يوم، وقد حدثت الأمور قليلاً، قال عبد المجيد للعزيزة: لماذا لا ندعوهم لتناول العشاء هنا في البيت.

انتفضت: وهل تريد أن يُلقي القبض عليهم؟
- أنا؟ استغفر الله. ولكن أن الألوان لأن تصفني ما بيتنا، فهم الآن أحوال أولادي، وليس هناك من هو أغل من عائلتي علي.

كانت العزيزة تعرف جيداً أنه لا يجهم، لأنهم لم يجوه أصلاً، وقد كانوا على يقين من أنه من رجال الحُباب، وأنه من سرَّ الحبر عن الحادية.

قال خالد: دَلَّ الكلب سبيل أروع حتى لو وضعته في قالب.
- كل زيارة لأهله هناك، هي زيارة للهُباب. عيوننا التي هناك تجبرنا. قال مصطفى.

- أصيلة وأخذت قدش. مهم محمد.
- لا تقل هذا أمامي، فهو زوج أختكم. رثت مشيرة. كما أن الماضي يجب أن ينتهي عند هذا الحد، وفي النهاية يجب أن تفكروا بأولادها.

ذات يوم رأتها شمية ابنة البرمكي حائرة في الجبل: ما الذي فعلت هنا؟
- وما الذي فعلت أنت؟

لم تعرف العزيزة بإفا عجيب، لكن شمية فاجأها: لقد جئت وكل أسأل أن أرى خالد.

هكذا باحت الصبية بكل ما في قلبها دفعة واحدة، إلا أن ذلك أربك العزيزة أكثر.

- ولكن له عطفية وستزوج قريباً.

- لا، لن يتزوجها! سيتزوجني أنا! قالت بأسى وتصميم واضحين. ثم التفتت إلى العزيزة وقالت: يترك في يدي.

تهدت العزيزة وقد رأت الذمعة يفر من عيني شمية.

- لقد ذهبت للمغارة التي أراهم فيها عادة، ولكنهم لم يكونوا هناك.

- لعل امرأة ما أخرهم. قالت الصبية. وأضافت: اترك لي لحم الطعام، لا بد أنهم سيحبون أخيراً.

- فتركها!

وحين راحتا تسيران عائدتين، اكتشفت العزيزة أنها تحب سمية كثيراً، بل رأت فيها جلالاً لم تره من قبل، هذه الصبية التي يورجها الحب على حافة الجنون منذ استعادة الحماة.

- وماذا تقولين لو زوجتُك بمحمد أو مصطفى أو سالم؟ سألتها العزيزة.

- أنا لم أجن حتى أتزوج غيره.

- يعني، أنت تعرفين أنك مجنونة؟

- وهل تعتقدني أنني هيلة لكي لا أعرف!

لم يمض الكثير من الوقت حتى قبلَ محمد ومصطفى القدوم إلى بيت أختها، في حين رفض خالد وسالم، ورجعوا ألاً يفعلوا ذلك، وما إن بدأ بتناول الطعام، حتى كان البيت قد أصبح في قبضة القوة المائلة التي انتفضت فجأة من كل الجهات.

بعد يومين تم إعدامها في القدس.

كانت فرحة الحُباب كبيرة، أما حزن الحاج محمود فلم يعد البر يتسع له. اتدفع الناس من جميع الجهات نحو الحادية بشاركون في الجساسة، حتى استلأ سهل القرية بهم. كانت جنازة لا يذكر أحد أنه رأى مثلها من زمن طويل، وطوال أربعين يوماً ظلت القرى ووفود من المدن يتقاطرون على بيت الغزاء.

دفع خالد باب بيت العزيزة ذات ليل، فإذا به فوق رأس زوجها، أمسك بعنق عبد المجيد، الذي راح يمس أغلظ الأيوان أن لا علاقة له بما حدث، وأنه يجبهها

كأخوته، قذف به للحوش، استل خنجره من حزامه، وهوى بالتصل نحو عنقه، لكن الزمان توقف فجأة، وتوقف معه التصل حين سمع صراخ أبناء أخته. اعتصر جبينه بأصابع يده اليسرى. عمّ الصمت. انتصب ثانية، فبدأ عبد المجيد قطعة من الذعر ملتقة على نفسها تحت تلك القامة العالية التي كانت تهتز كشجرة خور...

استدار بوجهه بعيداً: لن أستطيع تفلّك، حتى لو تأكدتُ من أنك أنت من وشى بها، هل كنت تعرف هذا؟! وأشار إلى العريضة وأولادها. من أراد منك البقاء هنا فهذا بيتي، ومن أراد أن يذهب معي، فليكن على الطرف الآخر من هذه الدنيا، لأنني إن رأيته ثانية سأقتله، ولو كان ذلك أمامكم.

قفز فوق ظهر (ريح)، فاخفى نصفها، وكسا لو أنها أدركتُ ما في صدره انطلقت بجنونة تعدو، راحت عيائه تحلق، وبخلفاتها كانت فرسه تختفي حيناً وحيناً تظهر، فبدأ وكأنه يخطو خطوة وتخطو فرسه خطوة، وكان الذي لحمله كان يحملها.

اخفى تماماً، حتى قيل إنه قطع المسافة بين رفح والناقورة صرّات ومرّات. وإن كثيرين قد راوه في الجليل وعلى شاطئ صقلان، وحين عاد ذات ليلة كانت عيناها غائرتين، و (ريح) ثغيرة، لا شيء فيها يذكر بلونها الذي كان. قال لأمه: سأنام.

- صرخت: يا ويلي، هنا؟

قال: هنا.

انتشر الرجال حول الحادية يراقبون الألق خائفين من مدامه أخرى.

في الصباح مضى حيث الحامة، احتضن وجهها، اقتربت منه، ألقت بمنتهى على كتفه، وبقيا زمناً طويلاً دون حراك، وعندما امتدت يده نحو أسفل رأسها، أحس بأنها لا تريد أن ترفع رأسها، انحنى قليلاً دون أن يُبعد راحتيه عن فكها، وحين نظر إلى عينيها، وجدها تبكي، وعندما انفجرت بتابع الدمع في عينيها دفعة واحدة. لم يكن خالد يعرف قبل اليوم، أمام أي البشر يمكن أن يترك الرجال دموعهم تسيل، لكنه في ذلك الصباح أدرك أن ليس هناك من يمكن أن تبكي أمامه أفضل من الخيل.

أحلام صغيرة

تحول خالد إلى حكاية ينتقلها الكبار والصغار، حتى ظنّ البعض أنه حكاية فعلاً، وأنه لم يوجد من قبل، لكن الكبار الذين يعرفونه كانوا يرددون حكاياته عن ياسمين ويؤكدون حكاياته مع التركي بحيث أصبح جزءاً من خيال الصغار في الحادية. ولم يعد غريباً أن يطلب طفل من أمه أن تترد له حكايات خالد قبل النوم كما تترد قصص (نص إتيهص) و (جينة) و (الشاطر حسن) و (ست الحسن والجمال).

حين طلب كريم من أمه أن تترد عليه حكايات خالد ارتعت. تلفتت حوها برعب، خشية أن يكون أحد قد سمع طلب ابنها. كانت تعرف أن زوجها صبري التجار إذا عرف بأمر كهذا فلا بد أنه سيطلقها!! قال كريم: لن أنام قبل أن أسمع حكايات خالد.

كانت المنافسة بين عشيرة الحاج محمود وعشيرة التجار على زعامة القرية قديمة، لكن التجار الذي منحه الأثراك بعض الامتيازات، ومن بينها أن يكون مختاراً للهادية، اكتفى بذلك، منتظراً الوقت المناسب، ولم يعد يهتبه شيء أكثر من زواج جدي في عشيرته بما يعنيه ذلك من مواليد جدد ستجعلهم في النهاية الأكثر عدداً وقوة.

كان مستعداً لأن يعمل المستحيل لجنع رأسين على وسادة واحدة، وقد ذلّل كثيراً من العقبات التي اعترضت مشروعه هذا الزواج أو ذاك. وعندما ولدت امرأته ابنة الأولى رحاب، كاد يجن، وحين جاءت البنت الثانية جنّ أكثر، وفكر أن يطلق زوجته، لكنه كان يعرف أن أسراً كهذا هو الجنون بعينه، لأن زوجته ابنة واحد من أغني وأكبر شيوخ الشمال، أولئك الذين لا يسمحون أبداً بأن تعود بناتهم إلى البيت مُطْلَقَات.

- كنت أثنى ركوب الحمامة، ولكن هل تستمع لي بركوب ربح؟ سأل الصغير.

- إن كنت تريد ذلك؟

- أريده. أريده!!

عند ذلك أمسك خالد من وسطه ووضع على ظهر الفرس.

- أين تسكن؟ سأله.

- هناك. أشار الصغير بيده.

قاد خالد الفرس في الاتجاه الذي أشار إليه الصغير.

- ولكن لم تقل لي أيها البطل، ما هو اسمك؟

- كريم. أنا كريم صبري التجار.

حاول خالد أن يفعل الكثير كي لا يُشعر الصغير بشيء. وقبل أن يقول له:

سأترك هنا، وقد قطعاً معاً أكثر من مائة متر. قالها الصغير: أنزلني هنا. بكفي.

أنزلني هنا!!

أنزله.

وقف الصغير أمام خالد وسأله: أنت حقيقي إذا؟

- وهل ترى غير ذلك؟

- هل أقرص نفسي لأتأكد من أنني لا أحلم أم أقرصك لأتأكد من أنك

حقيقي؟

- تستطيع أن تفعل هذه وتلك.

- صحيح!!؟

- صحيح.

قرص الصغير نفسه فتألم. قال: أنا لا أحلم. وامتنعت يده إلى يد خالد وقرصه،

فقال خالد: آه، وبالع في قولها. فقال له الصغير: وأنت حقيقي!! ثم راح يعدو

سعيدي إلى البيت.

سيدكر خالد هذه الحادثة دائماً، أما الشيء الذي لن يستطيع تحيّلته أبداً فهو

نهايتها!!

وقبل أن يحزن تماماً، جاء أول أولاده الذكور، فنظر صبري التجار إلى السماء وشكر الله لأول مرة من قلبه: كريم يا الله كريم. سألته امرأته وماذا نسنيه فأخذ يردد دون وعي: كريم. كريم. كريم. كريم.

تغير التجار، بحيث أحس أن عدد عشرته قد ازداد ألفاً في ليلة واحدة، وبات مجنوناً بالصغير بحيث تفوق في ذلك على جنون البرمكي القديم بانه غازي.

بعد كريم أنجبت زوجته ثلاثة أبناء مات أحدهم، لكن تعلقه بانه البكر كان ينفق الوصف. أما ما لم يكن التجار يتصوره فهو أن صغيره سيصبح أسير حكايات خالد الخاج محمود، التي كانت تدور حول مطاردات الأتراك له.

انصاعت الأم أخيراً لإلحاح ابنها وبدأت تنروي له الحكايات التي تعرفها والحكايات التي لا تعرف إذا ما كانت حدثت فعلاً أم أنها تؤولها أو تستعيرها من حكايات الشطار. كانت راضية بشيء واحد: هذه القصص، هي وحدها، التي تجلب النوم لعيني ابنها. لكن الشيء الذي لم يتوقمه أحد، هو أن هذه القصص تصبح جزءاً من أحلام الصغير.

سمع كريم أن المطاردين يتسللون ليلاً إلى بيوت أهلهم، فبدأ يتسلل من بيت أبيه ويرابط قرب بيت خالد.

مرت ليال طويلة بحيث بدأ الصغير يحس أن ما سمعه لم يكن سوى مجرد حكايات شبقي حكايات، لكنه لم يقل أن تسرد له أمه، ورغم ذلك، غير تلك الحكايات.

كان قد تجاوز السابعة من عمره، حين خرج مُتسللاً ذات ليلة، وهو يُفكر حزناً فيما إذا كانت ستكون الليلة الأخيرة، أم لا. ولم يكد يصل بيت خالد حتى رأى (ربيع) مقبلة، كان الليل يجفني فارسها، بحيث بدت وكأنها تسير وحدها. في تلك اللحظة كاد أن يغمى عليه، رآه خالد متسرعاً قرب الجدار، فسأله بلطف: ما الذي تفعله أيها البطل في هذا الليل؟ فرد: أنتظرك!

ترجل خالد، ثم قرص ليكون بإمكانه النظر إلى الشيء مباشرة. وسأله: وما الذي تريده مني؟

- أن أراك فقط.

- أوم تفكر بركوب ربح أيضاً سأله خالد.

صمتت منيرة وأصمتت دموعها أكثر. وامتدت يد الحاج إلى كتف ابنه: قسمة ونصيب!!

- ولكن لماذا؟؟

- أنت تعرف وأنا أعرف، ولكن ما حدث لا يتبع لنا اليوم المجال لنسأل لأنه

تم.

- ولن سيزوجونها؟

- لاين هم لها.

- ومن أين خرج هذا؟ ألم يكن موجوداً من قبل؟

- لقد تم الأمر.

- وهل وافقت؟

- ومن هي التي تستطيع أن ترفض!

على التل بعيداً، وقف خالد إلى جانب ربيع، مهدقاً في البيت، بينما، حتى تسلسلت غيوط الفجر الأولى. كان الغضب يرتفع في جسده، وقد حوَّله إلى سرب وحشي من جراد، سرب يؤذ لو يهبط من الأعلى ويحتاج كل ما في طريقه، تاركاً خلفه الخراب. وحينما تحيل إليه أنه رآها تخرج من بوابة الدار، وأنها وقلت وحدثت في الاتجاه الذي يقف فيه وظلت ساكنة؛ استدار، محسكاً برمس ربيع، مُعذِّباً بخطواته المجرّحة التي تمضي به لبعيد لم يعرفه من قبل.

لم يعد له من شيء غير تتبع أخبارها، وحين حمل له أحد رجال القادية الخبر الذي لا ينتظره، قفز فوق حصان الرجل، غلظاً (ربيع) في المكان حائرة، وقد فقد عقله تماماً.

تبعه الرجل فوق (ربيع) محاولاً أن يثبته، ولكن اندفاع الغضب فيه كانت تحلُّ في الحصان فتجعله أكثر جنونا، اختفى..

كانوا يزفونها فوق جبل، وحوفاً نغني النساء، حين البثق جسده المتحد بجسده حصانه، فارس مثلث لا شيء يظهر منه، حتى قبل إن عينه كانتا خلف اللثام أيضاً، وقبل أن يُدرك أحد ما يدور، وقد عقدت المفاجأة أرجلهم، انجبه الفارس نحو المودج مباشرة، امتدت يده الطويلة واختلطت العروس، ألقاها فوق حصانه، لوى

مَنْ مات؟

ذات ليل فتح خالد عينيه فرأى رجلاً يقف فوق رأسه تماماً، حاول أن يعرف من هو، لم يستطع لبيزه في الظلام، أراد أن يتحرك لكن أعضائه كانت ملتصقة بالأرض تماماً، سأله:

ما الخير؟

قال: عزيز مات.

- من؟

- مولود الحمامة. كان ذكراً.

راحوا يكفونونه، ويحفرون له قبراً عميقاً يليق بأبيه.

- كريم لا يجوز أن تنتهش لحمه كلاب البر أو وحوشه. قال الحاج محمود. وكان الشيخ محمد السعادات، وحوله رجاله. وحين استداروا وجدوا أنفسهم وجها لوجه، مع الحمامة التي تبعهم باكية.

رفع خالد طرف عباته ليمسح دموعها، لكن الحمامة اختفت فجأة قبل وصول يده إليها.

هَبْ فزعا.

- اللهم اجعله خيراً.

راح يقصّ حلمه على أمه والدعم بفيض من عينها، وحين سألتها: ولماذا كل هذا البكاء؟ نظرت إلى الحاج محمود وقالت: لأنك فقدتها.

- ولكنها هنا.

- ليس الحمامة.

- باسمين؟؟

عنه فانبتت زروعة في المكان، دارت ودارت، وفي لمح البصر كان قد أصبح هناك فوق التل. أوقف حصانه لحظة، استدار وحنّ في القرية، ثم أخذ الاتحاد.

تدافعت الحبول من جميع الاتجاهات تحاول اللحاق بالفارس والعروس المختلطة، دون جدوى، كما لو أن الأرض انشلت وابتلعت، لكن شيئاً ما حدث في داخله، فمضى بحصانه يدور حتى دخل القرية من الجهة المقابلة للجهة التي اختفى فيها، رآته النساء ثقبلاً، فصيحن، ولم يكن أحد من الرجال هناك، ظلّ الحصان على اندفاعه حتى حُيِّلَ لهن أنه لن يتوقف، لكن الأرض بدأت تنشقّ والغبار يتصاعد، حيث تحولت قوائم الحصان إلى محاربت تغوص بعيداً في التراب.

وبلمح البصر، امتدت يده إلى العروس خلّقه، وكما لو أنها مبط من السماء مثل ندف الثلج، وجدت نفسها ثانية بين النساء.

اعتصر جبينه بأصابع يده اليسرى، حدّق فيها. عرفته.

وكما حدث في المرة الأولى لوى عنق الحصان فانبتت زروعة في المكان، دارت ودارت، وفي لمح البصر كان الاتجاه الذي عاد منه يطويه.

أنسين في الليل

على الطرف البعيد للهادية، كانت الأقدار تغدّ الخطى نحو بعضها بعضاً، إذ إن ذلك الغدوء الذي سكن التلال والسهول، كان يُنذر بعاصفة لم يتوقعها أحد.

كانت المقدمة ذلك القحط العظيم الذي امتصّ عروق الأرض وذهب عميقاً نحو الجذور، مخلّفاً التراب الأحمر رملاً مصفراً، والأشجار كائنات شاحبة. قال الحاج محمود: إنني أسمع أنينها في الليل.

جلّت الأبار، ولم يجد الرجل جرعة ماء يروي بها ظمأ أولاده، أو ظمأ جيرانه.

وفي السهول العالية، كانت التجارة الراتجة التي يزداد بها الحباب غنى، هي مبادلة التمجة بسلة تين، أما الحبول فكان الأمر معها مختلفاً تماماً.

لم يكن أحد يبيع حصانه، سوى ذلك الذي لم يعد يملك أي شيء، وفي حالات كثيرة كان يتنازل الرجل عن فرسه وهو يكي، مقابل أن يُطعمها من يأخذها دافعاً بذلك عنها الموت.

أما النساء، فلم يجدن من شيء ينظفن به فوط أطفالهن غير أن ينشرنها على الحبال حتى تجف، ثم يدعكتها كي يتساقط ما عليها من أوساخ.

راحت رؤوس الماعز تتناقص في بيت الحاج محمود، ولم يكن هناك أفضل من أن تُذبح فيأكلها أهل بيته، بدل أن يجري استبدالها، لكنهم كانوا مضطرين لميادلتها في حالات كثيرة.

ذات يوم أبصر البرمكي يدوياً قادمًا من بعيد يسوق جملة المتهك، واقبه كما لو أن ليلة القدر تفتح أبوابها له، اندفع واكضاً كي يصل إليه قبل الآخرين الذين كانوا يراقبونه منذ أن أطلّ من خط الأفق.

وصله البرمكي، قال له: أنت ضيفي فأهلاً بك.

كان الأمر بالنسبة للبدوي يعني الكثير، لأن حاله لم تكن أفضل من حالهم، وعجب كيف أن الناس لم تزل تستطيع دعوة الناس إلى بيوتها في زمن لم يبق فيه ما يمكن أن تأكله وحوش البر.

وصل الناس، كل يريد أن يدعوهم، لكن البرمكي قال: إنه ضيفي. فأهلاً بكم وأهلاً به!

وإزدادت حيرة البدوي أمام هذا الكرم، وأحس بأن الله ما أنقذ هذه القرية مما ابتليت به القرى الأخرى إلا لكرمها.

كل العيون كانت تحمق في الجمل كما لو أنها ترى هذا المخلوق للمرة الأولى في حياتها.

سار البدوي إلى جانب البرمكي، إلى أن وصلا باب البيت، التفت البرمكي للناس وقال: يشهد الله أنكم ضيوف.

حين دخلوا، أجلسوا البدوي في صدر البيت، بعد أن ربطوا جملة بعيداً في طرف الساحة.

صَبَّاهُ القهوة التي لم تكن سوى قمع محروق؛ حين تذوقها أدرك بفطنته أن قهوة كهذه لم ينجح أصحابها بما أصاب الجميع.

نهض وقد أحس بهذا، قال: سأقضي حاجة.

حين وصل الباب أبصر جملة مذبحاً في طرف الساحة.

نظر إليهم بغضب وقال: لقد ذبحتم بعيري.

بل هي ناقة!! قال له البرمكي.

بل بعير. رد البدوي بغضب أكبر.

بل ناقة. قالوا له.

واختلفوا في المسألة حتى نسوا مسألة ذبح الجمل.

طَبَّخوا عظماء، وأعادوه إلى صدر البيت، رفعوا فرشة أهل البيت التي تحته وأحضروا فرشة الضيوف. وكلما كان الخبر يصل إلى أحد من أهل القرية، كان يأتي راكضاً.

أحضروا الطعام أخيراً، فاندفعوا يأكلون كما لو أنهم يؤدعون الطعام إلى الأبد، ويصعوبة استطاع أن يظفر ببعض لحم بعيره.

عندما انتهوا أرادوا غسل أيديهم، فقال أحدهم له: وأنت أخوتنا الكبير!! هل يمكن أن تصب الماء لنغسل أيدينا.

تناول الإبريق وصَبَّ الماء إلى أن غسل الجميع أيديهم.

ثم تناول أحدهم الإبريق وساعد البدوي في غسل يديه.

دخلوا البيت ثانية، تناول البرمكي دلة القهوة ليصَبَّ له، تذكّر البدوي طعمها فقال: حَلَفْتُ بالله عليكم. لا أريد سوى رخل بعيري!!

فقالوا: بل ناقة.

قال: بعير.

قالوا: بل ناقة.

فقال: أعطوني إذن رخل ناقتي.

فالتفت البرمكي إليه وقال: لو اعترفت منذ البداية بأنها ناقة لما حدث ما حدث!!

فتناول البدوي رخل بعيره ومضى.

أمام الحماة، كان خالد يقف، وكلُّه خوف من أن يجيء ذلك اليوم الذي لا يجد فيه ما يمكن أن يطعمها إياه، وقد وصل الحال بالناس إلى أن يفرجوا القش الناشف من سطوح بيوتهم ليطعموا به حيواناتهم، ويفتشوا في روثها عن حبات الشعير التي لم تُهَضَّم، ويحذقوا كل يوم في الأفق باحثين عن حلم عاشوه ذات يوم ويتمنون أن يتكرر ولو مرة واحدة: بدوي يصل من بعيد وفي يده ناقة أو بعير.

ألقى خالد ذراعاً على ظهر الحماة، سمع ذلك الخمس العميق: هذه أنا؟ هذه أنا.

تَلَمَّتْ حوله لم ير أحداً، اعتصر جبينه بأصابع يده اليسرى، خرج، تفلقت الحوش لا أحد.

ابتعد، وحين عاد بعد أيام، تكرر الأمر نفسه.

ابتعد أكثر، وحين عاد سمعها همس: هذه أنا. هذه أنا. أوشك أن يجن.

إلى أهلها توجه خالد، لكنها لم تتوقف طوال الطريق عن تكرار همسها.

وأوها من بعيد، وكانوا يعرفون أنها الوحيدة التي يمكن أن تعود، عرفوها، راحوا يتجمعون في انتظار وصولها، وحين وصلت، تأكدوا أنها كانت مصونة هنالك في البعيد.

- أخشى أن الزمان سيجور على عزيزتكم أكثر إن ظَلَمْتُ معي. قال خالد.

وظلّوا صامتين.

وأضاف: أتركّها هنا، حتى تتغير الأحوال قليلاً وأعود إليها.

- أنت تعرف أن القرس التي تُعَاد لن تعود. لقد قبلنا بعودتها في المرة الأولى، فهل نريدنا أن نقبل بعودتها ثانية، لقد ورّعنا كل خيولنا في الأرض مع رجالنا كي لا نخسرها، لا يعود إلينا فيها بعد، إلا من يعود بها مصونة، حتى لا تُساق كالبدال في دروب هذه الحروب التي لا تنتهي أو تموت جوعاً وهي واقفة ونحن ننظر إليها. أطرّق خالد: ولكنني سأخسرها إن بقيت معي. أنا المطارد فيها ذنبها.

- الحزّة لحتمل.

جارحة كانت الكلمات.

- ولكنني لا أحمّل.

- نجّيتها إلى ذلك الحد الذي لم تجد فيه وسيلة للاحتفاظ بها سوى هجرانها.

أطرّق خالد من جديد محاذراً لفلات بحيرة الدمع الصغيرة. وقابضاً بكل روحه على ذلك السرّ الذي دفعه لفعل ذلك.

فجأة راح الشيخ محمد السعادات يتنادى: يا إبراهيم. وما هي إلا لحظات حتى كان يقف أمامهم ذلك الفنى الذي لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره وهو يجيب: أمرك يا شيخ.

- الحماة أمانة في عنقك.

- لا تقلق يا شيخ.

وكما لو أنه لا يريد أن يضيّع لحظة واحدة، فقرّ فوق ظهرها، وراح يتنعد وهم يراقبونه إلى أن اختفى.

أما خالد فلم يكن له أفق يحدّق فيه سوى ذلك الأفق الذي يراه إنسان مطأطئ الرأس!!

أحباب على الباب!

بعد أمّام رملية، حسم الشتاء الأمر...

لم تكن العزيزة، التي عادت إلى بيت أبيها مع أولادها، تستطيع النوم مع تدفّق المطر بغزاره، المطر الذي أيقظ أهل الحادية كلهم، كانوا فرحين بحيث ظلّ بعضهم أمام بابها لساعة متأخرة من الليل، ظلّت تنقلّب في فراشها، إلى أن أحسّت بأن الوقت قد حان، أحكمت غطاء رأسها، وخرجت مهرولة نحو زريبة الأبقار. حلّبت بقرتين، وحين خرجت من الزريبة سمعت صوت طرقات على باب الحوش، ركضت، إذ كيف يمكن أن يُترك أحد في الخارج تحت مطر كهذا، أشرعت الباب، لم تر أحداً، استدارت لتغلّفه، فوجت أمام العنبات يا لم تره عينها من قبل: عظام تروح ولحيه بقوة الماء، لم تكن بحاجة للكثير من الوقت كي تعرف أنها عظام بشرية. كان ثمة ذراع وعظم حوض، سيقان، ومشط يد، وججمة. أخذها الرعب فسقط ماعون الحليب من يدها، دون أن تحس به. راح الأبيض يخلط بالماء الزرّابي.

تبعث مجرى البياض حتى اختفى. أحسّت بأن شيئاً ما غربياً يحدث. لم تصرخ، لم تستدع أحداً، تركت البوابة تتأرجح وراءها ومضت تتسلّق مجرى السيل المتدفق من أعلى التلة قاصدة المقبرة. ومع كل خطوة كانت تخطوها، كان رعبها يزداد، وقلبيها يخفق بشدة أكبر.

ظلّت تصعد وتصدر، وكلما تقدّمت أكثر كانت تُفاجأ بمضو بشري آخر يجرّه الماء. وصلت هناك، وكما لو أنها تعرف ما حدث تماماً، انجذبت إلى قبري أخويها عند الحافة التي تفصل أرض المقبرة المستوية عن السفح.

في ذلك اليوم البعيد، رجّتهم متيرة: احفروا لها هنا، كي أستطيع رؤية قبريها من البيت. احترم الجميع حزنها، بحيث لم يحجب أيّ قبر جديد قبري ولديها.

حين وصلت، رأيت الماء يجري حاملاً ترابها، ومحاولاً دفع ما تبقى من الجشتين للخارج.

وقفت العزيزة طويلاً تحت المطر، غير قادرة على أن تفعل شيئاً، أي شيء، سوى تتبع مجرى السيل وما يحملة من قليبها. استدأرت عائدة بجانب حافة الماء، وكلّما سارت لحق بها عضو من أعضاء أخويها، وحينما وصلت وجدت الأشلاء كلها قد تجتمعت أمام الباب، في تلك الزاوية الخفية التي تكوّنت بفعل شُك الجدران. دخلت البيت، غابت قليلاً، وحين خرجت، كانت ملتفة بعباءة سوداء تحجبها تماماً فوق ظهر (الجليلة).

فُتّشوا طويلاً عنها، في البيت، في الزريبة، وعندما افتقدوا الجليلة، أيقنوا أن شيئاً كبيراً يحدث، راح الحاج محمود، تبعه منيرة، يركضان نحو الباب غير عابئين بالمطر الغزير المنهمر، وحين أشرعه، فاجأه هناك ما فاجأ العزيزة، فراحا برعبيها يتبعان تدفق الماء.

قبل أن يصلا الشفع أدركا ما حدث. ارتدّ الحاج محمود نحو البيت مهرولاً، يتناثر الطين مُلطحاً ليابه. ولم يكن باستطاعته أن يفعل أكثر من أن يلملم العظام بيديه المرعفتين، ويحملها إلى داخل الحوش. في حين وقفت منيرة على التل غير قادرة على التقاط أنفاسها من وقع المفاجأة.

كان الماء قد تجاوز الجسر قليلاً. استجابت الفرس للحاج محمود، عَبَر الماء المتدفق. وعندما وصل الحافة الأخرى، كان الشيء الوحيد الذي يفكر فيه هو أن (الجليلة) لن تتخلى عنها.

لم يستطع اللحاق بها، وقد أيقن أنها لن تذهب إلا إلى مكان واحد. تجاوز كروم الزيتون متطلقاً صوب قرية المُنَاب. وقبل أن يصل رآها عائدة.

راح يبحث فرسه نحوها، وحين وصلها، تجاوزته كما لو أنها لم تره، استدأر عائدة امتدت يده إليها، فزعت، صرخت، فراح يُطمئنها: هذا أنا.

مال جانباً، التقطَ رَسَن الجليلة، الجليلة التي رفعت عينها وحدّثت فيه قليلاً ثم عادت تسير بالترابّة نفسها. كانت المياه تغمر الجميع، وكلّما تنأثر بعض الطين ملطخاً قوائمها كان المطر يفسله بسرعة، حتى لا يكاد يلحظ أن طيناً غلّقَ بها.

حين وصلا إلى حافة الجسر، كان نصف القرية على الجانب الآخر منه، أولاداً ونساء وشيوخاً.

- ستوات طويلاً يتحبس المطر، وفجأة يفتح باب السماء. كان يجب أن يكون القحط كي يكون هذا السيل. كل تلك الشتات الجافة لكي تصل الرسالة إليّ. قالت العزيزة. وأضاف: أنا؟ أنا لم أَس. وكأن هناك من يسألها. كيف يمكن لي أن أنسى، ولكنني أوشكت أن أسامح.

- ما الذي حدث هناك. سألتها الحاج محمود.

لم تجب.

وأدركوا أنها قتلت زوجها.

مع انقطاع المطر، جمعت الهادبة عظام الجشتين، صعدت الجبل لتدفنها ثانية، وحين بدأوا الحفر كانت الأرض تستجيب ببلونة الطين، لبونة قال البعض إنه أحسها لأول مرة وهو يسلك فأساً.

في قبر واحد وضعوها.

- لعلها كاترا يريدان ذلك منذ البداية أيضاً. قالت منيرة هاذية.

عند الظهيرة امتلأ السهل بالفرسان، فرسان غرباء جاؤوا يطلبون الشار، وكان يمكن أن يراهم المرء قادمين من أكثر من اتجاه.

فرسان أدركوا بعد وصولهم، أن ما أمامهم يوقو بهوله ما غلّفهم، أن ثمة موتاً كبيراً، لم يجزوا على الصعود.

يعرفون، في مثل هذه الحالات أن الدّم يكون حاراً، والأرواح على وشك الخروج من سجون أجسادها.

عادوا.

لم يكد اليوم ينتهي، حتى كان الحبر يجتاح القرى كلها: صَرَ قَتَد، تل الصافي، عَجُور، بيت جمال، زَكْرَيْن، زَكْرِيّا، الأَرْجِج، ضَمِيل، غَرْطوف، بيت جبرين، الدَّوَابِجَة، دُوراء، القَيْبِيَّة، عَسَلان، مروراً بالطاغورية وبيت حُثُون وعِراق سويدان. وقد أكّد كثير من الناس أنهم عرفوا بها جرى في الحليل ونابلس والقدس.

اعتزّت المنطقة كلّها على وقع الخبر الذي كانت له رغبة وجلال لا يمكن لأحد إلا أن يفكر بها. ولذا، حين عاد الفرسان في اليوم التالي، كانوا يضع عشرات لا غير، وقفوا في السهل طويلاً وغيوهم لدور حول نفسها، والحادية تراقب متحفّزة، ومع كل فترة من الزمن كانت تُرْكان أحدهم يولي عنق حصانه أو مهرته ويرحل مبتعداً، وهكذا لم يبق في النهاية سوى رجل واحد. أمضى نصف نهاره يدور فوق جواده، يُغير حيناً نحو القرية حتى يكاد يصل إلى حدودها، ثم ما يلبث أن يراجع إلى النقطة التي انطلق منها.

عرفوه..

وحين هبط الليل طواه..

رياح الهَبَاب

الشيء الذي لم يتوقّعه أهل الحادية، أن الهَبَاب بدأ يظهر فجأة في قرينتهم، ولم يعد ينفوُث يوماً من أيام السّوق.

بأنّ على ظهر حصانه، وحوله عدد من رجاله، يتجسّول، يشتري بعض الإبل الصافيات، كلها أتيج له ذلك، وقد كان بعض البدو يضطرون لبيع إبلهم العزيزة هذه، حيث لم يكونوا، بعد، قد قطعوا خبرات المطر الذي انهمر.

كان الهَبَاب خبيراً في هذا، ويستطيع بسهولة أن يعرف الناقة الصّافية والجمل الصافي، بل ويعرف أنواعها وأسائها، بدءاً من السمحات، مروراً بالزّخبيات والوضحيات والبشاريات حتى الضّبيعات. هذه النّوق التي تحتل مكانة عالية لدى البدو وأهل القرى على السواء، مكانة لا توازيها سوى مكانة الخيل الأصيلة؛ ولذلك كانت هناك وثائق باستمرار ثبتت نسب النّوق وتقاء سلالتها.

وجود الهَبَاب في السوق كان يربك كل شيء، لكن ذلك لم يظهر في البداية، وما إن أحس الناس بالأمر حتى بدأ بعضهم يتحاشى النزول لسوق الحادية، مشغلاً أسواقاً أبعد ولكنها أكثر أماناً.

لم تكن قوة الهَبَاب في سلطته وحدها، بل في قوته الجسدية أيضاً، وكما لو أنه قرر أن يتحدّى الجميع كرجل لا غير، أصبح ظهوره يتكرر باستمرار.

كانت هذه الإبل على الدوام صورة للجمال: ارتفاعها، صفاء لونها، طول رقبتها، رأسها الصغير، ويزيّرها القصير، والأهم: تلك القدرة الفائقة على تحمّل المشاق، حيث تنزايد اندفاعاتها كلما تقدّمت في المسير، وهي واحدة من الصفات التي تجمعها مع الخيول الأصيلة أيضاً.

لم يكن غريباً أن يرى المرء يدوي بيكي وهو يُسَلِّمُ رَسْمَ ناقته لرجل اشتراها، أما الشيء الأغرب الذي بدأ يحدث، فهو أن كثيراً من البدو كانوا يضطرون لبيعها بأسعار بخسة للهباب.

يُقبل الهباب من بعيد ونظرة لا يُفارق الناقة أو الجمل، وفي أحيان الأفراس، ويظل يسير في خط مستقيم نحو صاحبها والناس تراجع على الجانبين لتفسح له الطريق، وهكذا، كان يمكن لكل من يشاهد السوق عن بعد، وارتفاع كفاف، أن يرى كيف ينقسم السوق إلى تصفين بمجرد سيره فيه، ويظل ذلك الممر لفترة طويلة خالياً من أي رجل، خائفة أن يُفكر في العودة ثانية من حيث أتى. يتأمل الناقة، لا لأنه يريد أن يتأكد من أصالتها، فهو يعرف هذا من النظرة الأولى، يتأملها لكي يتعجب بمرآها.

ثمة شيء ظل غريباً فيه، سيعيش معه حتى ذلك اليوم الذي سيشهد نهايته المشهورة التي سيبتكر خاتمتها بنفسه، وهو هذا الضعف الذي يحس به وهو يرى ناقة أصيلة، أو حصاناً، لكن الشيء الغريب أنه لم يكن يُقبل بأن يسلبها من أصحابها عنوة في السوق، رغم أن شيئاً كهذا لم يكن يحدث حين يرى امرأة أو فتاة جميلة. إذ لم يكن يتوَّع عن التوقّف في حقل ما، دون أن يترجّل عن فرسه، ويسأل فلاحاً يعمل بجانب امرأة: من هذه؟

فيرد الفلاح: امرأتى.

- بل هي امرأتى. يرد الهباب غاضباً. ويضيف، كيف تجرؤ على أن تقول إن امرأتى امرأتك؟

وفي حالات كثيرة لم يكن يتردد في إطلاق رصاصة واحدة تستقر غالباً في جبين الزوج. وقبل أن تُدرك المرأة ما حدث، ينحني ويبد واحدة يُلقّي بها خلفه، ويمضي وسط صمت ودموع كثيرين يتأملون المشهد، دون أن يجرؤ أي منهم على النطق بكلمة واحدة. لكن هذا لم يعد يتكرر منذ زواجه من ريمانة.

هنا، في السوق كان الأمر مختلفاً، يمدّ يده للبائع، بصافحه، مبقياً على يده في يده.

- كم تريد لثمنها؟

- عشرين مجيدة.

- بل سبع مجيدات.

وعند هذا، تبدأ عملية الشراء الفعلية التي لا بد أن تنتهي لصاحبه. تُطَبَّقُ أصابع الحباب الغليظة على يد الرجل، وتشدّ. يحسّ الرجل تلك القوة الخائفة تتزايد شيئاً فشيئاً.

- خمس عشرة. تكفي.

- سبع مجيدات.

وهكذا يتواصل الانقباض الوحشي للأصابع القوية، حتى يبدأ العرق بالتفقد من جبين البائع، وتدرجياً من كل جسده، والارتباك يفسره، لأنه لا يستطيع أن يصرخ أو يشكو فيظهر أمام الناس أقل من رجل.

بعض البائعين كانوا يذلون الكثير من الجهد، بعضهم كان يغالب كل الآلام، ويحمل لفترة أطول، لكن النتيجة واحدة دائماً، وأصبح الناس على يقين من أن كلمة الهباب لا تصح كلعنتين، وما دام نطق بها وحده السحر، فليس هناك قوة قادرة على تغيير الوضع، لكنهم كانوا يحيلون ذلك إلى سطوته لا إلى قبضته. ولعل ما جعل كثيرين يواصلون القدوم للسوق هو عدم اعتراف أحد بأنه اضطرّ للبيع لأنه كان أقل رجولة، ولم يحتمل.

أما الحاج محمود فلم يكن يتدخل في الأمر، كان يراقب ذلك من بعيد، فقد كان يرى فيه رجلاً يشتري لا أكثر، إلا أن تناقض عدده الناس بدأ يشير خبرته أكثر فأكثر. وبخاصة أن الأسعار لم تكن مبهت إلى ذلك المستوى إلا إذا كان هو الشاري.

لكن زمناً طويلاً سيمرّ، قبل أن يعرف السبب.

تذكر أنه رأى مهرة حمراء، تضيء جبهتها بقعة بيضاء، شق الصفوف، رآها، أدرك البائع أن يوم نحسه قد أتى، حاول أن يتعد، لكن الهباب صاح به: إلى أين؟ لم ينته السوق.

توقف، ثم استدار مواجهها الهباب، وهو لا يعلم ما الذي ينتظره تماماً.

حين كان الهباب يهيم بمفادرة السوق مكتفياً بالمهرة الحمراء، تاركاً صاحبها يبكي من القهر بعيداً عن عيون الناس، أبصر ذلك البدوي القادم من بعيد، وغلغل تلك الناقة التي تُهر الأبحار.

لم يكن وحده من رآها، لقد استدارت الأعناق كلها، وعمّ الصمت، وقد أدركوا أن الضحية قد آتت إلى مصيرها على قدميها.

لكن البدوي سار بمحاذاة السوق، وعندها أدركوا أنه لم يأت لبيع الناقة، أنه ليس أكثر من عابر سبيل.

صاح الهباب: يا أخا العرب.

توقف البدوي، وتوقفت ناقته. استدار إلى مصدر الصوت، كان غطاء رأسه يلتف حول وجهه، ويخفي ملامحه تماماً.

- نعم.

- الله ينعم عليك. رد الهباب نصف ساخر. هل هذه الناقة للبيع.

- مثلها لا تباع. قال البدوي بصوته الخشن.

وتقدم الهباب نحوه والتفت بأن ناقة كهذه لن تخطو خطوة نالية إلا معه.

- الله ورسوله حللا البيع والشراء! قال الهباب وهو يسير نحوه.

- مثلها لا تباع. أعاد البدوي.

- لا تكثر يا رجل! قال الهباب.

- لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ردّ البدوي.

راحت العيون تحدّق فيها وقد نسي كل من في السوق ما في يده، اقتربوا مثلهم لمرقة ما سفسر عنه اللحظات التالية، رغم أنهم على يقين من أن هذا اليوم هو يوم نحس لهذا البدوي.

وصله الهباب، مدّ يده نحو يد البدوي، وعندها بدأ العرق يتصبّب من جباه الجميع.

خيال الأدهم

شقّ الهباب طريقه عبر سوق الهادبة، العيون تحدّق فيه خائفة، وليس هناك من يجرو على الوقوف أمامه.

كان دوراته حول الجموع كافياً لأن يعرف ما يريد، لكن رؤية الرعب في وجوه الناس كانت تبعث فيه نشوة لا توصف.

ترجّل عن الحمداية، وقبل أن تلامس قدمه الأرض لمعت صورة الأدهم في خياله فأوشك أن يمتثر.

أمسك بمقدمة السرج، وكما لو أنه تمحّل إلى عمود من ملح، ظلّ ساكناً للحظات، قبل أن يسحب قدمه من الركاب.

على الجانب الثاني من فرسه استقرت صورة الأدهم. لقد أبصره هناك بلحمه ودمه، واقفاً بلا سرج ولا رسن، سواده يلمع في الشمس مثل سطح البحر في ليل مظلم، بحر مضاء بأشعة ضوء قادمة من لا مكان. التفت الحصان إليه، ظلّ محدّق فيه، ثم استدار وسار بعيداً.

أريدت ملامح الهباب، اكتست ببطيخة من رماد بارد. ظلّ ينظر للحصان المتبعد حتى اختفى.

دائماً كان يكره هذه الرؤى السوداء التي تبرز مُعْتَكَرة صفو يومه. فكّر بالعودة إلى هناك، فكر بمسدسه، فكر بطلقة تخترق ذلك العنادر كله: ليس ثمة أفضل من رصاصة لترويض حصان بهذا الجموح!

لكن الهباب لم يعد.

وسيتدم على هذا كثيراً.

مدّ البدوي يدهوه.

- صلّي على النبي.

- اللهم صل على النبي. رة البدوي.

- اشتريناهما بخمسة قرش.

- مثلها لا تباع.

- شدّ الحجاب على يد البدوي أكثر.

- وفوقها عشرون.

- مثلها لا تباع.

من طرف عينه راح البدوي يراقب ما يدور في السوق، حتى رأى العيون كلها مُسلّطة عليها.

- وفوقها عشرون أخرى.

- مثلها لا تباع.

حبس الجميع أنفاسهم، ولم يكونوا مطمئنين إلى شيء.

ولي تلك اللحظة الفاصلة التي لا يد منها، راحت يدُ البدوي تُطَيّق على يد الحجاب رويداً رويداً. أحسّ الحجاب بشيء مختلف، مفاجئ. التمتعت في عينيه ثانية صورة الأديم. خمس لنفسه: رؤيا سوداء تظل مرتين في يوم واحد. قال شر.

- وفوقها عشرة.

- مثلها لا تباع.

وعند ذلك بدأت قطرات من عرق تظلّ برؤوسها من جهة الحجاب، التمتعت، ورأها كثيرون.

بين أن يحسب الحجاب يده أو يزيد البليغ قال: وفوقها خسون. لا أكثر.

- مثلها لا تباع.

كانت واحدة من لحظات الرعب التي لم يعد أحد خلالها قادراً على معرفة ما يدور في نفسه. تصبب العرق ليغمر الجميع، تدفّق تحت أرجلهم، غامراً ملابسهم ونحو لا ساحة السوق إلى بحر من الطين، وهبّت ريح باردة فارغلت الأعضاء، ثم هبّ هيب.

عاد صاحب اللهرة الحمراء، وقد فاجأه صمّت السوق، ولكنه لم يجرؤ على الاقتراب خائفاً أن تفضحه بقايا الدمع.

أدرك الحجاب أنه خاسر، أنه يعيش يوم حياته الأسود، حاول أن يسحب يده، لكن تلك اليد الجهنمية أطبقت أكثر وأكثر.

كيف يمكن أن يصيح المأ، كيف يمكن أن يصبر لحظات أخرى. صاح:

- وفوقها ألف!!!

وفي تلك اللحظة التمتعت أعين الناس بالشئانة، وقد أيقنوا أن المعركة قد حُيِثت.

وأعاد البدوي يدهوه: مثلها لا تباع. وأطبقت أصابعه بقوة أكثر.

تذكّر الحجاب ذلك اليوم الذي غاص فيه السيف عابراً لحمه، تذكّر كيف كان على وشك أن يصيح، لكنه صبر وفاز بكل شيء، بحياته وسلطته وبيته وباسمه الذي يبرّ الجهاد. لكن الأمر لا يسير كما يشتهي الآن، حتى وهو يشتري نفسه بألف أخرى دفعة واحدة. وأوشك أن يصيح: وفوقها ألفان. إلا أنه أحسّ بصوته بغوص عميقاً في صدره، صدره الذي بات فارغاً من الهواء.

أيقن البدوي أن الأمر قد تمّ، وأن كل ما عليه الآن هو أن يضغط قليلاً، وقد أحس بأن اليد الأخرى قد فقدت كلّ ما فيها من قوة وارثت مئة بين أصابعه. وأطبقت اليد أطباقتها الأخيرة. وعندها شقّ الجميع وهم يرون ركني الحجاب تنغرسان في الطين.

ظل البدوي مطبقاً بيده، إلى أن تأكد له، أن هزيمة غريمه قد وصلت مداها. عندها ترك اليد تسقط، واستدار يجرّ ناقته في الاتجاه الآخر.

حاول الحجاب الوصول بيده اليمنى لمسده، وهو يجثو في ظهر البدوي المكشوف، لكن ذلك كان مستحيلاً. حاول بيده اليسرى، وعندها سمع زججرة الناس الذين تقدّموا نحوه منتهرين.

أي حركة منه كانت تعني موته.

عادت يده اليسرى إلى مكانها على الأرض، اتكأ عليها، بهض.

وفجأة، تعالت الصيحات كرحاً، وانطلقوا ركضون خلف البدوي، البدوي الذي توقف واستدار ليلقاهم.

- من أنت يا أبا العرب؟

- واحد منكم.

كان صوته قد تغير تماماً.

بصعوبة ألقى الحُباب جسده فوق ظهر الحمدانية، وسار مبتعداً مخلفاً وراءه تلك المهرة التي دفع ثمنها، المهرة التي وقفت حائرة وقد وجدت نفسها طلبقة، قبل أن يتقدم أحد الرجال ويمسك برسها.

- وحذك الذي يملك شرف إعادتها لصاحبها. قال الرجل. ثم نادى: يا رضوان. ولم يكن مضطراً لأن يعيد نداءه ثانية.

انشق الجمع، تقدّم صاحب المهرة، مدّ له خالد يده، ناوله الرسن، ولكن يدي صاحب المهرة كانتا مشغولتين بشيء آخر هو معانقة هذا الرجل الذي لم يُعد له المهرّة وحدها، بل أعاد له كرامته.

اندفعوا يحضنونهم، ومن بعيد كانت الحادية كلّها تندفع إلى السوق وقد أدركت أن شيئاً كبيراً يحدث. وسيدّم كثيرون منهم لزمن طويل أنهم لم يكونوا هناك، أنهم لم يروا بأعينهم ما حدث.

وصل الحاج محمود. أقسحوا الطريق له، ظلّ يسير إلى أن وقف أمام البدوي. احتضنه، وفي أوج عناق له سمع البدوي يمس: علينا أن نحسب الآن حساباً لكل شيء ياها!

رفع يديه، وأبعد الغطاء عن وجه البدوي، وعندها انعقدت أليسة الجميع.

بوضوحها الحارق ذاك، أشرعت تلك الحادثة أمام الحُباب بوابة الأيام التالية الأكثر سواداً، الأيام التي هبت عليه بمواصف رمادها. وسينتهي كل شيء بطريقة لم يتصوّرها أحد، وحتى قبل أن يعرف الحُباب اسم ذلك البدوي الذي جلّله بالعار وسط صيحات الفرح التي ملأت السّوق.

مقدمات لاحقة

في الليلة السابقة كان قد امتطى (ريح) وطار إلى الشيخ ناصر العلي، شرب قهوته، وبعد العشاء قال خالد: لي طلب يا والدي.

- هيونتا لك.

- تسلّم عيونكم.

- أريد أجل ناقة عندكم، أستعيرها الليلة وأعيدها مساء الغد.

- أنت تأمر، ولكن ألا تريد أن تقول لي لماذا تريد أن تستعيرها؟

- سأقول لك كل شيء. ياذن الله.

- ولكن لم تقل لي ما أخبار الحمامة؟

أطرق خالد، ففاض الصمت هائساً بالكثير، فرأى الشيخ ناصر ذلك المرح الذي رآه في صدر خالد حين جاءه ممزقاً من سنوات.

حين جاؤوا بالناقة، أدرك خالد أنهم جاؤوه بأفضل ناقة لديهم، كانت بلونها الشكري وشعرها الناعم القصير، وقامتها العالية وعنتها الطويل الذي ينتهي برأس صغير تضفيه عينا لأمعتان تسليبان العقل بصفتها.

- هذه شّمعة. لا أريد أن أوصيك بها.

أمضى خالد ليلته في بيت الشيخ ناصر العلي، وقبل أذان الفجر، واصل سيره نحو سوق الحادية، قابله (المريزة)، في المكان الذي اتفقا عليه، على طرف أراضي الحادية الشرقية، ناولها رسن ريح.

- هي أحضرت ما طلبته منك.

- كلّ حاضر.

تناول خالد حصّة من يد أخته، توارى خلف شجرة بلوط، وحين خرج. كان شخصاً آخر.

- كيف؟ سأفعل.
- والله لو لا أنني رأيتك تدخل خلف الشجرة، وتلبس الثياب التي حملتها إليك بنفسك لما عرفتك.
- توكلت على الله.

نهاية أولى

لم يمرّ على الحُباب زمن أكثر حلقة مثل ذلك الأسبوع..
لم يصبر في طريق عودته دابة إلا وقتلها، ولا رجلاً أو امرأة إلا وجعله يفسد التراب، ولا طائراً في الأرض أو الساء إلا وأطلق عليه النار، ولا حصناً بارزاً إلا وقطعه؛ وعلى أطراف قريته وجّه رصاصة لأول ناقة قابلته.
كان الغبار يمسلاً الأفق، وكلما انقشع أسفر عن دم متطاير يغمس حجارة الساسل، تراب الطرّق وأوراق الأشجار.
وعندما وصل البيت ظلّت فرسه تعدو عبر الحوش بالاندفاع نفسه، حتى ظنّ كل من رآه أنه يريد اجتياح الأسوار العالية والإسطبل يصدر الحمداية.

في اللحظة الفاصلة بين تشم العظم واتشاق الصرخة، وقفتُ فرسه وقد تشبّثت قوائمها كلّها بالأرض، فحفرت عميقاً في التراب. قفز، أمسك بمسدسه (الريابلو، وثبته تماماً في جبين الأدهم الذي تراجع خطوتين وقد أحسّ بها بدور. ارتجعت يده، أطل وجه ربحانة خفياً، كانت تبسم، ويدها اليمنى على ظهر الحصان.
- ألم تجد طريقة أخرى لامتنائه غير أن يكون سرّجك هذه الرصاصة؟
تراجع، وعندما تقدّم الأدهم خطوته اللتين دفعنا الحُباب نحو الجدار الذي خلفه، وتلاشت صورة ربحانة، كما لو أنها استقرّت داخل الحصان، كما لو أنها أشرعتُ باباً لم يره من قبل في جسد الأدهم ودخلت منه.
رفع المسدس ثانية، أغمض عينيه، وضغط على الزناد بكلّ قوته كما لو أنه يسحق تلك اليد التي جلّته بالعار.

سهلت الحبول فائرة تمرّق الهواء يحوافرها وخوفها، لكن ذلك كله لم يكن قادراً على أن يُعطي الانتفاضة التي أطلقها الجسد العظيم وهو بنهار، أشرع الحُباب عينيه ثانية، حدّق في الأدهم وقد تحوّل إلى جثة، استدّار، ولكنه قبل أن يصل باب

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الإسطنبول، توقّف، عاد ثانية إلى حيث الأدهم، أبعَدَ البوابة الحشبية، ولم يعد يعنيه شيء من كل تلك الأصوات التي راحت تنصايح حوله، أصوات بشر وغيبيل وماعز وقتل لا يعرف أين التقاهم، وفجأة قفز على الأدهم المُسجى، واستنقر فوق الجانب الأيمن للحصان. هزّ الفُتّاب جسده، أطلق قدميه تستنجان الجسد المدمى أن يسير؛ وفجأة أعتم المكان، كانت أكثر من قامة قد سدّت طريق النور، قامات بشر وخيول وفرسان.

نهض، وما إن توقّف حتى أشرع باب الضوء ثانية، التفت إلى الحصان القليل، فرأه هادئاً، وكم حيره هذا، كم حيره أن الأدهم هادئ إلى هذا الحد، وحين خطا خطواته الأولى أحسّ بقدميه تنفرسان أكثر في الأرض، كانتا قد استقرتا عميقاً في بركة الدم الهائلة التي فاضت عن حدود الجسد العظيم.

وكما لو أنه نائم ويعلم... حاول انتزاع قدميه من بين فكّي الدم المطبقين يحنون عليه، لم يستطع. وفجأة راح يصرخ ويصرخ..

نهاية ثانية

انزوى الفُتّاب، كما لو أنه اغتضى عن وجه البسيطة، طلب من زوجته صبيحة أن تمنح أي أحد من الدخول عليه، وهي تردد كلها طلب شيئاً: حاضر يا سيدي. طلب منها أن تغلق النوافذ، وأن لا يرى وجهها أبداً، فأجابت: حاضر يا سيدي.

وما إن أغلقت الباب حتى اكتشفت تلك الصلاة التي لم يتصورها، صلاة العتمة حين تُطَبّق على الكائن الحي. كان على يقين، أن روحه تسلك من بين أضلاعه، خرجت ولن تعود، فانشغل بمراقبة ذلك الوهن الذي بدأ يجسّه وهو يذرع جسده بكسل بحيث ممزقاً أحشاءه يتصل رمادية حادة باردة.

أما ريحانة، فقد انزوت في عليبتها، بعيداً عن كل شيء، وكل ما كانت تحس به هو انتظارها له، انتظارها لرصاصة تمرّق جبهتها وتحول جسدها إلى بقعة دم هائلة.

طوال ليال ثلاث، ورغم أصوات الريح المجنونة، كانت تسمع خطواته تقترب من الباب، تتوقّف طويلاً، إلى ذلك الحد الذي يدهمها فيه النعاس، وفجأة تسمعها تبعد. أما صبيحة فلم تسمع لأي من أولادها أن يظهر في أي مكان من البيت.

في اليوم الثالث، أشرعت ريحانة الباب قليلاً، حدّقت في الخارج، رأت السماء صافية، لا أثر لأي غبار سوى ذلك الذي تسلك من تحت الباب وتجمع بُيُوتاً مائلاً لاجرار غريب، وعلى بعد نصف خطوة من العتبة رأت مسدس هناك، ملقى كما لو أن المسدس هو القتل.

لم تدرك ما الذي يعنيه ذلك، لم تدرك ما الذي يعنيه أن يترك مسدسه قرب العتبة. أشرعت الباب أكثر، انحنّت، أمسكت بالمسدس، قلّبتّه، حيزّها بحجم الموت الذي يمكن أن ينجس في قطعة باردة من المعدن المشوّد، ولوهلة أدارت القوة نحو وجهها وحدّقت داخلها، فلم تجد سوى العتمة.

الموت هو العتمة وفي العتمة يعيش.

جمعت نفسها من جديد، تركت بوابة العتبة مُشْرِعة خلفها، ومضت إلى حيث هو، في ديواته الكبير المظلل على الحوش. كانت الدرجات تتزايد كلها هبطت واحدة منها، تكاثرت وأصبحت عشرات. حَبَرها أنها لم تصل رغم كل هذا الميوط إلى قاع الحوش. توقفت، نظرت إلى الدرجات خلفها، فتأكد لها حبسها، لم يكن ثمة نهاية لها، بدت لها الدرجات أنها تنتهي هناك في السماء.

أفرغها أن تواصل الميوط، أفرغها تفكيرها بالعودة.

تجسدت بين مكاتين لم يكن سوى قطعة واحدة دائماً، لم يكن سوى درج عادي يصعد من حوش وينتهي بعتبة.

وجود المسدس في يدها أعادها من تبعثرها، وجود المسدس كان الحقيقة الوحيدة التي تشير إلى أنها هبطت من فوق وأنها سارت إلى هنا وأنها في المنتصف، وأن العتمة كلها في داخل قطعة المعدن التي تلفت أصابعها حول مقبضها، أن الحياة هي في كل مكان، وأن الموت يربض في الداخل متوقفاً متجمهاً ملتصقاً ببعضه بعضاً، مثل زنبرك، يتطلع لكل من يقف هنا في آخر الفوهة، في الضوء، ولا يهتبه من يكون أو ما يكون.

حركت قدمها بهدوء، خائفة من أن تتعثرت، نقلتها إلى الدرجة التالية، وعندما لامست صلابة الحجر، تشجعت أكثر وواصلت الهبوط.

لقد أحس بوصولها، وسمع إيقاع تلك الخطوة التي استوقفت ذات يوم، كيف سيلها، كيف انتظر وصول ذلك الإيقاع قبل وصول صاحبته.

- فقط لو فتحت الباب.

لكنها لم تفتح. توقفت أمامها طويلاً، ثم تسحبت.

حين وصلت حافة الدُرج ترددت، نظرت إلى الأعلى، ولم تجد الدُرج الذي رآته من قبل، الدُرج الذي ينتهي بالسماء.

هذا يعني أن باستطاعتها أن تُشرع الباب وتُوجه الظلمة إليه وتضغط فينجز النور خاطفاً وتعود العتمة تاركة خلفها عتمة تشبهها.

عادت.

لكنها لم تستطع أن تقطع الخطوات الثلاث الأخيرة.

كانت تلك هي أقصى مسافة يمكن أن تحوّلها إليها قدمها.

وأحس بها تعود ثانية فالتفتت في جوفه الاتصال الرمادية الباردة الحادة بفوضى عارمة، انفجرت مزقة كل ما حوّلها.

ليس أسوأ من أن تجد نفسك أمام حيوان مفترس جريح. لكن الأمر كان أكثر قسوة، كان الجرح هو العار، كما لو أن الجرح حدث من تلقاء نفسه ولم يكن له سبب.

كل ما كان يعذبه هو تلك الضحكات، الريح التي حملت الخبر وساقته أمامها مثل كومة غبار ونثرته في الأرجاء، فإذا به كلها وصل أرضاً وجدها تضحك شامخة.

- كانوا يستحقون الموت.

تراجعت الخطوات مرة ثانية، ابتعدت عن الباب، وللمرة الأولى أبصرت ريحانة صبيحة تحقّق من خلف الباب تنتظر ما سيحدث.

وكان الأدهم يمرّ أمامها بسهل!! أما هو الخبّاب، فمصاب في العتمة بامرأة تنتظر أن يقتلها وينتظر أن تقتله.

ثلاثة أيام أخرى، والخطى تصعد وتهبط، والباب مغلق، وفجأة تجسّع الخبّاب في تلك الصرخة الأخيرة، ونادى: صبيحة.

كان قد حاول مرة، مرتين، ثلاثاً، ولكنه اكتشف أن صوته لا يستطيع قطع تلك المسافة الجافة، الفاحشة، بين حنجرته وشفتيه.

نادى.

ارتج البيت، هبّضت ريحانة فزعة نحو الباب متوقّعة حدوث كل شيء.

اكتشفت أن المسدس لم يزل في يدها، اطمانت قليلاً. لكنها علّقت متخفية في مكانها بالصمت الذي هبط تنظّلاً لساح أي حركة في الخارج، وشبّعتها.. غطى متتابعة متعثرة ببعضها بعضاً، بأطراف ثوب يكتس الأرض بفوضى غريبة، كما لو أنه سكين تُسحّذ.

حين وقفت صبيحة أمامه، لم تتالك نفسها من أن تطلق صرخة مكتومة رجّت جسدها.

في العتمة كان الخبّاب هناك أشبه بكيس قش ممزق، لم يكن فيه ما يدل عليه سوى يقينها أن لا أحد في المكان غيره.

كان يموت.

كان يلزمه أن يكون مع موته كل هذا الوقت وحيداً، كي يفكر بنفسه، حين بكل شيء.

- إنني أموت، قال لها.

- بعيد الشرا قالت صبيحة وهي ترتعد.

- اسمعيني أولاً.

صرخت باكية: أرجوك، لا نقلها.

كانت تحشى أن يقول: ثلاثة.

ولم تكن تكره ولن تكره رقياً مثله في حياتها، مجرد ذكره، وفي أي مناسبة كان يكفي لأن تنفض كفا لو أن سكيناً شقَّت صدرها، أو كفا لو أن للرقم شيئاً يمكن أن يظهر في أي لحظة، أما إن حدث ومَرَّ الرقم في أي حلم فإن ذلك كاف لأن يحيل ذلك الحلم إلى كابوس.

- لا تخبريني على قولها.

- حاضر يا سيدي.

- سأقول لك شيئاً لتتذبه دون مناقشة.

- حاضر يا سيدي.

- حين أموت.

- بعيد الشرا!

- فقط اسمعي، لا أريد أن أسمع صوتك.

- حاضر يا سيدي.

- قلت لك لا أريد أن أسمع.

كانت على وشك أن تقول (حاضر يا سيدي)، مرة ثانية لكنها ابتلعها بهزة من رأسها.

صمت كثيراً..

- سأقول لك ما أريد بعد ذلك، أما الآن، فأريد منك شيئاً آخر.

هزّت رأسها.

- أريد أن تذهبي وتطلعي من كل رجال المنطقة أن يأتوا، قولي لهم إنني أموت، وإنني أريدكم لأمر هام. لا أريد أن يذهب أحدٌ غيرك. أنت فقط، مفهوم؟ هزّت رأسها.

انطلقت نحو باب الدبوان، حين وصلت العتبة أحسَّت بالهواء يعود إلى رثتها، أحسَّت بأنها تحلُّق من جديد.

- بسرعة، وإلاً.

راحت تركض دون أن تعرف الاتجاه الذي تركض فيه، لكنها كلما قابلت أناساً أبلغتهم. ظلت تركض إلى ذلك الحد الذي أحسَّت معه أنها ابتعدت كثيراً، وأنها لن تعود أبداً.

وحيث لا شيء حولها ولا أحد، فحسَّت أن يموت قبل أن يقولها؛ لكنها طوت أميتها في صدرها من جديد، عندما تذكَّرت قطع اللحم التي وراها، أولادها. عادت. ولما وصلت بوابة بيتها، كان الرجال الذين طلبت منهم الذهاب إلى بيتها قد بدأوا يغادرون! وهم يهزّون رؤوسهم، ويرددون: دنيا، دنيا!! ويبتعدون.

- لا أريد منك بعد الآن سوى شيء واحد.

هزّت رأسها.

- قبل أن أموت سأقوله لك.

هزّت صبيحة رأسها ثانية وخرجت.

لم تفهم رجاءة ما يدور، إذ لم يسبق لها أن رأت كل هؤلاء الناس هنا، هؤلاء الذين لم يُسمح لهم يوماً بأن يتجاوزوا عتبات هذا البيت. وحبَّرها أنها عاشت للزمن الذي رأَتْ فيه ما رآته بأمِّ عينها. لكنها لم تكن فرحة بشيء، كانت بقعة الدم تتحرك كل ليلة تحت فراشها وتحوِّله إلى مركب تتقاذفه الأمواج، تصحو، ولا شيء في يدها غير قطعة المعدن الباردة ذات الفوهة التي يربض في نهايتها الموت.

- لقد ظلمتكم!! قال لهم حين تحلَّقوا حوله.

فلم يستطيعوا منع أنفسهم من أن ينظروا بعشهم في وجوه بعض، غير مُصدِّقين.

- لقد ظلمتكم. ها أنا أتوُّها أمامكم. فساعوني.

- ظلمتُ أم لم نظلمنا. الله يساعك!

وكانوا خائفين.

- ناديتكم هنا، حتى تسمعوا وصيّي بأنفسكم. أن تسمعوها من فمي، لا من فم غيري.
تَشَقَّتْ آذانهم وكلُّ منهم يتوقَّع أن يسمع شيئاً مختلفاً، لكنهم يُبتَوّأ غاماً حين سمعوا الوصية.
- لا شيء يُمكنُ أن يُكفِّر عن أخطائي بحفكم إلا شيء واحد.
وصمت.

تأمل وجوههم بعينه الدابلتين، رأى عيونهم تلتئم غير مُصدّقة، ورؤوسهم مترددة، لا يعرفون إن كان عليهم أن يزيروها أم لا.
- أريد منكم، بعد أن أموت، أن تأتوا إلى هنا، وأن تربطوا قدمي بحبل وتجروني حول البلد ثلاث مرات، وإن شئتم أكثر، فمسي أن يغفر الله لي ذنوبي.
- ما هذا الكلام؟؟

قال أكثر من صوت.

- كما أقول لكم.

- الله يسامحك. قال أحدهم.

- لا تجرموني من أميتي الأخيرة. أرجوكم.

ولم يصدّقوا آذانهم.

- الله يلعننا. قال أحدهم قبل أن يخرجوا.

- اللهم ارحنا. قال أحدهم وهو يغادر عتبة البيت.

الحكاية الطائرة

لثلاثة أيام تلت ظلّوا يتجادلون، ولكنهم لم يصلوا إلى شيء، ووصلت الحكاية إلى القرى البعيدة، القرى التي باتت تنتظر وصول خبر الوفاة، لتري ما سيحدث.
كان ثمة مرارة في القلوب خلّفتها مروره في كل أرض وطاعما، لكنهم كانوا أمام الموت، دالّا، أكثر اتزاناً، لأنّ للموت رهبة.
ولم يتلقّوا.

- هل فهمت ما عليك أن تفعله. قال لصبيّة.

- ولكن هذا حرام، ولا يجوز. قالت.

فصرخ بها: حرام مش حرام، وأنت مالك؟ نفّذي ما أقوله لك ولا تفكري بأي شيء آخر وإلا.

- حاضر يا سيدي. ولكن أرجوك، لا تفلها.

توقّعت أن يزجرها لأنها لم ميّز رأسها، لكنه لم يفعل، فحمدت الله على ذلك.

ومضى أن يرى وجه ربحانة لمرة أخيرة..

كان يكفي أن تصرخ صبيّة من فوق العلية، أربع مرات، في أربعة اتجاهات، أمام بوابة بيت ربحانة: يا مصيبي.. مات.

وتكلمت الريح بالبقية، وحيث لا تستطيع الريح الوصول كان الناس يوصلون الصرخة راكضين وعلى ظهور خيولهم وحميرهم وإبلهم. وبعد أقل من ساعتين، كان السهل قد امتلأ بالبشر كما لو أنه يوم الحشر.

لم تغادر ربحانة غرفتها، أما صبيّة فقد انتشّقت الأرض وابتلعتها. وهكذا وجد الناس أنفسهم أمام بيت لا أثر للحياة فيه.

يوحنا تقدموا، وحين وصلوا عتبة الديوان، رأوه مسجى قرب الحائط تحت النافذة تجلله العتمة.

- لا إله إلا الله. قال أحدهم فردّدها بعده. لكن الفوضى انفجرت فجأة وقد بدأ الجدال من جديد: يجوز، أو لا يجوز.

وقال أكثر من رجل: هذا حرام. وابتعدوا عاتدين من حيث أتوا.

لكن المرارة انتصرت في النهاية، إذ اخترق الجموع رجال وشباب غاضبون، وهم يصيحون: هذا أقل ما يمكن أن نفعله.

وكهنتهم آخرون فلم يعترضوا طريقهم.

دخلوا.. وفي يد أحدهم حبل، يبطونه من قدمه دون أي رغبة في أن يروا وجهه، أو ريباً خوفاً، وظلوا يمزونه حتى الحوش.

وهناك، تدافع أناس وتراجع أناس، وكل منهم يقول كلاماً لا يشبه ما يقوله الآخر، وما إن وصلوا بوابة البيت الخارجية، ما إن تجاوزوا الأسوار العالية، حتى قفز أحدهم فوق حصانه، بعد أن ثبت الحبل بمؤخرة السرج، وصاح صيحة منتقم.

يجروح بفروسه أن تركض.

وتطلق كثيرون خلفه واكضين.

وقبل أن يتنموا الدورة الثالثة، كانت القرية كلها قد أصبحت مَطْوَفَةً من جميع الجهات برجال الدرك الذين جاؤوا تقودهم صيحة صارخة.

لم يترك رجال الدرك رجلاً في الساحة إلا وساقوه مكبلاً بالحبال، لم يتركوا شيخاً ولا شاباً، كلهم سيقوا إلى (الديوان العرفي). وكانت الجريمة واضحة.

وضوح شمس ذلك اليوم الحارقة.

لقد أوقعهم من جديد.

قال أحدهم أخيراً: الله لا يساهمه.

وقال آخر: لقد أهلكنا حياً وأهلكنا ميتاً.

وسيمضي زمن طويل قبل أن تتضح حقيقة ما جرى، لأن صبيحة، تنتقل على يقين أنه لم يمض، وأن شخصاً آخر ذلك الذي سحلوه، وأنه سيظل في أي لحظة ويقوفاً بعد أول خطأ سترتكبه: ثلاثة.

فتنتهي حياتها.

حافة القيامة

راحت الساء تتقدم مُطَبَّقَةً على الأرض من كل الجهات، فحيثما التفت المرء كان يرى حائطاً صلباً من غبار داكن يتقدم، كما لو أن القرى وقعت أسيرة فتح جهنمي لا نجاة منه.

وطوال ثلاثة أيام حبّت ريح لا يستطيع أحد السير عكسها، التجأ الناس إلى بيوتهم، حاملين معهم كل ما يستطيعونه.

حشروا إيلهم، ماعزهم، وخرافهم، غيولهم وأبقارهم وحميرهم في الزرائب والإسطبلات، متطلعين من الشقوق الصغيرة لشبابيكتهم وأبوابهم نحو أشجارهم التي بدت الريح أنها قادمة لاقتلاعها من جذورها واقتلاع السهول والتلال من تحتها.

وكانوا يرون بأذانهم تطاير سقوف وأبواب وكل تلك الأشياء التي لا بد من وجودها عادة في أحوالهم، وحين تراجع صوت الريح، كانت الريح لم تزل هناك، رملًا يدور على نفسه غير قادر على الإفلات من جدران الأفق، ومن الساء تتساقط.

جدال حراء بلا نهاية.

- كآبها القيامة. قال الحاج محمود.

ولم يعلق أحد.

كانت العزيرة تنتظرها من زمن بعيد، ومنيرة التي راحت تَحْشُرُ شيتا فشيتا كما لو أنها في طريقها إلى التلاشي: العزيرة التي استقرت رماح البشم عميقة في قلب أطفالها، البرمكي، الذي كان يترقب ليل نهار غير قادر عن التوقف عن تقليب صفحات الأقدار التي صاغت مصير وحيداً، ربحانة، في البعيد هناك على التل، ربحانة التي راحت دماء الأدهم تجرفها عن سريرها كل ليلة فتجد نفسها ملقاة تحته.

غير قادرة على التناط أنفاسها، وشمية التي وقفت فوق سطح الدار تفتش بعينها الملتئتين رملًا عن شيخ يطل من جوف تلك العتمة الحمراء، غير عابئة بالنداءات التي تستحنها على الدخول.

تقلب الأرض كحزمة قش، وتقلب الزمان..

.. وتصاعد صوت الريح يذرع الجهات بجنون، أحكموا إغلاق الأبواب والنوافذ، كانوا قد التجأوا جميعاً للبيت الكبير، ومن الداعل كان بإمكانهم أن يسمعوا تمزق أفسان السندباد وأنها الموجع.

فجأة هي لمبيرة أن ما تسمعه على الباب طرقات أيد لا ثورات ريح. نهض الحاج خالد!! سار إلى الباب، ألقت منيرة نظرة على شعلة الفاتوس، ولوهلة أدركت أن إشرع الباب سيكون كافياً لإحداها، انقبض قلبها. فتح الحاج خالد الباب مولرية، خرج، سار نحو بوابة الحوش، أشرعها، جاء صوت من الخارج شاقاً سحبات الغبار الثقيلة: إنه هو. فدوى طلق ناري، تراجع الحاج خالد خطوتين، ثم هوى على الأرض على وجهه.

ركضت المزينة نحو أخيها، صرخت، في حين لم تجد سمية قدميها لتحرك، وتجمدت منيرة مثلها، وفي الخارج كان باستطاعة المزينة أن ترى قامة ضابط إنجليزي يحاط بجنوده.

صاحت المزينة: يا غوي!! يا غوي!!

تراجع الضابط للوراء والجنود بأسلحتهم المشرقة.

وصلوا إلى عربتهم التي ظلّ عمر كها يدور طوال الوقت، انطلقت بسرعة، راح صوبها يلحم قليلاً قليلاً بأزيز الريح حتى اختفى فيه.

انطلقت المزينة تجري مجنونة خلف العربة العسكرية، لكن الغبار الذي أطيح على الدنيا راح يغطيها، أشبه بشلح كانت، لا يكاد يظهر جزء منها حتى يختفي، لكنها كانت على يقين من أنها سمعت، حين وقفت خلف الباب، من يقول: إنه هو، ولم يكن إنجليزيا.

الكتاب الثاني التراب



أعراس الهادية

يوم ما ودّعناهم يرقّ ورعود
 يوم ما استقبلناهم نضربُ بارود
 يوم ما ودّعناهم مطرٌ وسيل
 يوم ما استقبلناهم حنّنا الخيل
 رجعوا لي من الثور شمسٌ مضوية
 يا فرحة أخته بالطفلة البهية
 رجعوا لي من بعيد من عند الرسول
 بشروا الزيتون وبشروا الخيول
 يا حجي خالد يا جاني من بعيد
 عا جيتك الشمس وفي إيدك العيد

www.mlazna.com
 ^RAYAHEEN^

كان ظهور موكب الحجاج القادم من جهة البحر، الموكب الذي وقفوا
 ينتظرونه منذ الفجر على مشارف التلال الغربية، كافياً ليتحوّل المدى كله إلى
 عرس، غنت النساء وأطلق الرجال النار في الهواء، واختلطت أغاني حارات الهادية
 في فرح واحد. راح القراسن يقطعون السهول، تتقاذف خيولهم في الهواء وتطير مع
 قلوبهم، وغلقهم كانت الشوارع قد زينت ورفعت الرايات البيضاء على سطوح
 المنازل ورُسمت صور الكعبة على الحيطان محاطة بآيات القرآن، وصور قوافل
 الجمال التي تسير إلى جوار أشجار النخيل، في حين كانت أقواس من غصون
 الزيتون بلونها الأخضر العميق، تنحتي أكابيل فوق الأبواب.

كانت العودة للبيت تعني ميلاداً جديداً، حيث لم تكن الرحلة إلى مكة سهلة، ففي كل عام كانت المواكب تفقد بعض الحجاج، إما بسبب المرض أو المشقة أو غارات اللصوص التي لم تسلم منها هذه المواكب.

كانت العودة ميلاداً جديداً، حيث تتغير نظرة الناس للحجاج وأبها كانت صورته قبل ذهابه، إلا أنها تنقلب إلى عكسها، إذ يُنظر إلى الرجل إلى أرض الرسول هالة عليه، ويتم التعامل معه فور عودته من مكة، كواحد من أهل الحكمة والرأي، ويغدو في عيون أهل القرية أهل مرتبة وأرفع أخلاقاً. لكن ذلك قد لا يدوم في بعض الحالات، بسبب سوء التصرف أو سوء الخلق، ما يذكر الناس سيرته الأولى، فيبدأون بالتشكيك في حجته باعتبارها (شكر خفيف).

حُطُّوا الحيق عا الطَّبَّقْ وأنا من الندى لشقيق
ومن لون السبا الزرقا لنسجلك ثوب إيديق

لأيام طويلة ظَلَّتْ الهادية مشتتة بأعراسها، وتحول الأمر إلى منافسة غير عادبة حين أحس الحجاج صبري التجار أن نار أعراسه لا يجب أن تطفأ قبل نيران الحارة الأخرى؛ هو الذي ما إن سمع يعزم خالد على التوجه إلى مكة، حتى قرر الذهاب، وبات على يقين بأنه تأخر كثيراً في ذلك، إذ كان عليه أن يقوم بهذا قبل خمس عشرة سنة على الأقل، فلم يكن يتقصه المال يوماً، كما لم يكن أقل منزلة من الحجاج محمود نفسه؛ صحيح أنه سمع هماً عن يُحْمَلُ بمنعته من الذهاب في رحلة الإيصال هذه للقاء ربه، كما سمع همساً لا يقل سوءاً عن تشككه بذنوبه التي اقترفها، إلا أن ذلك لم يكن السبب، فلم يكن يخيفه إلا أن يبدأ الناس بمناذة خالد (يا حجاج) ويضي هو مجرد (صبري التجار).

قال الحجاج خالد في الليلة السابعة: لا فرحة أجمل من تلك التي تغمر القلب. لقد فرحتنا كثيراً وأصبح علينا الآن أن نتأمل قلوبنا من جديد.
لم تُوقد النار في الليلة التالية؛

بدا وكأن صمتاً من نوع آخر، صمتاً عميقاً شفقاً لا يجرحه شيء، قد سكن حارة الحجاج خالد، فما كان من الحجاج صبري التجار إلا أن انطلقاً ليران أعراسه بعد ذلك بثلاثة أيام، وقد أحس بأن عليه أن يدفع صفة الزهو عن حجته.

ابتسامة الفَرَاشة

أمسك الحجاج خالد برسخ ابنته تمام بيد وكوعها باليد الأخرى، ونظر إلى يبايض ذراعها ومهمهم: مهم!

فتح فمه، فظهرت أسنانه البيضاء: أنا لم أكل منذ يومين، إنني جائع، جائع جداً، ونظر إلى عيني تمام التي كانت تعرف اللعبة جيداً وسألها: أهذا اللحم اللذيذ للأكل؟

عندها، صاحبت بفرح يذعي الخوف: لا، لا. فلتصت من بين يديه، وفترت هاربة، لاحقاً في الحوش وهو يرجوها: لقمة واحدة على الأقل. إنني جائع. دارا حول برج الحمام ثلاث مرات وهي تصرخ وتضحك في أن: لا. هذا ليس للأكل.

أشرعت زوجة الحجاج خالد الباب قادمة من الخارج، أبهرت زوجها يلاحق تمام من مكان إلى مكان، ابتسمت. قالت لابنتها: أهربي قبل أن يأكلك. وأبعدت جسدها الذي يسد باب الحوش؛ عبرت تمام طائفة، وكان الحجاج خالد يلهث. راقبت زوجته ابنتها تبعد وأمامها المدى سهلاً تمتداً ذاعياً لأقاصي الشرق.

من هذا الانحياز تماماً، كان بإمكان الشمس أن تدخل كل يوم ومنذ سنوات للوصول لحوش بيتها الواسع يسوقه الحجرية الصغيرة المثبتة بالجص المرتفعة على هيئة الأسواق القديمة الساية بالقيصرات وتتوسطه ساحة مكشوفة، وُزعت فيها شجرة برتقال ثلثاً لفرحة الخمس وإيواته برائحة يراعها المسكرة كل عام. أما الحوش الواسع الذي ينتهي بباب خشبي ثقليل فقد كان امتداداً للساحة التي تتوزع الغرف على جوانبها الثلاثة، وفي منتصفه تماماً كانت هناك شجرة سديان قديمة.

كان الحجاج خالد يكرهاه بنسب سنوات؛ بعد تسعة أشهر من زواجها أنجبت محمود، وفقدت الولد الذي بعده وعانت عامين كاملين، بحيث باتت على يقين بأن محمود هو ولدها الأول والأخير. بعد رحيل الأمثراك بتسعة أشهر أطلقت فاطمة،

وفقدت البنت التي تلتها، فموسى، وفقدت ابنة أخرى، فتاجي، وفقدت ولداً وبنتاً، وفقدت الأمل في الإجابات تماماً ثلاثة أعوام، إلى أن تلمعت (تسام) في بطنها ذات يوم، فقالت لزوجها: والعلم عند الله، هنالك شيء أكثر من الانتفاخ في بطني! وجاءت تمام، وعندها باتت على يقين من أن الموت يقاسمها أبنائها، وصدق ظنهما حين أغار واختطف اثنين آخرين من مواليدها واحداً بعد الآخر، ولداً وبنتاً، قالت: لو لم أفكر بالأمر على هذا النحو، لما حدثت ما حدث. لكن ذلك لم يمنعهما من أن تواصل وكل أمهما أن تستطيع هزيمته، ولو بولد واحد على الأقل، بعد أن أدركت قواعد لعبته.

ابتعد الموت لكنها كانت تعرف أنه بواصل دوراته دون توقف حول الكائنات؛ ولسنوات بدت قابلة لهذه القسمة الدامية، إلى أن سمعها الحاج خالد ذات يوم تقول: لقد ارتحمت منها أخيراً.

سألها: من تقصدين؟ قالت: الخيض والبيض!

- أوليس هذا قبل الآن؟

صباحاً، وقفت ابنة فاطمة خلفه، وأمامه المرأة. سألته: هل ترائي؟ كان طويلاً، وعريضاً، لا، لا أراها.

ضحكت، قالت: قطع لو كنت أطول. آخ لو أن الله أعطاني شيئاً من طولك وياضك وخضرة عينيك، لكنت أجمل من بنات الإنجليز اللواتي يتحدثون عنهن!!

- ولكنك أجمل.

- صحيح!!؟

لم يشغلها شيء مثل طوغا، مع أنها كانت طويلة.

ذات يوم بعيد قالت له: إن الملائكة لا يبدلون جهداً كافياً.

فسألها مستغربة: جهداً كافياً في ماذا؟

- في أن أكون طويلة كما يجب!

- وما علاقتهم بطولك أو بمرضك!!؟

شرحت له أن الملائكة يعملون حين ينام الأطفال، فيأتون بأعضاء طويلة ويضعونها بدل الأعضاء القصيرة، وهكذا يصبح الناس أطول.

- وعملك؟ هل يُغَيِّرُونَهُ أيضاً؟

- لا. عقلي لا يغيرونه لأنهم لا يستطيعون الدخول إلى رأسي بسهولة.
- الآن عرفت لماذا لا يستطيعون؟
- لماذا؟
- لأن رأسي مليء بهذه الأفكار!! ها ها ها.

منذ زواجه، تغير الحاج خالد، كما لو أنه طوى كل الصفحات القديمة مرة واحدة، كما لو أنه أخلق كتاباً للناضي، لم تعد الابتسامة تفارق شفاهه أبداً، إلا حين يغضب، فتمتدح يتحول إلى كتلة من الجمر، لكن الغريب في الأمر قدرته على تجاوز حالة الغضب بسرعة والعودة لابتسامته التي يظللها شاربان طويلا ظهرت تحتلتهما بعض شعرات بيضاء، في الوقت الذي بقي شعر رأسه خالياً من ذلك البياض.

أما زوجته ففاجأته بثلاث مواعيد لا خلاف عليها: قدرتها الغريبة على تربية الحمام والعناية به، ومعرفة أنواعه وطباعه، ولذلك لم تصر على وجود شيء في البيت أكثر من إصرارها على بناء برج حمام؛ وقدرتها العجيبة على إعداد طعام لا مثيل له، بدءاً بالعدس ومروراً بالمجنفرة والكوسا والملوخية والمقلوبة التي كانت تستجلى مواهبها فيها كما لا تستجلى في طبقه أخرى؛ وربما تكون قدرتها الأعجب في معرفة مذاق الحليب هي سر طبيعتها، إذ كانت تضع عدة نقاط من حليب البقرة في راحتها، تتذوق الحليب ثم تمسح عينها، حين تقتربها تنظر إليهم: البقرات أكلت اليوم من أعشاب السهل الشبلي، فيؤكدون لها أنها أكلت فعلاً من هناك، وفي يوم آخر تقول: البقرات اليوم كانت في تلة عباس، أو في جبل الريحان.

كانوا قد تناولوا طعام الإفطار معاً قبيل شروق الشمس. بيض مسلوقة وجبن أبيض وزبدة وحليب، قالت أمهم: اليوم لدينا عمل كثير.

هز موسى فاطمة رأسها، وكذلك محمود العائد للبيت بعد عام دراسي طويل، وبدا لها أن تمام لم تسمع شيئاً مما قالت، أما ناجي فلم يكن هناك أبداً!!

- سيضيع الولد قبل أن نجده! قالت لزوجها.

عند ذلك، اتبته أينما، سأل: ماذا؟

قالت: اسم الله عليك! ولا شيء.

دائماً كان هناك ما يشغل عقل ناجي ويتركه هائماً في مكان غير ذلك الذي هو فيه، ودائماً كانت فاطمة وحدها التي تعرف السبب. ولم يكن عليها أن تفكر كثيراً

فما ان تراه مرتديا ذلك الجلابيب الأبيض الناصع والطاقي البيضاء التي أحضرهما له والدهم من الحج، وكان يحملون لناعي أن يزوه بها، حتى تدرك أن عليها أن تنفتح عينيها جيدا.

انتشرت الانسامة الخبيثة فوق وجه فاطمة.

قالت بعدها: آخ!! وهي تحاول براحتها إعادة للثة شفتيها.

- حسرة، هل بنات هذه الأيام!! ماذا رأيت حتى الآن لتقول آخ؟

- فقط توجعني ابتسامتي. ثم تعبد: آخ.

- لأنها خبيثة. قالت أمها.

- أعرف!! أعرف!!

لأسباب كثيرة، كان يدرك بعضها ويجهل سواها، ترك الحاج خالد ابنته تكبران دون أن يرهقها بشيء فوق طاقتها، تركها حزين مثليا كانت الهامة حرة ذات يوم، مهرته الغالية، التي ظلت على الدوام مصونة بذلك الاحترام اليهي الذي حث بها..

كم يؤد أن ينسأها، كم يؤد أن ينسى تلك الهزيمة التي أصابته في عمق روحه حين أدرك أن عليه التخلي عنها حتى لا يعود إلى أبيه وأمه بلا عقل!!

حين عادت زوجته بعد أن أدخلت ما تبقى من الطعام، بحثت عن فاطمة وغام وناعي، لم تجددهم.

سألت: أين الأولاد.

- موسى سبقنا.

- والآخرين؟ سألت.

رد: الله أعلم.

فانطلقت تركض محاولة اللحاق بهم قبل أن يتبعوا.

عادت: ستسدهم.

وكان يتشم ابتسامة فاطمة الخبيثة ذاتها، ويداه تطوفان صدره، حاول أن يسدو بكامل هيئته، لم يستطع، جمع شفتيه ثانية، قيدا لها وكأنه في عمر حمام لا أكثر.

- يكفيها اليوم!! ليس هناك سبب في أن نجعلها تعلق أكثر. قال ذلك كما لو أنه يحدث نفسه.

- من التي يكفيها؟ أنا؟ ثم مع من تتحدث؟

- أم أقل يكفيها، ها هي قد بدأت تغضب.

- ستجتنبي. قالت له.

وفجأة أشرع فرائعي، فانطلقت ثلاث صرخات فرحات مع انشاق أجساد أولاده من تحت العباءة الكبيرة.

في المساء قال لها: يا سمية!! إنهم أولاد، فلا تنقلي عليهم.

- أولاد!! ما الذي تقول به حاج!! لقد كنت أطاردك حين كنت أصغر من فاطمة!! وتقول أولاد!

- ما داموا في هذا البيت، فسيبقون أولاد.

- حتى متى؟

- ما داموا في هذا البيت.

- أسألت لي عمتك الأنيسة، أخشى أن يكون محمود لا يتبع لنسوان. قلت لها: بعيد الشر. وما الذي ينقصه!!!

فقالت: أن يبدأ بتكسير الصحن!!

- ولكنه لم يبلغ الثانية عشرة بعد، ولم يته دراسته!!

- بل أكبر سنة!!

كان المكان الأجل بالنسبة لهم أن يجنثوا تحت عباءته.

بدأ الأمر في واحدة من تلك الليالي الشتائية القاسية البعيدة، لكنه استمر بعد ذلك، وحتى حين كانت الشمس تسطع، فإنيهم لم يغفونوا فرصة الاندساس تحت العباءة الصيفية كلها ارتداها. وفي أيام كثيرة كانوا يسرون تحت العباءة معه، ويظوف بهم الحوش كله، طربا بكرراتهم التي تنطلق كلما سمعوا أنهم تتساءل بسعادة عن مكان وجودهم.

لكن ذلك كان من زمن طويل.

- من براك تلعب معهم هكذا، لن يصدق أنك شيخ البلد.

- أنا شيخ البلد خارج هذا الحوش، أما في داخله فأنا أبوهوم، ولا شيء غير ذلك.

وتنقل سمية موزعة بين فرحها بحبه لهم وخوفها من أن يفسدهم ذلك الحب.

- لست أدري لماذا أحس بأنها المرة الأخيرة التي أعينهم فيها تحت عيامت.

عند هذه الجملة انقبض قلبها وهمت شبه باكية: بعيد الشر.

- إنهم يكبرون بسرعة، وهذا الأمر يمزقني.
- كأنك تخشى أن لا نجد من تلعب معه!!!

تذكر الحاج خالد أيام تسلمه للهادية التي تكاثرت بسبب اشتغال الدولة العثمانية بما هو أهم وأكبر من أولئك الفنازين من وجه عدالتها، بحيث أصبح باستطاعته أن ينال في الغادة أكثر من ليلة وأن يسير في الشوارع غير عابئ بشيء، تذكر قلب سمية ابنة البرمكي الذي كان يتظاهر حوله بفرح من مكان إلى مكان، أحس بأنه الفرح الأصلى والأثيل، فرح للفرح، ليس إلا، فليست أخته ولا أمه ولا عمته ولا والده، مثل فراشة بدت وهي تتطاير حوله، ويوما بعد يوم انتابه ذلك الإحساس الغامض. إنها ملاك رحمة يطوف به.

كانت تتابعه، يعرف ذلك دون أن يلتفت، يحس بها أمامه وهي خلفه وعلى يساره ويمينه وحلقه فوقه. توقفت ذات يوم، وقد كانت تتابعه، فتسمرت مكانها. وحين مرّ زمن طويل قبل أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام أو تصدر عنه أي حركة، راح الفرح بغير قلب سمية شيئاً فشيئاً، فلم يمر زمن طويل بعد، لتنتس ما فعله حين راح ينتظر باسمين في الحقل وعلى كتفه تنكس الحمامة.

رأته أمه منيرة التي لم تكن عيناها تفارقانه، وإلى جانبها وقفت أخته العزيزة، وحين رأت الأنيصة وقتتها وقد تحولتا إلى مثالين. سألت: شو في؟؟

لم تسمع إجابة، تحاملت على نفسها وآلام ركبتيها التي سبب كالريح في بعض المواسم، سارت حتى وصلت إليها.

- هل ترين ما نرى؟ سألتها منيرة.

- وهل بقي في شيء سليم غير عيني؟ طبعاً أرى!

في تلك اللحظة استدار خالد وبدأ يسير باتجاه سمية التي تجسدت مكانها، وصلها، حذق في وجهها طويلاً، ذابت، تحسّت أن تلتحمها الأرض. كان في وجهها الصغير براءة وشقاوة ولها عينان سوداوان عقيقتان، لم ير عيّن تحر كان مثلها من قبل. تنظران إلى الأرض بخجل وترتفعان فنظران إليه بشغب في الوقت نفسه. وفجأة قال تلك الكلمة التي لم تعلم يوماً بسماعتها: إذا عقلت سأزوجهك.

صحيح؟؟؟

- صحيح.

دارت الأرض بسمية ألف دورة في لحظة واحدة، وسقطت فائدة الوعي.

راحت الميزة بهرول، تبعها منيرة، اتدفع رجال وشباب كثير، لكنهم قبل أن يصلوا كان خالد قد أعادها لصحوا من جديد.

- خير إن شاء الله. رد أكثر من صوت.

- خير إن شاء الله. قال خالد.

نهضت لتسير، أحسّت بقدميها مسمرتين في تلك النقطة التي وقعت فيها، وسبقتها هذا الحس لسنوات طويلة، كلما مرّت من هناك، بحيث أصبحت تدور حول تلك المساحة الصغيرة التي لا يراها أحد سواها، كما يمكن أن تدور عربة دون توقف حول ميدان في حيفا أو يافا أو القدس.

اختفت سمية تماماً من الطرقات، لم تعد تظهر إلا لسبب أقوى من أن يبحث الإنسان له عن عذر. وأرخ البعض الحوادث بما قبل وبعد أن أغشى عليها.

في مطلع الشهر الثالث، كان الأمر قد تغير بالنسبة لخالد، بات في شوق حقيقي لأن يراها. ولم يكن يشاقق لشيء، مثلاً كان يشاقق للطريقة التي تدبر فيها عينيها وسط تلك المساحة البريئة المشاغبة التي تشكل وجهها الصغير.

- مضى الزمن الذي كنت أكرس فيه الصحون ولن يعود. قال خالد لأمه.

- عل بركة الله. ردّت بفرح، قبل أن تسأل: ومن سعيدة الحظ؟؟؟

- سمية؟

- سمية ابنة البرمكي!

- سمية ابنة البرمكي.

لم تُعلّق. أما الحاج محمود فلم يستغرب، لأن سمية استطاعت أن تحو صورتها القديمة تماماً من أذهانهم، وتحوّلت إلى كائن آخر يتطلعون إليه بإعجاب لا يفتنى.

- ولكنكم تعرفون. أخوها غازي في الحرب. قال البرمكي.

- سيعود إن شاء الله.

- لا يكون هنالك عرس إذن. سوى للقرابين. قال البرمكي.

- لا يكون إلا ما تريد. رد الحاج محمود.

وهكذا عقدوا قرانها بسرعة، في انتظار أيام أقل سوداء، يلبيسون فيها العرس الكبير الذي يليق بزواج الابن الأول للحاج محمود، لكن الأيام امتدت، وبدل أن تجلس لتفكر في ذلك اليوم المنتظر، راحت سمية تنجب ولداً بعد آخر.

تراجعاً..

اندفع الفارس مشهوراً سيفه، وحين هوى التنصل لامعا لا يحجبه الليل نحو رأس الحاج خالد، تلقى السيف بعصاه الغليظة التي تحيط بمقدمتها رؤوس المسامير، والتمع حاداً صوت انكسار السيف إلى قطعتين.

رد الفارس حصانه وأغار ثانية بنصف سيفه، انثنى الحاج خالد للسوراء ولكن ذلك لم يمنعه من توجيه ضربة قاسية أصابت فخذه الفارس الذي كان يوشك أن يكرّثه، إلا أنه أبصر القرية تندفع نحوه فقلو عتق حصانه وانطلق بعيداً. وقف الجميع يراقبون اختفاءه في الليل، حتى لم يعد هناك أثر لوقع حوافر حصانه.

حين عادوا بالبرق قالت فاطمة: أظنني أبصرته منذ يومين.

قبل غروب اليوم التالي بقليل، لمح أهل الهادية مجموعة من الرجال فوق خيولهم يعبرون السهل الشرقي.

راقبهم الحاج خالد بخيرين والحماية بينهم، تماماً كما يحدث له في كل غروب. ظلوا يسبّرون حتى وصلوا، وقُلَّ يمدق في فرسان خلفهم لن يصلوا أبداً؛ وكما لو أنه استيقظ من نومه، انتصب واقفاً، ارتبكت الخيل قليلاً، تراجع بعضها خطوات، وحين أدرك ما حدث، سمع صوت أحدهم يقول: جتناك ضيوفاً. فرّ: أهلاً بالضيوف. دون أن يشارك نظره تلك المهرة الكحيلية التي كان يمتطيها فارس الأس.

أشار الحاج خالد لخدمان، فاندفع لإعداد القهوة جديدة. في الداخل جلس الرجال القادمون صامتين. وصل حمدان بالقهوة، تناوفاً سالم منه، صبّ الفئجان الأول وتناوله لأخيه، الذي قام بدوره بتقديمه لذلك الشيخ الجليل الذي يتوسطهم.

تناول الشيخ الفئجان من يده، وحين همّ بأن يضعه على الأرض أمامه، كما جرت العادة، حيث لا يشربون القهوة قبل الموافقة على طلبهم. قال الحاج خالد: أبقاركم وصننكم.

فتوقفت اليد في منتصف المسافة، رفع الشيخ الفئجان إلى فمه وهو يقول: صدق من قال فيك أنبل الكلام.

الليل والنهار

من أطراف الليل الغامضة جاء الصوت مدهوراً.

- الحقوا!! الأبقار أكلت زرعكم.

وقيل أن يدركوا أن الصوت صوت ناجي، كانت الهادية تنتفض كلها، كل يحمل ما وصلت إليه يده، متجلاً كان أم حجراً أم عصاً.

كان الفتي قد فوجئ بالأبقار تحتاج أحد الحقول. أمسك حجراً كافياً لردة بقرة ورماء، ولكن المساء الذي حوّل الأبقار إلى ظلال لم يمنعه من سماع صوت ارتطام إحداها بالأرض، مترافقا مع توجع في صوته لا يخفى.

وقبل أن يتأكد من أنه كسر ساقتها، انفجر صوت حوافر حصان يمدو يجشون نحوه وصوت فارس يصيح بغضب. انطلق ناجي يجري مخترقاً الزرع الذي حجبته تماماً، نحوه القرية، وقد أدرك أن بقاءه يعني هلاكه.

أحاط أهل الهادية بالقطيع وبدأوا يردونه نحوه القرية.

صاح الفارس: أتركوا الحلال.

ردّ الحاج خالد: لن يعود (الحلال) لكم قبل أن تدفعوا ثمن الخسارة التي سببها ونعرف من هو صاحبه.

- لن أكون أخو خضرة إن لم أكُثر رجلي كل من يحاول الاقتراب من القطيع. وما قد عرفتم من أكون.

فرد الحاج خالد: ولن أكون أخو العزيزة وأبو محمود إن لم نأخذها للبلد الليلة.

- أنت أخو العزيزة وأنا أخو خضرة.

ازداد الليل حلقة مع غموض اللحظات التي راحت تتسارع منلدة بها لا يمكن توقّعه. تقدّم إليها راغبي ومحمد شحادة قاطعين الطريق بينه وبين غضبة الفارس الغريب. لكن الحاج خالد طلب منها أن يتراجعا.

فتنهض الفارس ماذا يده للحاج خالد وهو يقول: أشهد أنك أخو العزيزة وأبو محمود.

- وأشهد أنك أخو خضرة. وتعاثقا.

حين طلب الرجال الإذن بالمغادرة، قال الحاج خالد: أكرمتوننا بقدمكم ضيوفا فلا نجرحونا بريحكم بسرعة.

قال الشيخ الجليل: تعيد أبقارنا ونحن الذين اعتدنا على زرعكم ومن أشهر السيف في وجوهكم ولا تطلب حثك منا، هذا كثير.

- لا كثير على الضيف قال الحاج خالد. أتمم ضيوفنا بإن الله لثلاثة أيام.

- هذا كثير والله.

- لا كثير على الضيف. قال الحاج خالد، ثم أضاف، صلوا على النبي.

- اللهم صلي عليه. ردّد الرجال.

ونظر الرجال إليه وقد أدركوا أنه سيقول شيئا: قيل إن هناك ملكا، كلما زاره أحد قطع رأسه، وصل هذا الخبر لأحد الرجال، فقال سأذهب لأعرف لماذا يقوم الملك بهذا مما كانت النتيجة.

وصل القصر، فقال: أنا ضيف الملك. فأدخلوه عليه.

صاح الملك: أحضروا للضيف وسادة!

ولما وضعوها إلى جانبه قال الضيف: واجب!

ثم صاح الملك: أحضروا له القهوة.

جاؤوا بالقهوة وقدموها له، فقال الضيف: واجب!

فأمر الملك أن يحضروا له فرشاة أخرى، فقال الضيف: واجب!

ثم صاح الملك: إلينا بأفضل الطعام، فلما قدموه له، قال الضيف: واجب!

ولما همّ الضيف بالمغادرة، اقترب أحد خدم الملك وأمسك بحذاء الضيف ووضع تحت قدميه، فقال الضيف: واجب.

وقف الملك، صافحه وفتح له رحلة آمنة إلى أهله.

وما إن خرج حتى راح المقرّبون من الملك يسألونه: لماذا لم تقطع رأسه؟

فقال الملك: للضيف واجب وعليه ألا يستكر واجب الضيافة الذي يُقدّم له، لأنه حق.

هبط صمت عميق على الرجال، قطعه الشيخ الجليل بعبارة واحدة: الله بقدرنا على ردة معروفك.

فقال الحاج خالد: أن تكونوا ضيوفا لثلاثة أيام.

وللحظة أوشك الشيخ الجليل أن يقول: هذا كثير. ولكنه فاجأ الجميع وهو يقول: واجب.

وعندها غمر الضحك القرفة كلها وقاض عابرا العتبات.

لم ينتبه أحد لما فعلته الفرس الكحيلة بناجي، شبه مسحور كان، يطوف حوفا غابا عن العالم، يودّ لو يستطيع القفز على ظهرها والمهرب بها، ويظل يتعدّد ويتعدّد إلى أن يخفي تماما.

ورآهم يتعدّدون، ينطقون بعيدا عن القرية، كانوا يعضون بسرعة أبقارهم لا بسرعة خيولهم، والكحيلة هناك تنهادر كالخمامة التي لم يرها، الخمامة التي شغلت الجميع وما زالت تشغلهم.

ولأنه لم يعد قادرا على رؤيتها تذهب إلى غير رجعة، تبعهم، أوغل في البساتين، صعد تلالا، تأمل القرية من بعيد. ما دام لمن يستطيع رؤية الكحيلة مرة ثانية، فليرها مرة أخيرة، أخيرة فقط.

راح يركض محاولا اجتياز المسافات بكل ما لديه من قوة، متضافرا فوق السناسل ومراوفا أفضنان الأشجار، لكن المسافة لم تكن تنتهي، وأخيرا أدركهم.

ابتعدوا، ونسي أن يعود، نسي تماما.

افتقدوه في القرية، بحثوا عنه لم يجدوه.

داروا في الديوان المحيطة، عبروا الكروم والبساتين وحقوق الفصح هاتفين بأسمه.

ولم يجيب أحد.

وفجأة قالتها فاطمة: لعله تبع ضيوفنا!

- كيف يتبعهم، وما الذي يريد منهم كي يتبعهم؟!

صمتت. لم يكن بإمكانها أن تنشر ابتسامتها الخبيثة تلك، الإبتسامة التي ستغدو جزءا من وجهها، مثل أنفها وعينها وجبينها.

كانت قلقة.

وحينها عاد أخيرا منهكا كجندى بعد حرب لا يعرفون عنها شيئا، حدث الله.

سألوه: أين كنت؟

ظل صامتاً، ألقى رأسه على مخدته ونام، نام يومين..

لم يكن التسلسل بعيداً، أمراً غريباً على ناجي، لفظة صغيرة في انتهاء آخر، أو لحظة تأمل أو فكرة عابرة تُضي بالحاج خالد نحو مكان ما، كانت كافية لتكون الثقب الذي يتسلل منه ولده ويغني.

ومنذ أن بدأت العائلة تلاحظ هذا الاختفاء أصبحت ابتسامة فاطمة توجعها أكثر.

لقد عمل الحاج خالد الكثير كي يجبر ناجي على الالتحاق بالمدسة، التي ظل الشيخ حسني أستاذها الوحيد لفترة طويلة، إلا أن ناجي كان يرفض دائماً: ما دامت تلك الحيززاة الطويلة في يده، فلن أذهب إلى هناك. عكس أخيه محمود الذي وجد فيه الشيخ حسني أفضل طالب تعلم اللغة العربية وأتقنها منذ سنوات طويلة على يديه، ووصل به الحد إلى أن يعتبر (عود القصب) كما كان يدعو (معجزته الخاصة).

جل إيلياً

الشيء الغريب الذي أدهش القرية دائماً، هو أن فاطمة كانت الأكثر قرباً لقلوب الحبول والماعز والأبقار وبقية المخلوقات المنتشرة التي غلأ مساحات البيوت والسهول المحيطة، إذ أمضت طفولتها في صحبة هذه الحيوانات، فمرة يتعلق بها تنكوت فيبيها إلى حيث تضي، ومرة معزاة أو بطّة أو حمامة، ولعل تأخر ميلاد أخت لها إلى زمن طويل، دفعها للبحث عن أخت بديلة، ولم يكن صعباً عليها أن تجد ما دامت تعيش في قرية كالمهادية. كان مجرد اقترابها من حصان كافياً لكي يأتي ويدسّ رأسه تحت ذراعها، أما الماعز فقد كانت تتبعها وكأنها أمها، وحين هاج جل إيلياً راضي ولم يستطع أحد الاقتراب منه، قالت: اتركوه لي. حاولوا أن يمتنعوها، لكنها قالت: أعرف ما الذي أفعله. أتركوني.

فتحت بوابة الحوش، حيث كان الجمل يحاول اجتياز الأسوار دون هوادة، محطاً كل شيء، وما إن رآها حتى تراجع قليلاً، وراح يحدّق في عينيها لاهثاً، أطلق صوتاً غريباً لا شبيه له، لوى عنقه بعيداً، وتجمّد للحظات، وحين استدار بعينه ثانية إليها، كان لثامه قد اختفى، لكن سيل العرق المختلط بالدم كان ينزّ من أنحساء كثيرة في جسده. وكانت خائفة. إنها المرة الأولى التي تجد فيها نفسها وجهاً لوجه مع جمل هائج، تقدّمت خطوة، تراجع الجمل خطوات، التصدّعت مؤخرته بباب الغرفة التي خلفه، تقدّمت ثانية، حاول التراجع، أدرك أن لا مجال لذلك، فخطا نحوها بخطوتين وتوقّف.

كانت الرؤوس تطل من فوق السور ومن بوابة الحوش والأعين مفتوحة على اتساعها، في حين كانت زوجة إيلياً وبناته الخمس الجميلات يرتعدن خوفاً فوق سطح البيت.

- طلفة واحدة يمكن أن تحل المشكلة. قال الحنّيار جمعة أبو سنبل. لكنها قالت: امتحوني الفرصة.

- لا حلّ غير ذلك. في مرة ثالثة قد تنسب في سحق روح أو عدة أرواح دفعة واحدة. قال إيليا راضي.
- ولكن، ها هو أنظروا إليه، أنا متأكدة من أنه لن يبعدها!! قالت.
- لا نستطيع المغامرة حين يكون الأمر متعلقا بجهنم! قال حسين الصعوب.

لم تتكلم فاطمة، صمتت لأيام طويلة، كما لو أنها فقدت لسانها، حاول الحاج خالد جرّها لأيّ حديث يمكن أن يتخفّف عنها، لكنها لم تتكلم، كانت تحس بأنها خانت الجمل الذي وضع لفته فيها.

ذات ليل استيقظت نصيح، كان الكابوس الذي هرّ ليلها لا يُحتمل: رأت نفسها تسير عبر شوارع الحاذية، وفجأة انتهت لتلك الحركة الغريبة التي تصدر خلف الأسوار، خافت، حاولت أن تسرع، فتصاعدت الضجة أكثر، تلفتت، رأت قطعاً كبيرة من اللحم تُعلّل عليها من حواف الأسوار والسناسل، قطعاً من لحم يعيون عرفتها، كانت عيون الجمل نفسه، الجمل الذي ذبحوه ووزعوا لحمه على أهل القرية، لحمه الذي رفضت أن تلمسه، أن تنظر إليه حين أتوا ببعضه إليها لكي تأكله.

انطلقت تر كض، لكن قطع اللحم ذات العيون الواسعة، كانت تتراكض إلى جانبيها، خلفها، أمامها، وتجاوزها إلى حيث الجسر لتجتمع هناك وتلتصق ببعضها بعضاً. وفجأة تكتمل الكتلة المائلة مسفرة عن كائن غريب أدركت أنه ذلك الجمل، الجمل نفسه، التدفّع نحوها هائجا وقبل الوصول إليها بلحظات، أحسّت بذلك الهواء الذي ينطلق من منخره يهبّ كعاصفة ويُلقّي بها إلى الجدار الذي خلفها، صاحت وصاحت، وحين استيقظت رأت العائلة كلها حولها.

- اسم الله عليك. كانت تردد أمها سمية.

حين وصل الحاج خالد أخيراً، جرّ بسبب سباحهم لابتته بالدخول إلى الحوش والوقوف وجها لوجه مع هذا الوحش الهائج، والجميع يعرفون أن غضبة الجمل لا توازيها غضبة حيوان آخر.

أبعدهم عن البوابة شافاً طريقه إلى حيث هي، وقبل وصوله إليها، رأت الجمل يتراجع ثانية، التفتت خلفها، رأت أباها: أرجوك. لقد انتهى الأمر. اتركني قليلا معه.

تجمّد الحاج خالد في مكانه، خائفاً أن تصدر عنه أي حركة تثير الحيوان الرّهيب.

لم يتراجع الجمل أكثر، وتراجع الحاج خالد. لم يعرف أيّ منها، فاطمة والجمل، ما عليه أن يفعل بعد ذلك؛ هل تتقدّم نحوه أم تتقدّم نحوها؟ حسّت فاطمة الأمر وتقدّمت خطوتين، لم يتراجع الجمل، لم تتقدّم، تقدّمت خطوتين أخريين، وظل في مكانه، لكن عنقه مُشرع في الفضاء كسيف وعينه مشتعلتان ببق غريب.

بعد أكثر من نصف ساعة من تحديق كلّ منها في عيني الآخر، راح رأس الجمل يميل قليلا قليلا نحو الأرض. وفي تلك اللحظة أدرك الجميع أن فاطمة قد نجحت مرة أخرى.

بدأت تسير نحوه بهدوء، والثقة من أن كل شيء قد انتهى. أمسكت رأسه براحتها وراحت مُشدّه، رفع عينه قليلا، نظر إليها كما لو أنه يتعذّر، دارت حوله مُمسدة جسده براحتها الصغيرة، وحين عادت من الجهة الثانية، حرّك رأسه والثقاء على كتفها بصمت. كان يبدو كطفل أكثر من أي شيء آخر، وللحظة أوشكت أن تبكي عليه.

امتدّت يدها باللباس إلى رأسه، ألقت عليه، لم يتحرك، وفي لحظة أدهشت الجميع راؤه بفتح فمه الهائل ويساعدها في إتمام ما عليها.

قال حسين الصعوب: أظن أنه استطاع النجاة من الرصاصة، لكنه الآن مضطّر لمواجهة السكين!!

- تذبّحوته!! صرخت فاطمة. لم الفعل ما فعلته لتذبّحوه أخيراً.

حمدان يتذكر

التقى الحاج خالد نظرة على الحادية، أحس بأنه لم يرها منذ زمن بعيد، كانت قد كبرت، انتشرت، لكنه لم يلاحظ ذلك الذي يراه الآن للمرة الأولى، كانت بيوت القرية أمامه قد انتشرت في كل الاتجاهات، وغدت المقاهي جزءاً من حياة القرية وحياة زوار السوق الذين يجدون فيها بعض ما يحتاجونه، كان محمد شحادة أول من تحمراً على إنشاء مقهى بعد أن رأى مقاهي الرملة وبيافا والقدس، ثم تبعه مقهى شاكر مهنا الذي أدخل الراديو، وقبل أن يفتتح كل زبائن السوق نزول محمد شحادة إلى القدس واشترى أحدث وأجمل وأصغر راديو من ماركة فيليبس، فأصبح باستطاعة الناس أن يسمعوا أغاني صالح عبد الحسي وأم كلثوم وسيد درويش ومحمد عبد الوهاب، وأن يتبعوا أدق أخبار فلسطين من شياها إلى جنوبها دون أن يكونوا مضطرين لانتظار وصول الأخبار من أفواه الناس. وتحول كثير من أهل القرية للسهر في المقهى بدل السهر في المضافات. لكن الحاج خالد لم يكن يرتاد أبداً من المقهيين، ويعتبرهما أمراً يُنقص من هبة الرجل، فاكتمى بالسهرة المتأخرة، التي يعمل فيها شاكر مهنا الراديو إلى المضافة بعد إغلاق مقهاه.

تذكر الحاج خالد الأيام الأولى كيف كان الناس يلقون نظرات الاستهجان وهم ينظرون إلى محمد شحادة وزبائنه، لكنهم أصبحوا مفتونين بعد أقل من عام براديو شاكر مهنا، وكيف أصبحوا يمتثلون للأعذار كي يسمروا من أمام مقهاه ليسمعوا الأغاني والأخبار، ولم تسلم النساء من غواية ذلك الصندوق الذي فتت قلوب الجميع وتحول إلى أعجوبة لم يعرف الصغار مثلها.

- كيف يكون الشيء أمامك ولا تراه، كيف تتحول إلى أعمى كما لو أنك لا تمك من هذا العالم الواسع غير زوايا البيت ويوأياته التي تغلفها آخر الليل، خافنا أن نلقد هذه الزوايا!! لم خافنا من دخول العالم فجأة إلى داخل بيتك؟

كيف لم أنتبه؟ راح الحاج خالد يتأمل الناس من جديد، كما تأمل الحادية، راح يتأمل أولاده، امرأته سميرة، أمه منيرة، عمته الأنيسة، أخته العزيزة التي استطاعت أن تربي أولادها ورافضة أي مساعدة من أحد، حتى منه، أخيها الذي تعتبره البيت وسلفه.

عزّز بوابة الحوش كما لو أنه يدخل بيته للمرة الأولى، البيت الذي اتسع، البيت الذي أصبحت له جليّة، العليّة التي صعدت إليها أمه ذات يوم وقالت: كل هذه الدنيا يستطيع أن يراها الإنسان من هنا وأنتم محشورون في الأسفل. ثم قالت كلمتها التي ذهبت مثلاً: إلى بدو إياي يظننّ يا أخوان. وطلبت منهم أن يحضروا لها فراشها وحاجياتها لأنها وجدت المكان الذي يمكن أن تعيش فيه كما تشتهي أخيراً.

التفت الحاج خالد إلى حمدان، كان منهكاً في حميص القهوة كما رآه أول مرة في حياته، تقدّم منه، وفجأة قال لنفسه: ما الذي فعلناه بك يا حمدان؟ كيف نسيتك كل هذا الزمن؟ كيف؟

أحس حمدان بخطي الحاج خالد تقترب، عرفها، استدار.
- لقد صبرنا عليك أكثر مما يجب!! قال الحاج خالد لحمدان بصورة أشارت الذعر فيه.

- ما الذي فعلته!!!
- المشكلة أنك لم تفعل شيئاً، المشكلة أنني لم أفعل شيئاً، ولذلك عليّ أن أنصّر بنفسي.

- هل قُصِّرْتُ يوماً ما!!!
- لا، أنت لم تُقصِّر، ولكن مشكلتك أنك لم تُكثِر أبداً كل هذه الفساجين التي تنتقل بين يديك من سنين طويلة، ولم تنكسر منها حتى فتجان واحد؛ إنني أحاول أن أذكرك أن كنت كسرت فتجاناً منذ أيام المرحوم أبي، ولا أنجح.
- لا تؤاخذني يا حاج، ولكن ما اللعب في ذلك!!
- يا رجل، ألم تفهمي! لقد آن الأوان لأن تزوج!
- أنزّوج!!!

كانت الكلمة صادمة إلى ذلك الحد الذي أحسّ معه الحاج خالد أن وجه حمدان قد تغيّر تماماً، كما لو أنه يستمع إلى خبر وفاة أحب الناس إلى قلبه.
- ما لك؟ لماذا كل هذا العيوس. هل قلّبت شيئاً يحرمه الله؟

- لا، ولكنك فاجأني، فاجأني!!
- كيف فاجأتك في أمر بسيط كهذا؟
- لأنني نسيت.
- نسيت ماذا؟

- نسيت أنني يمكن أن أتزوج مثل بقية الناس الذين أفرح لأفراحهم. نسيت تماماً.

- وهل ينسى أحد أمراً كهذا يا رجل. هل ينسى أجل ما في الدنيا: المرأة؟
- نعم، هناك من ينسى. حمدان ينسى.
- كان عليّ أن أذكرك بهذا من زمان.
- ربما كنت سأنسى أيضاً؟
- ها أنا أذكرك. وسأرى إن كنت ستنسى أم لا.
- ولكن، فمن يمكن أن يزوج حمدان ابنته؟!
- هذه هي المسألة إذن؟ من يزوج حمدان ابنته؟! هذه اتركها عليّ إن كنت قد نويت.

- اتركني أفكر بالأمر على رواق. قال حمدان.
- ولكن أخشى أن تنسى ثانية؟
- لا أعرف، ولكن أظن أنني لن أنسى!!

بعد ثلاثة أيام سقط أحد فتاجين الفهوه من يد حمدان وانكسر، فذهب الحاج خالد فرحاً: أخيراً قررت.

- سامحي. لن ينكسر فتجان مرة أخرى.
- إذن لم تقصد كسر الفتجان؟!
- استغفر الله، كيف يمكن أن أقصد فعل شيء كهذا؟!!
- لا عليك. لا عليك. إعداً.

الشيء الذي لم يعرفه الحاج خالد أن الأيام الثلاثة التي مرّت قد تركت حمدان ملقى بعيداً بأعين مشرعة خارج أبواب النوم.

أقفل باب غرفته المحاذية للمضافة، وتكوّم على نفسه. كان الفراغ الذي يحيط به واسعاً أكثر من أي يوم مضى، وكل نقطة معتمنة في الغرفة لا يصلها ضوء السراج. كانت ليلاً كاملاً.

منذ الليلة الأولى، راح يرتجف، حاول أن يلملم شتاته، لم يستطع، كيف أحسّ فجأة بكل هذا الشوق لامرأة، كيف أحسّ بأنها وحدها القادرة على لملشه من جديد وبعث الحياة فيه.

قد يكون أغنى قليلاً، قليلاً فقط، حين رأى نفسه يسير في بستان كبير، يستان تملؤه أشجار من كل نوع، وفجأة، حيثّ ربح خفيفة قرأى الأوراق تتساقط، راقبها وهي تملّح في الفضاء، تتلوى وتحطّ على الأرض بصمت. حاول أن ينحني لسمع صوت ارتطامها، لم يسمع شيئاً، عاد يسير، وفجأة، سمع صوتاً، التفت فرأى ذراعاً إلى جانبه، نظر إلى الأعلى ليعرف المكان الذي يمكن أن تسقط منه ذراع، لم ير شيئاً، كانت الأشجار وحدها في الأعلى، وقبل أن يعود ببصره من تلك الارتفاعات الشاهقة، سمع صوتاً آخر، التفت إلى يمينه، فرأى ذراعاً أخرى، عند ذلك انتابه الخوف فجأة، الخوف الذي تصاعد ليتحوّل إلى رعب، ما إن سمع ذلك الصوت الغريب: التفت، رأى رأساً آدمياً أمامه، كان الوجه للأرض، انحنى ليعرف رأس من هذا الذي يمكن أن يسقط أمامه فجأة هكذا، قلبّ الرأس، فوجد أنه يشبهه كثيراً. خاف، لكن فكرة غريبة خطرت له، هي أن يتحسس رأسه ليتأكد، وحين استطاع أن يفعل ذلك، حمد الله كثيراً لأن رأسه لم يزل في مكانه، وقال: لا بد أن يكون الرأس عائداً لرجل يشبهني تماماً. لكنه لم يكن مطمئناً، عاد لتحسس رأسه من جديد، ولكي يتأكد أكثر حاول أن يتأكد من أنه مثبت جيداً بكتفيه، شدّه للأعلى، وشدّه، وعند ذلك استيقظ. راحتاه تحسّ فكبه تدفعان الرأس إلى أعلى وقدماه تشدّان على الحائط بكل ما فيهما من قوة.

طرق الحاج خالد باب غرفة حمدان. حين رأى ملامحه المتعبة قال له: كأنك لم تنم هذه الليلة.

- هل رأيت حلمي؟
- كيف يمكن لي أن أراه؟ ما الذي حدث لك يا حمدان؟!
- كنت ممتاً والنهبت.

- الحمد لله. هل أتى حال جئت لكي أقول لك إنني وجدتها. منذ أيام أكثر في الأمر، وأظن أنها المناسبة لك.

- ومن هي؟

- (رفيقة) ابنة أبو ريحي.

- ولكنها متزوجة!

- كانت متزوجة، فزوجها غائب منذ عشرين سنة.

- ولكنه قد يعود.

- هل رأيت أحداً يعود من حروب تركيا بعد عشرين سنة على غيابه؟

- لا، المهم، هل تعتقد أن (أم الفار) هي المناسبة؟ سأله حمدان.

- ومن غيرها، قلت لك لقد فكرت كثيراً، وهي المناسبة، ثم إن خبرها وإله أعلم، لم يزل فيها، فإذا شذبت حبلك شوي سترزقان بولد أو اثنين، وربما أكثر.

ماذا قلت؟

- ما تقول يا حاج. نكمل على الله. ولكن، هل تعتقد أنها ستقبل بي؟

- وما الذي يتقصك؟

- أنت تعرف، لم أعد صغيراً، ثم إنني أخرج.

- هي ليست صغيرة أيضاً، ثم من قال لك إنك بحاجة لرجلِك إذا ما عزمت على الزواج؟

جميع من في القرية كانوا يعرفون أن حمدان وُلِدَ معافى، لكن والديه وأخوته ماتوا في حادثة غريبة، حين أهدار السلف عليهم في عزّ الظهيرة وسحقهم تحت، لم ينج أحد، سوى حمدان الذي كان خارج البيت. كانوا رعياناً يعملون في بيت الحاج محمود، وكعادة أهل البلاد، لم يكونوا يتقاضون أجراً، بل تخصص لهم مجموعة من الأبقار والأغنام ثلاثين منها ومن مواليدها، وهكذا يكونون شركاء في القطيع، ومع مرور السنوات، يمكن أن يكون لديهم قطيعهم الخاص وأن يواصلوا العمل في المكان نفسه أو ينتقلوا ليواسوا حياتهم الخاصة.

ذات يوم من أيام اللحظ، خيأوا اثنين فوق الغرفة التي يسكنونها، ولضرب جوعها، تمكنت الأبقار من الوصول إلى السطح الملتصق بالسفح، بعد أن دارت حول البيت. نادتها راتحة طعامها المخفي، صعدت للسفح، وفي لحظة واحدة تجتمعت أبقار الحاج محمود وأبقار سواه، فانهارت الفرقة على من فيها. وهكذا ماتوا

جميعاً في لحظة واحدة. أما حمدان، فقد غدا واحداً من أهل بيت الحاج محمود، لكنه أصر على العودة للفرقة نفسها التي قضى فيها أهله، بعد إصلاحها.

في البداية كانوا يخشون أن لا يستطيع النوم في مكان فقد فيه والده ووالدته، لكن الذي حيزهم أنه لم يكن يستطيع النوم إلا هناك.

ذات يوم، خرج حمدان من البيت على صوت بائع متجول، وكان في العاشرة من عمره، نظر إلى البائع وراح يستمع إلى طريقته في دعوة الناس لشراء بضائعه، حاول أن يُلْقِده، لم يستطع. تبع البائع محاولاً أن يستمع إليه أكثر، لكن حمدان اكتشف أن صوته أضعف من أن يكون مثل هذا الصوت العظيم. أحب البائع كثيراً، وفجأة، لاحظ حمدان أن الرجل يمرح، فأعجبته الطريقة التي يسير بها، حاول أن يُلْقِده، وأدعته أنه نجح تماماً، ومنذ ذلك اليوم، لم يعد حمدان يسير إلا بالطريقة نفسها.

في البداية قال له الحاج محمود: ما لك؟ ما الذي حدث لرجلك؟

- لا شيء. أجاب حمدان.

- ولماذا تمرج؟

- لا أعرف!

- عليك ألا تمشي هكذا إذاً، لا يمشي الإنسان هكذا إلا إذا كانت رجله

توجعه.

- إنها توجعني!!

- تعال. أرني إياها.

تأمل الحاج محمود قدم حمدان، تفتّدها، ضغط عليها في أكثر من مكان مثل طبيب عليم.

- هل توجعك حين أضغط عليها؟

- لا.

- لا توجعك أبداً؟

- قليلاً.

- ستعافى. كن مطمئناً.

لكن حمدان لم يكن يريد أن يطمئن.

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد حمدان يسير إلا على طريقة البائع المتجول.

كان عرساً بسيطاً، بغمرة الحزن أكثر مما تغمره البهجة، لكن حمدان وجد نفسه أخيراً تحت سقف واحد مع أم الفار، أمّا الفار نفسه، فقد بقي في بيت جده أبو ريحي، ولن يمضي وقت طويل، قبل أن يسمع أبو ريحي صوت تحطم أحد الصحنون في الدكان.

غضب أبو ريحي كثيراً: الذي يريد أن يتزوج لا يُكثر الصحنون التي نترزق بيها. هل هنالك قلة صحنون في البيت؟

صمت الفار، وبعد قليل نظر إليه أبو ريحي وقال: معك حق، الصحنون التي في البيت النجوم، لا تُكسر! ولكن، كان يكفي أن أسمع قرقعتها لكي أفهم!! وفي الليلة نفسها قال له: سأعطي لك ابنة الأرملة صباح. لم يعترض الفار، وفي صبيحة اليوم التالي أرسل أبو ريحي لصباح طالباً أن تمر عليه في الدكان، حين جاءت، قالت: خير إنشا الله. وكانت تتوقع أن يطلب منها سداد الديون التي تراكمت عليها. فقال أبو ريحي: خير إنشا الله. عندك بنت صبية وعندي شاب، وقد فكرت طويلاً، فوجدت أن كلاهما مناسب للآخر، ويكفي أن الاثنين فقدا أبويهما، الولد فقد أباه في حروب تركيا والبنت فقدت أباهما الذي ظل يتبعده هارباً من الأتراك حتى وصل البرازيل!

انتفضت صباح وقالت: لا نفاول على زوجي، لقد سافر وسيعود.

يا صباح، البرازيل بعيدة، وإذا ما استطاع شخص الوصول إليها، فإنه لن يجد من جسده القوة ليعود إلى هنا، وكما نرين لقد رحل الأتراك وجاء الإنجليز ولم يعد بعد.

سيعود. ما دام قال لي سيعود. فإنه سيعود.
المهم. ما رأيك أن تزوجها.
كنت أخشى أن تطالبني بما عليّ من ديون تتجمع منذ ستين.
أستغفر الله، وهل يمكن أن أفعل ذلك وأنا أرى بعيني أحوال الناس

الصعبة!!؟

لم أكن أخشى شيئاً أكثر من هذا!
اطمئي. أظن أن علينا أن نتفق قبل أن نجيء مساء لتخطيها. قال لها.
هذا أفضل.
لتحدث في المهر، كم تريد مهرها؟
مثل بنات البلد، وأقل شوي!

- عشرين ديناراً وملح!!

- ملح. رقت.

- اتفقنا إذن، الآن عليّ النظر إلى صفحة ديونك في دفتر الدكان!!

قَلَبَ الدفتر باحثاً عن صفحتها. هز رأسه، قال: ليس لديك صفحة واحدة يا صباح!! لديك أربع صفحات. شوفي: عليك سكر وقهوة وحلاوة وملح وكاسات شاي وطنجرة وصينية بسعة دناتير وثلاثين قرشا، وعلبك قماش وخيطان حرير وحذاءان - كتب طلبت أن أحضرهما لك من الرملة - ستة دناتير وعشرة قروش، وعلبك ديون قديمة سبعة دناتير. فيكون المجموع الثين وعشرين ديناراً وأربعين قرشاً.

نظر إليها وقد تغير لونها وقال: ما رأيك يا صباح (قابله ها القُبح بها الرُبع)؟
أعرف أن ما عليك من ديون أكثر من المهر، لكنني مسامح، فمئذ اليوم ستكون أقارب.

- إلى بنشوفة. قالت.

- يعني موافقة؟

- موافقة، ما الذي يمكن أن أقوله؟

- توكلنا على الله إذن.

أم الفار

يا شعر الولد متابل مضوئة
يا شيبه الذهب ع صدر الصبية
يا شعر الولد أنعم من حرير
حمامة تنهذي وحمامة ينطير
يا شعر الولد سحره ذؤب قلبي
إحفظه من الشر وأحرسه ربي

كانت حكاية أم الفار واحدة من حكايات الحادية المعروفة، فيعد أن مات ابنها الأول وابنتها بعده، قال لها أحدهم: إن أنجبت ولداً ضعي على رأسه سنّاً فار كسي لا يموت! وهكذا، حين ولدت ابنتها الثاني، أعلنت بأنها بحاجة إلى سنّ فار، وقالت لأولاد الحادية: إنها خصصت جائزة محترمة لمن يأتيها بالفار الأكبر.

عادوا لها بفيران كثيرة انتقت الأضخم منها وخلعت سنّه بيدها، وضعت على رأس وليدها، ثم نحت محنته بعد ذلك، ولما كبر الولد وأصبح بمشي، علّقته في عنقه.

عاش الولد.

فأصبحوا يسمونه الفار، وأصبحت هي أم الفار.

لكن أم الفار لن تكن مطمئنة لما تحقق، فلم تترك ضربح وئلاً ولا وذهبت إليه داعية الله أن يحمي ابنها.

يشعره الأشقر الطويل، الذي لم تقصه أمه أبداً، لحمايته من أعين الحساد، بظهوره كبت، كان الفار يحوي الشوارع متقافزا من مكان إلى مكان، مشرقاً ببراءة وجمال لم يعرفها أهل الحادية من قبل، جمال سيحبه الفقر يوماً بعد يوم. ولكن أم

الفار ستظل واصلة ليلها بنهارها ترأب صغيرها بخوف لا مثيل له، فإذا أصابه برد دثرته بكل ما يوجد في البيت من ملابس وغطته وأغلقت الباب وجلست خلفه كي تمنع أي نسمة هواء من التسلسل للدخل.

وإذا لم يشف، قامت بخطوتها التالية والثقة أن عينا أصابه، فتحضر جمرات وتضعها في وعاء وتقوم برش (الشبة) عليها وهي تتلو رقية، وعندما تذوب الشبة تسم جبهة الصغير برمادها، وإذا لم تجد الشبة تستبدلها بطحين وملح وبعض الفطن وقطعة من ثياب الشخص الذي تتوقع أنه أصاب ابنها بالعين، ولم تكن مهمة الحصول على هذه القطعة مسألة سهلة، لكنها كانت دائماً مستعدة لعمل المستحيل.

وكما تتوقع أم الفار، فإن النتيجة التي ستحصل عليها في النهاية هي رؤية صورة ذلك الشخص في الشبة المحروقة؛ لكن الأمر لم يكن محسوماً دائماً، فلي إحدى المرات ظهرت صورة زوجة محمد شحادة، في حين أن قطعة القماش المحروقة كانت لزوجها شاكر منها التي لم تنجب إلا بعد زمن طويل من زواجها، مما جعل أم الفار تذهب وتطلب السباح منها، لأنها أساءت الفطن بها. وفي بعض الأحيان كانت قطعة القماش تعود لرجل ولكن أم الفار ترى صورة امرأة. أما أقرب ما حصل لها فهو أنها ظنت ذات يوم أن الأثيبة أصابت ابنها بالعين، لكنها فوجئت بصورة زوج فتحة الحولة الذي ذهب للحرب منذ عشر سنوات ولم يعد، الزوج الذي لم ير ابنها أبداً، وهنا باتت تشك في الشبة، وهكذا قالت: هذه الشبة ليست صادقة. واكتفت بالطحين والملح المذبلين لم تجدها أبداً وبالرقية التي لا تكف عن ترديدها:

أولها باسم الله، وثانيها باسم الله وثالثها باسم الله ورابعها وخامسها وسادسها وسابعها باسم الله، أرقني واسترني، من كل عين زرقاء، وكل سن فرقاء، رقينا ناقة حتى يتبع رفاقته. العين العيون خاية الرجبة، والعيوب الردية، لا قاما السيد سليمان في واسعة البرية مكشرة عن أيابها وفي أيدها غرابها، ومدلية غاليها، تنج نباح الكلاب وتعوي عوي اللباب. يا عين باص باص، لأرميك بالرصاص، أخرجي يا كافرة يا ملعونة كما خرجت الدودة من الليمونة، أخرجي بحق الأنبياء والقديسين والحليل إبراهيم. إن كنت في السر تخجلين أخرجي بحق الله المعين، وإن كنت في الراس أخرجي بحق الخضر أبو العباس، وإن كنت في الكرش أخرجي بحق رب العرش....

حوظتك بالله، وأدخلتكَ في حفظ الله، من عيني ومن عين خلق الله... وتلق العين التي تشوفك وما تصلي على النبي.

حين وصل شعر الفار إلى خصره حملته ومضت به إلى مقام النبي موسى كما نذرت، ومعها خروف سمين كانت قد ربته هذا اليوم المشهود، وأمام اللقاح قصت شعر ابنها وذهبت الحروف ووزعت لحمه على المحتاجين.

كانت تتمنى أن تفعل ما يفعله الأثنياء، فتضع شعر ابنها في كفة ميزان وفي أخرى الذهب، أو الفضة، وتقف قيمتها على الفقراء، لكنها لم تكن لذلك، فاستعاضت عن الفضة والذهب، بأن وضعت في كفة الميزان نقوداً معدنية ووزعتها على أولئك الذين التفتوا حولها ينتظرون صدقتها. ومن يومها، لم يمرض الفار ولم يصبه أذى، ظنّت تؤكد. لكنها بقيت تنحسر دائماً على جماله الذي ذهب، حين كان مزيناً بذلك الشعر الطويل.

فكرت ثانية بترية شعره، لكن الفار كان قد كبر إلى تلك الدرجة التي يجعله يدرك أن شعراً طويلاً كالذي كان، يصلح للبات لا للصبيان.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الظل الطويل

لم تستطع فاطمة تجاوز كابوس جل إيلياً إلا في غروب ذلك اليوم الذي رأت فيه ذلك الفارس مندفعاً خلف غزالة فوق التلال الشرقية المحاذية لسهول القرية. ارتبك وقد أصبحت الغزالة في منتصف المسافة بينه وبين فاطمة، فاطمة التي بدا ظلها طويلاً إلى حدٍّ لم ير من قبل ظلاً مثله. لكن الذي أدهشه أن الغزالة ظلت تركض نحو فاطمة، في الوقت الذي كان عليها أن تنعطف وقد رأت آدمياً في طريقها. خفف من سرعة انطلاق فرسه وهو يرى الغزالة تبطن سرعتها، وتواصل تقدمها نحو تلك الفتاة الغامضة ذات الظل الطويل؛ وفجأة، راحت تسير كما لو أنها ترعى بأمان، وقد نسيَتْ تماماً ذلك الفارس الذي كان يحاول الإمساك بها قبل لحظات، إلى أن وصلت إلى فاطمة، توقفت الغزالة وألقت نظرة بعيدة على ذلك الفارس وكأنها تقول له: لن تستطيع أن تفعل شيئاً الآن! أحس الفارس بأنه على وشك السقوط أمام هول المفاجأة، تجمّد في مكانه، محاولاً أن يدرك كُنه ما يدور (هل تكون الغزالة غزالتها؟ ولكن من يمكنه أن يُربي غزالة ويطلقها خارجاً في السهول؟!)

بعد صمت طال، تقدّم، عرفته، إنه أخو خضرة، ورآها تهمس للغزالة، الغزالة التي انطلقت مبتعدة تنهّدي، وقبل أن تخنطي سماع فاطمة تصيح: انتظري. فتوقفت الغزالة، أدارت رأسها، فصاحت فاطمة بفرح: مع السلامة.

وقلت فاطمة خلف أبيها الذي كان يُشدّب لحينه أمام المرأة، وسألت: قل الحقيقة. هل تستطيع أن تراهي الآن؟

- لا.

- ولا، حتى، أي جزء من رأسي؟

- جزء صغير.

- الحمد لله. هذا يكفي!

شيء جميل عميق تحرك في قلب الحاج خالد، وتذكر ذلك الزمان الذي كانت ترد (لا أريد أن أكبر. أريد أن أبقي هكذا) ثم تحوّل على أربع، تنضمّ نحوه وهي بهزّ رأسها، مقفلة لغاى تكل: ماء... ماء. تدور حوله، تندسّ تحت ذراعه، يختفي جسدها خلفه، ولا يبقى أمامهم سوى رأسها الصغير.

ها هي الآن قد كبرت.

- لن تصبّحي أطول إلا فوق فرس. قال لفاطمة. فاطمة التي فهمت الإشارة: أنت تعرف أبي. لا تحمي الخيول وحدها.

لم تعد فاطمة تصحو فرعة على قطع لحم الجمل ذات العيون المفزعة، منذ التجاء الغزالة إليها، راحت تنام مطمئنة بهدوء غريب، عاد لها سلام إغفاءة الأطفال الصغار، وابتقي في قلبها شيء أخطر لم تحسه من قبل. وقبل أن تعرف ما يدور فيها، ما الذي تغرّ، وأهم يعودون ثانية إلى بيتها، الرجال أنفسهم الذين أتوا ذات يوم بعيد لاسترجاع أبقارهم.

لم تكن فاطمة قد عرفت بعد سرّ ذلك الغروب، وتلك الدهشة التي عصفت بذلك الفارس وبها، وقد التفت أعينها للحظات: كيف سارت نحو الغرب باتجاه القرية، وكيف كان ظلّها يمتد خلفها قاطعا السهل ذاهبا للبعيد، إلى حيث يقف هناك متجمدا على ظهر فرسه الكحيلية، لم تعرف كيف أن ظلّها كان قد التصق بظل الفرس ومن عليها، وأنه كان يطول كلما ابتعدت، دون أن يتصرف أبدا، إلا أن الفارس الذي لاحظ ذلك، أدرك أن مصيره قد بات معروفا، وأن الحياة التي قد تحيّت له، تبدأ هناك، مع بدايات ذلك الظل الطويل، الظل الذي لا نهاية له، الظل الذي راحت الكحيلية تتبعه. حاول الفارس أن يوقفها عندما لاحظ ذلك، لكنها وللمرة الأولى لم تستجب له، شدّ رستها، فبست صاهلة، لوى عنقها، قاومت، ثم تفاعزت في الهواء مجنونة، إلى أن سقط عن ظهرها، وقبل أن يستيق من هول القاجاء، رأى الكحيلية تتبع تلك الصبية إلى أن وصلتها، اقتربت منها فاطمة، همست بشيء لن يعرفه أحد سواهما، فصادت الفرس إلى خيلها الذي تجسّد في البعيد، غير قادر على أن يتبع فرسه، غير قادر على أن يعود دونها.

قبل مغيب شمس اليوم الرابع أطلت الخيول من جديد، لكن الحاج خالد لم ير منها غير الحمامة، ولم يعد ذلك غريبا، فكل غيل يمر قادمة من ذلك البعيد، لم يكن يرى منها سوى الحمامة.

كان يوم خيس، وقد بدأ الناس الذين جمعهم السوق الذي اتسع وغدا الأكبر في المنطقة كلها، يعودون صوب بيوتهم المنتشرة في جميع الجهات، لكن أولئك الفرسان ظلوا يقتربون، ولسب ما، غامض وعميق، أحس أن القادمين لا يقصدون سوى بيته، صابح: يا شباب، أجاكم ضيوف.

تلقّوا فرأوا كوكبة الفرسان تتقدّم من بعيد. ولم يكن صعبا عليه أن يرى المسافة تسع ما بينهم وبين أحد الفرسان الذي تباطأت فرسه، إلى أن توقفت تماما، كان شكله في ذلك الغروب رائعا، إذ فدا مع فرسه كتلة بالغة الجمال، كان السهل بحاجة إليها، من زمن طويل، حتى يتحوّل إلى مشهد لم يسبق أن رأوا مثله. أحس الحاج خالد بقلبه يرتجف بقوة بين أضلاعه، حدث هذا، في اللحظة نفسها الذي ارتجف فيها قلب فاطمة، فراحت تركز نحو أمها ملقبة بنفسها بين ذراعيها.

- شو لي؟

- لا شيء. خير إنشا الله!

- شو لي يا بنت؟ ما لك شيء؟

- لا. لا يا مام. خير إنشا الله. وحين حاولت شمية إبعادها قليلا لتنظر إلى وجهها، التصقت فاطمة بها أكثر، فراحت أمها ترد: خير إنشا الله. خير إنشا الله. حين صعدوا باتجاه المضافة، كانت كلّ استعدادات الاستقبال قد قُتت، لكن الذي حدث، أن الأحلام البيضاء التي سكنت عيون الحاج خالد وابنه ناجي تلاشت فجأة، إذ لم يكن بين تلك الخيول سوى فرس رمادية لم تكن تشبه الحمامة أو الكحيلية أبداً.

في مقدّمة الفرسان، كان الشيخ الجليل، فوق فرس يميل لونها إلى الأزرق قليلا، فرس بلون البحر حين تنظر من فوق جبل عال وترى صفاء المناطق غير العميقة فيه.

- لم يأتوا هذه المرة إلا لشيء كبير. قال الحاج خالد في نفسه. ولم يحب ظنه حين عاينهم، حين أحس بذلك الشيء الأليق في ملاحظهم، كما لم يره من قبل في زيارتهم الأولى.

دخلوا المساقفة، بدأ حمدان يخصص القهوة، ويراقب باب المساقفة بعينين، عشا، تحاولان معرفة ما يدور خلف الجدران، لكن قلبه كان يعرف أكثر منه، قلبه الذي أحس بفرح ما، وأن ضيوف اليوم لن يكونوا عابرين أبداً.

كانت السنوات قد غيّرت حمدان كثيراً، وبدا وكأن اقترابه من النار ومصاحبه لها كل ذلك الزمان قد زاده شجرة على سمره، كما أن قامته راحت تضمحل قليلاً قليلاً، أما شعره، الذي تغطي بعض خصلاته من تحت كوفته للعقدة حول رأسه بإحكام كعمامة الشيخ حسني، فقد كان الشيء الأبيض الوحيد فيه، في حين أن عينيه لم تفقدوا بريقها المبهود منذ عرفوه، كانتا مضيبتين على الدوام حيثما رأوه كما لو أن النار التي تركها خلفه لم تنزل تنعكس أنسها في عينيه. أما الشيء الذي لم يكن يفرق ملاحظه الرقيقة، فهو تلك الانسامة التي لا يستطيع المرء أن يعرف ما إذا كانت انسامة تنتمي للرضا والقناعة أم لإدراكه بأنه لن يرى بعد اليوم جديداً تحت شمس هذا العالم.

في النهاية، كان لا بد له من الاستماع لصوت قلبه متخلياً عن المهمة التي أوكلها لعينيه. وفي تلك اللحظة انطلق مهباشه صادحاً، مهباشه الذي ملأ الجوى برائحة القهوة ورائحة لحظات سعيدة لا بد أنها تولد في الداخل في تلك اللحظات.

شربوا قهوتهم، واستأنفوا، حاول الحاج خالد أن يقيهم، لكنهم قالوا له: هناك من ينتظرنا في آخر السهل، ولا يجوز أن نتركه معلقاً بحبال هذا الليل.

- ترسلون له ونحبرونه.

- ولكن هناك من ينتظر وراءه في القرية بلهفة لا تقل عن لهفته.

حين خرجوا، كان حمدان يواصل العزف على مهباشه، التفتوا إليه، أحسوا بأنه يشاركهم أفراحهم، تحلقوا حوله كما تحلقون حول راقص "تَبَكَّة" أسطوري، نسوا أنفسهم، إلى ذلك الحظ الذي دفع الحاج خالد أن يقول: كان يمكن أن تنهوا عشاءكم قبل هذا الوقت!!

انتهوا. كان الليل قد حلّ، ولم يعد الفارس تحت ضوء ذلك القمر الرمادي، في نهاية السهل، غير نقطة غامضة لا يمكن الجزم بأنها قامة فارس.

هبطوا التل، رأوا القمر يصعد من خلف الأفق، يصعد ويضيء السهل قليلاً قليلاً، وخلفهم كانت دقائق مهباش حمدان تملأ الفضاء بعدوبة لم يحسها من قبل أولئك الضيوف الذين سيحتفلون إلى جزء أصيل من أهل البيت، بدءاً من ذلك المساء.

- لم يكن علينا سوى أن نتحدث عن الفرسان حتى نراهم على عشاينا. قال الحاج خالد لابنته. ابنته التي التفت بخجل على بعضها بعضاً وتحولت إلى ما يشبه الكثرة. وصمت قليلاً ثم قال: كأنك تعرفين!!

- لا. لا أعرف شيئاً ولكنني أحس.

- إذن تعرفين!

- لا. أحس. أحس فقط.

- ما دام الأمر كذلك، فلم يكن عليّ أن أقول لهم بعد يومين سأعطيك جوابي.

- ما الذي يحدث؟ سألت شميّة.

- حُطّاب، جاء لابنتك حُطّاب.

- ألف مبروك.

- أين تسكني من هم؟

- لن يطرق أبواب بيت الحاج خالد في أسر كهذا، سوى أناس يعرفون مقداره ويعرفون مقدارهم.

كبيراً كان عرس فاطمة ونوح أخو خضرة، نوح الذي سيظل لقلبه جزءاً منه دائماً، منذ أن أطل على ظهر فرسه صائحاً ومُغنياً بسيفه. من كان يمكن أن يُصدق أن بداية كنتك ستوصلهم إلى نتيجة كهذه. حاول نوح أن يشعر للحاج خالد، فقال له الحاج: لو لم تُدافع عن بقراتك ذلك المساء لما قبلت بزواجك من ابنتي.

- ولكن لا تنس أنني هُزمت.

- هُزمت!! لا لم تُهزم، لأنك حين هُجمت لم تكن تريد أن تنتصر، كنت تريد استرجاع حقك.

- هل تسمح لي أن أناديك منذ اليوم والدي.

- ومن أنت إن لم تكن كذلك!!

- أرى أن هناك مدارس في القدس يمكن أن تذهب إليها وتُكمل تعليمك.
- وهل يمكن أن تقبلني؟
- أليس علامتك ممتازة؟
- ممتازة.
- ستحملها وتذهب بها إليهم ونرى ما الذي يمكن أن يقولوه.

ارتدى الحاج خالد أفضل قباز لديه، وتوجه مع ولده إلى محطة القطار على ظهر حصانين، عاد بها ناجي. وحين وصلا القدس كانا في عالم آخر تماماً، عالم يتغير ما بين زيارة وزيارة كما قال لهم ذات يوم الأب إلياس.

السيارات تكاد تطلحن الناس للفرط اندفاعها، وعربات الخيول المزركشة تنتقل مثل الديوك الرومية كما لو أنها سيدة الأرض ومن عليها، وحافلات النقل تُغيّر من كل جانب باحثة عن فسحة تندس فيها لمواصلة طريقها بأي وسيلة.

- من أين تأتي كل هذه السيارات؟ لقد أصبحت أكثر من عدد الناس. قال الحاج خالد لابنته مستغنياً. وقد لاحظ لأول مرة شاري ابنه الناعمين.

قال محمود: نابلس أهدأ.

- أظن أن الحاجة بحاجة خمسين سنة كي تدب فيها الحياة التي نراها اليوم على بعد نصف ساعة بالقطار.

كانت خيبة أملها كبيرة في القدس.

قال الحاج خالد: ما دمنا وصلنا إلى هنا، فلن نعود خائبين، لنذهب إلى رام الله.

- رام الله!!

- ألا يوجد فيها مدارس؟

- هناك مدرسة سمعت اسمها أكثر من مرة "الفرندز".

- وهل يمكن أن يقبلوك فيها؟

- لا أعرف!

كان مدخلها العريض بأقواسه الثلاثة، بشكل شرفة كبيرة لطابقها الثاني، أما قريباها الأحرر المنتصب على شكل هرمين صغيرين، فقد كان يمتحها هبة كتيسة أكثر مما يمتحها شكل مدرسة، في حين بدت توافدها الممتعة ذات الأقواس المُظلة من بين الجدران الحجرية العتيقة أكثر غموضاً من أي شيء رأوه من قبل.

ديوك رومية

حين أوى محمود دراسته الابتدائية في مدرسة التجاح بنابلس⁷، كان استقباله في البلد أشبه ما يكون باستقبال الفاعخين. طويلاً أصبح وتحت أنفه الصغير التمتعت شعيرات شاربيه الذهبية، لكنه بقي نحيفاً كعمود القصب، أما عيناه فقد بدا أن برقها جليداً مسكنهما، في حين كان لا بد للجميع أن يلاحظوا أن خطواته كانت أقرب لخطوات موظف حكومي أكثر منها لخطوات طالب مدرسة.

حين تفرّق الناس سأله الحاج خالد: ما الذي تفكر فيه الآن؟

- لا أعرف؟
- أظن أننا بحاجة منك لأكثر من هذا. لم نرسلك لتتعلم وتعود إلينا بكلمات كهذه.
- ما تريد يصرير.
- أنت تعرف أن مشكلتنا قائمة في قلة التعليم لدينا، أقصد هنا في القرى، كما لو أنه حرام علينا وحلال على سوانا. لا المعلمانيون كانوا يريدوننا أن نستعمل ولا الإنجليز، ولا حتى هؤلاء الوجهاء! أنت تعرف أن عبد اللطيف الحنّدي طرد أحد المزارعين الذين يعملون في أرضه لأنه نجراً وأعلن أنه يريد تعليم ابنه.
- وما الذي تراه؟

⁷ - كانت المحاولة الأولى لتأسيس هذه المدرسة الابتدائية، قد أتت أوامر الحكم العثماني، لكنها لم تكن وذلك بسبب (الأوضاع السياسية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية، وأواخر فترة حكمها للمعركة العربية، حيث بدأت تبرز في هذه الفترات الثورات والأفكار القومية، التي أضحت تهدد وجود وكيان الدولة العثمانية نفسها، لذا رأت هذه الدولة الحد من تأسيس المدارس، للحد من انتشار القومية التي بدأت بالانتشار والتصاعد. وفي عمارتها لكسب ود سكان المدينة وافقت السلطات البريطانية على تأسيسها في بدايات عهد الانتداب).

استقبلها مدير المدرسة بطريقة لا يستقبلون بها في الهادبة حتى موظفي الحكومة. التي نظرة مُتَحَصِّصَة على العلامات المدرسية لمحمود ثم راح يمس رأسه: تلميذ نجيب، ولكن.

- ماذا؟ علق الحاج خالد الذي لم يتلق دعوة للجلوس.
- لا شيء.

من فوق نظارته السمكة التي تكاد تسقط من فوق أنفه، راح المدير يتأمل الحاج خالد من أساسه حتى رأسه، كما لو أنه يريد أن يخطبه!! ثم قال بصوت كسول أقرب للهمس: (نحن مدرسة تبشيرية كما تعرف، ونصلي صباح كل يوم قبل الدخول للصلوة).

أدرك الحاج خالد أن حجة المدير أضعف مما كان يتصور. اعتصر جيبه بأصابع يده اليسرى، التفت للمدير.

- في بلدنا يوجد دير من أيام أبي. وهذا الأمر ليس غريباً علينا. قال الحاج خالد.

- ولكنكم هناك لا تصلون في الدير!
- عال. ليصل أبني معكم هنا.
- ولكن، كما تعرف، صلاتنا مختلفة، تراثيل دينية نُمجِّد فيها الله ويسوع والعذراء.

- هذا يلاعنني، فتحن تؤمن بالتوراة والإنجيل ويسوع والعذراء.

- ثم إننا نأخذ التلاميذ صباح كل أحد إلى كنيسة الكويكرز حيث نصلي أيضاً وهناك موعظة يُقدِّمها قسيس.

- لا مانع، فالكنييسة بيت الله، كالمسجد، ومن الهم أن يعرف ابني الدين المسيحي.

- لا رمضان عندنا، لأنه لا يمكننا تحضير إفطار المساء للتلاميذ المسلمين، ثم وجبة السحور.

- صحة ابني، كما تراها، ضعيفة، على قده!! وهو لا يصوم في البيت، فلا أريده أن يصوم عندهم!!

تأمل مدير المدرسة الحاج خالد وقال: عجيب. لم تترك لي شيئاً أقوله. وبعد فترة صمت طالت قال المدير: هكذا إذن. ثم عدل نظارته، والتفت إليها وقال: مبروك.

الليل وحده

- هيا انهضوا. لقد طلع النهار. صاحت شُمية بأبناؤها.

ما كان الطفل يبلغ العاشرة من عمره، حتى يكون مُلْزَماً بالخروج إلى السهول، يرذ الدواب، يرعاه، وفي حالات كثيرة كانت الأغنام تعود، يفتقدونه، يذهبون للبحث عنه فيجدونه نائماً في السهول. فيقولون: عادت الجشلان والضبي غُفَيَّان!! لكن الشيء الأكيد أن الوحيد الذي لم يلحق به هذا العار كان ناجي. حتى أن الحاج خالد كان يناديه أحياناً: يا ذئب.

وعندما كان يشتد عود الطفل أكثر كانوا يضعون بين يده ويد المحرات حجراً صغيراً ويشدون عليها حتى تنقوى يده ويصبح قادراً على التحكُّم (بكابوسة المحرات)، لكن ذلك لا يحدث قبل أن يكون رأس الصغير قد غداً أعلى بقليل من المحرات، بحيث يستطيع رؤية الأرض ورذ البقرة والصفط على المحرات لمخصوص في الزراب أكثر فأكثر.

في حالات كثيرة كانت البقرة توقعه فيتحوَّل مشهده إلى فاكهة للضحك في هارات التعب تلك.

- هيا انهضوا. لقد طلع النهار. صاحت شُمية بأبناؤها ثانية.

تلملوا، وعندما فتحوا أعينهم أدركوا أنهم تأخروا فعلاً.

كان هنالك سهل شاسع من القمح، وقد حان موعد النزول إليه.

تعبين كانوا بسبب عملهم الطويل في اليوم السابق.

نهضوا، وما إن وصلوا حتى رأوا أن كثيراً من الناس قد وصلوا ذلك الحقل قبلهم.

- أترون لقد تأخرتم!! قالت هم.

هزّوا رؤوسهم، لا لتأكيد كلامها أو تلبية، هزّوا رؤوسهم كي يتساقط التعاس من أعينهم.

بدأ الحصاد، تصاعدت الأغاني من كل جانب:

منجني يا منجلاه راح للصايغ جلاه
والقمر حوله يدور وينطق نور وحياء
والقمح عالي وبصيل شُرقة وغُرّة يا عجلاه

راحوا يتسابقون: من يستطيع التقدم أكثر في الحقل. ومن بعيد كان يمكن للمرء أن يرى الممرات الضيقة والواسعة التي باتت تشق الحقل كالطرق. ودائماً كانت عفاف حفيذة الحاج جمعة أبو منبل في المقدمة.

نهار، ولكن الشمس لم تكن هناك.

كان القمر وحده.

ألقي ناجي نظرة إلى الأفق الشرقي: لا شيء!!

وعندما تحسّبت ظهور الصغار وبعض ظهور الكبار، بطحوهم أرضاً وداسوا عليها حتى تليّن.

- كانت الحياة بحاجة للجميع كي تستمر بهم ويستمرّوا بها.

- ستحتلّ لك الجمل لتوصل القمح للبلد. قالوا لموسى.

قال ناجي: سأذهب أنا.

- لا. نحن بحاجة إليك هنا. قال له الحاج خالد.

سار الجمل مسافة ليست قليلة، توقّف، حاول موسى، الأكثر كسلاً بين أبناء الحاج خالد، أن يجبره على السير، رفض، بعد لحظات أتاخ، حاول أن يستحثه على الوقوف، لم يستجب.

صاح موسى طالباً التجدة، فتدافعوا خائفين.

حين وصلوه، وجدوا أن المشكلة أقل بكثير مما ظنوا.

- نشفت ربقتا الله بنشف ربقتك. قالت سمية.

- وما الذي أفعله!!! إنه لا يريد أن يمشي. قال.

لكرّ الحاج خالد الجمل بطرف قدمه فتنهض.

- هيا، أكمل طريقك. فضحّنا. قالت له سمية.

رفض: ومن يعرف أنه لن يفعلها ثانية!! قال.

ذهب معه محمد شحادة، بعد ساعة عادوا.

لم تزل الشمس بعيدة.

حينها أطلّت أخيراً، اكتشفوا أن الكبار خدعوه، كان بعض الحصادين قد استطاع شقّ طريقه بحيث أوْشك على الوصول إلى منتصف الحقل.

لم تكن هناك طريقة لتجنّب حرائق شمس النهار إلا بالنهوض ليلاً والعمل تحت ضوء القمر.

حين نادى سمية في الليلة التالية: هيا. لقد طلع النهار.

قال لها موسى دون أن يفتح عينيه: لن أصل العتبة قبل أن تغيب الشمس!!

زيارة لا يمكن أن يقال فيها إلا أنها مفاجئة، وبمجرد أن أُلقت نظرة على البيت
تأكدنا أن البيت تجحت ونجاوزت الامتحان بشرف.

ولكي تطمئن أكثر، عادت في زيارتين مفاجئتين، فكانت النتيجة ذاتها.
أما عفاف نفسها فلا تذكر نفسها إلا على هذه الصورة، باستثناء ذلك اليوم
الشفوم الذي كانت فيه عاتلة من البشر وصاحت عاتلة ابنة محمد شحادة: حبة!
حبة!

نظرت عفاف تحت قدميها، رأت الحبة التي لم تكن في الحقيقة، سوى قطعة من
حبل، ارتبكت خطواتها، تأرجحت قائمها، فسقطت الجرة من فوق رأسها
وبهتت.

لم تكن عاتلة تعتقد أن مزحتها ستؤدي إلى مصيبة كهذه، إلا حين رأت عفاف
تحتني فوق جريها وتبدأ بالبكاء. وعندما وصلت عفاف البيت لم تجرؤ على دخوله،
ظلت تطوف حول البيت ثم جلست في ظلال السور يعينها المتدققين.
خرجت أمها التي أحست بأن ابنتها تأخرت فقرأها نكي: ما الذي حدث؟
- كسرت الجرة.
- كسرت الجرة. يا خراب بيتي. كسرت الجرة، وكيف يمكن أن تكسري

الجرة؟
- وقعت.
- يا خراب بيتي!!

كانوا قراء، وكان ثمن الجرة الذي لا يتجاوز عشرة قروش خسارة لا محتمل.
وطوال ثلاثة أيام، ظلت أمها تنوح ونحوي، كما لو أنها فقدت زوجها من جديد.
ولكي تُعوّض الخسارة، اضطرت أمها أن تتركها تعمل مساعدة للأختين سارة
وميري في الدير بعد موت أنطونيوس؛ وحين رأت الأختان الطريقة التي تعمل بها
عفاف فتمسكتا بها، بحيث لم يستطع أحد التزاعها من بين أيديهما، وبدأن بتعليمها
اليونانية وأدعشها أنها كانت ذكية إلى حد كبير.

ذات يوم جاء خاله عبد الرحمن من باقا ليؤروهم، وجد أمها الحامل في شهرها
الأخير مريضة، سألت: أين عفاف؟

- في الدير؟
- وما الذي تفعله في الدير؟

دروس خصوصية

كما لو أنها تراها لأول مرة، نظرت شمية إلى عفاف وقالت: هذه هي العروس
التي لا يجب أن تضع من يد محمود.

كانت عفاف حبيبة الحاج جمعة أبو سنبل، قد عاشت مع أمها في بيت جدتها
منذ وفاة ولده أحمد في حادثة غريبة، فذات يوم، كان يسوق الأبقار صاعداً أحد
التلال هارياً من سيل اجتاحت الوادي، انزلت بقرة وظلت تتدحرج حتى ألصقت
يأحدى الصخور.

- نسأني: ولكن كيف مات؟ رجوع البقر جعله يشكو من آلام في زرد ظهره،
فذهبت أمي إلى زوجة نبيل العودة؟ لماذا؟ لأنها تعرف العلاج بالكلي؟ لا أريد أن
أطيل عليك، كونه بالثار حول الزرد ووضعت حبة حصص وفوقها أوراق أشجار
خضراء، وربطتها، وصرفنا نضع حبة حصص وأوراق شجر كل يومين، حسب
الوصفة! في الأسبوع الأول قال والله كأنه كذب، لم أعد أتأكد! مع أنه لم يكن يستطيع
أن يتحرك. وبعد مرور أسبوعين بدأ ظهره ينحني وينحني، فحملناه وذهبنا به إلى
الزملة، كشف عليه الدكتور وراح يصرخ: يا حبيب ماذا فعلتم به!!! أنتم تستحقون
الأمسح، فقالت أمي: كان يشكو من وجع في ظهره فمست امرأة غريبة في القرية،
وقالت إنها تعالج بالطلب الشعبي، وعالجته. طبعاً أمي خافت أن تذكر اسم زوجة
نبيل العودة، لأنها فهمت أن ذلك سيؤدي إلى سين وجيم وتحقيق. فقال الطبيب:
كل النخاع الشوكي انسحب من ظهره!! أخذه إلى يافا، القدس دون فائدة، لم يعد
قادراً على تحريك رجله، وطوال النهار كان يطلب منا الله برحه: مدوا رجلي،
أرجعوا رجلي، وكلما أراد أن يساعد أحد في الليل، كان يوقظنا بلصبة طويلة
وضعتها بجانبه، وكانت الناس راجعة جاية كي تراه، بعد أقل من شهر مات.

راحت شمية تراف عفاف في ذهابها وإيابها، في عملها في الحقول، وفي جدّها
للزيتون، وفي طريقة إحضارها للماء من البئر، وحين الممات، مضت إلى بيتها في

- راحت تساعد الراهبتين أسبوعاً، أسبوعين، وها هي منذ خمسة أشهر هناك.

- ومن يُساعدك؟

- زي ما انت شايف!!

طرق عبد الرحمن الباب، خرجت الراهبة ميري: أين عفاف؟

- في الداخل. تعمل. ومن أنت؟

- أنا خالها وأريدُها الآن أن تعود معي لليبس.

- لا يمكن أن تأخذها، إنها تعمل هنا ونحن لا نستطيع الاستغناء عنها.

- ولكن أمها بحاجة إليها أكثر.

- لن تأخذها.

دفع عبد الرحمن الراهبة ودخل، وراح يصيح: عفاف، عفاف.

- خالي!!

ركضت باتجاهه، كانت تحبه كثيراً، كان الوحيد في هذه الدنيا الذي أحضر لها من الأشياء اللذيذة ما لم تتذوقها أي بنت في الهادبة.

- أريدك أن تأتي معي. أمك مريضة. وأريدك أن تتركي الدير نهائياً. فاممة!!

- فاممة، بس ما راح برضوا.

- لن تقبل بأن تأخذها. إننا نعتد عليها في كل شيء. قالت ميري.

- نعتدون عليها، لا نعتمدون، تلك مشكلتكم أنتم وعليكم حلها.

كانت عفاف الأكثر سعادة، لأنها تخلف من ذلك العبء الثقيل الملحق على كتفيها في الدير، العبء الذي كان يحملها للفراش فور عودها باحثة عن حلم سعيد في النوم.

الشيء الذي يعرفه الجميع، أن عفاف الخارجة من الدير بكثير من الكليات اليونانية التي تستخدمها أحياناً في شتائها الغامضة، واصلت حياتها السابقة كما لو أنها لم تغب يوماً واحداً، وحين ولدت أمها تكفلت برعاية أخيها الصغير، الذي جاء بعد انتظار طويل، ولو كان باستطاعته إرضاعه لقتل ذلك.

انتشرت في الهادبة أخبار عفاف التي أصبح الناس يمتدحونها باعتبارها (تربية راهبات) رغم أنهم يعرفون ألا شيء فيها قد تغير سوى شتائها التي تطلقها عادة ضاحكة!!

أرسلت شمية ابنها ناجي ليخبر محمود الذي يعمل في إحدى صحف يافا أنها وجدت له عروساً، وأن عليه أن يعود: لن أنتظر أكثر من ذلك، لقد أصبح عمره الثنتين وعشرين سنة.

حين وصل ناجي إلى يافا ظهيرة ذلك اليوم، وجد محمود نائماً، فقد كان أمضى الليلة السابقة في مشاهدة مسرحية يوسف وهبي (كرمي الاعتراف) التي امتد عرضها حتى الواحدة والنصف صباحاً.

حاسباً كان جوابه: أنا لا أفكر في الزواج. كان سعيداً بيافا والحياة فيها إذ فحاة وجد نفسه في مكان لا يتقصه فيه شيء، فهناك المقاهي والمسارح والأندية الثقافية والفنانون الكبار الذين كانوا يقيمون حفلاتهم ويقدمون مسرحياتهم وشهرتهم ملأ الدنيا من يوسف وهبي ونجيب الريحاني وعلى الكسار ومحمد عبد الوهاب حتى أم كلثوم، وفوق ذلك كله كانت هناك دور السينما التي لا تتوقف عن عرض أحدث الأفلام وأجملها، لكن المفضلة لديه منها كانت سينما الحمراء في مدخل حي الزعقة. أما في الأعياد فكان يمضي إلى سينما الشرق التي كان يشاهد فيها أفلام فلاش جوردان ودك ترابي حيث كان باستطاعته أن يحضر ثلاثة أفلام في عرض متواصل مقابل تذكرة ثمنها قرشان.

بكت سمية أمام الأليسة: كيف لا يفكر بالزواج وهو في هذا العمر؟

- ليكون ابنك ما يبتغ للنسوان!! قالت الأليسة.

- أعوذ بالله.

- ليكون بنات المدن عطفن عقله!

كانت الأليسة أسوأ نساء الهادبة حظاً، حيث لم يدم زواجها سوى ثلاثة أشهر، دون أن يسفر عن أي نتيجة، وأدركوا أن المشكلة في رجلها وليس فيها، حينما بدأ يبتعد عن كل مكان يمكن أن يلتقي فيه بأحد، وحين لم يجد مكاناً في النهاية، ذهب بنفسه وتطوَّع جندياً في الجيش التركي، ومنذ ذهابه لم يروه ثانية. البعض قال إنه لم يكن يبتغ، لكن الأليسة أسرَّت لميرة ذات ليلة يحزن: المسكين، لم يكن اللئب ذنبه. فقللت متبرة: ولكنني لم أفهم أيضاً. فقللت الأليسة: الحزيبط ما لوش من البلي للرجال! فشعلت متبرة: أبداً أبداً. فردت الأليسة: مش أكبر من حبة القول!!

انشغلت عفاف بحل المسائل الحسابية وقراءة القصص، سواء أحييت هذه القصص أم لم يحيها. وذات يوم عاد محمود في زيارة مفاجئة، حاملاً كماداته كسل أعداد الصحفية التي يعمل فيها، والتي صدرت أثناء وجوده في باقا، نظرت للبيد، وراحت صندوق الكتب والصحف فوق ظهر الحافلة، وعندها أدركت أن المصيبة قد وقعت، لأنها لم تقترب من الأوراق التي أعطاها إياها في زيارته الأخيرة. اندفعت عفاف تركض من أعلى التل إلى أسفله. في البداية استطاعت أن تتجاوز بنجاح عدة سناسل حجرية تفصل الكروم والبساتين عن بعضها بعضاً، لكن اندفاعها أصبح أقل قوة في النهاية، وهكذا راحت ترتطم بالسناسل واحدة بعد أخرى، وكلما اصطدمت بواحدة أحدثت ثغرة صغيرة فيها. نظرت خلفها وإذا بها قد فتحت عمراً عبر السلاسل كلها. كانت تريد الوصول إلى البيت قبله، لعلها تستطيع تدارك ما فاتها، لكن، عيشاً، إذ استطاعت الحافلة أن تسبقها، وهكذا وجدت نفسها مع أشتر وأقوى امتحانات حياتها.

أسك بأذنها وفركها كما يفعل المعلمون مع الطلاب في تلك الأيام، صرخت، وبدأت تكي، لم يكن الألم هو السبب، بل لأنها لم تتصور أن تُهان إلى هذا الحد. كانت تغسل له ملابس وتكويها، في كل مرة يزور البلد، كما تعلمت في الدير. امتنعت عن ذلك.

- ابحت لك عن واحدة غيرة لشكوي ملابسك.

- هذه الهلجة لم أعتد عليها.

- من يشلع ذاتي، عليه أن يعتاد على هذا منذ الآن، وإلا فإنه لن يعتاد.

وفي محاولة منه للرد عليها أصدر قراراً بفصلها من مدرسته!! وما لبث الأمر أن تطور ليكون أول خلاف عميق سيمس علاقتها في الصميم ويدفعه لقاطعتها سنة كاملة، لا يكلمها في شيء ولا يزورها.

في الزيارة الأولى له، أجبرته سمية أن يسير معها لتزيه عفاف، وحين رآها تغير كل شيء. كانت جميلة فعلاً، طويلة ونحيفة ونهادي في مشيتها بطريقة أجمل من مثلات السينا اللواتي كان يراهن في سينا الحمراء كل يوم خيس.

- ولكنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة. قال لأمه.

- لقد تعلمت في الدير وهي تتحدث باليوناني. إذا سمعتها تتحدث باليوناني سأغير رأيك. هل حضرتك تعرف اليوناني؟

فاجاب بارتباك: لا.

- إذن اسكت!

التفت عفاف نحوهما، كان كل شيء قد تغير، وجهه الذي استلأ قليلاً وازداد باضاً، قامت التي لم تعد تذكر بعبود القصب، شارابه الرقيعان المشدبان بعناية، ونظارته المستديرة كمنظار طيب، ابتسمت وقالت: صباح الخير يا خالتي.

- صباح الخير يا حبة عيني.

كانت ابتسامتها كافية لتحريك قلب محمود، ابتسامة مضربة تغمرها خفة دم لم ير مثلاً من قبل، وشمرة صافية تزيد عينيها الواسعتين صفاء.

- إنها صغيرة. وتستطيع أن تعلمها بنفسك. قالت سمية.

- هل تعتقدين ذلك؟

- إذا لم يستطع شاب مثلك أن يعلمها فمن يستطيع؟

في المساء ذهب الحاج خالد لبيت الحاج جمعة أبو سنبل وأخبره بما يفكر فيه، فقال أبو سنبل: على بركة الله.

في اليوم التالي عاد محمود إلى باقا، ومن هناك اشترى ساعة وخنفاً ذهبياً، حين رآهما العروس طار عقلها، وستظل لزمن طويل تشي في القرية وهي تنتظر إلى الساعة والختام كما لو أنها ليس لها وتمتئ الحصول عليها.

- إنت عاجبان من كل التواحي. بس أريدك أن تعرفي القراءة والحساب بصورة أفضل. أنا أحب القراءة واشترى القصص والكتب والمجلات، وأريدك أن تقرأ كل ما أقرأه حتى تكون متفاهمين أكثر.

لم يضع محمود الكثير من الوقت، فقد بدأ بتعليمها في صبيحة اليوم التالي، ولكي يشعرها بأن الأمر أكثر من جدّي، ترك لها مجموعة من المسائل الحسابية، وقال: حين أعود، أريد أن تكون هذه المسائل محلولة، وهذه القصة مقروءة. اتفقتا.

- اتفقتا!

أرخت سميةً يديها فالتفت بركنش بعيداً عنها، ظهره للحائط، والصحن في يده.

- أكثره وألا بتجوزيني!!!

وكما لم تضحك في أي يوم من الأيام، راحت تضحك، وتضحك. وما هي إلا لحظات حتى كانت عدوى الضحك تطوِّح بالخاص خالداً. لكنه عندما وجد القسرة في نفسه على أن يوقف الضحك، لم تستطع هي، فعاد بضحك، توقفت ثانية، ولم تتوقف، وعندما أدرك أن سميةً في طريقها للجنون.

حين توقفت ضحكها أخيراً رغباً عنها، بسبب ذلك التشنج الذي أطبق على فكَّيها، لم تستطع نطق كلمة واحدة لمدة ثلاثة أيام. وحتى لا تعود ثانية لعذاب الضحك ذاك، لم يجد الحاج خالد وسيلة أفضل لإنقاذها، سوى أن يُحكم إقفال فكَّيها بربطها وقمة رأسها معاً.

في اليوم الرابع حُلَّت العقدة بنفسها، ولكنها بدل أن تضحك راحت تبكي، وحين قال لها الحاج خالد: كنا تعبنا من الضحك، شو اللي ناوية تعمله فينا بالعياط؟ فقالت له إنها كانت تنتظر أن تكمل فرحتها بمحمود فإذا بناجي هو الذي يريد أن يتزوج.

- يا مرأى محمود عطب، والمهم أن نزول هذه القيمة التي بينه وبين غطيته، حتى لا يقاجتنا بطلب الزواج من سواها!!!

- يا خوفي ها الحكي يصير؟

- فاذ لا يصير إذا بقيا على هذه الحال؟

- إلّا هذا!!!

خضع الحاج خالد كما خضعت سمية، ولكن الخوف عاد ليطرق القلوب من جديد، حين سألت سمية: وهل قال لك ناجي من هي منحوسة الحظ التي يريدنا؟

عند ذلك ابتسمت فاطمة ابتسامتها الخبيثة التي يعرفونها، والتي لم تفارقها حتى بعد زواجها.

- قبل أن توجعك ابتسامتك، من الأفضل أن نخبرنا باسمها.

- وأنا شو عرّفني!!

صحون سمية

.. فجأة راح يطالب بالزواج، رضى الحاج خالد لطلبه زوجته قبل محمود، ولم يكن هذا لائقاً، حيث على الكبير أن يتزوج أولاً ثم يأتي بعد ذلك دُور الأصغر فالأصغر.

حين تذكر سمية ذلك اليوم تفرق في ضحك يُسيل دموعها.

أسكت ناجي عدداً من الصحون وبدأ بتكسيرها، انتبهت، نهضت بسرعة محاولة التقليل من خسارتها المحتملة، سألته: في حد مستحي طلب منك تعمل اللي خجلان بعمله!!! ثم فكرت في جملتها، فأضافت: محمود إله غطيته أصلاً، ليكون مستحي يقول زوجوني؟ وألا ليكون موسى!!!

اتدفع بمطم الصحون أكثر فأكثر.

صرخت: يا حاج خالد. إلحقتي.

كانت قد أحاطته بلراعها القويتين، وفي يده أحد الصحون: أتركي، وإلا سأكسره. كان يهددها.

نظر الحاج خالد فرأى الحطام يغطي الأرض.

- شو في؟

- إلحق أولادك، خجلتين يقولوا بدنا تجوز، ويطلبوا من ها المنعوص يكسر الصحون. ثم تلتفت إلى ابنتها وتشد عليه: ولك يا منعوص مين اللي طلب منك تعمل إللي بعمله!!!

- أنا؟

- مين؟

- أنا اللي بيدي التجوز!!

- إنت؟!!!

كانت فاطمة، التي سكنت في بيت جديد مجاور لبيت أبيها، تعرف أنه يذهب إلى حارة الحاج صبري التجار، وأن كل غياب له عن هنا، يكون حضوراً هناك. حاولت أن تستدرجه أكثر من مرة، لكنه رفض أن يعترف، راحت تراقبه، وعندما رأت أنه يطوف حول بيت سالم الدقر، عادت تلطم خديها وهي تصيح: أي واحدة إلا هذه الهيلة!

فنسألهما: ومن هي الهيلة التي تتحدثين عنها؟

في النهاية اعترفت لها فاطمة: الهيلة!! خديجة!! بنت سالم الدقر!!

يا خراب بيتك يا سمية. الهيلة بنت سالم الدقر!!

حين عاد ناجي بعد غياب طويل، وجد الجميع بانتظاره، وإلى جانب الحاج خالد جلست سمية وقد جمعت كل ما لديها من صحون يمكن أن تكسر في جحرها.

تعال يا غوي، يا حبيبي، كسر الصحون كما تريد. أما أن أزواجك من خديجة الهيلة فهذا لن يكون.

ومن قال إنني أريد أن أتزوج من خديجة الهيلة؟

ولماذا تحوم طوال الوقت حول بيتهم وتضضخنا؟ سأله الحاج خالد.

ارتبك قليلاً، فصرخت فيه سمية: انتفضل فهُنّا.

قال: كنت أريد مهرهم الشهاء.

يا خراب بيتك يا سمية. بذلك تتجاوز مهرة عن حق وحقيق!!!

أريد أن تشتروا لي إياها.

ولماذا لم تقل لنا اشتروا لي إياها.

خفت أن ترفضوا.

تقوم تكسر الصحون، صحتي يا ضلالي! صرخت فيه سمية.

خفت ترفضوا وأنا بحبها!

بتحبها. شو بتحبها، يعني المهرة؟! إنت صاحي وإلا التجنيت.

صرخ في النهاية: بالليح، بالعاطل بدي إياها.

آخ. قالت فاطمة.

آخ في عينك. قالت لها أمها. أهذا وقته!!!

إيها توجعني. إيشامي توجعني. قالت فاطمة.

- والله إنت السبب، تعرفين من البداية ولا تخبرينا. ويختها شمية.

أرسل الحاج خالد في طلب محمد شحادة، قال له: اذهب وأسال سالم الدقر عن الثمن الذي يريد لهذه المهرة. وحين عاد قال: هذه المهرة ليست للبيح.

- ما الذي يعني حين يقول ليست للبيح؟ هكذا أخبرني.

- قال هذه مهرة خديجة، وحين يأتها النصب ستخرج إلى بيت زوجها على ظهرها!!

- وما الذي يقصده بذلك؟

- لن تكون المهرة إلا لن يتزوج البنت!!

- لهذا سمعتمهم يقولون إنه يذلها أكثر من ابنته، إنه يعرف إذن أنها باب المستقبل لهذه الهيلة. قال الحاج خالد.

- هذا ما جاءكم.

- يرضيك تنبهدل بهذه الطريقة، ومع مين، مع عشيرة الحاج صبري التجار؟ قال له والده.

- لا يرضيني ولكنني أريد تلك المهرة.

- وهل تعرف ما هو شرطهم؟

- أعرف.

- وهل ترضي أن تتزوج خديجة الهيلة؟

- ليست هيلة كثيراً!!

عندها أطلقت سمية ولولائها، وراحت تنوح ونحوح: الولد إنجن.

- أريدها، يعني أريدها. بخديجة أو دون خديجة.

حاول الحاج خالد مرة بعد أخرى. أرسل لسالم الدقر: أطلب ما تريد.

فرد سالم: في هذه القضية ليس هناك سوى جواب واحد.

- وما رأيك بأن تشتري لك مهرة أفضل منها؟ قالوا لناجي.

- هذه المهرة يعني هذه المهرة. رد.

كان ناجي يظن أنه وقع في حب الكحيلة، لكن ذلك كان مجرد وهم، فما إن رأى الشهباء تظاً أرض الغادية، حتى تحولت الكحيلة إلى كائن غير مرئي، كائن لم يكن، ولن يكون.

تحل ناجي، لم يعد يقرب الطعام، انكمش فأصبح بنصف حجمه الذي كان. تأملته تمام بحزن، لم تعد فاطمة تبسم، وصمت الحاج خالد طويلاً فلم يعد يكلم أحداً، وذات مساء اقترت سمية من زوجها وقالت له: خاف الله إني كنت أهبل منها قبل أن تتزوجني!!

- ما الذي تقولين يا امرأة!!؟!!

وحبّره أنها امتلكت الجرأة على إعادة جلستها من جديد.

- خاف الله إني كنت أهبل منها قبل أن تتزوجني!!

لا أحد يعرف سرّ ما حدث، فقبل أن تنتهي أيام عخطبتها، كانت خديجة قد أصبحت شيئاً آخر تماماً، حتى لقد قيل: إن فقدانها الأمل بالحصول على عريس، كان سبب هبلها، أما وقد تحقّق الأمر فخديجة اليوم، غير خديجة الأسس أبداً، في حين أرجع كثيرون سبب هبلها إلى كثرة البيض الذي كانت تأكله!!

لكن ما أوشك أن يبدد عقلها من جديد، فهو ذلك الشغف الذي يبدىه العريس لرؤية الشهباء، أكثر مما يبدي من شغف لرؤية العروس.

ما إن يجلس حتى تلعب عيناه للبحث عن مهرته، وحين تادت أم خديجة طالبة منها الدخول في أول زيارة هم: لا تلجئي يا عروستنا. تعالي. توقع ناجي أن تدخل الشهباء من الباب، لا خديجة.

أقول الشهباء

- أفضل ما في الزمن أنه يمرّ بسرعة، وهذا أسوأ ما فيه أيضاً. قال الحاج خالد.

لكن ناجي لم يفهم كلمات أبيه.

حين خرجت خديجة على ظهر مهرتها. لم تكن الأرض تشع لفرحة ناجي، الذي انتابه ذلك الإحساس العميق: ستكون الشهباء في. في حين كانت التغيرات الكثيرة التي طرأت على خديجة قد أزلت جذّة ذلك الارتباك الحجول الذي أطاح بالحاج خالد طيلة فترة الخطوبة.

- لم أعطى حين بقيت مصرة على أن أسميه ناجي. قالت سمية.

بعض فترات الخطوبة كانت تستمر لسنوات طويلة، الحاج خالد اكتفى بستة عمرا خطبة ناجي.

لكن ناجي الذي راح يتقلّب من نفسه للوصول إلى الشهباء، قلب الحسابات كلها. ولذا بات على الحاج خالد أن يختم الفصل بكلمة قاطعة، اعتصر جبينه بأصابع يده اليسرى وهو يحقّق في ولده وقال: الزواج لن يكون في موعده الذي حددناه!

ارتبك ناجي، أوشك أن يُغمى عليه وسط الرجال في المضافة. حيث يجتمعون كل ليلة هناك.

- الزواج سيكون قبل موعده بسبعة أشهر. أوضح الحاج خالد.

عادت الحياة تجري في شرايين ولده، وتدقّ الدم ثانية إلى وجنتيه.

من جميع الجهات جاء الناس، لحضور العرس، ولم يترك الحاج أبو سليم والد زوجة الحاج خالد الأولى (أمل) هذه المناسبة تمر، جاء من القدس، قال للحاج

خالد: لا أعرف لماذا يتناهى ذلك الحس الغريب منذ أن سمعت بأنك ستزوج أحد أبنائك، بقيت أشعر طوال الطريق أنه حفيدي وأنّ قادم لهنّة ابنتي!

- الله يرحمها. قال الحاج خالد. وأعاد ثانية: الله يرحمها. أنت تعرف أنني بمثابة ولدك وسيظلّ أبنائي أحفادك.

- الله يرحمها، لم يكن اسمها أمل فقط، كانت الأمل.

حلت النساء والصبايا طعام العرس فوق رؤوسهن، باتجاه المضافة وهن يغنين:

يا زريف الطول ومن هونا ترقى

ورقبته شبرين من تحت الحلقى

والصدر بستان وجبينه عبق

لو نادى من بعيد قلبي يسمعه

يا زريف الطول ما احلى لعلته

والشعر لشقر عا الصدر ذلك

لوشايفك لجوز طلق مرته

ويضيق إف ها البر وعقله مش معه

ويقين يغنين على أبواب المضافة حتى انتهى الرجال من تناول طعامهم، كما يحدث دائماً.

كان العرس للبلد كلها، ولذلك كان الطعام كافيًا للجميع.

الشيء الذي كان يجيفهم حصل... فقبل أن يتناول طعام العشاء المعدّ للعرّوسين، وقبل أن يُنمّ ليلة زفافه، قال ناجي خديجة: سأخرج قليلاً وأعود.

موحياً إليها أنه ذاهب لقضاء حاجة مُلّحة!!

فاجأته أمه أمام الباب وأمّ خديجة اللتان تنتظران نتائج ليلة الدُّخلة: على وين إنشا الله!!

- سأقضي حاجة!!

- أهلاً وقته!!؟ قالت له شُحية من بين أستاذها.

- يا خوفي... قالت أم العروس، وقبل أن تكُمّل قاطعتها منيرة.

- لا اطمئني!!

اتسلّ من بينها وغاب.

- كانت الهداية لم تزل تتندر بحكاية زواج البرمكي من زوجته، فقد تزوجها وهو في الحادية عشرة من عمره، وفي ليلة العرس قال أريد هريسة، وأصرّ على ذلك، لن أدخل مع العروس إلا إذا أحضرتم لي هريسة، فذهبوا ليلاً يبحثون عنها في الرملة وعندما عادوا ظهيرة اليوم التالي وجدوه ينتظر الهريسة، لكن ذلك لم ينفع أبشاً، فقد ظلّ يلعب في الحارة إلى زمن طويل. وحين كانت تعود به من مكان بعيد، بنام على كتفها لفرط النعب وفي إحدى المرات دقّ أحدهم الباب وسألها:

أين رجل البيت، وكان قائماً على كتفها، فردّت: إنه نائم. هل تريد أن أقول له شيئاً عندما يصحو؟ إلا أنه حين تدقّق (هريسة) عروسه بعد ثلاث سنوات قال: الله.

إنها أطيب من الهريسة!!

راح قلب سمية يتفاخراً ما بين قدميها وحجر عبا. أحسّت أنه تأخّر أكثر مما يجب، كل ثانية عُمر كانت في نظرها غياباً كاملاً.

تركت أمّ العروس في مكانها وقالت: لحظة وأرجع لك!

سارت إليه والثقة من أنها لن تجده إلا في مكان واحد، وصلت. كان يحضن رأس الشهاب ويقلّ وجنتها.

- يا خراب بيتك يا سمية، ما الذي تفعله؟

- جئت لأراها.

- وتترك بنت الناس تنتظر هناك. اذهب قبل أن أمّ الناس عليك. بما فضيحتك يا سمية!! راحت تقول لنفسها.

الشيء الغريب الذي حدث بعد ذلك، أن ناجي الذي تدقّق حلاوة جديدة لم يكن يتصوّرها، لم يعد يغادر البيت، اتزوع في القراش وتشتّب به كما لو أنه أحد خيوته. لم يكن يظن أن هناك عالماً مثل هذا، عالم خديجة التي فتّحت كسوردة وراحت تزوم أكابها الشهاب بدلاً من تنقبه سمية، ولولا أن خديجة عروس جديدة لأسمعتها كلمتين ناشتين.

لم يعد يرحم نفسه، لم يعد يرحمها. يانت قدمها تترّجحان، كقدميه، كلما حاول قطع المسافة بين غرفته والغرفة الطويلة التي تتناول فيها العائلة طعامها عجمعة.

ويعد أقل من ثلاثة أسابيع قالت له خديجة: لماذا لا نذهب لتطمئن على الشهاب!! وظلت تردّد عبارتها تلك إلى أن حفيّ لسابها. وبعد انتهاء الشهر الأول أسرّت

العروس لأهلها، فقامت الثانية وأسرت لأمه: يا سمية يا حبيبي البنت مش حديد!!

- أنت تعرفين، شباب!!
- يا حبيبي شباب، مش شباب، بقول لك البنت مش حديد!!
- ساجد حلا لهذا.

مرَّ سرب من طيور الدَّوري على ارتفاع منخفض، تابعته شُمية حتى اختفي، أخذت نفساً عميقاً، وراحت تتأمل كل ما حوفاً، أدركتها أنها منذ وقت طويل لم تلحظ شجرة البرقال. كيف يحدث هذا؟ سألت ولم تستطع أن تجيب. ارتفعت بنظرها إلى الأعلى من جديد متوقّعة مرور سرب آخر، لكن السماء التحاسية ظلت خالية، انفتحت إلى نايجي وقالت: تعرف يا نايجي يا حبيبي، لقد أعطوك المهرة والعروس، وهم يقولون الآن، ما دمّت رضىت بالعروس، فلنعدّ لهم الشهباء التي لا تلتفت إليها. مهرتهم غالية عليهم كابنتهم، وإذا لم تنبئ فسيأخذونها منك، قلتُ نعم أو قلتُ لا.

- وبأي حق يستطيعون أخذها؟
- لأنك نملها، ولن يمضي وقت طويل قبل أن تموت بسبب الإهمال.
- هكذا إذن!
- نعم، هكذا إذن.
- خلاص. أعيدنا إليهم!!

فقدتُ سمية هدومها دفعة واحدة: إلّا هذا! هل جئنت؟ ماذا سيقول الناس. نايجي ابن الحاج خالد لم يستطع أن يقوم بواجبات مهترته. يا عيبك.

لكن الأمر تغير حين وجد نايجي أن عليه أن يعمل بيته بنفسه، وأنه لم يعد ذلك الشاب الذي يسير حزناً باكئاً خفيفاً. قال له الحاج خالد: الحمد لله. مبارك هو البيت الذي يخرج منه بيت. وظل يردد ما حتى أدرك نايجي أن الزمن تغير. لكن الشهباء لم تعد تربع على ذلك العرش الذي ترئعت عليه ذات يوم.

سحابة سوداء

من بعيد رأوا ذات نهار سحابة سوداء تتقدّم، لم يسبق أن رأوا مثلها من قبل، واحتاروا: هل هي عاصفة أم غمامة؟

اقتربت، أصبح باستطاعتهم أن يسمعوها صوتها، اقتربت من الأرض أكثر، أصبح بإمكانهم أن يروا سماء صافية فوقها، تصاعد صوتها أكثر فأكثر، صاح محمد العسليتي: جراد يا ناس.

هبوط الجحيم على الأرض كان يمكن أن يكون أرحم؛ في لحظات اختفى كل شيء، في لحظات فقط، تحت ذلك اللون البني المشوّد لملايين الجراد. من كل النحاء اندفع الناس يحاولون تحقيق معجزة لا يمكن تحقيقها، صرخوا، طرّقوا الأبواب ببعضها البعض، لتوحوا بقمصانهم، لتوحث النساء بأفطية رؤوسهن، تقاتل الأولاد محاولين سحق ما استطاعوا بأرجلهم العارية، وعندما هضم الشعب وأدركوا عبثية محاولتهم، جلس كثير من الرجال يبكون حقولهم ويسألونهم.

قبل وصول الجراد، كانت الحكومة البريطانية قد أرسلت رجال الضرائب في كل الاتجاهات، كان الزرع قد نضج، سألوا كل صاحب حقل عن مساحة أرضه المزروعة، حدّدوا قطعة صغيرة، مساحتها مائة متر مربع، حصصوها، وأخرجوا متوجهاً، ثم اعتبروه مقياساً لحساب منتوج كامل الأرض.

حين عاد موظفو الضرائب بعد أسابيع، وبدأوا بتحديد الضريبة المترتبة على كل صاحب حقل، أدرك الناس أن المصيبة قد وقعت، إذ لم يكن بين أيديهم شيء، فاضطر البعض لإخراج محصول السنة السابقة من المطامر ليدفع ما عليه، ومن لم يكن لديه قمح ومعه نقود، اضطر للذهاب لشراء القمح من السوق. كانت شركة سبيل البريطانية تشتري وطل القمح بستة قروش وسنة مليم في حين يبيعه لصاحبه إذا ما احتاجه بثلاثة عشر قرشاً.

- من لا يدفع مستأجر أرضه.

كان فايز ابن العزيزة يعرف أن كل ما يملكه هو طن قمح وطن ذرة، قال لأمه قفي بياب البيت، وإذا ما حاول موظفو الحكومة الدخول قولي لهم إن هناك امرأة تلد في الداخل!!

ذهبوا وعادوا وذهبوا مرة أخرى وعادوا، دون أن تسمح العزيزة لهم بالدخول. عصراً عاد فايز من قرية (كزازة) بعد أن اشترى طن قمح بثلاثة عشر دينارا وطن ذرة بالسعر نفسه.

عاد موظفو الحكومة، فأخذوا ما اشتره وما كان في البيت، بعد أن قنّروا ثمن الطن الذي اشتره بسبعة دنائير لا غير.

- كان هذا الوحيد هو ألا تضيق الأرض.

في ذلك العام أدركوا أنهم عادوا إلى الوراء عشر سنوات. وأصبح على الرجال أن يفتشوا عن لقمة عيشهم خارج حقولهم وبساتينهم وبياراتهم، سمعوا أن الإنجليز بحاجة للعمال لأنهم ينوون بناء معسكر في (وادي الصرار)، اندفع الكثيرون منهم إلى هناك.

بين الحرث والخصاد تراكمت الأيام وبات موظفو الضرائب ينتظرون المحاصيل على البنادق قبل وصولها للييوت. وزاد الأمر سوءاً قيام الحكومة البريطانية بوضع يدها على كثير من أراضي القرى المحاذرة. أحاطتها بالأسلاك الشائكة، امتلأ القضاء بضجيج الآليات ودخانها الأسود الذي لم يروا سحاباً أسود مثله، وقبل أن تنتهي أسلحتهم، التي لم تتوقف، عن سرّ خطوبها الجديدة.

قيل لهم: الإنجليز يتون معسكراً.

- معسكر؟

تدافع أهالي المنطقة باحثين عن عمل لهم، كان الفقر يزداد، وما تنتجه الحقول لا يكفي لاستمرار الحياة.

لم يكن ناجي قد تجاوز السادسة عشرة، قال لأبيه: سنذهب إلى هناك كما يذهب الناس ونعمل كما يعملون.

- وماذا يقولون، ابن الحاج خالد يعمل في معسكرات الإنجليز!!

- كنت أفتنى ألا أذهب، ولكن للضرورة أحكام بابا.

نظر إليه بحزن: أتريد ذلك فعلاً؟

- محمود في إفا، وليس هناك غيري وغير موسى. والأوضاع كما ترى!

حين وصلوا إلى الممسكر، وضعوهم في صف طويل، جاء رئيس العمال؛ كان يهودياً واسمه أبو الذيب.

بدأ باختيار الشباب الأقوياء، وعندما انتهى استدار عائداً.

- ولكننا جئنا لكي نعمل، قال ناجي.

توقف أبو الذيب في مكانه، يفكر في جراءة صاحب ذلك الصوت، استدار. من الذي تكلم؟

- أنا، قال ناجي.

- ومن سمح لصغيرين مثلك أن يأتيا إلى هنا أصلاً؟

- هذا أخي، ولستنا صغيرين، ثم إن لدي زوجة لا بد أن أعوها!

- لست صغيراً وفهمتها!! ولكن كيف يكون لك زوجة!!

- يكون لدي زوجة ما دمْتُ لست صغيراً. لقد قتلها أنت بعظمة لسانك!!

- ذكي!! ولكنك لن تستطيع بذلك أنك هذا أن ترفع طوية أو تحفر حفرة.

كان ناجي يبدو أقل من عمره بكثير؛ تأمله أبو الذيب من جديد وقال: كما أننا لا نستطيع أن نأخذ أخوين، باستطاعتنا أن نأخذ واحداً فقط، هذه هي سياستنا هنا.

- خذوني إذن. أنا الكبير. قال موسى.

- وهل أنت متزوج؟ سأله أبو الذيب.

- لا.

- إذن سنأخذ المتزوج لأن وراءه مسؤوليات.

كانت أصوات الآليات تصمُّ الأذان، ضجة لم يسمعوها مثلها من قبل، أما الغبار، فكان يطلق سحباً داكنة لا تلبث أن تتجشع في سحابة واحدة تصل الأرض بالساء حاجبة الشمس تماماً.

إلى إحدى التكتات التي يتم بناؤها أشار له أبو الذيب أن يذهب، حين وصل قال العمال: وما الذي يفعل هذا هنا؟

وقبل أن يجيب أحد، ردّ ناجي: مثلكم، أصعل مثلكم.

لا أحد يمكن أن يؤكّد إذا ما كانوا قد حاكوا مكيدة له أم لا حين طلبوا منه أن يصعد، وما إن أصبح فوق السقّال حتى قالوا له: خذ.

أسك باللقّة المثلثة إسماً، ليرفعها، سحبه، فإذا بقدميه تتخبطان في الهواء دون جدوى وقد تحوّلتا إلى جناحين لا تنفع منهما، وقبل أن يهطل الأرض كانوا قد تلقّفوه وهم يضحكون.

- سليمة. جاءت سليمة. راح يردد. واستدار ليصعد حيث كان، لكن المراقب الإنجليزي الذي يتابع العمل ناداه.

- من الذي سمح لك بالعمل هنا؟

- أبو الذئب.

بعد لحظات ناوله ورقة وقال له: اذهب إلى أبو الذئب واعطه هذه الورقة.

- مثلاً يلعب المرء حاملاً أمراً يقطع رأسه ذهبت. قال ناجي لأبيه بعد أيام. لقد نظرت إلى الورقة ولم أعرف ما المكتوب فيها. كان يجب أن تعلمنا الإنجليزية يا شيخ حسني!!

- كان عليك أن تتعلّم العربية قبلها يا فصيح!

في الداخل، كان أبو الذئب يحسّي الشاي. ناوله ناجي الورقة، قرأها وراح يهز رأسه: أم أقل لك. إنك لن تنفع هنا، هل ستحتلنا دمك أيها المتزوج!!

- أنا أستطيع العمل، ولكن لم أعد عليه بعد.

- اجلس.

جلس ناجي، فقال له أبو الذئب: صب خالك كاسة شاي.

صهها. لكنّه لم يلمسها. قال له: اشربها.

شربها.

كتب أبو الذئب ورقة وناولها إياها: هل ترى ذلك الشارع الذي يُعبّدونه؟؟ هزّ ناجي رأسه وهو يقول لنفسه: ما هذا السؤال يُظنني أعمى؟

- وهل ترى تلك المدلّحة!!

هزّ ناجي رأسه مرة أخرى، وقال لنفسه: ومن لا يرى مدلّحة بحجمها!!

- وراء المدلّحة هل ترى ذلك المبنى!!

هزّ ناجي رأسه وهو يقول لنفسه: وكيف لا أرى مبنى كهذا؟

- تذهب إلى هناك، وتُعطي هذه الورقة للخوارج.

ذهب، أعطاه الورقة، قال له الخوارج: البعتي.

ظل يسير به إلى أن أوصله إلى ذلك الكوخ الجانبي، فتح الباب، قال له: هل تعرف كيف تُشغّل بابور الكاز هذا؟

- لا، لا أعرف. قال ناجي.

- لا تعرف إذن. وراح يهز رأسه.

قرص الخوارج إلى جانب البابور، قال لناجي: انتبه لما أقوم به.

أشغّل البابور، أطفأه، أشغله وأطفأه، أربع مرات، ثم التفت إلى ناجي وسأله: هل تعلمت!!

- نعم تعلمت.

- أشغله إذن وأطفئه لأرى.

أشغّل ناجي وأطفأه.

قال الخوارج: خلاص. لقد وجدنا لك العمل المناسب. والآن نريد تجهيز الشاي. تضع الماء إلى هذا الحد في الإبريق، وتتركه حتى يغلي، ثم تضع ملعقة كبيرة من الشاي، وتتركه يغلي قليلاً. أما بالنسبة للشكر فلا تضع شيئاً. كل واحد سيضع كمية السكر التي يريد. فهمت!!

- فهمت.

- كان ناجي يعرف أن القرية لم تكن تملك قبل الفتحاق القهبيين سوى بابور واحد، ولم يكن مهتماً في أي يوم مضى ليعرف الطريقة التي يعمل بها، كان البابور لعائشة اليازوريّة، وكان لدى البرمكي كاسات وإبريق لا مثيل لها، ولا يمكن مقارنتها إلا بما تبشّر من صحنون جدته مشيرة، وفي ليلاات الصفاء النادرة كانوا يجتمعون، كنوع من الاحتفال، بابور عائشة مع إبريق وكاسات البرمكي لتكون تلك السهرة واحدة من سهراتهم العرمرمة التي لا تنسى، في وقت لم تكن هناك سوى كاسات الفخار ومواقد النار. أما من أتبع له أن يزور المدن القريبة فقد كان يعرف أن الحياة هناك (غير شكل) وكل ما فيها بوابير. من بابور الكاز حتى الكهرياء التي تحيل ليل الشوارع إلى نهار.

بعد ساعة قال له الخوارج: أنت لن تحضي الوقت كلّهُ في إعداد الشاي لنا. ساعلمك شيئاً آخر.

ظلّ يسير أمامه إلى أن وصل إلى المدلّحة، قال له: هذه هي مسؤوليتك الثانية.

ارتبك ناجي: وما الذي يمكن أن أفعله؟

- لا عليك، هذه بحاجة لأن تشرّب أيضاً!! ولكن ليس الشاي.

في الساعة التالية تعلم ناجي كيف يضع الحطب فيها لتحميتها، وكيف يضع الماء البارد في الرديتر لتبريدها.

قال له: كله تمام؟

فأجاب ناجي بسعادة: كله تمام.

لكن ذلك الوثام الذي تحقق كاد يمضي إلى غير رجعة، حين وضع ناجي رأسه في رأس قائد المعسكر كله وقرر أن يتحذاه!!

جسر العاشقين

أحسّت سمية بأن عفاف ستطير من يدها، حاولت أن تصلح بينهما، دافعة أم عفاف للتدخل لإنهاء المشكلة، أمها التي قالت لها: محمود سيكون صحفياً كبيراً، ولن نجد أفضل منه. يا بنت إحقلي.

لكن عفاف نفسها قررت ألا تتراجع.

أمام هذا الأمر المفاجئ، قررت سمية استخدام قوى الغيب لحل المشكلة، مهما كلفها الأمر. طلبت من موسى أن يأخذها إلى مدينة الرملية، وهناك التقت أحد الشايخ الذي أعد لها حجاباً أكد أنه سيحل المشكلة من أصولها.

قال لها: تدفين الحجاب تحت عتبة بيت خطيبته، وحين قرأ العروس من فوقه، وكذلك أهلها، فإن الشر والغضب والعداء المحبة ستتقلب إلى عكسها مع مرور الأيام.

كانت مهمة سمية الأصعب، هي وضع الحطة الناجحة التي تستطيع من خلالها الوصول إلى العتبة والحفر ودفن الحجاب.

- شو بلك بطول السيرة!!

استطاعت أخيراً وضع الحجاب في المكان المحدد، بعد تسللها ليلاً، والانحباب بسلام إلى بيتها، حيث ستبدأ بترقب النتائج.

ولأن الشايخ كان يريد أن يحل المسألة من جذورها، لم ينس العريس نفسه: تضعين هذا السحوق في شاي ابنك، مرة، مرتين، ثلاثاً، حسب ما تستطيعين.

- الشاي جاهز يا حبيبي. قالت سمية لابنها العائد ليلاً متعباً من ياقا، صبيحة اليوم التالي.

- أنا تعب. اتركيني أنام.

بعد قليل عادت إليه، وأعادته: الشاي جاهز يا حبيبي، شو ها الكسل!!

نفس محمود، بحث عن نظارته، وجدها، اعتدل في فرشته، شُتنداً ظهره للجدار، وضعت له الشاي إلى جانبته، امتدت يده، ارتشف قليلاً منه، لم يحميه، وقف، ودلق الشاي في الحوض.

جُثت سمية، بدأت بلمط خدودها؛ لماذا تعمل هذا في؟!

- ما الذي حدث؟! كاسة شاي، إنها مجرد كاسة شاي يا محمود!!

وعندما هدأت أخيراً قالت له: خلاص، سأعتك، سأحضر لك شاياً جديداً.

- لا. أنا سأحضر الشاي هذه المرة. قال لها.

لكنها أصرت. ذهبت وجَهَّزت شاياً جديداً، حين عادت وجدته يحلق ذفته، قالت له: سأضع لك الشاي على حافة النافذة. تشربه براحتك!!

وخرجت. لكن عينها كانت تنتظر المصير الذي سنؤول إليه كاسة الشاي.

بعد قليل قفزت إحدى دجاجاتهم إلى النافذة، صرخ بها محمود: كش.

هربت الدجاجة، لكنها أخذت في طريقها كاسة الشاي التي تحوَّلت إلى حطام.

جلست سمية تبكي حلقها، ولكي تكتمل مصيبتها على الطرف الثاني من جسر العاشقين، دوى رعد واشتعل برق، وفي لحظات تحوَّلت السماء إلى نهر.

كانت القرية قد خرجت قبل أيام عن بكرة أيها، صلب الرجال صلاة الاستسقاء، ودارت النساء والأطفال في الشوارع، طالين المطر من السماء رحمة بالأرض وأهلها، أمسكت أم الفار طاحوتة يد وراحت تلقي فيها بعض حبات القول، وأمسكت العزيزة ديكا، ضربته بيدها كي تدفعه للصباح فصباح، وكان الجميع يغتفون:

يا ديك يا أبو عرف أزرق ريتك في المية تغرق

يا إم الغيث غيثنا بلي شيات رايعنا

راحت إم الغيث تغيب رعدو ماجت إلا الزرع طول القاعود

راحت إم الغيث تحيب المطر ماجت إلا الزرع طول البقر

تدَلَّقت المياه في الشوارع، فوق السطوح، وفوق التلال، التمعت حجارة التماسل كالقناديل في الليل، وبدا الأمر لسمية حين نظرت إلى الوادي أن السماء تظلم منذ أسبوعين دون توقف.

تذكَرت الحجاب المدفون تحت عتبة بيت عفاف فتصاعد بكاءها.

- صناعتي، كانت السماء أيامها تستجيب لعنائنا أكثر مما تستجيب لصلواتنا هذه الأيام!!

خرجت أم عفاف لتفتح قناة الماء الصغيرة كي يسيل الماء الذي تجتمع داخل حوشها خارجاً، حاولت مرة مرتين بالمعصا الصغيرة التي في يدها، وفجأة أحسَّت بشيء يعيق عملها، اتحت وأخرجته بيدها، تأملته، ارتجف قلبها، أحسَّت أن الذي في يدها حجاب وأن وجوده هنا ليس مصادفة.

لحت سيل الأمطار التدفقة راحت تركض إلى أن وصلت بيت الشيخ حسني، طرقت الباب: خير إنشا الله. راح برد.

طلبت منه أن يقرأها ما كُتب فيه، فوجد أساء عفاف، محمود، واسمها هي وأساء أشخاص من عائلتها. زجَّت الشيخ حسني ألا يقول شيئاً، ذهبت وأحرق الحجاب، وبعد أن رائه رماداً، حلت الرماد، وترفته في الريح، بحيث اطمانت أنه لن يستطيع أن يقوم بأي مهمة أعد لها. انتهت مهمة سمية إلى فشل كامل على الجبهتين.

حدَّقت أم عفاف في السماء رأت طيرين يعبران السماء، حامسا قليلاً في سماء القرية، وقاما بعدة حركات استعراضية تسحر القلب، هابطين صاعدين، قبل أن يواصل طريقهما نحو الغروب. فجأة أحسَّت بأن عليها التحرك: خطيك جاء من يافا اليوم كما سمعت. وعلينا أن نحل هذه المشكلة.

رفقت عفاف: هو الذي بدأ، وعليه أن يُهيئ المشكلة بنفسه إذا أراد إنهاؤها. لن أنكر أمامه أبداً!

لكن الأمر تغير مع تدخُّل عبد الرحمن خال عفاف، الذي زار محمود في يافا في مهمة لا يمكن أن يذلل فيها إلا أنها مهمة خاصة: ويعين معاك! إنها مجرد بنت صغيرة، لقد قلت بلسانك أنك ستريها على يدك. لا يمكن أن تكون قاسياً معها هكذا، قليل من السياسة سيفيد. ثم سافداً. لم تحفظ الدرس!! هذه بنت عليها مسؤوليات كثيرة في البيت وتعمل من الليل ليل، وتريدنا أن نحل المسائل الحسائية ونقرأ القصص.

غضب محمود وقال له: أنت رجعي!!

تساجرا، واتسحب الحال وهو يصيح: أنا رجعي!! أنا رجعي!!

- عدة أشهر أخرى مرّت، وذات يوم وصل محمود إلى الهادبة.
- طلب منهم أن يخطبوا له إحدى بنات باقا، فقالوا: وعطيتك؟
- خطيتي خلاص. انتهى أمرها.
 - ومن التي تريد أن تخطبها؟
 - بنت، تكتب معي في الجريدة.
 - بنت مدينة، وتكتب في الجريدة. صاحبت سمية بغزع.
 - وما لها بنت المدينة؟ إنها أفضل من هذه الجاهلة.
 - هل أرسلتاك لتتعلم كي تعود وتشتبنا كلنا. قال له الحاج خالد غاضباً.
 - استغفر الله. لم أكن أقصد.



شاع في البلد أن محمود سيخطب بنتا من باقا، وأصرّ أن تذهب أنّه إلى بيت عفاف وتطلب إعادة الساعة والخاتم والعقد الذهبي. لكنها بدل أن تطلب ذلك، حاولت أن تُقنع الحطية بأن تفك إضرابها وتعود عن مقاطعتها لمحمود، مقاطعتها التي طالّت أكثر مما يجب، ولأن الأمر أصبح الآن لا يحتمل، فقد أصبح الجميع يلعبون بالنار!

عند ذلك، قررت عفاف اتخاذ خطوة التراجع الكبيرة من جانبها.

صبيحة اليوم التالي قالت لأهلها: بللا نזור دار عمي الحاج خالد!

لم تصدّق الأم أذنيها، وما إن تجاوزتا عتبة بيت الحاج خالد حتى انتهت كل شيء. عاد قلب محمود لقوضاء التي نصيبه كلما نظر إلى عفاف، وعادت عفاف إلى ما كانت عليه، الفشاة التي يغرق جمالها كل ما رأى من مملات السيتا، وعلى رأسهن غريتا غاريو، ممثلة المفضلة.

عصا الجترال

قبل شروق الشمس بقليل، كان باستطاعة كثيرين أن يستمتعوا بثلث الفوضى الرائعة التي تُحدثها العصفير بتنوع غنائها على أغصان الأشجار المحيطة بالمعسكر، تحت سماء ذهبية وفي قلب سكون أبيض سيّيد بعد أقل من عشر دقائق.

- غود مورتنغ مستر غرين. وردّها أكثر من عامل عندما مرّ المستر ريتشارد غرين.

لم يكن قد حدث أن رد على تحيتهم بحية مثلها: كان يواصل سيره بخطى طائوسية، عصاه تحت إبطه، ونظراته التي تنطع للأعلى تجعل من يشاهده يظن أن العمال يحفرون ويتون اللّشم والمخازن والاستحكامات في السماء لا في الأرض. هكذا وصفه ناجي بعد عودته للهادبة في نهاية الأسبوع.

وجد ناجي نفسه شتّراً بعد اليوم الثاني.

مرّ بجانب المستر غرين، ألقى عليه التحية: غود مورتنغ مستر غرين.

لم يرد.

ابتعد بنياشته، التي عرفوا فيها بعد أنها من حصاد الحرب العالمية الأولى، كما لو أنه لم ير ولم يسمع شيئاً.

أزعج الأمر ناجي كثيراً، وقد بدأ يظن أن عاملا تناط به مسؤولية وضع الخطب في المدحلة وسقايتها وإعداد الشاي للشّرفين، لا يجوز أن يتجاهله أحد بهذه الطريقة.

في صبيحة اليوم الثالث، بحث عن عصا، أبصر يد فأس، كان طوقها يزيد قليلا عن طول عصا مستر غرين ومحيطها أكبر، رأى ناجي مستر غرين قادما من بعيد، وضع العصا تحت إبطه وسار مقلداً مشية قائد المعسكر، قدامه نمرقان مكشاهما وتنظنان إيقاعها بشكل مثالي، صدره مندفع إلى الأمام وكأنه يحاول أن يلتفت انتباه

الناس للناشئين التي تغمره، ونظراته تحقّق في مكان أكثر ارتفاعاً من نظرات مستر
غرين.

ظلّ ناجي يسير مباشرة إليه حتى كاد أن يصطدم به، وفي اللحظة الأخيرة
انعطف، دون أن يلقى نغمة الصباح. وعلى مدى يومين آخرين، فعل الشيء نفسه.

في صبيحة اليوم الثالث اعترض مستر غرين طريقه: وسأله: ما اسمك؟

- ناجي الحاج خالد.

ابتعد قائد المعسكر، دون أن يقول أي كلمة أخرى، وفي صبيحة اليوم التالي،
كان ناجي قد قرر معاذلة حتى يعرف نتيجة عمله، وإذا بمستر غرين يقول له
مباشرة: غود مورنغ مستر ناجي!!

- غود مورنغ مستر غرين!!

بعد ذلك أحسّ ناجي أن شروط العمل قد أصبحت أفضل.

الشيء الغريب الذي أدهش الجميع أن ناجي راح يتساقط طويلاً، أسبوعاً بعد
أسبوع، ولم يدر أحد إن كان ذلك السرّ يكمّن في الزواج أم لا، بل إن بعضهم راح
يضرب أمثلة لا يمتثلها الشك عن أولئك الذين (قاروا) مرة واحدة بعد زواجهم،
وعن بنات تغربن بين ليلة وضحاها. لكن بعضهم أصر على أن ناجي الذي لم يكن
يعمل فيها مضي، كان بحاجة للعمل أكثر من حاجته للزواج، وما إن حرك قفاه
ويبدأ بعمل حتى راحت قائمه فتد وتقد.

لكن زمناً طويلاً سيمرّ قبل أن يكشف هو ذلك، ولعل السرّ في عدم اكتشافه،
هي تلك البراءة الغريبة التي ظلّت تسكنه وتشكّل ملاعقه، كما شكلت ملاعق أمه
سميّة ذات يوم، ولعل الشيء الكبير بين عينيّه وعينيها والطريقة التي تتحرّك فيها
تؤكدنا أن ناجي ابن أمه، وشبيه خاله كما قيل، خاله غازي الذي ابتلعه حرب لم
يعرفوا أين دارت رحاها.

أما الشيء الأكيد، فهو أن الفروش القليلة التي بدأ يحملها معه في نهاية كل
أسبوع، جعلته أقرب إلى رجل منه إلى فتى في عيون الجميع.

كان العمال الفلسطينيون يحصلون على ثلاثة أرباع قرش عن كل ساعة عمل،
ولأن الحظ وقف إلى جانب ناجي، فقد تمّ اختياره مساعد عامل فني، وبذلك كان
يُمنح قرشاً كاملاً عن كل ساعة، في حين كانت أجرة العامل اليهودي أربعة
أضعاف ذلك، كما أن السيارات كانت توصل العمال اليهود إلى مدينة تل أبيب مع

نهاية كل أسبوع. في حين كان عليهم أن يسبّروا أكثر من ثلاث ساعات على
أقدامهم كي يعودوا إلى قراهم.

أما على الأحرار فقد وجد وظيفة على أكتاف وظائفهم، إذ صار يُحضّر لهم شُرّة
من الخبز كل يومين، ويتقاضى ثمنها نصف قرش، لكن الزمن الذي راح يسير
بسرعة أسفر في النهاية عن نتائج لم يكونوا يتوقعونها، ومن بينها أن ناجي استطاع
أن يدخر ويشترى بقرة في النهاية.

حادثة كبيرة هزت المعسكر ذات صباح، حين اكتشف الحراس أن الأسلاك
الشائكة قد قطعت في أكثر من مكان، وأن آثار عجلات السيارات الكبيرة التي
عبرها لا تخطى.

فتح تحقيق كبير، تم خلاله استجواب الجميع، وعندما انتهت نتائجه إلى
الصفر، وتبادله فيه الفلسطينيون واليهود التهم، توترت الأجواء ونصب كل طرف
منها فخاخه للطرف الآخر.

كان المعسكر يضمّ عدداً من رجال البوليس الفلسطينيين.

- صباح الخير. حيا ناجي الشاويش الفلسطيني قرب أحد مخازن الأسلحة.

- صباح الخير. رد الجندي.

- أنا اسمي ناجي.

- وأنا اسمي عيسى.

بعد أيام مدّ الجندي يده بسجارة لناجي.

- أنا لا أدخن.

- لا بأس، لا بأس أن تحرب.

من بعيد أقبل أبو الذيب، ظلّ يسير حتى وصلها، طلب سجارة من عيسى،
فرّد: ليس معي.

- ليس معك!! إذا لم تعطني سجارة الآن فسأذهب إلى الضابط الإنجليزي
وأخبره أنك تدخن أمام باب مستودع الذخيرة.

- هكذا إذن!! تمهلّ لئلاّ ما سأفعله.

أطلق عيسى صفارته فجأة، فاندفع الجنود من كل جانب يناديهم. وكان

عيسى يصيح: حرامي. حرامي. وهو يوجه بندقيته إلى صدر أبو الذيب الذي وقع
مصعوقاً تحت ثقل المفاجأة.

بدأ الجنود بتوجيه الضربات إليه من كل جانب، وحين وقع أرضاً بدأوا
يركلونه بسياطيرهم الثقيلة بلا رحمة قبل أن يرفعوا من هو.

ولم يكتف الجنود بذلك، إذ يبدو أن ما طأهم من عقاب بسبب اختراق أسلاك
المسكر قد جعلهم ناعمين على الجميع، فاندفعوا يضربون كل من في المكان من
العمال.

بعد أن تعب الجنود! ساقوا الجميع أمامهم إلى أكثر من مكان.

في خيمة الحراسة وجد ناجي نفسه مع داوود العايرة. نظر ناجي فوجد سريرين
هابطين، مضى نحو أحدهما وجلس، وما كاد يفعل ذلك حتى فاجأته صرخة أحد
الجنود الإنجليز: انهض.

فوجد نفسه يقفز من مكانه، وقد أحس بأن الأمر كبير.

قال أحد العمال اللين أحسوا بالخطر: أنتم لا يمسكم شيء، أما أنا فأهلي
بعيدون، وليس معي أحد هنا سوى ابني الذي لا يعرفون أنه ابني!!

- وهل تعتقد أنهم سيعدمونا؟! سأله ناجي.

فضحك العمال.

بعد قليل ساقوا الجميع إلى الساحة، وحضرت سيارتا شحن كبيرتان.

صاح المستر كارميل، المسؤول الأمني: صفوهم.

فانتظم الجميع في صف طويل.

اقترب كارميل من أحد العمال وقال له: ألم أطردك في السابق بعد أن أسكنتك
تدخن السجائر هنا.

- نعم، لا!!

- من الذي أعادك إلى العمل؟

- لقد عدت وحدي.

أشار إلى جنديين أن يسكاه وبدأ بتوجيه اللكيات إليه حتى سقط أرضاً، ثم
أسكه أربعة جنود من أطرافه ولوحوا به، ثم تركوه يطير في الهواء ليرتطم
بصندوق الشاحنة.

حدّق مستر كارميل في وجوه العمال وقال: واحد، واحد، إلى الشاحنة!!

كان عليهم أن يمشوا بين صفين من الجنود، وعندما وصل العامل الأول إلى
منتصف ذلك الضيق الهال الجنود عليه بعضهم دون رحمة، وبصعوبة استطاع

الوصول والقفز إلى صندوق الشاحنة، أما الثاني فقد سقط أرضاً فحملوه وطرحوا
به. طار في الهواء واستقر إلى جانب الأول.

لم يصمد الكثيرون أمام ضربات يتطلب الإقلاط منها معجزة حقيقية.

أدرك ناجي أنه سيמות إذا ما تعرّض لكل هذا الضرب، فقال لمن إلى جانبه،
سأطير إلى الصندوق طيرانا قبل أن يلحقني أحد. وطار فعلاً. استطاع اختراق
صفيّ الجنود، دون أن ينال أي ضربة، ولكن ولفرط سرعته، ارتطم جبينه
بالصندوق فارتد جسده إلى الوراء، وإذا بدعه بفور من جهته كينويح. استغل بقية
العمال فرصة اشتغال الجنود به وراحوا يتفادون إلى الصندوق من كل جانب.

ثم احتجاز الجميع حتى منتصف الليل، وبعد تحقيقات لم تصل إلى شيء، قال
مستر كارميل: أنت الذي عدت بعد أن طردتك سنبقى محتجزاً هنا. أما أنتم
فستمردون الآن إلى منازلكم.

- الآن. سأل ناجي.

- الآن. رد مستر كارميل. أم تريد أن أحبك معه؟

حملتهم السيارة التي جاءت بهم وألقاهم أمام واحد من أبواب المسكر.

- إلى منازلكم. هيا، انهضوا. صاح أحد الجنود الإنجليز.

وما كادوا يبتعدون مسافة خسين متراً إلا وسمعوا عواء، ولم يكونوا يتخشون
أكثر من كلاب الحراسة تلك التي اندفعت خلفهم، فراحوا يركضون في ذلك الليل
وسط دوائر الضوء التي شطّعت عليهم ويتعثرون برعب كلما أحسوا بأن الكلاب
عل وشك اللحاق بهم.

إلى النقطة التي بدأوا منها، عادوا من جديد، فانتشروا بإحاثين عن وظائف
جديدة في تلك المشاريع التي كانت بحاجة إلى عمال، من شركة سكة الحديد إلى
مصلحة البريد، ووصل الأمر ببعضهم أن تحوّلوا إلى عمال في الموانئ.

- سأترك العرس وأعود من حيث أتيت. هذا كلامي الأخير. قال محمود.
كان الناس غاضبين، وما إن وصلوا الساحة الصغيرة الموجودة أمام بيت
العروس، حتى تعقد الأمر أكثر.

لم تُغلّ العروس كما هو متوقع، وطال انتظارهم.
كانت عفاف تقول لأُمها: علينا ألا نتأخر أكثر. وأُمها تقول لها: أَسكتي، لن
نخرجي قبل وصول خالك.

لم يكن باستطاعة عفاف أن تخرج دون رضا خالها، إنها العادات التي لم يكن
هناك مجال لكسرها مرتين في عرس واحد، خالها الذي كان غاضباً بسبب ما سمعه
من محمود من كلام قاس.

ذهب محمد شحادة، إيليا راضي، المختار جمعة أبو ستيل، رجوه أن يأتي معهم
لحل المشكلة؛ رفض.

نصف ساعة طويلة، كُشهر مرّت عليهم أمام باب العروس.

- إذا لم تخرج العروس الآن، سأعود فوراً إلى يافا.

- أَسكت. قال له الحاج خالد. على الأقل البنت تفكر بخالها ولا تريد أن

تخرجه كما فعلت بنا.

قالت زوجة الخال: أنا سأذهب إليه.

كانوا يعرفون أنه ينجبها وأنه ترك البلد من أجل سواد عينيها ليستقر بهاتيا في
يافا.

دخلت عليه، كان أشبه بطفل حردان يجلس في الزاوية.

- ولو يا عبد الرحمن!! تترك ابنة أختك الوحيدة تنتظر في يوم عرسها.

اقتربت منه، قُبِلت رأسه، وجهه، رفعت رأسه وحذقت في عينه: أليس لي خاطر
عندك!!

هزّ رأسه، نهض، أَسكته من يده، وسارت به نحو الباب، بعد لحظة عداد:

انتظري قليلاً.

دخل وخرج بسرعة. رآوه معها، فأدرك الجميع أن بنات اللدن لا يصُعب عليهن

شيء!

امتدت يده إلى جنبه، أخرج مسدساً وراح يطلق الرصاص في الهواء. كانت

أحاسيس مختلطة بالغضب والفرح والاحتجاج والانتقام، وظل يطلق الرصاص في

الهواء حتى عتبة بيت العروس.

المناديل

لم يكن ذلك متوقعاً أبداً: أن يرفض محمود امتطاء الفرس.

قال: لن أركبها تحت أي ظرف. ومهما حصل!

حاولوا إقناعه أن لا معنى للعرس دون زفة العريس، وأن إصراره على ذلك فيه
ساس كبير به وبمائلته.

رفض، زَمَّ عينيه الصغيرتين، شد قامته، وحلّق في السماء كما لو أنه يُعطّي وجهه
بها بعيداً عن أعين الناس، فانعكس ضوء الشمس على زجاج نافذته بقوة. الطول

لا ينقصه أصلاً، هكذا كان يحسّ، فلماذا يكون بحاجة لظهر فرس؟ ولم يكن هنالك
في العائلة من هو أطول منه، حتى بدا للجميع أنه استولى على ميراث عمته الأثيصة

كله في هذا المجال.

: سأسير خلف الفرس، أمام الفرس، أمام الزفة، خلفها، لا يهم، هذا أقصى ما
يمكن أن أفعله!

- هل ذهبت إلى المدينة لتعود وتُلقي عاداتنا؟ قال أحدهم.

ودون أن ينظر إلى مصدر الصوت، قال محمود: لن ألقي شيئاً. تستطيعون أن
تفعلوا ما تريدونه، أما أنا فلي فكري الخاص!

- فكرك الخاص أم فضيحتك الخاصة؟ قال له أبوه.

مالت جده منيرة نحو الحاج خالد وقالت له: يا ولدي كَبُرَ عقلك، أتركوه على
راحتهم، في زمناتي رفعت الغطاء عن وجهي في العرس أمام العريس، فلماذا حصل؟

هل غرّبت الدنيا؟ أظن أن الولد طالع بجده!!

- ابني الكبير، يفعل ذلك، أين يمكن أن أوارى وجهي بعيداً عن أعين
الناس؟

- كما قلت لك. لن تغرب الدنيا، ولكن إذا أجبرته على ذلك ستخرب. الولد
راسه مثل الحيط.

سار موكب العروسين في شوارع البلد، وكلما مرَّ أمام واحدة من الدكاكين التي تكاثرت، وأصبحت تنافس دكان أبو ربحي، قام صاحبها بإلقاء الحلو عليه. وعلى البيادر، ظَلَّت الأغاني والأعراس مشتعلة طوال الليل، حتى أنهم أحرقوا لحسين حزمة حطب، حتى لا تنجب وجوه الناس عن بعضها البعض. في تلك اللحظات عادوا بالعريس والعروس إلى بيتها.

- المهمل تزوجنا، عاد إلى يافا وبقيت في الحادية، في البداية كان يعمل لي تصمصم بمزنة أكثر من القصص التي سبق أن أحضرها، القصص التي تيكيني، وتعمل عيني محمدين كالجمر دائما!! لكن الشيء الغريب أنه لم يعد يسألني هل قرأتها أم لا؟

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

توقف لحظة، أعاد المسندس إلى خصره، استدار باتجاه الناس الذين تصاعد غناؤهم أكثر فأكثر، ودون أن يقول أي كلمة اختفى داخل الحوش، وبعد قليل ظهر مع العروس التي وضع عليها عيامة.

بعد الغداء تقدّم العريس أمام الحمدانية التي تم تزيينها، وبعد قليل أطلت العروس فوق جبل لا يظهر منها شيء.

راحوا يدورون بها من شارع لشارع وسط الأغاني، وقد وُجِعَ (جهاز) العروس على طبق من القش حيث تتناوب النساء حمله فوق رؤوسهن وهن يرقصن، وكلما تقدّم العرس كان يقترب أحد الشباب ويعقد متدبله في رسن الجمل وهو يقول: هذه محرمة هاشم شحادة. ثم يأتي شاب آخر فيربط متدبله بمتدبل الأول وهو يقول: هذه محرمة سعدي بونس، وهكذا يتواصل الأمر.

تكاثرت المتدبلات حتى غدت حيلة طويلة.

وفي اللحظة التي أحسوا فيها أن أحداً لن يربط متدبلاً جديداً، بدأ الخلاف بينهم، أيم أحقّ بتقديم عشاء العروس في تلك الليلة. اختلفوا، علا صياحهم، اقترح أحدهم أن يذهبوا لشخص يحكم بينهم. وعادة ما يكون القاضي واحداً من كبار السن الذين يعرفون أدق تفاصيل البلد.

- كان الشباب هم الذين يتنافسون لطلب هذا العشاء، مدفوعين من آياتهم، بهدف زرع الجراحة فيهم وإثارة الشهامة.

وقفوا أمام الشيخ حسني. قالوا: أحكم بيننا يا شيخ. وبدلوا برض حججهم.

- أريد أن أعده عشاء العروس وأنا ادخل عليك، عمرتي هي الأولى.

- يا عتي الشيخ، أنا ادخل عليك، أهل العروس قسم عندي حق لأنني نسيتهم، بالله عليك تعطيني عشاء العروس.

تواصل عرض الحجج الذي كان طويلاً كجمل المتدبل. أعده الشيخ حسني نفساً طويلاً، حثّق في وجوههم من جديد: عشاء العروس عند سامي العيد.

استدار الشباب عائدتين للجمل بصمت لأخذ متدبلهم، ولم يبق معلقاً برسن الجمل سوى متدبل سامي العيد الذي كان الحكم له. أسك برسن الجمل سار به مسافة حسين أو ستين متراً بحيث أصبح بإمكان الجميع أن يشاهدوه ويسمعوهم، وبصوت عال قال: يا جماعة عشاء العروس عند الليلة وبألف مبروك.

عاد سامي، تناول الرسن لمن سيواصل الدوران بالجمل، ومضى لإعداد العشاء.

- لا شيء أبداً، تماماً مثلك، لو حاولت الوصول إلى هناك تحت هذه الشمس، للحظة أوشك الأمر أن يتحول إلى كارثة حين تقدم الحاج صبري التجار نحو الحاج خالد ملوحاً بقبضته وصائحاً: كيف تمرؤ على إهانتني هكذا أمام الجميع؟! اندفع الناس وسدوا طريقه.

- لا تقتصا سوى أن تبدأ ببيع بعضنا البعض وأولئك يتفرجون علينا من هناك. قال الحاج خالد وهو يشير إلى المستعمرة.

- الذي مضى لن يعود ثانية. صاح الحاج صبري. عند ذلك تدخل كريم الابن الأكبر للحاج صبري وقال لأبيه وسط دهشة الجميع: لا يجوز أن نقول كلاماً كهذا للحاج خالد. ووسط ذعول الجميع صفعه أبوه.

كانت تلك ذروة جنون التجار التي شتملاً قلبه حقداً أبدياً على الحاج خالد الذي اضطره أن يفقد صوابه ويصفع ابنه أمام الجميع، ابنه الذي يوشك أن يبلغ الثلاثين بعد أقل من عام.

نظر الحاج خالد إلى كريم كما لو أنه يحتضنه. ابتعد كريم بصمت.

- لقد اخترت الوقت المناسب لنقول كلمتك هذه!!! قال الحاج خالد للتجار. وقبل أن تأخذ الرياح وجهتها السوداء، سمعوا من بعيد أصوات سيارات تتقدم نحوهم، التفتوا معاً إلى مصدر الصوت، وهناك رأوا ثلاث عربات جيب عسكرية إنجليزية فوق الشارع الأسود الطويل، الشارع الذي تم شقه منذ عشر سنوات ليصل الهادبة بالرملة شمالاً وغزة جنوباً باتجاه الغرب والقدس شرقاً. وقبل أن تصل العربات كانت أسلحة القنبر البيضاء كلها قد اختفت تماماً.

- منذ اليوم سيكون لكم جيران جدد، وعليكم أن تحترموا وجودهم، سيُمنع اقتراب أي شخص أقل من مائة متر من الأسلاك الشائكة، وكل من يقترب سيُحتمل نتائج فعلته. هذه الأراضي ليست لكم، إنها من أراضي الدولة، ولذا ليس لأحد منكم أن يحتج على ما يمكن أن تفعله الدولة بها لتلكه. قال الضابط الإنجليزي إدوارد بترسون* ذلك بدهوء قاتل، قبل أن يستدير نحو العربة وكأنه لم

رصاصه في الفجر

كما لو أنها سقطت من السماء، استيقظوا صباحاً فوجدوها تغطي رأس التل الغربي، بيوتها وأسلاكها الشائكة وأبراجها الخشبية العالية.

كان ينادي الواحد منهم الآخر بصمت كما لو أنهم ضيقوا الكلام، ولحظة بعد أخرى تجمع أهالي الهادبة غير مصدقين أعينهم.

يعرفون أن ما يرونه مستعمرة؟ ولكن كيف استطاع اليهود بناءها في ليلة واحدة هكذا؟ كيف لم يسمعوا شيئاً، كيف لم ينجح كلب أو تصيل فرس أو يصحو أحد على كل تلك الضجة التي لابد أن يُحدثها تجهيز شيء كبير كهذا.

ومع صعود الشمس أكثر وأكثر، أدركوا أن البيوت لم تُبن هناك، بل هي بيوت جاهزة جيء بها من مكان بعيد.

عند الضحى تجرأ أحد الرعيان ودنا من الأسلاك الشائكة التي تحيط بها، سمعوا صوت طلق نار ي شق هداة الألق مزقاً فمهم وميعثراً الخراف والماعز في الجهات كلها. كان الوحيد الذي باستطاعته أن يعرف وجهته هو الراعي الذي ظل يركض إلى أن توقف أمام الحاج خالد.

ألقى الحاج خالد نظرة عليه، حدق من جديد محاولاً معرفة المكان الذي انطلقت منه الرصاص، لم يلمح أحداً.

اغتنى أكثر من رجل، وحين عادوا، كانوا يحملون فؤوساً ومناجل، وسكاكين، أشار لهم الحاج خالد أن يهدأوا.

لم يُعجب ذلك الحاج صبري التجار الذي بات منذ زمن غير قصير يطالب بحقه في أن يكون شيخاً للبلد لأن عشيرته اليوم هي الأكبر وما يملكونه من أراض أكثر: وهل ينبغي هادئين إلى أن نسيقظ ذات يوم فنجدهم في أحواش بيوتنا؟! -

لن يكون ذلك بإذن الله. ردّ الحاج خالد.

- وما الذي يمكن أن تفعله وأنت واقف مكانك؟! -

* - (ولد بترسون في لندن عام 1893، وُلقي العلم في بيت عائلته التي كانت تنتمي إلى (إخوإن بليوت) إحدى الطوائف الشيعية بروح صارمة، وقد استحوذ عليه تاريخ إنجلترا العسكري فأصبح شاكلاً، أما أوليفر كروميل، أحد أهم الدبلوماسيين العسكريين، ونشازلر غوردون حاكم

يكلم أحداً. وبمجرد أن عاد إلى مكانه في المقعد الأمامي للسيارة الأولى واصلت السيارات طريقها كما لو أن الضابط سيقول الكلمات نفسها لعشرات القري التي يمر من أمامها الطريق.⁹

بعد ساعتين لم يكن هناك سوى الخاج خالد الذي لم يتحرك من مكانه، نظرته مثبتة على تلك البيوت التي هبطت مثل كابوس من السماء، وأفكاره تعصف باحثة عن إجابة ما لهذا السؤال الثقيل.

أحس بيد تريت على كتفه: ما تراه ليس امرأة يمكن أن تأتيك إذا ما انتظرها هنا تحت هذه الشمس!

ولم يكن عليه أن يستدير ليعرف أن الصوت صوته عمته الأنيسة، عمته التي ازدادت نحولا، وابيض شعرها، لكن الجميع كانوا على ثقة بأنها تزداد طولاً عاماً بعد عام.

وصاح: الوغد!!

كان بترسون قد وصل القدس برتبة ملازم في البوليس الإنجليزي، وسرعان ما تحول اسمه إلى كابوس حقيقي. وغدا الاقتراب منه أو محادثته لا يعني سوى شيء واحد: احتيال الموت. وكبر اسمه خلال ثورة عام 1929 بحيث أصبح الناس لا يعرفون الفرق بينه وبين الشيطان.

فجأة يُشهر مسدسه ويقتل أحد المارة ثم ينقض على جسده الغارق في الدّم الحار موجهاً له اللكمات، وحين تصل قوات البوليس يجدونه يركل القاتل موجهاً له كل أنواع الشتائم وهو يصيح: الوغد، يريد اختطاف بندقيتي!! يحاول رجال البوليس إبعاده عن الجثة، يتعد قليلاً ثم يغير عليها من جديد كما لو أنه يعارك رجلاً حياً، وهو يصيح: تريد البندقية أيا الوغد، انفض وخذها!¹⁰

ذات يوم كان على شاويش في البوليس البريطاني أن يذهب لإحضار نمر الطيري للمخفر لأخذ إفادته في قضية إطلاق النار على شرطي بريطاني في حافلة للركاب كانت متجهة للرملة، لكن بترسون فاجأ الشاويش وقال له: سأذهب لإحضاره بنفسي.

التفت الشاويش ذو الوجه الأحمر المكسّو بالشمس إلى رفاته وقال: فليرحمه الله.

- بترسون؟ سألوا.

- بل الطيري.

كان الطيري، في ذلك اليوم، يجلس في المقعد نفسه مع الشرطي جوار النافذة، وهكذا وجد نفسه ملطخاً بدم وفئات دماغ الشرطي القاتل.

¹⁰ - في تلك الليلة كتب بترسون: لن يبك أحد مثلي / لا الوردة ولا الرصاص / لن يبك أحد مثلي / لا النمر ولا الغزالة / لن يبك أحد مثلي / بنمي أكتفها لك ودم غيري!!

السودان، فيها بطلاة للفضلان، عشق دائماً الأعمال التي يقوم بها مفرداً، مثل السباحة، ركوب الخيل، والرمادة، وبعد انتهاء دراسته العسكرية كتب على دراسة اللغة العربية، وأصبح ضابطاً في (القوة الدفاع السودانية)، وبعد أن عاد إلى إنجلترا انتظر حدثاً ما يخرج من عمله الرتيب كضابط مدفعية صغير، وحدثه الأحداث التي انفجرت في الشرق إلى فلسطين. أما السر الذي لم يبع به لأحد، وكان دائماً خارج أي سيرة ذاتية له فهو مواقفه على كتابة الشعر.

⁹ - في تلك الليلة كتب بترسون: الرياح الرمادية تقري الكلمات البيضاء / أين أنت؟ / الآن ليلة متقوية بهجر منها الخريف / من أنت؟ / أسحابة صيف أم قمر مجنون؟ / أم مودع، ثم تأكيده جس مرات، مع لا أحد؟

توقفت الحافلة فجأة، كما لو أن الرصاصه التي أطلقت قد أصفت السائق بكايح السرعة. تدافع الركاب نحو البابين ينفوخا لا مثيل لها، واستطاع بعضهم القفز من النوافذ فبر عابثين يا قد يصيبهم. في حين بقي نمر الطيري محشوراً تحت ثقل ذلك الجسد الذي أنصفه بالنافذة.

راقب الناس مطلق الرصاصه يتعد داخل أحراش (باب الواد). كان خطط تماماً لعملية، ولم يجرؤ سوى القليل منهم على الحرب خافه أن يُعتبروا من شركاء مُطلق الرصاص.

ظل نمر الطيري متجسداً في مكانه. وصلت قوات من البوليس والجيش البريطاني، صعدت للحافلة، كانت ثيابه قد التصفت تماماً بلباب القتل وغطى وجهه ويديه دم ناشف.

تحركت الحافلة من جديد، عائدة إلى القدس، حاملة في جوفها شهود الحادثة الذين لم يستطع البوليس الحصول على أي شيء مفيد منهم، كانت روايتهم واحدة، يا فيهم السائق الذي رأى كل شيء في المرة التي أمامه: كان مُطلق النار يُخفي وجهه بكوفية، وهو متوسط الطول، وصوته عريض، وقال: اشهدوا. ما فعلته كان انتقاماً لشهدائنا الذين أعدتهم سلطات الانتداب يوم أمس.¹¹

نمر الطيري كان أقل الشهود قدرة على إعطاء التفاصيل، لأن مطلق النار جاء من المقاعد الخلفية للحافلة، كما أن المفاجأة ودوي الرصاصه لم يتيح له سماع الكلمات التي سمعها بقية الركاب. في النهاية، أطلقوا سراخ الجميع باستثناء سائق الحافلة الذي كان عليه (ألا يتوقف قبل الوصول إلى أقرب نقطة للجيش أو البوليس) كما قال له الضابط المكلف بالتحقيق.

¹¹ - (قامت قوات البوليس الإنجليزي في تلك الأيام باحتلال 26 شيا فلسطينيا من شاركو في ثورة الدفاع من حائط الأراق في القدس، وأصدرت بحكمهم أحكاما بالإعدام في محكمة صورية، ثم عطلت الحكم عن 23 منهم إلى السجن المؤبد وأبليت حكم الإعدام بحق كل من محمد جصوم وفؤاد حجازي وعطا الزير ونسب إصداهم في سجن عكا يوم 17/6/1930). (دوقد أعدم من المحكومين في ست سنين (عمل يد الإنجليزي) في فلسطين وحدها، أكثر مما أعدم في كل المملكة العثمانية الكبيرة في عهد السلطان عبد الحميد الذي طاق أكثر من ثلاثين سنة رغم أن الناس كانوا ينظرون إلى عبد الحميد كحاكم ظالم مستبد وإلى الإدارات الإنجليزية كإدارات دستورية عادلة حكيمة).

تلك الحادثة كانت من الحوادث الشهيرة، الحوادث الكبيرة التي بدأت تتكاثر، بسبب تصاعد موجات الإعدامات وتزايد موجات الهجرة اليهودية التي غدت كابوساً وطنياً عاما يقلق الناس.

طرق إدوارد بترسون باب نمر الطيري... خرجت امرأته، قال لها بلطف أذهبها: إن كان السيد نمر موجوداً، فأرجو أن يتفضل ويرافقني لاستكمال شهادته في قسم البوليس. وحين قالت: إنه موجود. قال بلطف أشد: أرجو ألا أكون قد أزعجتكم بوصولي في هذا الوقت المبكر. - لا. لا بأس. قالت ويدها خلف الباب وترجف. - لن يتأخر، سأحرص شخصياً على أن يعود بأسرع مما تتوقعين.

لم يكونا قد ابتعدا... انحنى بترسون نحو حذاته، متظاهرا بأنه يريد تثبيت رابطته بصورة أفضل، تاركا نمر يتبعد عدة خطوات كان يحتاجها كي يشهر مسدسه. صوب المسدس برود شديد، أطلق النار على ضحيته من الخلف، سقط نمر الطيري على وجهه.

اندفع بترسون نحو جسد نمر النازف بركله، تلوى نمر محاولاً إلقاء الضربات، وعندها أدرك بترسون أن طفلة واحدة قد لا تكفي أحيانا، فأطلق الرصاصه الثانية من المسدس الذي لم يزل في يده، وهو يصيح: مت أيها الوغد. مت.

- لقد حاول سرقه بندقيتي والفرار بها. الوغد. كان يريد أن يقتلني. راح يردد عندما تجتمع المارة ورجال البوليس.

- وقد وصل الأمر إلى أوجع حين قامت دورية بقيادة بترسون باعتراض طريق الشاب ففضل الجاني ونفسيته فوجدوا معه صورة متقلداً فيها بندقية فأطلقوا النار عليه وقتلوه.

بعد أقل من عام تمّ ترغيه بمنحة نجمة جديدة ونقله، حيث تبيّن للقيادة أنه إن لم يُقتل لأسباب (التحريرية) فسَيُقتل لأسباب ثأرية.

كانت القرى المتجاورة لتجتمع كوحدة واحدة، حرة أو مكرهة، ويكون لها شيخ واحد يُسمى شيخ (صَف).

- أنتم من ضمن المنطقة وعليكم أن تكونوا جزءاً من صفنا. قال الحمّدي. اجتمع رجال الحادية وقرروا ألا تكون البلد تحت سلطته، فكل من في المنطقة يعرفون أنه رجل ظالم وأنه واحد من أزلام الإنجليز منذ وصولهم. حتى لقد قيل إنه حين كان يحارب إلى جانب الأتراك في غزة ورأى الغلبة للجيش الإنجليز في المقدمة، راح يهتف بحياة بريطانيا العظمى وأدار فوهة بارودته وأطلق الرصاص على رفاته الذين كانوا معه في الخندق.

- هذه ليست قرية أناس قاصرين ليكون هناك وصي عليها. قال له الحاج محمود، وكما عبرنا سنوات الأتراك دون أن نتبع أحداً، سنعتبر سنوات الإنجليز هذه دون أن نكون تابعين لأحد. نحن على استعداد لأن نلتقي معك في الخبر، أما أن نكون تحت إمرتك فهذا لن يكون.

- أهذا آخر كلامك؟ قال له الحمّدي.

- كان هذا أول الكلام من قديم وسيبقى آخر الكلام دائماً.

- أنت تلعب بالثار إذن.

- حين لا يكون هناك شيء يمكننا اللعب به، لن نختار سواها.

انتفض الحمّدي، سار نحو حصانه، تبعه رجاله يساقونهم التي كان يعرف الناس أن الإنجليز سألحومهم بها.

- لقد فتح باباً للريح لن نستطيع إقفاله. قال للحاج محمود قبل أن يلوي عنق حصانه.

- إذا هبّت الريح فلن نهبّ علينا وحدنا.

قبل أن يخفي غبار خيول الحمّدي من الأفق، حضر الحوري ثيودورس، وما كان بحاجة لأن يشرح له أحد شيئاً؛ ما دام الدير هنا، فلن يجرؤ أحد على المساس بأرض هذه القرية.

بعد يومين من ذلك، أغار الحمّدي على السهول العالية للبلد واستولى عليها وأخفها بأرض واحدة من قرى صفّه.

- هذه الأرض لكم ما داموا يرفضون الانضمام إلينا.

ذهب الحاج محمود إلى ثيودورس: أهذه حمايتك التي كنت تحدثنا عنها؟

أبواب الريح

لم يكن آثار متقلبا كما كان في ذلك العام، بحيث أربك الجميع: لم تكن الشمس تسطع إلا وتغيب فجأة، ينزل مطر شديد، ثم يتقطع فتعود الشمس حارة. ونحّت أرجلهم في السفوح، كانت الزهور تنمو وتذبل وهم يحقدون فيها، كما لو أن فصول السنة كلها اجتمعت في يوم واحد.

- نحن الذين نحارب الإنجليز، فما حاجتكم هذه البنادق؟

صرخ رجال عبد اللطيف الحمّدي في النساء بعد أن أجبروهن على كشف غائبيهن عن بوايرد رجالهن.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيها رجاله بأمر كهذا، لكن الأمر تعدّى حدوده هذه المرة، فأن يتناولوا على النساء في غياب الرجال، وأن يسلبوا هذه البنادق منهن أمر كبير.

لم تكن حكاية الهباب قد انتهت، لم تكن النساء قد خلعن أبواب الحداد، حين توقفت مجموعة عربات ذات يوم ونزل منها الحمّدي مع عدد من الضباط الإنجليز، وفي صباح اليوم التالي غادرت العربات العسكرية وغدا هو سيد ذلك البيت.

لقد قيل الكثير في ذلك، لكن أحداً لم يعرف، كيف أصبح بيت الهباب له. قيل إن البيت كان من أملاك الدولة العشائرية، وقيل إن الحمّدي اشتراه من ورثة الهباب، وقيل إن الإنجليز كانوا يخططون لجملة واحداً من مراكز جيشهم، إلا أنّ الحمّدي أقنعهم بقدرته على ضبط هذه المنطقة، وبهذا ينعمن عن أي اصطدام مباشر مع أهلها.

وما كان عليه أن يفعل الكثير كي يضمن خضوع حلس من قرى المنطقة، كانت في أسوأ حالاتها بعد رحيل الأتراك، وهي التي كانت خاضعة للهباب فيها مضى.

- لقد ذهبت بنفسى للإنجليز، فقالوا لي، إذا كانت هذه الأرض لهم فليحضروا الكواشين التي تثبت ذلك.
- وهل بإمكان الحمدي أن يحضر الكواشين التي تثبت ملكيته لها؟؟
- كلمته إذن مقابل كلمتكم، وأنتم أول العارفين، الإنجليز سيكونون معه.
- من يسمعك تتحدث هكذا سيقول إنك معه لا معنا.

كانت الهادبة أقل قوة من أن تلقف في وجه عبد اللطيف الحمدي، فابتلعت جرحها، وقبل مُضي أقل من شهر على ذلك، اعترضت مجموعة من اللصوص طريق الحاج محمود العائد من الرملة، أطلقوا عليه النار فقتلوه ومن معه، بعد أن جرّوهم من مالم وبضايعهم التي كانوا قد اشتروها. وكما كان متوقعا انتهت تحقيقات الإنجليز إلى النتيجة التي يعرفونها جميعا: تُفْتَدِ القضية ضد مجهول. لكن كثيرا من أهل القرية كانوا يدركون أن بدي الحمدي ورجاله قد لا تكون بريئة من الدم الذي سال في تلك الدويان، ولكن من كان يستطيع أن يثبت ذلك: ما دام القاضي هو العدو. كما قال الناس.

- وصول الحمدي لبادق أهل القرية كان يعني الكثير.
- جاء الرجال إلى الحاج خالد: ها نحن نجيتك كالعادة، ونسألك، ما هو الحل؟
- اعتصر جيبه بأصابع يده اليسرى، وهو يحدّق فيهم وقال: لا عليكم، بواريدكم ستاتيكم حتى أبواب بيوتكم.
- ولكن الذين أخذوها هم رجال عبد اللطيف الحمدي!
- ولهذا السبب بالذات لا بد أن تعود بواريدكم إليكم.
- كان الكيل قد طلع، كما يقال، وقد أدرك الحاج خالد، أن البنادق هي آخر ما تبقى لأهل القرية، وهو يتطلع إلى المستعمرة فوق التل الغربي.
- فليذهب أحدكم لإحضار فايز.

بعد لحظات جاء. كان فايز، ومنذ زمن طويل أفضل من يستطيع إصلاح البنادق في المنطقة كلها. خبرة فطرية اكتسبها بسبب تعلقه الشديد بالأسلحة.

- أنت فاهم طبعاً أن الأمر كان يتم سرّاً!!
- سأله الحاج خالد: كم عدد البواريد التي لديك ياها؟
- كثير. قال لحاله وهو يثقلّ حوله.

- لا عليك. قال الحاج خالد يُطمئنه. وأضاف: ما عدد البواريد التي تعود لقرى (صف) الحمدي.
- عشر بواريد ريا.
- اذهب واحضرها إلى هنا، وحين يأتي أصحابها لاستلامها قل لهم إنها موجودة عندي. وأشار إلى عدد من الرجال أن يذهبوا لمساعدته.
- لم يكن يسعد فايز شيء مثلاً كان يسعده صوت الرصاص وهو يعود ليدوي من جديد في تلك البواريد الميتة! لم يكن يسعده شيء مثل عودة هذه البواريد للحياة ثانية!!
- وكما توقّع الحاج خالد، لم يطل الوقت قبل وصول أصحاب البواريد باحثين عنها.

- إنها في الحفظ والصون. ولكن الحاج خالد يريدكم. قال لهم فايز.

- صُبُوا لهم القهوة وجّهّزوا خدامهم. قال الحاج خالد.
- عامر يا حاج، ولكننا نستعجلون.
- لقد قام رجال من عسكر الحمدي بدخول عدد من بيوتنا المطرقة، وأجبروا النساء على كشف خائين بواريدنا وأخذوا خساً منها. لا أريد أن أطلب بحقنا لأهم دخلوا البيوت في غياب الرجال، وهو حقّ كبير، ولكن أريد منكم أن تذهبوا للحمدي وتقولوا له بأنني لن أعيد بواريدكم إذا لم تعيدوا بواريدنا الخمس لنا.
- ولكننا يا حاج لا نعرف شيئاً مما حصل، وليس لنا ذنب فيها يفعل عساكره.
- أعرف هذا، ولكن ذنبيكم أنكم قبلتم أن يكون مثل هذا الظلم سيداً عليكم.

صمت الرجال وقد أوجعتهُم الجملة الأخيرة. ودون أن يقولوا شيئاً آخر غير الذي قالوه، نهضوا بصمت.

لم يروا الحمدي غاضباً مثلاً رآه ذلك اليوم حين أوصلوا له رسالة الحاج خالد، ولكن رياحه غيرت اتجاهها فجأة: انذهبوا إليه وقولوا ستعيد بواريدهم. أنا كفيل بهذا.

عادوا: وأنا كفيل بإعادة بواريدكم ما إن يُرجّع بواريدنا لنا. عودوا للحمدي وقولوا له: إن الذين يدخلون البيوت في غياب الرجال ليسوا رجلاً، وإذا لم تعد

بورايدينا فعليكم أن تعرفوا أن الأمر لن يتوقف عند إعادتها، لأن الهادبة مثل قنساء السويس بالنسبة لكم، ولا بد من أن تمزقوا من هنا إذا أردتم أن تواصلوا حياتكم. لم يأت الرد. فقال الحاج خالد: لا عتب علينا الآن.

كان أهل المنطقة يستنون ذلك الموسم، موسم الحروف، فقيه بجيء الناس إلى سوق الخميس في الهادبة ليعوا خرافهم، وكثيرون كانوا يربطون مواعيد زواج أبنائهم، أو تعبير بيوت جديدة فيه، بهذا الموسم، وقبل وصول عدد من رجال قري صف الحمدني إلى السوق، اعترضهم عدد من فرسان الهادبة واستولوا على خرافهم: إذا كنتم تريدونها، فانهبوا للحمدني وقولوا له، باسم الحاج خالد فعلنا ما فعلناه بكم.

- كانت قري المنطقة تعرف جيداً أن الحاج خالد رجل حقّ ولم يسبق له أن اعتدى على أحد أو أكل حق أحد، فثار الناس في وجه الحمدني: أيعه نعم حقهيم يا عبد اللطيف!! إلى متى ستظل ندفع لمن ما يفعل عساكر ك!!؟ ولم تكن هناك طريقة أمام الحاج خالد إلا أن يدفع قري صف الحمدني للثورة عليه، وقد كان يدر أن الخبر موجود في هؤلاء الطيبين الذين يعرفهم ويعرفونه منذ زمن طويل!!

بعد أيام وصل الهادبة من يحمل البورايدي الحس، تفقدها الحاج خالد ثم أرسل في طلب أصحابها، تناول أربعة منهم بورايدهم، في حين قال الحامس: هذه ليست بارودتي.

- أعيدوا لنا البارودة الأصلية، وعودوا لأخذ بورايديكم وخرافكم. قال الحاج خالد.

- عشر بورايدي ومئات الحراف مقابل بارودة واحدة. قال أحد رجال الحمدني.

- لا، بل عشر بورايدي ومئات الخرفان من أجل الحق. رد عليه.

في صبيحة اليوم الثاني عادوا بالبارودة الأصلية.

- الآن يمكنككم أن تأخذوا ما لكم، بعد أن وصلنا ما لنا.

راحت أحفاد الحمدني تأكله يوماً بعد يوم، ولم تكن الهادبة مطمئنة، فقد كانوا يطلقون على سلوكه اسم (السياسة البريطانية)، التي حين يُدَي لها تكون تمارس أعنى أساليب قسوتها.

نار صامتة

استيقظ أهالي الهادبة صباح ذات يوم، فوجدوا أن الأسلاك الشائكة للمستعمرة قد تقدمت أكثر من متري، مبتلعة جزءاً من أرضهم والمراعي الشالية والجنوبية المحيطة بها؛ وحين ذهبوا إلى هناك لكي يلمسوا بأيديهم ما تراه أعينهم، انطلق الرصاص صوبهم على طول الجهة الغربية بكاملها، انبطحوا أو التجأوا إلى أقرب نوء يمكن أن يحمي أجسادهم، حاولوا أن يعرفوا مصادر النار بدقة، لكنهم لم يمسروا جسداً واحداً يتحرك في الجهة المقابلة.

تراجعوا.

كانوا يعرفون أن المشكلة أمامهم، فبعد أسابيع عليهم النزول إلى حقوقهم لكي يعضدوا القمع في السهول الموازية للأسلاك، وقد أدركوا أن أي مشكلة يمكن أن تحدث الآن، يمكن أن تحرمهم من الحصول على نتائج تعيهم وشقايتهم.

بعد المساء جلس بعض الرجال في مقهى محمد شحادة ومقهى شاكور مهنا لسامع الأخبار، متفلقين ما بين إذاعة وأخرى، فرحوا حين سمعوا (إذاعة فلسطين) في رام الله، التي كان يتم افتتاحها في تلك اللحظات، لكنهم بعد قليل سمعوا خطاباً باللغة العبرية. كان الأمر صاعقاً بالنسبة إليهم: هذا يعني أن اليهود سيكونون في كل بيت منذ الآن. علّق محمد شحادة وأقلّ الراديو بغضب.¹²

¹² - (في ذلك اليوم قام المدوب السامي السير آرثر والكهوب بفتح هذه المحطة، وأذيعت الخطابات باللغات الإنجليزية، العربية، العبرانية؛ هذا الاحتفال أعده مائة، إنه أقوى مظهر لقيام الوطن القوي اليهودي في فلسطين؛ اليوم نراحم العبرانية العربية ولغدا نطردّها من فلسطين. ولم يكن ذلك نشاطاً مشتركاً، فكان من علامات المستقبل للشووم أن يحضر سياسة الحاج أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي، هذا الاحتفال. كيف تأسوا ذلك القرار الذي يقضي بمقاطعة مثل هذه الخطابات!!)

واحت الشمس تحرق منازل القمع بلهبها، السنايل التي بدت هم أكثر خصباً منذ زمن طويل، وكان باستطاعة الفارس إذا ما عبرها على ظهر حصانه أن يعقد سنبنتين فوق السرج يسير تام.

لم يكونوا قد وصلوا بعد أطراف الحقول، حين بدأت المستعمرة بإطلاق النار عليهم. تراجعوا. وحين ذهبوا إلى مقر الضابط الإنجليزي المستر إدوارد بترسون، قال لهم بغضب: نحن لا نستطيع أن نرسل دورية للجيش مع كل من يريد أن يحمّد حقلاً!

عادوا، نظروا صوب المستعمرة لم يروا أي حركة تشير إلى أن هناك من يترصد، همّ الصمت، وكان بإمكان الجميع أن يسمعوا أخفض أصوات كائنات الله في ذلك الامتداد. اندفعوا بمناجلهم نحو الحقول، وبدأوا العمل بكل ما فيهم من قوة. لم يكونوا قد تقدموا في الحقل أكثر من ثلاثة أمتار، حين دوى الرصاص من جديد فتبعثر الناس في الجهات الثلاث المثيقة.

ذهبوا إلى بترسون من جديد، فلم يجدوا سوى إجابته السابقة، عادوا أكثر بأساً مما كانوا عليه قبل ذهابهم.

عند الغروب اجتمع عدد من الرجال في مضافة الحاج خالد، كان الشيخ حسني إمام المسجد هناك، والبرمكي الذي أنهكه الزمن وضياح ولده؛ وحتى لا يعتب أحد من عشيرة الحاج صبري التجار أرسل يدعوهم، فجاء شاكراً مهتماً مع بعض الرجال وتخلّف آخرون واعتبر الحاج صبري أن دعوته إلى مضافة الحاج خالد ليست أقل من إهانة؛ فليأذا لا يأتي هو إلينا بدل أن نُجرّج أنفسنا إليه، أم أنه يرى نفسه أكبر من الناس!

لم يكن ما يدور في فلسطين كلّها سرّاً، فيما يحدث في الهادبة يحدث هناك في عشرات القرى، لكن النار وصلت أطراف ثوب قريتهم هذه المرة.

لم يصلوا لشيء يُذكر، أكدوا إحسانهم بالخطر، وبدا العجز جزءاً من كلمات بعض الرجال الذين تحدّثوا عن كيف لا تستطيع مناطق مخز، وعن الحماية الإنجليزية للمستعمرات اليهودية، وعن عدوّ لم تستطع أن تراه حتى الآن، وعن سهولة اكتشاف أمر كل من يفكر في الاقتراب من تلك الأسلاك الشائكة، وعن أصابع اتهام لا يمكن أن تتجه إلى أي مكان غير قريتهم، إذا ما قاموا بأي عمل ضد المستعمرة. لكن كثيرين أيضاً كانوا عكس هذا التيار: في النهاية تذكروا أن من

هناك خلف الأسلاك ليسوا أشياء، وإذا صممتا اليوم ستكون الهادبة داخل الأسلاك الشائكة غداً. قال قاييز، وأنتم تعرفون جيداً ما الذي تفعله هذه المستعمرات في أراضي غيركم.

لم يتكلم الحاج خالد، ظل صامتا، وحين انتهى الكلام، سأله شاكراً مهتماً: وما الذي تقول يا حاج؟

فرد الشيخ حسني: وما الذي يمكن أن يقال؟ وأي عمل يصدر عنا شلّيتي بالجميع إلى التهلكة!!

فأعاد السائل سؤاله كما لو أنه لم يسمع كلام الشيخ حسني. اعتصر الحاج خالد جيبه بأصابع يده اليسرى وهو يحدّق فيهم وقال: سنرى ما يمكن أن تأتي به الأيام المقبلة.

في تلك الليلة استيقظت الهادبة على نار تغمر الأرجاء وتحمل الظلام إلى نهار، كانت النار تلتهم حقول القمح في مشهد لن يروا مثله، أو ما هو أفس منه، إلا بعد سنوات طويلة في ذاك اليوم الأسود الطويل الذي لم يخطر ببال. بدت المستعمرة في منتصف ذلك الحريق الكبير عارية تماماً، ولأول مرة استطاعوا أن يروا في البعيد قلال أبناس يتحرّكون بسرعة من مكان إلى مكان، بين البيوت الجاهزة وقرياً من الأسلاك الشائكة.

سكون الرياح كان كفيلاً بأن يجعل الحقول تشعل بيضاء، وصمت الليل كان كفيلاً بأن يتلّع ذلك الذمّع العزيز الذي تفجّر في العمون.

من بعيد راحت عربات الجنود تتقدّم، وحين وصلت، هبط منها الضابط إدوارد بترسون ثائراً، وهو يصيح: من منكم أشعل النار؟!

- وهل تظن أن أحداً منا يمكن أن يحرق ماله بيديه. لم يحرقه أحد سوى أولئك الذين هناك.

- بل أنتم الذين أحرقتهم حتى تحترق المستعمرة معه.

- أنظروا إلى وجوه الناس وعيونهم، وستفرك أن الذي أحرقه لا يمكن أن يكون بنتنا.

استدارت العربات صاعدة نحو المستعمرة، دون أن يستطيع أحد من أهالي
الهادية أن يكون على يقين من أنها قد أطفأت مصابيحها أم لا، تحت أضواء ذلك
اللهيب الذي يتصاعد غاضباً نحو السماء.

حين راحت الشمس تصعد ببطء، لم يكن في ذلك السهل سوى بضعة شمعات
صغيرة وأرض متلحمة.

- في هذه الأراضي المحروقة لن يجنوا بعد اليوم غير الحصاد الأسود. قال
الحاج خالد.

- أهذا جوابك على سؤالي؟ سأله شاكر مهنا.

- أرجو الله أن يكون هذا هو جوابنا كلنا.

تلك الظهيرة

في واحدة من قرى صف الحمدي، كان هناك قاض بدأ صيته يصل إلى أرجاء
فلسطين كلها، كان اسمه مسعود الخطّاب؛ في فترة قصيرة غدا واحداً من أهم
القضاة الذين يحملون أكبر المشاكل التي تعصف بالقرى، من قضايا الخلاف على
الأرض، أو الاعتداء على العرض - على قلّتها - إلى جرائم القتل. أحس الحمدي
بالخطر الكبير الذي بات يحيط به، وأدرك أن ذلك اليوم الذي سيتألف فيه هذا
القاضي على الزعامة، ليس بعيد. وهكذا نصب له كميناً بعد عودته من إجراء
صلح كبير. وحين قُتل، ثارت القضية التي حُكّم فيها من جديد، إذ ألهم الطرف
الذي حُكّم له الطرف الثاني الذي حُكّم عليه بقتل القاضي لأن النتيجة لم تعجبه،
وعادت التارات تدق أبواب البيوت وتغمر السهول والوديان بالدم من جديد.

لم يكن الحمدي يتوقع أنه اصطاد عشرات العصافير بحجر واحد، إلا بعد أن
رأى بعينه ما فعلته الرصاصة التي اخترقت قلب القاضي.

أعلن أن الحداد سيمتد أربعين يوماً، وأن أولاد القاضي سيكونون منذ اليوم
أولاده، وأن اليد التي أطلقت الرصاص ستقطع إلى ثلاثة أجزاء، وحين انتهت أيام
الغزاء حاول الحمدي أن يجد حلاً للقضية التي حُكّم فيها القاضي مسعود، فلم يجد
سوى أن يحضر الطرفين رغماً عنهما ويجبرهما على القبول بحكم القاضي احتراماً
لدمه الذي سال من أجلها!

حين أصبح أولاد القاضي رجالاً لم يعودوا يعيدون عن أي خطوة بخطوها
الحمدي. ذات يوم طلب أحدهم وقال له: أنت تعرف أنك مثل ابني.

- نعم يا عم!!

- أريد منك أن تأتي لي طلباً، وليس هذا والله لأنني كنت هوناً لكم على

يُتمكم طوال حياتكم!

- أعوذ بالله يا عم.

- هل أستطيع قتل رجل يحبُّ أبي ويعتزمه إلى هذا الحد. هل أستطيع قتل رجل قَدِم لي كل هذا الاحترام، هل أستطيع قتل رجل يكرم ضيفه ويعرف قيمة الرجال؟؟

وعندما نهض بعد الغداء ليضي، وقب الحاج خالد وعاتقه بحرارة كما لو أنه يعانق ابنا له.

لم يكن هناك بين جسديهما أي حاجز يمنع تنفيذ المهمة، ولكنه بدل أن يفعل ذلك هس في أذن الحاج خالد: انتبه، لقد أرسلني الحمدي لأقتلك، وإن كنت لم أفعلها سيفعلها غيري، فاحذر غيري.

بعد أقل من أسبوع، خرجت مجموعة من رجال الحمدي وأحاطوا بابن القاضي في المكان الذي قُتل فيه أبوه.

أدرك ما يدور، فقال لهم: كنت أعرف أنه لن يقتلني في مكان غير هذا المكان. قولوا لعبد اللطيف إن الجميع يعرفون الآن أن دم أبي يبلطخ يديه.

انهال الرصاص عليه من ثلاث جهات، لكنه ظل واقفاً، فأطلقوا الرصاص عليه ثانية، فظل واقفاً. بدأ القزع يعصف بهم، للحظات أحسوا بأنه لن يموت، فجراً أدهمهم وتقدم نحوه بخطى وجلة، كان يريد أن يتأكد من أن الدم الذي ينزف منه هو دم حقيقي، لمس الدم، وقال: إنه دمه. وتجراً فدفع الجسد الممزق بعقب بندقيته، وعندها سقط.

- وحتى أكون صادقاً أكثر ممك، بإمكانك أن تقول لي: لا أريد تنفيذ طلبك. واعلم أنني لن أقضب، ولن يتغير شيء من مشاعري تجاهكم.

- أنت تأمر ونحن ننفذ يا عم!

صمت الحمدي قليلاً، وبدا كما لو أن هموم الدنيا كلها قد أُطيقت عليه، ثم قال: هل ترضى بأن يبيتني أحد؟

- معاذ الله يا عم.

- أنت سمعت ما الذي فعله الحاج خالد بي.

- ومن لم يسمع يا عم! أقصد سمعت يا عم!

- أظنك قد عرفت طلبي الآن، فهل أقول إنك ستنفذه؟

- أنت تأمر يا عم.

- لا، أنا لا أريد أن أترك بشيء في هذه القضية، أنا أريد أن تقوم بما عليك القيام به وأنت مؤمن به.

في تلك الظهيرة الحارقة التي بدت فيها الشمس قطعة جمر كاوية، وصل ابن القاضي إلى الحادية كضيف، وحين عرف الحاج خالد بذلك، ترك كل ما في يده وهب لاستقباله مع مجموعة من الرجال.

أدرك القادم أن فرصة القتل مستحيلة في تلك اللحظة.

- القهوة يا حدان، وغداء الطيف يا رجال.

- لا أستطيع أن أبقي طويلاً هنا، ولكني مررت من جوار بلدكم فقلت كيف لا أُلقي التحية على الحاج خالد، واطمن على أوضاعكم بعد احتراق حقولكم.

- أصيل وابن أصيل، لقد كان أبوك واحداً من رجال فلسطين الذين لا يمكن أن يجود الزمان علينا بمثلهم ثانية.

.. وطوال ساعتين كان حديث الحاج خالد عن القاضي مسعود وحكمته والقصص والقضايا التي قام بحلها بعد أن عجز الإنجليز عن حلها، وكيف اضطر المندوب السامي البريطاني نفسه أن يلجأ إليه لفش نزاعات وقسست الحكومة الإنجليزية أمامها عاجزة.

- ولحظة بعد أخرى راحت النخوة تستلطف في دم الشاب وهو يسمع كل هذا عن أبيه من الشخص الذي يريد أن يقتله.

ذلك الليل

بعد سبع ليالٍ، استيقظت الغادية على حريقٍ بئتهم بيوت المستوطنة، ظل بقيء العنة حتى مشارف الصباح.¹³

أدرك الجميع خطورة ما يحدث، فاكثفوا بالصمت، وانتظروا على عتباتهم ما سيحمله نهار الغد.

لم يكن النهار قد أطلَّ حين أبطقت قوة من الجيش الإنجليزي على القرية من جميع الجهات.

وقب إدوارد بترسون أمام الحاج خالد وقال له: من الذي أحرق المستعمرة؟

- ومن قال لكم إنني أعرف إجابة لسؤال كهذا؟!

- ليس هناك أحد غيركم يمكن أن يفعل ذلك.

- النار تشتعل في فلسطين من كل جانب، فلماذا تحمّلونا نحن المسؤولية؟

- لأن المستعمرة هنا في أراضيكم.

- ها أنت قد قتلها، إنها في أراضيها، فكيف تطلب منا أن نكون حراساً لها؟

¹³ - يدافع فلايمير جاوبوتسكي، مؤسس الحركة الصهيونية التصححية عن الشعب الفلسطيني باختيار فلسطين ومنا لوميا لهذا الشعب، لكنه حين يبحث عن سببه للفلسطينيين لا يجد سوى الجنود الحمر والأزرق هذه الشعوب التي أبادها الغزاة، وحين يستعير هذا الوصف يكون قد أعطى لنفسه حق الغزو والمضيعة خيار الموت وهو يدافع عن الضحية!! أي شعب أصلي - بعض النظر إن كان هذا الشعب شعباً متمسداً أو متوحشاً - ينظر إلى بلده على أنها وطنه القومي، والذي سيكون هو سيده بالكامل، وعليه فلن يسمح بإزادته أن يكون له سيد جديد ولا حتى شريك جديد، وهكذا هي الحال مع العرب. المسيهون منا يحاولون إقناعنا بأن العرب اليوم من الفلسطينيين، يمكن للحبل أن تسطي عليهم... أنا أرفض هذا التقييم لمرب فلسطين... هم لا يمتلكون مفردتنا على التحمل ولا قوة إرادتنا، ولكن هذه هي مجمل الأخطاات الداخلية فيها بيتنا. فهم يتفرون إلى فلسطين بنفس الحب القنطري والحراس الحلفي الذي كان ينظر من خلاله كل أرتك إلى بلده التكسيك وكل سو إلى مروجهم.."

- أنا لا أطلب منكم أن تكونوا حراساً لها ولكنني أسألك من الذي أحرقها؟
- لا أحد من هنا، أؤكد لك ذلك.

تأمل بترسون الوجوه التي جمعها جنوده أمام جدران المنازل.

- لا تريد أن نخبرنا بالحقيقة. قال للحاج خالد.

- الحقيقة هي ما أقول لك، لا علاقة لنا بذلك الحريق.

استدار الضابط، توجه لصقوف الرجال التي ألصقتها البنادق بالجدران، وفجأة ارتفعت يده تشير، وما كانت تتوقف أمام رجل حتى يقوده الجنود جانباً.

لم يبق سوى عدد قليل من الشيوخ، وحين أنتم انتقاء من يريد، استدار إصبه إلى الحاج خالد وقد أضحت كفه على شكل سدس، ثم سمعوه يقول: بووم.

بعد قليل كان الحاج خالد بين رجال القرية الآخرين الذين حاولوا أن يحتجوا، لكن الحاج خالد أشار لهم بعينه أن يهدأوا.

كانت إحدى العربات المصفحة تقف على بعد عشرين متراً تراقب ما يدور. سار بترسون حتى وقف أمام الحاج خالد تماماً: لم تقل لي أسماء الرجال الغائبين؟

- لأنتك لم تسألني؟

- ها أنا أسألك.

- هناك الكثير من الرجال في الخارج يتابعون شؤون حياتهم ببعاً وشراء.

- ومن هم؟

- أكثر مما أستطيع أن أستبينهم.

- لا تريد أن تخبرني بأسمائهم إذن.

- قلت لك، إنهم أكثر مما أستطيع أن أسميهم.

- سم بعضهم إذن.

- أخشى أن أنسى الآخرين!

لقد سمع سكان المستعمرة رصاصاً يطلق باتجاههم. لا تنقل لي إنك لا تعرف مخاض السلاح أيضاً.

- لم يكن لدينا سلاح في أي يوم من الأيام. نحن قرية تسالقة، وأنتم تعرفون ذلك.

- نحن نعرف ما الذي فعلتموه بالأثر.

- هل تريد أن نحاسبنا على ما فعلناه بأعدائكم؟؟

- لا، ولكن أريد أن أعرف مخاض السلاح الذي حاربتم به أعدائنا.

- لا سلاح لدينا قلت لك. كان السلاح لدينا حين كنا بحاجة إليه.
أشار بترسون إلى الجنود أن يسوقوا الحاج خالد نحو شجرة بلوط عملاقة
توسط الساحة ويوثقوه بجذعها.
تقدم بترسون نحوه: ألا تريد أن تعترف بمخايب السلاح؟
- قلت لك، لا سلاح لدينا.
وعندها حدث ذلك الذي لم يتوقعوه: صفعته قوية كان صوتها هادراً إلى ذلك
الحد الذي أصمَّ الجميع.
تفكَّت الرجال، حالت البنادقُ دون وصولهم للحاج خالد، أشرع بترسون
سبسه، أطلق ثلاث رصاصات في الهواء تحملاً.
- لا تريد أن تعترف، عليك أن تتحمل إذن.
صفعته أخرى هوت مدوية، وحين استطاع أحمد خيس عبور صف الجنود
باندفاعه مجنونة، كانت الرصاصة الرابعة قد استقرَّت في قلبه تماماً. وخلف الجموع
أطلقت المصفحة صلبة منخفضة فاجأت كل من في الساحة، بجرة الجميع عمل
خفض رؤوسهم، حتى الجنود.
اشتعلت اللحظات بترقب عمت حين أمر الجنود كل سكان القرية أن ينبطحوا
وووجههم للتراب.
وحين تردد بعضهم انطلق الرصاص مبعثراً التراب والحجارة ما بين الأقدام.
عاد بترسون للحاج خالد: لا تريد أن تعترف إذن؟
امتدت يده إلى الشارب الأيمن الطويل للحاج خالد، وبكل ما فيها من قوة
التزعته، فأنقب دم كان راح يغطي جزءاً من شفتيه وذقنه.
- سأسألك مرة أخرى. أين مخايب الأسلحة؟
- لا أسلحة لدينا قلت لك.
امتدت يد بترسون إلى الشارب الأيسر، التفت أعينها، ولم تكن عينا الضابط
تقولان سوى شيء واحد: لا تريد أن تعترف إذن؟! في حين كان الغضب المعجون
بالقهر يذهب بعيداً في عيني الحاج.
وكما في المرة الأولى انتزع الجانب الآخر فأنقب الدم.
- أتريد مواصلة هذا العناد؟
- فلتعلم، لو كان لديّ سلاح، وليس لديّ، لما كنت أفرط فيه وأسلمك إياه
بعد الذي فعلته.

التفت بترسون إلى الوجوه الملتصقة بالتراب وقال: لا يريد أن يعترف. هل
هناك شخص آخر يريد أن يعترف أم تبدأ من جديد؟
خيم الصمت على الجميع.
أشار بترسون لجنوده أن يسوقوا الرجال باتجاه المصفحة.
راحت يد أخرى هذه المرة تشير إلى صف الرجال، يد رجل يخفي وجهه تحت
فتاع لا يظهر سوى عينيه، يُطَلِّقُ عليه أهل القرية (كيس الخيش).
وجد ثمانية رجال أنفسهم يُساقون جاثياً.
من بينهم انتفى بترسون إسماعيل يونس، طلب أن يوثقوه في الجانب الآخر من
جذع شجرة البلوط، فأطبقت الحبال أكثر فأكثر على جسد الحاج خالد.
كان فصل التعذيب مختلفاً، حيث انبال الجنود على إسماعيل هذه المرة بأعقاب
بنادقهم من كل جانب، فتناثر دمه في كل الاتجاهات، وكلما أصابه ضربة انتفض
جسده فأحس الحاج خالد بأحبال تقوص أكثر في لحمه على الطرف الثاني.
بعد نصف ساعة صاح إسماعيل تحت الألم: سأعترف. سأدلكم على السلاح.
هبط الرعب فجأة على رؤوس أهل البلد، وأيقنوا أن نهاية الكثيرين منهم قد
حانت.
- أين السلاح. سأله بترسون.
- سأدلكم عليه.
أشار للجنود أن يملأوا وثاقه، دفعوه أمامهم بفوهات البنادق، وكلما أوشكت
قواه أن تخور تلقى ضربة أخرى.
ظل يسير بهم إلى أن وصل إلى حافة البئر، وقبل أن يسألوه: أين السلاح؟
صرخ: إنه هنا. وألقى بجسده في عتمة البئر.
حذق بترسون في جوف البئر فلم ير غير العتمة، العتمة القاسية.
- قُتِلوا البئر. أمر جنوده.
لم يجدوا هناك غير الحجة الطافية والماء المخلط بالدم.
عاد بترسون للساحة من جديد، حذق في وجوههم: ألا تعني لكم الحياة
شيئاً؟! صرخ فاقداً أعصابه.
- إنها تعني لنا كل شيء. قال الحاج خالد. وللحظة أحس بترسون أن
الكلمات التي سمعها كانت ملوثة بالدم فعلاً. امتدت يده، مسح أذنيه.

انطلقت المصفحة بعيداً، في جوفها سبعة رجال ثامنهم الحاج خالد، وخلعها ثلاث عربات جيب عسكرية.¹⁴

بعد خمسة أيام من الاعتقال والتحقيق والتعذيب في سجن (المسكوبية)، الذي كان ذات يوم من أعظم النباتات التي ينتها روسيا القيصريه لحجاج بيت المقدس خارج أسوار القدس، اشتعلت النار ثانية في المستعمرة، وبدل أن يطلق الإنجليز سراح المعتقلين، وقد ثبت أن هناك من يحرق المستعمرة غيرهم، راحوا يستجوبونهم عن أسماء رفاقهم الثوار الذين يقومون بذلك. وحين لم يستطيعوا الوصول إلى شيء أطلقوا سراح الرجال أخيراً.

وصلوا القرية ممزقين ثامساً، لكنهم تعاملوا على أنفسهم كسي بداروا الأمم والضعف الذين يتفقدان أجسادهم.

لقد عاد الجميع.
ولثلاثة أيام متتالية ظلت الأفراس والأعراس مشتتة احتفاء بعودتهم.
أما على الطرف الآخر من الغادية، فقد كان الحقد يأكل قلب الحاج صبري النجار.

- كنا نريد أن يكون أصغر فإذا به يصبح أكبر!!

حافة القيامة

راح صوت الريح يذرع الجهات بجنون، أحكموا إغلاق الأبواب والنوافذ، كانوا قد التجأوا جميعاً لبيت الحاج خالد، ومن الداخل كان بإمكانهم أن يسموا ارتفاع شجرة البرتقال وفرق أخصان سديانة الحوش وأنيها الموجه.
فجأة هيئ لميرة أن ما تسمعه على الباب طرقات أيد لا ثورات ريح.

نبض الحاج خالد، سار إلى الباب، ألقت منيرة نظرة على شعلة الفاتوس، ولوهلة أدركت أن إشراق الباب سيكون كافياً لإخمادها، انقبض قلبها. فتح الحاج خالد الباب مولوية، خرج، سار نحو بوابة الحوش، أشرعها، جاء صوت من الخارج شاقاً سحابات الغبار الثقيلة: إنه هو. فدوى طلق تاري، تراجع الحاج خالد خطوتين، ثم هوى أرضاً على وجهه.

ركضت العزيزة نحو أخيها، صرخت، في حين لم تجد سمية قدميها لتتحرك، وتجمدت منيرة مثلها، وفي الخارج كان باستطاعة العزيزة أن ترى قامه ضابط إنجليزي عمام بجنوده.

صاحت العزيزة: يا غوي!! يا غوي.

تراجع الضابط للوراء والجنود بأسلحتهم المشرعة.
وصلوا إلى عربتهم التي ظلَّ عمرُها يدور طوال الوقت، انطلقت بسرعة، راح صوتها يلتمح قليلاً قليلاً بأزيز الريح حتى اختفى فيه.

انطلقت العزيزة تجري مجنونة خلف العربة العسكرية، لكن الغبار الذي أطيح على الدنيا راح يثقلها، أشبه بشبح كانت، لا يكاد يظهر جزء منها حتى يختفي، لكنها كانت على يقين أنها سمعت، حين وقلت خلف الباب، من يقول: إنه هو، ولم يكن إنجليزياً.

¹⁴ - تلك الليلة كتب بارسون:

القلعة مفتاح الضوء/ الشجرة سلم السماء/ الحضور رسالة الخلق/ في القلب استقر عجبك يا حبيبي/ ولجأة راح المعدن ينمو/ لا تأكلني من الثمر.

كانت منيرة تنظر إلى خالد وسالم، وتحمد الله أنه أبقاهما لها، كلها تلفتت نحو قريي مصطفى ومحمد، كلها تذكرت عودتها المُرّة لباب أمهما بعد سنوات من دفنها، كلها تذكرت كيف تم جمعها ودفنها من جديد.

كان الخروج من زمن الأثراك بمثابة عودة للروح بالنسبة لها ولآلاف الأمهات والآباء الذين عاد أبناؤهم إلى بيوتهم من أزمنة المضاربات، أو من الجبهات وقد انتهت الحرب، لكنها كانت تعرف أيضاً، أن هناك آلاف من قلوب الأمهات التي لم تزال ترتقب عودة أولئك الذين لم يعودوا، الذين ابتلعهم الجبهات البعيدة وشعاب الجوع.

حدث الله أنهم هنا، ولم تكذب نبأ يعودهم حتى راحت تحفر بيديها العاريتين قبر زوجها الذي هبّ عليه رصاص الغدر واختطف روحه، هي التي كانت تدعو الله دائماً: اللهم أمتني قبله حتى لا أشرب حسرته. لكنها شربتها، كما شربت حسرة موت محمد ومصطفى.

على بعد ستتمرات قليلة من القلب عبرت الرصاصة، وخرجت من الظهر، تاركة نافورة دم تتدفق في كل الاتجاهات، اندفعوا بجاولون وقلها، أدركوا استحالة ذلك، إلى الشارع المعبّد ركض سالم، كان الأفق مقلّداً تماماً، وليس ثمة مجال لسماح صوت محرك قادم من بعيد، لم يكن هناك سوى صوت الريح، هذه اليد الكونية التي تُكوّن الأرض على هواها وتبعثرها دون رحمة.

أدرك سالم، الذي وصله الخبر في بيته، أن خالد لن يتجو أبداً، حين راحت الدقائق تنطير حوله مع التراب، لكن العودة للبيت لم تكن تعني له سوى التسليم بهذا الموت الفادر، قرر البقاء، لن يعود، ومرة أخرى أحس بدوام الوقت يُبَيّر وتفتلعه من مكانه وتطرح به، وللحظة عم الصمت، يرى الأشياء تنطير حوله ولا يسمع لها صوتاً، وفي لحظة خامضة أطلّت سيارة من جوف الريح، وبصعوبة استطاع سائقها فنادي سحق ذلك الجسد الذي انتصب في وسط الشارع كسارية مكسورة.

في مستشفى الرملة قالوا لهم: يحتاج إلى عملية كبيرة، لا نستطيع أن نجريها هنا، كما أنه فقد الكثير من الدم. عليكم أن تغلقوا مستشفى الدجاني الجراحي في باقة.

معدداً على السرير كان، شاحبا كيوم عاصف واذبلاً كصحراء. هز الأطباء رؤوسهم: ليس هناك أمل.

تحلقوا حوله ليكون، مدركين أن العالم سينهار في أي لحظة فوق رؤوسهم، وقد قلّدا عمود البيت.

ومن بين الجموع التي تحلّقت حول السرير وفي الممرات ومساحة المستشفى، إنسل حسين الصعوب، شاكراً منها وعلى الأصرح صوب الحادية، ليحطوا قبرا له جوار أخويه وأبيه.

كانت الريح لم تزال تحوم وتقلب الأرض، وتعيد التراب الذي يتجمّع إلى جانب الحفرة إلى داخلها من جديد، حتى باتوا على يقين من أن الريح لا تزيد منهم أن يواروه التراب. تماماً كما فعل المطر ذات يوم بجيشي أخويه.

وفي لحظة خامضة أوقفوا الحفر، وقد أوشكوا أن ينثروا الأمر، تأملوا بعضهم في وجوه البعض عبر كثافة الغبار والدعم الطيني الذي ينساب على وجوههم. وقرروا العودة إلى المستشفى.

كانوا يبطون التل، حين رأوا سالم يهبط من سيارة أجرة، ويعدو نحوهم، صائحا بكلمات لم يستطيعوا التقاطها، ركضوا نحوه، وحين التقوا راح يمانتهم وهو يبيكي، ويصرخ بجنون فرح: عاش، رجع عاش، والله عاش.

نظر الرجال بعضهم في وجوه البعض وراحوا يصرخون ويكون: عاش. عاش!!

توقف الحاج خالد فوق قبره، تأمل ترابه الذي ناداه، ترابه الذي لم يكمل نداءه، وفي تلك اللحظة أدرك أنه حي، تحس جسده وهو يمتدق في الحفرة، وبكى، بكى كما لو أنه لم يمض، كما لو أن من يقف على حافة القبر هو طيفه الذي يمتدق ألا وقد نيم بعد فقد جسده.

"ألهذه هي الحياة الجديدة التي يقولون أنها تكتب للإنسان؟ إنها هي، وماذا يمكن أن ندعوها إن لم تكن كذلك؟ اتروا ذلك القبر في. إنه قبري، لا تدفنا قبري هنا حتى لو انعدمت القبور"

راحت القبور تتكاثر فيها بعد حول تلك الحفرة، وفي كل مرة كان الحاج خالد يصعد إلى هناك. كان يقف وجها لوجه مع تلك الحفرة التي لا تمنعها التحديق فيه ولا ينهه التحديق فيها.

تنهّد: إحنا وين وهم وين!!!

بعد أقل من ثلاثة أسابيع على انطلاق تلك الرصاصة، جاء الخبر اليقين: يد الحاج صبري النجار هي التي وضعت الطلقة في البندقية الإنجليزية، كل ما فعله الإنجليزي هو الضغط على الزناد!!

أطبقت النعمة تماما على قلب الحاج خالد، نظر إلى يديه وقدميه فرأى عشرات القيود تلتفت عليها.

انتفى فايز واحدة من البنادق التي يطلق عليها اسم (الصوّاري) بندقية إنجليزية قوية وذات مدى بعيد، تستطيع استيعاب خمس طلقات، وتسلل ليلا إلى الحارة الثانية، طرق الباب وابتعد، وحين خرج شقيق النجار أطلق عليه رصاصة واحدة في جبينه وولى هاربا.

أحس الحاج صبري بأن سرّه لا بد قد انكشف، فالرصاصة التي عبرت جبين أخيه تملن ذلك! أسرع الجميع أبوابه، وفي لحظة جنون قرر المضي بالأمر إلى آخره، حين اندفع برجاله نحو حارة الحاج خالد، لبدأ معركة لم تنته حتى بعد وصول الإنجليزي الذي قتلوا كثيرا قبل وقفها.

اعتصر الحاج خالد جبينه بأصابع يده اليسرى، تأمل كل ما رآه وما لم يره بعد، أدرك أن الرصاصة المقبلة ستكون قاتلة، وهكذا، ما إن رأى عربات الجيش الإنجليزي تتقدم، حتى اغشى تماما، كما لو أن الأرض ابتلعت، ليبدأ فصل طويل من المطاردة لن ينتهي إلا بعد القبض عليه عند حرب الشطرية قرب الرملة.

كان أموان الحاج صبري النجار وعبد الطيف الحشدي قد تعقبوه حتى اكتشفوا مكانه، ولكي لا يتحوّل الأمر إلى مذبحة قرر أن يسلم نفسه للقوة التي حاصرت، فهو يعرف في النهاية أن أحدا لا يستطيع أن يثبت أنه هو الذي قتل شقيق النجار.

في السجن وجد نفسه: تحرّكت المنطقة كلّها لتجد حلا لهذه المشكلة التي راحت تهدد القرية بأكملها، لكن النجار رفض الصلح، وقرر المضي في الطريق إلى أن يرى الحاج خالد على خشبة المشقة.

سر الرصاصة

لم بعد الأمر سرّاً: فالرصاصة التي انطلقت كانت تستهدف قلبه، بعد أن عجزوا عن إثبات صعوده الجبل مع التوار: فحاولوا اختصار ذلك كله برصاصة. أنكر الإنجليز علاقتهم بالأمر، أغلغوا التحقيق قبل فتحه، ولم يكن هناك أحد من أهل البيت يمكن أن يقول لقد رأيت وجهها ما بوضوح، حتى العزيرة لم تستطع أن تصف وجه الذي أطلق النار: قالت إنه طويل وتوقفت. ماذا أقول، كلهم مثل بعض!

كان الحاج خالد يعرف أن الرصاص يمكن أن يصبّ عليه من جهات كثيرة، لكن الكلمات راحت تتضح أكثر فأكثر وتشير إلى ذلك الطامع في احتلال مكان الحاج خالد كشخ للقرية.

عض الحاج خالد على جرحه، وبدا له الأفق مقلّلا كما لم يكن في أي يوم من الأيام، فالحديث عن طمع الذئب بأرض الحادية راح يتصاعد، واشتكى الناس من أن الحوري ليودورس، ومنذ زمن طويل، لا يعيد إليهم الكواشين القليلة التي تبيت ملكيتهم للأرض، وأن حججه تتكاثر ويتعثر بعضها ببعض الآخر. وبدا عيب الطيف الحشدي أكثر قرباً من أن يحقق ما يريد مسلحاً بقوة عسكريه وسلطات الانتداب الإنجليزية. ويدت المستعمرة كما لو أنها تنسح دون أن تُنشد، فيبونها تتكاثر وتزداد ارتفاعاً، وأصوات جراراتها التي تحرث الأرض شزق فجر القرية نهارة، ومولّدات الكهرباء تهدر عمرة هداة الليل دون انقطاع، معلنة بهذا الضجيج مسافة كبيرة بين زمنين، زمن الحادية وزمن المستعمرة.

تأمل الحاج خالد، سعد صالح يحرق الأرض ببقرة وصعد نظره إلى المستعمرة فرأى ذلك الجرار الذي يقلب الأرض واتحا غاديا كرصاصة.

بعد ثلاثة أسابيع من تحقيق مع الحاج خالد لم تكن نتيجة سوى الهباء، استطاع الوصول إلى سطح السجن، كانت الريح شديدة، وقد قيل إنه قفز من فوقه بعد أن استخدم غطاء السرير كمظلة وأنه اختفى في أحد القبور يومين، حتى فقد الإنجليز الأمل في العثور عليه.

بوصول أخبار فراره إلى التجار، أخذت الرياح اتجاهها آخر، في الوقت الذي راحت فيه الحبوط تضح أكثر فأكثر. حين شهد أحد رجال عشيرة التجار أن التجار نفسه كان وراء محاولة قتل الحاج خالد، وأنه هو من قاد الإنجليز؛ وبوصول القضية إلى ذروتها، أعلن التجار أنه على استعداد لإجراء الصلح وإيجاد حل. رفض الحاج خالد، أحس التجار بالخطر، فالتجأ إلى الإنجليز ثانية باحثاً عن حمايتهم، فطلبوا منه أن يجد حلاً لمشكلته، فلم يجد سبيلاً إلى ذلك غير عقد صلح مع الحاج خالد: دم بدم!! مقابل حرية الحاج خالد الذي تتمتع سلطات الانتداب بعدم ملاحقته.

- لم تكن أمور هذه الثارات تعني الإنجليز، سواء أكان عدد القتلى واحداً أو خمسين، كان بينهم ألا يكون القتلى منهم أو من اليهود. ولذلك تركوا الجبال واسعة للمحاكم الشعبية كي تصل إلى حلول لهذا النوع من القضايا، وفي حالات بدت فيها الثارات مزعجة للإنجليز ذهبوا بأنفسهم للقضاء الشعبيين لإيجاد الحلول الضالعة.

كان ذلك بعد فترة، غدا فيها الحاج خالد واحداً من أكثر المطلوبين الذين يتردد اسمهم في تلك المناطق.

- هذا أسمى ما يمكن أن تقدمه لك. قال إدوارد بترسون للتجار.

- يحضر أمام الجميع ويكون المسدس الذي سلّحته به بريطانياً مُعلّقاً في رقبته. هذا شرط الأول. قال الحاج خالد.

- وما هو شرطك الثاني؟

- أرجو الله أن يلهمني إياه بعد أن يتحقق الشرط الأول!!

ضغطوا على التجار، قُبِلَ بذلك.

نُصبت بيوت الشعر، حضر أهالي منطقة الخليل، غزة، القدس، وحضر المحاكم الإنجليزي لمدينة غزة بنفسه، وقد كان معروفاً عنه أنه يتصرف كما لو أنه المشدوب السامي، وحضر إدوارد بترسون أيضاً.

حين وصل الحاج خالد، تقدّم نحو رجال الجاهة ليصافحهم، لكن حاكم غزة وبترسون ظلّا جالسين. أحس الناس بالإهانة، فصاحوا معا بصوت هادر: قتلوا وسلموا عليه. فما كان منها إلا أن استجاب، مرغمين.

تأمل بترسون الحاج خالد بحقق شديد، وقد أطبقت يد كل منها على يد الآخر، وهم لنفسه: أمذك. سأقتلك ذات يوم!

كثيرون كانوا يريدون رؤية الحاج خالد، الذي تحوّل إلى أسطورة بعد هربه. لم يكن الاجتماع ليبحث القضية وإصدار حكم، بل اجتماع يطلب فيه الحاج خالد ما يريد، على أن يقبل التجار بذلك دون مناقشة. من بعيد جيء بالتجار. ظلّ يسير ومسده معلق بربقته إلى أن توقّف وسط الساحة.

- تسألني لماذا صممت عشيرته؟ سأقول لك، معظمهم لم يكن يطيقه بسبب علاقته بالإنجليز، كان هناك ضمير، والناس كانت تحس بالخطر الذي يجلبه بها، حتى أن ابنه كرم كان غداً، ولم ينامر البيت ذلك اليوم..

قال الشيخ ناصر العلي، الذي سيتوفى بعد أقل من أسبوع غلغلاً جرحاً عميقاً في قلب الحاج خالد: غريمك أمامك فاطلب ما تريد.

اعتصر الحاج خالد جيته بأصابع يده اليسرى، استقرت نظرات آلاف الأعين عليه.

- بعد أن تحقق الشرط الأول، أطلب أن يدفع ألفي دينار إذا ما أراد أن أعفو عنه.

- كان يعرف أن طلبه مستحيل في تلك الفترة وأن مبلغاً كهذا ليس من السهل الحصول عليه.

انتفض التجار: لو أنك طلبت رأسي لكان ذلك معقولاً أكثر.

لكن الناس صرخت: ادفع ما عليك يا صبري!!

بعد قليل قام أقاربه بتجميع النقود، وحين وضعوها أمام الشيخ ناصر العلي وقام بعدها وتقدير ثمن بعض الخلي الذهبية إلى جوارها قال: هذا المبلغ أقل من المطلوب.

ارتبك رجال الجماعة، ولم يعرفوا ما الذي يمكن عليهم أن يفعلوه. وأصر الحاج خالد: لا تنقص الألفان فلساً واحداً.

تصاعدت الأصوات منلرة بفوضى يمكن أن تحتاج الساحة. وفجأة، احترق أحدهم الساحة بعباته الواسعة وكوفيته التي تسر وجهه.

- هل تقبل أن تبرع النساء!!!

قال الحاج خالد: أقبل.

قالت: يا حاج خالد هذا تبرع مني. وأزاحت الكوفية عن وجهها وإذا هي منيرة أمه.

فرزت المحرمة الحمراء التي في يدها فشح الذهب أمام الشيخ ناصر العلي.

- هذه صيغتي وصيفة أختك وصيفة زوجة فايز وزوجة محمود وصيفة عمك الأثينة. إتنا تقدمها لك، فهل يكتمل المبلغ.

- نعم يكتمل.

- وهل يكفيك هذا بحيث لا تطلب فوق ما طلبته؟

- لا يكفيني أبداً!!

هبط الصمت وراحت القلوب تتفاقر في قلوب الناس من جديد.

قالت: لا يكفيك هذا إذن!! ولكن لي عندك دين هل تتعهد بأن توفيه في وجوه هؤلاء الحاضرين؟

- برفقتي.

- لقد تكلت تسعة أشهر في رحي وولدتك من عيني وربيتك حتى أصبحت رجلاً وأنا أريد الآن حقك منك، وحتى هو كل ما يمكن أن تطلبه من التجار.

فقال: وجهك علي، إني أعفو عنه.

عند ذلك طلب الشيخ ناصر العلي من الحاج التجار أن يتقدم.

- ما الذي يمكن أن نقوله الآن للحاج خالد؟ سألوه.

- هذا أنا بين يديك. قال. فإذا عفوت فهذا من شيمك، وإن أحببت أن تنقص مني فهذا مسدي في رقتي وتستطيع أن تتناوله وتقتلني به!

اعتصر الحاج خالد جبينه بأصابع يده اليسرى، تفحص وجوه الحاضرين الذين كانوا ينتظرون كلمته، وبعد صمت قال: لقد عفوت عنك، ولكن لتعلم أني كنت أستطيع أن أخذ ما أريده بالقوة وما كنت أحب أن أخذه منك شخصياً، بل من حكومة بريطانيا ممثلة بالخيانة التي تسكنك.

اندفع الناس يكبرون ويرقصون، واستمر العرس حتى سمعوا أذان المغرب.

مال الشيخ ناصر العلي نحو أذن الحاج خالد وهمس: كنت أعتقد أنك ستطلب تحريده من منصبه كمختار أيضاً.

- لقد فكرت في ذلك يا شيخ ورأيت أن ذلك قد يشق القرية من جديد، فطوال عمرنا كانت المشيخة لنا والمخترة لهم، ثم أنت تعرف، لن نجد أفضل منه محبة لأقدام الإنجليز.

اختل شيوخ الجماعة بالتجار، قالوا له: عليك أن ترضي خالد إلى الأبد. فقال: كيف؟

قالوا: تزوجه ابنتك، تعطيه إياها (عُرَّة).

فقال: لن تكون ابنتي عُرَّة أبداً.

- طبعاً رفضه مفهوم، فالتكررة عكس الحُرَّة، وهي أسوأ النساء حظاً، إذ تُعتبر أمة، يواجها الحقد والاحتقار، ولا يحق لأهلها أن يدافعوا عنها، أو يتصرفوا لها إلا بعد أن تعجب ولداً ذكراً.

أجبروه على ذلك، ذهبوا وجهزوها، أركبوها فرساً، وقالوا له قُدِّها إلى بيت الحاج خالد. لقد ساعحك هو، لكننا لم نساعدك بعد أن التجأت لبريطانيا وتسلطت على الناس بجنودها، وأصبحت (عبد اللطيف) الصغير هنا.

لم تقل ابنته سعيدة شيئاً، ظلت صامتة، حين سألوها هل تقبلين بالحاج خالد زوجاً. وقال لها أخوها كريم حين اختل بها: ستكونين حرة هناك أكثر مما أنت هنا. طرق الباب، خرج الحاج خالد، قال التجار: هذه ابنتي جاءتك، ولا جزاء وراءها.

حدّق الحاج خالد في وجوه القضاة، أشاروا له أن يوالق، أفسح لها الطريق، دخلت البيت، تسمرت سمية غير قادرة على أن تنطق بكلمة واحدة، أدرك الحاج خالد ذلك، هز رأسه ففهمته. أمسكت العروس من يدها وقادتها للدخول.

قالوا له: ننكل على الله ونعقد القران.

- إنها ضيفتي الآن وأختي إلى أن يلهتها الله ما نفعله.

كان يدرك أن إعدادها مستعني إعانة كبرى ستفتح الجروح من جديد. ولم تكن سعدية غريبة عنه فقلطاً ما رآها في الحقول والأعراس تتنقل كالثجلة بين شجرة زيتون وأخرى وهي تجمع الثمار أو تحصد القمح، وقد ظلوا دائماً يشبهونها بعصاف زوجة محمود.

أما الشيء الذي لم يعرفه أحد سوى تلك العروس التي قادها حفظها إلى هناك متجاوزاً كل التوقعات، فهو أنها الوحيدة التي كانت ترحّ هذا القنّار الذي هبط عليها رطباً عن الجميع.

بعد أربعين يوماً، نهضت سمية باكراً، زينت سعدية، وأحاطت عنقها بضعف ما جاء عليها من حلّ، ونادت: إنها جاهزة.

كانت دموع سعدية تتساقط غزيرة، لكن أحداً لم يعترف سرّ تلك الدموع، وسيمضي زمن طويل قبل أن يدركوا ما فيها.

أمسك الحاج خالد بالفرس، وظل يسير، يتبعه أهل القرية الذين راوحوا يتكاثرون شيئاً فشيئاً، حتى وصلوا بيت أبيها. طرق الباب. خرج. فقال للنجار أمام أمين الناس: هذه ابنتك تعود إليك نقية كما أتتنا وبضعف ما كان عليها. لقد عدت بالفرس التي حملتها، أما أنا فلن أعود بهذه الفرس، إنها لها، وباستطاعتك أن تزوجها لمن تشاء.

لكن، وإلى زمن طويل ستظل حكاية سعدية من أكثر الحكايات التي عرفتها الهادية حزناً، سعدية التي رفضت الزواج بكل أولئك الذين تقدّموا بطلبون يدها، وظلت ترد هناك رجل واحد يمكن أن أكون امرأته، ذلك الذي دخلت بيته ذليلة وأعادني كريمة إلى بيت أهلي.

وصول ربحانة

وصل الخبر إلى الهادية، بعد الغروب بقليل.

- إدوارد بترسون نجا من محاولة لاختياله، وبعد ثلاث ساعات جاء الخبر الصاعق: البوليس البريطاني ألقى القبض على مطلق النار.

وحين علموا أن الشاب هو ابن ربحانة زوجة الحبيب الأخيرة، أدركوا أن هناك امرأة يجب أن يلتقوا جميعاً إلى جانبها، وقد كانت القرى تتناقل قصتها منذ مقتل الحبيب من لسان إلى لسان، حتى أن اسمها الشائع أصبح (ربحانة الأدهم) فكانت أول إنسان في البلاد يُنسب إلى حصان لا إلى أبيه.

في محاكمة خاطفة لم تستغرق أكثر من ثلاثة أيام، تم الحكم على ابنها بالإعدام. لم تترك ربحانة، لم تصرخ، لم تلعن المحكمة وحكومة بريطانيا أو تنزل دعوها على رأس الملك. وقفت حدثت في عيني ابنها وقالت: أعيديني إلى البيت.

لكنها قبل أن تصل، قالت: مثيلاً على الهادية.

وعندما سألوها: لماذا؟

قالت: أريد رؤية الحاج خالد.

كان وصولها في تلك الساعة المتأخرة مفاجأة كبرى، أحدث ارتباكاً كبيراً في الهادية، كان الإحساس الذي انتاب الجميع يسوق كثيراً إحساسهم لو أن المفتي الحاج أمين الحسيني بنفسه وصل.

صعدت بالنجاح المضافة.

كان حдан يراقب محاولاً التكهن بضيوف هذه الساعة المتأخرة، مذ توقفت السيارة ونزل منها شخص واحد ملتفًا بتلك العباءة التي اختلط لونها بسواد الليل. وحيره أن الظلال التي لمحها لأكثر من راكب قد بقيت داخل السيارة.

ظلت تسير إلى أن وصلت. ألقت عليه النحية، فهاهنا أنها امرأة. سأله عن الحاج خالد، فرد مرتبكاً: إنه في البيت.

- لديه ضيوف. قالت.

- هل أخبره بأساتيم؟

- قل له وبجاعة.

- وبجاعة الأدهم.

- وبجاعة الأدهم!!

كان لأسماها وقعة، وبدت في أعين الكثيرين أقرب لكائنات الأساطير منها إلى البشر، عفيفة ومنزهة كسيدتنا مريم، وقوية الإرادة كزيتونة معمرة.

الشيء الغريب، أن رجاعة كانت الأكثر فحراً باسمها الجديد، وفي وقت اعتقد كثير من الناس أن إطلاق اسم كهذا عليها قد يكون محرماً، كانت على ثقة بأن هذا الاسم كان يجب أن يكون اسمها منذ مولدها، لأن الأدهم كان الوحيد الذي وقف إلى جانبها وحماها بكل ما فيه من قوة، وعندما صار عليه أن يقدم دمه، قدم ذلك الدم، في الوقت الذي لم يستطع أي رجل من رجال قريتها الوقوف في وجه الحبيب (الذي انتزعها من بين أيديهم على مرأى شواربهم ولحاهم) كما قالت فيما بعد.

بعد ثلاثة أيام من موت الحبيب، التفتت إلى زوجته صبيحة وقالت: كل ما تريدني من هذا البيت غداً.

سألتها صبيحة: ولكن هل تعتقدين أنه مات فعلاً؟

- ما هذا الكلام يا صبيحة؟

- والله أنني غير مصدقة حتى الآن. أخشى أن ينهض من قبره فجأة ويقول لي: ثلاثة!!

- اطمني. ثلاثة أيام كافية لأن تشيع الميت موتاً.

- طيب، وأنت، ألا تريدني شيئاً؟

- لقد أخذت ما أريد.

ارتبكت صبيحة: وماذا أخذت؟

- أخذت موت الحبيب يا صبيحة! لا تمر في حتى الآن ما أخذت!! حصني من هذا البيت ومن كل أملاكه شيء واحد: موته. وأخشى أن أكون ظلمتكم حين أخذت الحصاة الأكبر!

اتدفع كثيرون من جميع الاتجاهات لتقديم المزاء لها، لكنها أقفلت الباب في وجوههم: إذا وجدتم له أهلاً فادعوا وعزّوهم به. نحن لم نكن أهله في أي يوم من الأيام. نحن كنا أسراء، سبياء.

لزم من طويل فُكِّرت وبجاعة بخالد، كما لم تفكر بأي رجل من قبل، وعندما سمعت بقتله مع ياسمين، أحست بجرح غائر في صدرها، جرح سقط فجأة من مجاهل الأم وأسطر عبقاً. كان هنالك رجل واحد لا غير، بإمكانها أن تتنازل عن نسبها الجديد من أجله: خالد. وقد باغتت نفسها تقارن بين اسمها والاسم الآخر الذي كان يمكن أن تحمله: ورجاعة زوجة خالد الحاج محمود.

لقد حلمت كثيراً، وفجأة وقفت في مواجهة نفسها وقالت: يكفني، لقد ابتعدت كثيراً يا رجاعة!

لكنها لم تنس أبداً أن خالد كان الرجل الوحيد الذي مده يده إليها في قصر تلك البئر المظلمة وانتشلها في اللحظة الأخيرة، تلك اليد العظيمة التي استطاعت سحق يد الحبيب، اليد الرحمة، اليد التي سبّغها بعد قليل باحثة فيها عن حياة أخرى، ولكن لولدها هذه المرة.

في بيت الحبيب، لم تكن صبيحة قادرة على معرفة خطوبها التالية، فسلمى زوجته الأولى لم تكن هناك، أما رجاعة فقد غادرت صبيحة اليوم الرابع، كانت قد دفنت الأدهم، كما ينبغي أن يُدفن، فأصيل مثله لا يُترك للكلاب البرّ تنتهش لحمه أو لجوارح السباع تُفَرِّق جثتي عيني. دفنته كما يليق بأي فرس أصيلة أو حصان حسب عادات أهل البلاد التي تُقدّر الخيل حية وميتة.

بعد أقل من ستة، تزوّجت رجاعة من سيف الدين السعدي الذي استطاع أن يقول لا لعبد اللطيف الحمدي حين طلب منه أن يرسل أخوانه لتنظيف بيت الحبيب الذي غدا بيته.

- قل لعبد اللطيف، أخوات سيف الدين لا يُنظفن سوى البيوت النظيفة. صرخ في وجه أحد عساكر الحمدي الذي جاء إليه في حقله.

وعندما ابتعد الرجل طلبت منه سيف الدين أن يعود، كان الشرر يتطاير من عينيه: وقل له إن عمر الرجال أطول من عمر الإمبراطوريات.

لم يكن سيف الدين السعدي يعرف أنه يرث على تلك الجملة التي قالها ذات يوم والد ياسمين، وهو يقنعها بالتمتع: عُمرُ الدُول أطول من عمر الناس!

حين وصلت أخبار ما حدث لريحانة، خفق قلبها. قالت لأמהا: سأزوج هذا الرجل.

- وهل أنت مجنونة. كيف يمكن أن تختاري عريسك. عريسك هو الذي يشارك.

- صدقيني، سيختارني.

في صبيحة اليوم التالي طلبت من أختها أن تذهب إليه وتخبره بما تفكر فيه. رفضت أختها، طلبت من أختها الثانية فكان الجواب نفسه بانتظارها. عادت إلى أמהا: لم يبق هناك غيرك.

- سيقتلني الرجال إن عرفوا بالأمر.

- سيقتلك الرجال لو كان هناك رجال حقاً، أما هؤلاء الذين قبلوا بأن تكون أمهاتهم وزوجاتهم وأخوانهم خادعات في قصر الحمدي فلا تخافي منهم.

خاتمة، متخفية، متعثرة بظلمة الواهن سارت أمها باتجاه الحقل، غطاء رأسها يحجب ثلاثة أرباع وجهها. رآها سيف الدين من بعيد قادمة، لم يعرفها، وقف ينظر إليها، تسمرت مكانها، لم يعرف ما الذي عليه أن يفعله، هل يسير إليها ليعرف حاجتها أم ينتظر حتى يجيء. وظلت مكانها. بعد لحظات وجد أن عليه أن يمضي إلى هناك. مرتبكاً تقدّم، وقد أحسّ بشيء غريب. حين وقعت عيناه على يدها المنفضة بعروقها النافرة، يدعا التي تملك بغطاء رأسها لتخفي وجهها أكثر، سالها: هل من خدمة يمكن أن أقدمها لكِ بأمّا؟

- أحل لك كلاماً قليلاً عليّ لم تحمله أمّ من قبل في هذه البلاد.

- الله يجعلني عند حسن ظلك.

- وريحانة ابنتي تسلّم عليك وتسالك أن تكون زوجها.

كانت المفاجأة أكبر مما يتصور، فحين كانوا هناك في الجبال يقاثلون الأشراك من مكان إلى مكان، كانت وريحانة وحيدة تقاثلهم هنا. صحيح أنهم لم يكونوا على علم بكل ما يدور معهم، لكن الأيام التالية حملت كل أسرار الأيام الماضية بتسارع أذهل الجميع.

- قولي لها. إذا كان هناك في هذه الدنيا شيء يُسمى الشرف، فلا شيء يترَفني أكثر من هذا.

لم تكن مفاجأة الحاج خالد أقل من مفاجأة حمدان حين وصل ببعه موسى وتاجي ووجد نفسه معها وجهاً لوجه.

لوراها من قبل لقائ: إن الزمان لم يغير فيها شيئاً، سوى أنها ازدادت طولاً وأصبحت نظراباً أعمق، تنظر إليك وكأنها تنظر لماضيك كلّهُ، لكن جمالها لا يخبئ.

التفت الحاج خالد إلى حمدان. فهِمَّت: ليس هناك وقت للجلوس. قالت. ولكنها جلست أخيراً، أحضروا فرشتين إضافيتين وضعوهما فوق القرشة التي دعاهما الحاج خالد للجلوس عليها، وحين أشار لولديه أن يذهبا لتجهيز عشاء ضيفتهم. قالت: سأكون ضيفتكم، بل من أهل بيتكم إذا وجدتم في حلا.

كان الحاج خالد على علم بما قام به ابنها، ولكنه لم يكن يتوقع أن الحكم سيصدر بهذه السرعة: ليس هناك من أحد يمكن أن أتبه سواك. أفضلك غمرتني ويداك هما الوحيدتان اللتان استطاعتا أن تكسرا باب سجن، ولا أظن سواهما تستطيعان فكّ حبس المشتقة عن عتق ولدي خالد.

تهدج صوتها حين قالت ذلك وارتيك الحاج خالد حين سمع اسم ولدها: تعرف، لم أجد له اسماً أثيل من هذا الاسم.

وأضافت: لم تعرفه يا حاج، ولكنه من الشباب الذين إذا ما وضعتهم على المرح يمشي.

- وما أخبار والده؟

- يقاتل مع من بقي من رجال عز الدين القسام، ولكنه بخير.

- إن كنت أستطيع تقديم شيء فأنا أقدمه لنفسي.

- ابنك عمود متعلم ولا يخبئ عليه شيء من باقا إلى القدس. أريد أن ترسل إليه ليجد لنا محامياً، لقد قالوا في إنسا لم نزل نملك فرصة. فهناك شيء يسمونه الاستئناف.

- في الغد سأذهب إليه بنفسي.

- كنت أتوقع ذلك. ونهضت.

- ولكن كيف نذهبن قبل أن نكون قد قدمنا الواجب.

- هناك سيارة تنتظر والليل غلبت.

- كثرة الشدة هي التي خلقت الثوار. أه والله. ولا تنس القهر الذي أحس به الناس بعد استشهاد الشيخ عز الدين القسام ورفاقه، ثم من يستطيع أن ينسى يوم جنازته؟ من؟ (الجنازة التي خرجت من المسجد إلى الساحة الكبرى أمامه، آلاف المشيعين وجئت القسام ورفاقه على الأكتف مرفوعة، النساء يزغفرن على السطوح والشرفات والنوافذ، والكثافة تشدون أناسيد تثير النخوات، وسار الموكب... إلى أن اقتربنا من دائرة البوليس فراح الجمهور يرميها بالظوب والحجارة وكان فيها بعض الأتغار فبادروا إلى الحرب، وكانت ثلاث سيارات للبوليس تقف أمامها فحطمها الجمهور، ولحنا جنديا بريطانيا يشرف على سير السيارات فهجم عليه البعض قولى هاريا، واستأنفنا مسيرنا إلى أن وصلنا محطة السكة الحديدية، فهاجها الجمهور بالحجارة... وأقبلت كتيبة من الجند البريطانى المدجج بالسلاح بقودها الضابط جيمس يخونها الفولاذية، وإذا بالجمهور يضغط الجشت على الأرض ليدخل في معركة مع البريطانيين الذين جاؤوا لتقمع الموكب، ورأيت بنفسى الضابط جيمس يقع على الأرض... وأدركت القوة ألا أقتل لها بمقارعة الجمهور فانسحبت بسرعة، وكان مقررا أن ترسل النعموش إلى مقبرة بلدة الشيخ، عرفت الموسيقى تشيدها الحزين، وتقدم البعض لوضع النعموش في السيارات، ولكن الجمهور حال دون ذلك، واستأنف السير إلى المقبرة مشيا على الأقدام خمسة كيلو مترات، وقد استغرق السير من الجامع الكبير في ساحة الجرينة إلى مقبرة الياجور ثلاث ساعات ونصف الساعة. ورأيت وقودا من نابلس وعكا وجنين وبيسان وطولكرم وصفد وزحوقا من جميع قرى حيفا، ولكننى لم أشاهد رؤساء الأحزاب، وعلقت جريمة الجامعة الإسلامية على الدعوة الوجيهة للناس للمشاركة في الجنازة صبيحة ذلك اليوم قائلة: (... أما مسألة تشيع الجنازة فهذه مسألة دينية لا يترجم فيها إلى حكم سياسي، ولا إلى نص قانوني، وإنما إلى حكم الدين الذي لا ينفرك بين ميت وميت، والذي يسمى على ملابسات السياسة وعن سقاسف هذه الحياة الدنيا!!!)

حين وصلوا محطة القطار: الحاج خالد، رجانة وأخوها جيل وحافظ، كان محمود في انتظارهم يبدله الرماية وطربوشه الأحمر.

- ليس لنا في هذه القضية غير سلبان المرزوقي.¹⁵

بعد قليل كانوا في مكتبه المجاور للمستشفى الفرنسي في البلدة القديمة. شروحا للمحامي تفاصيل القضية، فقال: بسيطة! ولكن علي أن أراجع الملفات الرسمية كلها. والتفت إلى رجانة وقال لها: اطمئني.

- ومن تستطيع أن تطمئن وحيل المشتقة حول رقة ابنها؟

- أرجو أن يكون الله في عوننا.

كان أول ما فعله هو تقديم طلب استئناف قبل تصديق الحكم. وقبل أن يحين موعد المحاكمة، كان قد عرف اسم القاضي الذي سيبت في القضية وكان عسكريا برتبة عقيد.

ما حدث بعد ذلك رواه الحاج خالد بانهار شديد للرجال الذين تجتمعوا في المضافة دون أن يغيب أحد، واضطر لإعادته مرات ومرات في الليالي التالية، كانوا مبهوتين مثله: حين وصلنا قاعة المحكمة، لم نجد محامينا هناك. نادى الحاجب مرة، مرتين. ولكن لا جواب! وقيل أن يعلن الحاجب غيابه: دخل يرافقه أحد معاونيه.

- كيف تتأخر عن قضية مهدة فيها موكلك بالموت. سأله القاضي الإنجليزي بغضب. كما لو أنه لم يُصدر حكم الإعدام!

- الضرورات يا سيادة القاضي.

- وما هي الضرورات التي لذلك، الضرورات الأهم من حياة موكلك؟!

¹⁵ - كان واحدا من أكثر المحامين شهرة، فقد بصره طفلاً، فأرسله والده إلى الأزهر وكان واحدا من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقد تعرض لمعويات كثيرة من السلطات القضائية البريطانية، كما نفاه جمال باشا السفاح إلى الأناضول أثناء الحرب العالمية الأولى بسبب معارضته الاستيلاء على التعاصيل الزراعية للفلاحين لتسعين الجيش التركي. وسبق له مكتبه بعد ذلك إلى جوار النادي الرياضي في شارع جمال باشا، بعد تسف ذلك الجزء من باقا القديمة، حيث لم تعد القوات البريطانية قادرة على السيطرة على ذلك الجزء من المدينة الذي كان مكتبه فيه، بسبب وجود الثوار، وقد أفاقت المدينة في الساعة الرابعة من صباح يوم 18 / 6 / 36 على أزيز القناترات تحوم في سياتها والقنات المسكربة تحيط بها، وفي السادسة صباحا أخذ المسارك يتفقون في الأبنية الإنشائية. وبعد قليل أخذت فرق من مهندسي الجيش البريطانى تضع صناديق الدينيات في أساس البيوت وتفجيرها واحدة بعد أخرى، وفي غضون ساعتين كانت معظم باقا القديمة أنقاضا يا فيها من منازل وحمامات ومدراس والأمران ومقاه ومعامل وأفرجة الأرياء، فشره أكثر من سنة آلاف فلسطيني، وقد صرح وزير المستعمرات أن حكومة فلسطين المفتتة فرسة وجود فرق للمهندسين الثلاثة لتفجع شارعين يربطان إلى البناء فأعلنت هذه المنطقة الزوحة القنطرة وسنسلها بعد أن كانت مركزا للمترصدين وملجأ للخارجين على القانون ولا يستطيع البوليس الدخول إليها)

- لقد تأخرت يا حضرة القاضي لأن ي صاحبة، وكان لا بد لي من أن أسفي أطول وقت معها!!

- وهل لثلك صاحبة!!! سألته القاضي وهو يبتسم.

- ولم لا يا حضرة القاضي؟

- وهل صاحبك أفضل من ذلك الذي يضع روحه بين يديك؟

- لهذا أهمية خاصة ولصاحبي أهمية خاصة أيضاً! ولكن ألا تريد أن تعرف من أين أتيت؟

- لا يهمني ذلك. قال له القاضي.

- ولكن يهمني أنا أن تعرف، حتى تكون على يقين من أن صاحبي تستحق الكثير أيضاً. وقبل أن يجيب القاضي، قال: لقد أتيت من بيت صاحبي التي تسكن بين مبنى جريدة فلسطين ومدرسة الفرير، ولا أكتسك، إنها زوجة مسؤول كبير.

- تحفز القاضي. عند ذلك شد مرافق المرزوقي على يده، وكان أوصاه بذلك عندما يحس بالفعال القاضي.

- كنت في العارة الثالثة، وحين صعدت إلى الطابق الثاني، كان علي أن أعود لأن خادماتها سوزان كانت هناك.

وشد المرافق على يده مرة أخرى.

- كان من الصعب أن أخفي بها، مع وجود خادماتها ولذلك انتظرت في الطريق حتى رأى مرافقي الخادمة تبعد. لقد استطاعت صاحبي أن تخترع لها عملاً تقوم به.

وشد المرافق على يده مرة أخرى.

- هيلانة، إنها أجل امرأة يمكن أن يظفر بها رجل!! ولو وضعتها في هذه القاعة بين كل هؤلاء الناس دون أن تقول لي أين هي، لعشرت عليها أنا الأعشى بسهولة. كانت تقول لي دائماً: لعل هذه الكتيبة الحمراء لم تصنع إلا فناً!!

عند ذلك صرخ القاضي: إغرس. وأشهر مسدسه في وجه المرزوقي.

ارتبك الناس، تعالت أصوات الفزع، واحتش كثيرون منهم خلف مقاعدهم.

- المسدس موجه إليك. قال له مرافقه.

عندها أطلق المرزوقي ضحكة مجلجلة هزت المحكمة. وقال للقاضي: إذا كنت مُستعداً للقتل من أجل زوجتك فكيف تحكم بالإعدام على رجل يدافع عن وطنه.

أحس القاضي فجأة بورطته. ارتبك، ولكن يغيب عن الأنظار بأقصى سرعة يمكنه، قال: حكمت المحكمة على المتهم بالسجن عشر سنوات ومنعتك من دخول المحاكم ستة أشهر.

فقال للقاضي: لقد فعلت ما علي، وليس يهمني بعد ذلك أي شيء.

فقال له القاضي: كنت ستخرب البلاد لو كنت ترى.

فقال للقاضي: حدا لله أنني أعمى ولا أرى المظالم التي تركتها بريطانيا ضد شعبي.

.....

حين يصل الحاج خالد إلى هذه النقطة يكون الصمت قد غمر الجميع.

- ولكن كيف عرف كل تلك الأشياء عن القاضي؟ سأل محمد شحادة.

- وهل تتوقع أن أمراً كهذا، يا لبيب، يمكن أن يكون صعباً على رجل مثله،

لقد أرسل إلى هناك من سأل وعرف تفاصيل كل شيء.

كانت تلك هي أول مرة يلتقون بها المرزوقي، لكنها لن تكون الأخيرة، لأن الحاجة التي تنتظرهم في المستقبل تفوق الوصف.

ثم تتوقع رعاية أكثر من ذلك، بل إنها للحظة كانت على يقين من أن الحكم سيكون أقسى. وحين خرجت من قاعة المحكمة أبصرته هناك، عرفته: سيف الدين، زوجها. أوما إليها واخضى خلف المتعطف.

- انتظروني. قالت لهم.

- سيف الدين!!! كيف حالك.

- طشني.

- الحمد لله، الحمد لله، لقد ابتعدت غيمة الموت، حكم عليه عشر سنوات.

- لا عليك. ابني وأهرك، مثلاً أهرك، وتذكرني دائماً: إذا ما آمن الرجال أن

أهراهم أطول من عمر الإمبراطوريات، سيممرون أكثر منها.

لم يكن وحده الذي شعر بذلك، فعمشرات الزعامات في المدن أحسَّتْ بالزلازل، وأدركت أنها إن لم تتحرك بسرعة ستفقد شرعية وجودها، ولذلك كان لا بدَّ لها من أن تجد الحل.

لم يكن اللقاء السري الذي رُتِبَ على عجل مع اللندون السامي كافياً لكي يخرجوا من عنده أكثر اطمئناناً، أخبروه أن الغضبة التي ملأ الشوارع منذ (مقتل) القسام تهددهم كما تهدد بريطانيا نفسها، وطلبوا منه أن يتفهم معنى عدم تغيبهم عن حقل التأين: كان غيابنا يعني المراجعة على شرعيتنا. وطالبوه بأن تكون السلطات أكثر حزمًا لأن البدايات تشير إلى نتائج لن يستطيع أحد معرفة مداها.

أرسل الهاشمي في طلب عبد اللطيف الحمدي؛ حين وصل لم يدعه للجلوس، كان لما يزل غاضباً.

- ما الذي يحدث هنا، أمام عينيك؟ يفرح ولد من القرى التي ائتمنتك عليها ويُطلق النار على ضابط إنجليزي في وضع النهار.

- لقد أطلق النار عليه في المدينة يا بيك وليس هنا.

- لكنه خرج من هنا يا حمار. أصل القضية هنا، رأس الأفعى هنا، وكل ما حدث أن ذئبها هو الذي تحرك هناك. ثم ماذا من الهادية، وتنطجها للبحث ضمن بفك حبل المشقة عن ربة ذلك الولد بعد أن التفت عليه؟

- الهادية كما تعرف يا بيك لم تكن في أي يوم تحت بدنا، وعلى الرغم من أنها في حاية دير الروم، إلا أننا لم نُقْصِرْ وفعلنا الكثير داتياً.

- ما يحدث الآن يحتاج إلى ما هو أكثر مما فعلته في الماضي وإلا فإن كل شيء سينقلب على رؤوسنا، هل فهمت؟

- فهمت.

- قل (لئسالك) الذين تنفخ بهم داتياً أن يتحركوا، وإلا.

- استغفر الله، لا نُقْصِمُ يا بيك، لن يكون إلا ما يرضيك.

- أريدك أن تتحرك بسرعة وتقوم بما يجب عليك القيام به.

- وما هو يا بيك؟

- هل تريد مني أن أقول لك ما الذي عليك أن تفعله أيضاً؟

ذلك الفلاح!

وصل سليم بيك الهاشمي إلى قصره الريفي، كان غاضباً، فالأيام التي مرت كانت أقسى من أن تحتمل، كل شيء يسير عكس ما يريد والشوارع تُسحب من تحت رجله. حاول أن يهدأ، تأمل كل الأشياء الزرقاء، بدر جانبها المتفاوتة، التي كانت تحيط به، من الستائر إلى المقاعد إلى ألوان العاملين لديه، لكنه اكتشف أنه بحاجة إلى بحر عميق يفرق فيه، لا مجرد هذه الألوان التي بدت له نعمة وسخيفة، فكفركه الأولى التي لعت ذات يوم وساقته وراءها.¹⁶

حاول الهاشمي الابتعاد ما استطاع، بعد أن وجد نفسه مضطراً لحضور حفل تأبين القسام

- أي كارثة هذه التي تضطربني أخيراً لحضور احتفال تأبين هذا الفلاح؟! كان يصرخ في وجه امرأته وابته: كنا نعتقد أن موت واحد من هذا النوع يريحنا منه إلى الأبد، وإذا به يحرق الشعب كله في طريقه، بحيث لم يبق علينا سوى أن نساير التيار. لقد انتصر على الجميع وتحول إلى رمز مع أنه قُتل في أول معركة يخوضها. معقول!!

¹⁶ - (ليس هنالك ما هو أدق من ذلك الوصف الذي قرأته عنه ذات يوم (الرجل الهادئ) الرصين، الناعم اللبس والباسم اللعز والحيي المكتون الذي بعد كل شيء كما لو أنه ينشد قطعاً دُعوية)، أكمل دراسته في الجامعات البريطانية، وحين عاد من هناك قرر أن يكون صناعياً، ولم يمضِ الكثير حتى عدا واحداً من الكبار في هذا المجال ففي (عام 1933) أسس أول مزرعة نموذجية عربية لتربية الأبقار والدواجن والأرانب، كما استخدم أساليب جديدة في زراعة الخضار والفواكه، وعقد اتفاقية مع الجيش البريطاني لتسويته بالخضار وحيوات الحليب المثلجة والخبز المثلج، كما استطاع عقد اتفاقية أخرى لتزويد المستشفيات البريطانية بمستحجات الزراعة، أما النمط الذي اتبعه في التسويق فهو نفس النمط الذي اتبعته شركة توفيا اليهودية. وفي نهايات أيلول من عام 1936 أصبح واحداً من أكبر التخصمين لوقف الثورة والإضراب العام بسبب القربان موسم البرتقال).

خرج عبد اللطيف الحمدي أكثر حيرة مما دخل: ما الذي يريد مني فعلاً، تقع القاس في رؤوسهم هناك ويأتون لتفريغ غضبهم فينا هنا؟؟
أرسل خبراً إلى المختار صبري التجار أن يحضر بسرعة، حين وصل لم يذعه للجلوس كان غاضباً.

ما الذي يحدث في الهادية تحت بصرك، يذهبون ويوكلون محامياً للدفاع عن ذلك الولد الذي أطلق النار على الضابط البريطاني في المدينة.

- لقد خرج الولد من قرى الصف التي تخضع لك يا بيك.
- لكن رأس الحية الذي تحرك لينقذه كان في قريتك: الحاج خالد بنفسه.
- تعرف يا بيك أنني فعلت أكثر مما يفعله أي شخص آخر في هذه المنطقة، ويؤسفني أن أقول لك إنني كنت الحاسر الوحيد، حين أوشك رأسي أن يضيع بين الإنجليز وبين أهل القرية.

- ولكنك أخذت مكافأته، حين عملنا على أن تكون مختاراً دائماً للبلد.

- لا أشكر أفضالك يا بيك.

- أريدك أن تتحرك بسرعة وتقوم بها عليك القيام به!

- وما الذي عليّ أن أفعله يا بيك؟

- وهل تريد مني أن أقول لك ما الذي عليك أن تفعله؟؟؟

خرج المختار صبري التجار غاضباً: إذا كان باستطاعة أحدهم أن يفعل شيئاً فليفضل جنبه للقيام بذلك!!

كان التجار يدرك أنه انتهى منذ ذلك اليوم الذي وصل فيه إلى تلك الساحة ومسده شعلت في عتقه، لكن أفضل ما حدث له فعلاً أن الإنجليز لم ينسوا تضييعته، حين رفضوا كل محاولات سحب هذا المنصب المعنوي منه، وقد ظل يشعر على الدوام أن مقام الحاج خالد ليس أكبر من مقام ما دام أهل الهادية يأتون إليه طالين ختمه في كل صغيرة وكبيرة.

الصّفعة

أدرك الحاج خالد أن الزمن الذي مضى لن يعود ثانية، أرسل في طلب فايز، وحين جاءه، قال له: اليوم نحن بحاجة لك.

- إيشر يا خال.

كان على فايز من أن البندقية التي تُشهر، لا يمكن أن تُعاد إلى غيبتها من جديد، لكنه فكر بطريقة مختلفة: ستضرب وبهر، ستضرب بعيداً ما استطعنا، ونعود متسللين إلى البلد دون أن يحس بنا أحد. وحين نتفق مع أحد ليأتي ويضرب هنا ستقوم بكل ما يبتئ أننا لم نغادر القرية.

- أنت تعرف أهالي القرى المجاورة، لا أريد الكثير، ليس أكثر من اثنين أو ثلاثة من كل قرية، حتى لا تلفت انتباه أحد. أوصي فايز.

- إيشر يا خال، وجودك في الجبال سيغن الكثير للشباب.

من الهادية خرج معه فايز، إيليا راضي وسعد صالح. ومن القرى المجاورة التي تخضع لعبد اللطيف الحمدي اختار عشرة رجال من القرى الخمس، من بينهم عادل أبو محذوح الذي باتت قصته على كل لسان، ذلك الرجل الذي ما إن سمع باستشهاد الشام حتى وقف على طرف الطريق وحين وصلت عربة جيب إنجليزية قتل الجنود الثلاثة الذين كانوا فيها، واستولى على أسلحتهم واخفى في الجبال.

- عادل سينضم إلينا في الجبال، ما إن يسمع أنك هناك.

كانت عملياتهم تتم بعيداً عن الهادية، إحراق مستوطنة، تخريب سكك الحديد من خلال ربطها بالجبال وجزءاً أو دهن السكك الحديدية بالشحم مما يعطل سير القطارات ويسهل مهاجمتها، وإطلاق النار على سيارات الإنجليز واليهود للاستيلاء على الأسلحة.

أحس الحاج خالد بأن العمليات نجحت، فقرر أن يُقسم القوات التي لديه إلى أربع مجموعات، أرسل واحدة منها للشمال وواحدة للجنوب وواحدة للساحل وترك لجموعته الجبال للتحرك في المنطقة الوسطى.

لم يكن قانون الطوارئ الذي أصدره الإنجليز مفاجئاً لهم بقسوته حيث نص على: (الحكم بالإعدام أو بالسجن المؤبد لمن يتعرض لأي عطل أو جهاز لتلغراف أو مطار أو ميناء أو سكة حديد أو سبيل ماء أو سمر أو محطة لتوليد القوة، ويعيّر للحاكم فرض غرامة مشتركة على أهالي أي مدينة أو قرية أو محلة نقداً أو بأشياء أو غرافاً أو ماشية أو غلالاً والحجز على المتعلّكات وبيعها لدفع ثمن الغرامة إذا تخلفوا عن المساعدة لإظهار الجرم أو التجريمين أو مصادرة أي دار أو أي بناء أو إنشاء دون تعويض أو هدمها.. وإلقاء القبض على كل من يحمل عصاً أو نوتاً أو قضياً حديدياً أو حجراً أو آلة جارحة معها كان نوعها أو وصفها.. ويعيّر القانون لأمور البوليس أن يوقف بدون مذكرة أي شخص يشتدّ شديداً أو يستعمل كلمات أو إشارات من شأنها أن تؤدي إلى إخلال بالأمن..)

بعد ثلاثة أسابيع أدرك أن الحاجة للرجال باتت مُلحّة أكثر لاستمرار العمليات وتوسيعها. جن الإنجليز، وأعلن قائد منطقة القدس جائزة مالية مقدارها خمسة آلاف جنيه فلسطيني لمن يُدلي بمعلومات تساعد في القبض على الراس الكبير هؤلاء (المجرمين).

لكن ذلك لم يغير شيئاً، إذ استطاع سعد صالح أن ينسلك إلى بيت القائد الإنجليزي نفسه ذات ليلة، وفاجأه بإطلاق النار عليه وهو في السرير، وعندما حاول الفرار وجد عشرات البنادق مصوبة إليه في لحظة واحدة. وهكذا فشل في الخال. حين فُتِشوا الجثة ما يجدوا ما يثبت شخصية صاحبها، حملوه في اليوم التالي في صندوق عربة وداروا به على القرى واحدة واحدة، إلّا أنهم لم يصلوا إلى نتيجة. كان الجواب واحداً وحاضراً في كل قرية دخلوها: لا تعرف.

سلموا الجثة لدوريات أخرى، طالت في قرى كثيرة دون جدوى، إلى أن توقفت العربة التي تحملها على باب إدوارد بترسون.

كان بترسون قد غدا أكثر دموية منذ محاولة اغتياله، وبات يسكنه يقين وحيد: في أي لحظة يمكن أن يُطلق عليك النار واحد، أي واحد من هؤلاء.¹⁷
- الآن جاء دورك للتعرف صاحب هذه الجثة، منذ يومين تطوف دون نتيجة.

خرج بترسون. كان أول ما فعله أن انقضى نظرة على الجسد بعد أن أراحوا الغطاء عنه. كان يأمل أن يساعده الحفظ فيعرفه، لكنه قال: الآن اكتشفت كم يتشابهون حين يكونون أمواتاً. لكن أحداً من الجنود والضباط لم يضحك، ولم تكن الرائحة المتباعدة من الجثة هي السبب الوحيد.

عندما وصلت العربة إلى الهادبة أخيراً، كانت الجثة قد بدأت تتحلل لشرط ما فيها من ثقوب وبسبب حرارة الطقس التي أخذت في التصاعد ما بعد التاسعة من صباح ذلك الثلاثاء، لكن الوجه كان واضحاً رغم الدم الناشف الذي يغطي أجزاء كبيرة منه.

عرفوه. إنه سعد صالح. ابتعدوا بوجوههم عن الجثة. لاحظ بترسون ذلك: تعرفونه إذن؟!

هزّوا رؤوسهم كما لو أنهم يقولون (لا) جماعية.
أمر الجنود بإحضار كل نساء القرية.

حضرن. طلب منهن أن ينتظرن في صف طويل لتُلقى كل واحدة منهن نظرة على الجثة ثم تقف هناك في الساحة ووجهها للعبة.
فعلن ذلك، واحدة واحدة، لكن الذي أربكه أنه لم ير الدمع في عيون أي واحدة منهن.

كان على وشك أن يصاب بالأس، على وشك أن يُلقى الجثة في وجوههم جميعاً ويذهب، لكنه سمع ذلك التشجيع الذي صدر من بين جمّعت النساء.

اقترب منها، كانت أمه: تعرفينه إذن؟! هو ابنك؟

كان الجميع يعرفون أن ثبوت اتهامه للقرية يعني أول ما يعني نفس البيت الذي خرج منه واعتقال عدد لا يمكن توقّعه من الرجال.

- تعرفينه إذن؟

¹⁷ - في تلك الليلة كتب: في ظلمة القرون يسافر خطك/ الأبيض كالثلج/ أزرق كالفاience/ منذ زمن لم أسمع خطك في القمر / أو أرى وجهك في الرمال/ أقطب بروحي قطعة ميتة بأصابعك التي كانت لي / وأحرق في المصفر العاني على حافة النافذة.

عند ذلك صقع بترسون جيبه بقوة وقال: أي شيء كنتُ حين لم أطلق عليه النار عندما كان في قبضتي.¹⁸

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

¹⁸ - في تلك الليلة كتب:
حين يكون المراء ذراعيك/ أين تخفى الشمس/ حين تكون الشمس جيبك/ أين يمكن أن ألام/
حين ينسل النهار من أمام عيني كأنني إلى كهف/ ما الذي يمكن أن أعله بكل هذا الليل 19

- لا. لا أعرفه.
- ولماذا تبكين عليه؟
- أبكي على شيا به. أبكي على أمه التي أمتى آتراه على هذه الصورة. لهذا أبكي.

ترجع بترسون خطوات وقال: وهل تعتقد أن مجرماً كهذا يستحق الدموع التي تُدرف عليه؟ صمت قليلاً وهو يحدق في مقدمة حذاته ثم قال: أنظهم لم يقتلوه تماماً، كأنه لم يزل يتحرك!! أخرج مسدسه وأفرغ ثلاث طلقات في صدر الجثة. ارتفع البكاء وصرعات الاحتجاج: خاف الله.
- وما الذي يزعجكم ما دمتم لا تعرفونه؟
صمتوا.

رأى طفلة تخشى خائفة خلف أمها، سار نحوها، اختطفها بيد، في الوقت الذي كان مسدسه مشهوراً في وجوه الجميع. حاولت الأم التثبيت بابتها، ضربها يكعب مسدسه، سقطت.

- لا تخافي. لا تخافي. رددت الأم برعب!
وقف بها أمام صندوق سيارة الجيب: هل تعرفين هذا؟
كانت تبكي، لكنها وجدت القدرة كي تميز رأسها وتقول: لا.
- قُرب وجهها أكثر إلى الجثة، وفي تلك اللحظة فقدت الطفلة وعيها، نظرت إليها ثم تركها تسقط أمام قدميه.

اندفعت أمها نحوها، حاول الجنود أن يمنعوها لكنها وصلتها قبيلهم، اتحت لتحملها، نلت تلك الركلة المفاجئة من قدم بترسون فسقطت على ظهرها.
تراجع: لا تريدون الاعتراف. إذن لن تعرفوا مكانه. لن تعرفوه أبداً. سأعذبكم بهذا طوال حياتكم. وكانت تلك جملة التي ردها في كل قرية.

ابتعدت العربات، وما إن وصلت الشارع حتى ملأ العويل الفضاء
- في رأيي أن الحادث الثاني الذي هز السلطة كان مقتل الضابط السري أحمد نايف في حيفا، وهو الذي ساعد في اكتشاف عصبة القسام وتغيب القساميين.
أما الإخبارية التي حسمت الأمر وأفقدت إدوارد بترسون عقله وكادت تؤدي به إلى الجنون فهي تلك التي وصلت متأخرة أكثر مما يجب وكانت تقول: خالد الحجاج محمود هو الذي يقف فعلاً وراء كثير من العمليات ضد الإنجليز.

الرحيم الحاج محمد وفرحان السعدي، وفي كل مرة خسر بعض رجاله، وفي باب الواد أطيبت عليه قوة يثودها محمد صالح أبو خالد فأجهزت على جنوده العشرة، لكن مرور قافلة إنجليزية في الملحقات الأخيرة كان حبل نجاته.

من جديد عاد واختار عشرة آخرين، وراح يطوف بهم الوديان وسفوح الجبال من جديد.

لكن الذي لم يكن يتوقعه أن الثورة ستتصاعد إلى حد لم يكن له أن يتخيلها، وفي لحظات تأمله تسلسل إليه الشك فجأة: كيف يمكن أن يقوم بعملية عسكرية ناجحة في الوقت الذي لم تستطع فيه القوات الإنجليزية مجتمعة أن تحقق نصراً حاسماً فيها؟ من هذه الثغرة الصغيرة استطاع الحاج خالد المرور.

عندما كان الحاج خالد ينتقل من منطقة إلى أخرى كان يرسل أحد رجاله إلى أقرب قرية فيحضر له حصاناً من أحد الرجال الذين يعرفهم. أما إذا كان يريد شيئاً من القرية أو من رجالها، فقد كان يرسل حمامة زاجلة، تهبط في برج سمية، فتسكنها، وتسلمها لتاجي الذي يقوم بتنفيذ ما يريده أبوه، وحين يعود الشخص حاملاً ما يريده الحاج خالد، تكون الزاجلة معه، في انتظار مهمة أخرى لها.

ذات مرة أرسل إلى غنار (كزازة) محمود عبد الله جروان أن يرسل إليه فرسه لأنه سيقتل إلى مكان آخر. وصلت الفرس، ركبها متوجهاً إلى قرية (مغلس) وفي أحد المعطفات الجبلية فوجئ بدورية خيل إنجليزية وجها لوجه، ولم يكن قائدها سوى سند رجب.

أحد رجال الحاج خالد رأى الدورية من فوق الجبل، صاح محاولاً أن يحذره، دون جدوى. لم يكن هناك شبر واحد يمكن أن يمر الحاج خالد من خلاله، فالمر ضيق ولا يكاد تشع لمرور أربعة خيول.

التفت أعينها، عرفه سند.

- إلى أين تضي يا رجل؟

- أنا ذاهب إلى (مغلس) أنا بائع زيت، كنت قادماً من (كزازة)، وضعت زيتي عند غنارها محمود جروان، وأنا ذاهب لأفش عن زيتي في مغلس؛ وإذا ما كان هناك أحد بحاجة لزيت، أعود وأحضر له طلبه، بدل أن أحل الزيت منتقلاً به بين القرى.

وجها لوجه

لم يبق هناك جبل في فلسطين إلا وعاش فيه الحاج خالد. هكذا أحس الناس. كان عمره قد تجاوز الخامسة والخمسين، أما الشيء الذي لم يكن يتوقعه فهو ذلك المرض الذي بات يهدد حياته: السكري. لكنه استطاع تجاوز ذلك بالإبر التي تعلم أن يحقن بها نفسه بنظم. وكانت برودة الجبال في تلك الأيام، وحمايته للإبر التي يحملها من أي حرارة مرتفعة في حافظة خاصة من تلك التي يستخدمها الإنجليز، قد أعانته كثيراً.

بدأت ملامح تلك الشخصية الغامضة تتضح يوماً بعد يوم للإنجليز، ولكي يتأكدوا قاموا بعدة حملات تفتيش مفاجئة أكدت لهم أن الحاج خالد لم يعد يتواجد في القرية أبداً. ثم جاءت تلك الحادثة الصغيرة التي وقعت بين الجبال لتؤكد للإنجليز أن حشهم كان في مكانه.

قرر بترسون تعيين ضابط فلسطيني اسمه سند رجب على رأس قوة بريطانية لملاحقة الحاج خالد والقبض عليه بأي ثمن. وكان اختياره هذه المهمة عائداً لكونه قد قابل الحاج خالد أكثر من مرة حين كان عربياً. كانت مهمة سند أن ينتقل كما يريد، سالكا الطرق التي يعتقد أن الحاج خالد يمكن أن يسلكها، وهكذا عاش مع القوة المكونة من عشرة جنود، حياة لا تختلف أبداً عن حياة الشوار أنفسهم، وفي لحظات كثيرة كان أكثر قرباً منه مما يمكن أن يتصور.

بات سند مهتماً بكل تلك المستعمرات وغمار الشرطة والمؤسسات البريطانية التي يمكن أن تنتج شبهة الثوار لضربها، ولم يعد ينقصه شيء كي يصبح مثلهما تماماً إلا أن يهاجم المواقع التي يرى بأنهم سيهاجموها.

ثلاث مرات أوشك أن يموت، لأنه ومن معه، كانوا أهدافاً سهلة معزولة، هاجمه بعض رجال الحاج خالد وهاجمه بعض رجال الحاج يوسف أبو درة وعبد

فكر سند بسرعة، وأدرك أن أي محاولة للقبض على الحاج خالد ستكون سبباً في إبادتهم جميعاً. كان على يقين أن البنادق في الجبال مصوَّبة إليه من كل جانب.

- ألا يوجد معك سلاح؟
- وما الذي أفعله بالسلاح وأنا ذاهب لأبيع الناس لا لأقتلهم.
- كان لا يحمل سلاحاً بالطبع في النهار لأن العثور على شربة معه كان يعني نهايته.

- وما هذه الحقيبة التي تحملها؟ سأله سند.
- أنا مريض وأحرق نفسي بالإبر. وأخرج إبره وأراهم إيها.
- نحن نبحث عن الثوار هنا، وعليك ألا تتجوّل وحدك، فهذا خطر عليك أيضاً. ربما يقتلونك!!
- إني مجرد بائع زيت، وأنا مضطر لفعل ذلك، أما إذا كنتم لا تريدوننا أن نسير في بلادنا فلن نسير!
- لا أريد كلاماً زائلاً. قلت لك، لا تتجوّل وحدك. ثم قال له بجفاف: مع السلامة!!

وصل الخبر الذي لا يريد أحد سماعه: لقد ألقوا القبض على الحاج خالد. فراح الجميع سيكون رجالاً وتساء وأطفالاً. كانوا على يقين أن الإنجليز سيمضون به مباشرة إلى المشقة.

سمع الإنجليز تحبب الناس في القرى قبل أن يسمعو الخبر، بحثوا عن الحاج خالد بين أيديهم فوجدوها فارقة. طوّقوا الهادية، فنشوها، لم يمشروا على شيء، لم يكن هناك سوى التوايح.

- إنه هو إذن. قال إدوارد بترسون. لقد وقع الثعلب في الفخ وإن لم تُمسك به!!

بعد ساعة من دخوله القرية أمر بترسون بتلغيم دار الحاج خالد ونسفها، وحين حاول الناس إخراج بعض الأشياء الضرورية من داخل البيت، أطلق بترسون نار مدسده في الهواء محذراً.

- نُخرج الخيول على الأقل.
- الخيول فقط!

كانت نقطة ضعف بترسون هي الحصان العربي الذي وجد فيه أجمل مخلوقات الله. وقد وصل به الأمر أن قال ذات يوم: الشيء الوحيد الذي يجعل الحياة محتملة هنا هو وجود هذه الحيوانات الساحرة: الخيول.

حين رأى تلك الخيول أمامه، أوشك أن ينسى المهمة التي جاء من أجلها، تقدم من أحدها، رثت على ظهره، ثم استدار حوله يتأمله، وفي لحظة خاطفة قفز فوق ظهر الحصان وراح يتحدر باتجاه السهل أمام ذهول الجميع؛ قطع السهل مرتين ذهاباً وإياباً، وعيون الناس تتابع الغبار المتصاعد نحو السماء، وقبل أن يفتح أي منهم فمه ليقول ولو كلمة واحدة، رأوه يتجه عائداً، حين وصل، قفز من فوق ظهر الحصان برشاقة فارس، ورثت على ظهره بمحبة نادرة، ثم التفت إلى جنوده وقال: حين تنتهي من كل هذا الحراء سأشتري حصاناً كهذا وأعود به إلى إنجلترا.

ولم يكذب يمينه جملته حتى رفع يده معطياً إشارة تفجير البيت.

- في لحظات تحوّل البيت إلى سحابة من غبار.
- لم يكن ذلك يعني الكثير لأهل الهادية في تلك اللحظة، ولا لأصحاب البيت، فالبيوت تنسف كل يوم، لكن رجالاً مثل الحاج خالد لا يجود بهم الزمان دائماً.

بعد أيام وصل الحاج خالد بنفسه ليلاً إلى الهادية، دخلها، لم يكن هناك سوى الصمت، الصمت المريب الذي أوشك أن يدفعه للعودة، لكنه واصل بحدري. وعلى الرغم من أن غير نصف البيت كان قد وصله إلا أنه انجبه إليه كما كان يفعل عادة، وللحظة أحس أنه سيجده فعلاً هناك، وصلته، بحث بعينه عنه، كان المكان فارغاً تماماً، كان قد تحوّل إلى تل صغير بالنسب للركام، لا شيء يشير إلى وجوده الذي كان سوى برج الحمام المتصدّع وشجرة السنديان التي تنوشت الحوش، أما شجرة البرتقال فقد بقا للجميع بأنها تبهتر في الهواء.

بعد أقل من أسبوع صدر حكم غيابي عليه بالإعدام.

ذلك المساء

سمعت رفيقة طرقاً على الباب، قام حمدان ليفتح، قالت له انتظر: مين؟

- أنا أمين؟

- أمين مين؟

- أمين ابنك؟

- وما الذي تفعله هنا يا أمين يا اللي يقول إنك ابني.

- خلاص. تعبت. وهذه هي البارودة، ليأخذها أي شخص يستطيع الاستفادة منها أكثر.

- وهل تعتقد أن حيلة كهذه يمكن أن تفرّ علي. أنت جاسوس لا بد، ولم تحضر البندقية التي تتحدث عنها إلا لأن الإنجليز مملوك.

- ولكنني أمين. والله إن أمين ابنك. القار!!

- أنا ليس لي ولد اسمه أمين. أمين ابني الذي أعرفه لا يمكن أن يترك الرجال في الجبال تقائل وتموت كي يعيش هو في حضن أمه.

فجأة عم الصمت، وعلى طرفي الباب تساقط دمع غزير، دفنت أم الفار رأسها في صدر حمدان وبكت بحرقة: لقد بحثت ذهبالي لأشتري له بارودة، والآن يأتي ليأخذها أي شخص يستطيع الاستفادة منها أكثر. والنفتش إلى السقف كما لو أن النساء هناك وقالت: لماذا تعذبني بهذا يا إلهي؟؟

بعد زمن طال، سمعت خطوات ابنتها تبعد.

شرفة النار

- كانت البلاد من شأنها إلى جنوبها سعيبة بخبر اغتيال الجنرال أندروز¹⁹، المعلومات مرتفعة إلى ذلك الحد الذي أحسنا معه أن باستطاعتنا مناطق الصخر نفسه.

بعد حادث الاغتيال يومين ارتفع صوت الرصاص، كانت الدنيا صباحاً، حاول الناس تحديد المنطقة التي تصلهم منها الأصوات، كتب بعضهم عادة: قال البعض المعركة في (تسجد) وقال آخرون إنها في (كزازة). تجتمع أهل الحادية واندفعوا باتجاه تسجد، حين وصلوها وإذا بالناس تشدق من سجد إلى خلصة. سألتنا: أين المعركة؟ قالوا: في (تخلدة).

وصلنا مشارفها، كانت عالية، وتحته أراض منخفضة، أشبه بواد فسيح يمر من منتصفه الشارع وعلى شالاه الحاجر الملاصقة لخلدة، جبال. أما المنطقة التي كنا نتواجد فيها فكانت مزروعة بالقمح، لكنها عالية أيضاً. كان بعض الناس يجملون

19 - (جاء الجنرال اندروز من بريطانيا وهو يزيد ويهد بتأليب الثوار الفلسطينيين الذين شلوا عصا الطاعة على بريطانيا. وروي لي حمد أبو جعب أكثر من مرة كيفية اغتيال الجنرال اندروز. قال: علم الثوار في اليوم السابق أن الجنرال اندروز سيحضر قدماً في كنيسة البشارة في مدينة الناصرة، وقد ذهبنا من الصباح الباكر فكما هناك .. وكانت الاستعدادات جارية لاستقبال الجنرال. ولما الناس يطلون هناك جاء شخص مريض نفسياً ملوحاً ببعض العصية وأشار المريض بيده إلى موقع على الأرض وقال: "الدم سيسيل هنا" وقال لي أبو جعب: إن الجنرال سيقطع فصلاً وسأله في المكان الذي أشار إليه الجنون. وصل الجنرال في سيارة رولز رويس فقام أبو جعب بإشعار سلسله وتردد قبل أن يطلق النار إذ اقتابه رعية فيها استمر اندروز في سيره إلى باب الكنيسة. ولما رأى أبو جعب أن الجنرال سيقطع منه خلع حذاءه وجري غلته وأطلق ثلاث رصاصات عليه في ظهره حيث أرداه قتيلاً. بعد ما خرج ضابط من داخل الكنيسة ووقف مع أبو جعب وجها لوجه وقد وضع كل منها سلسله في وجه الآخر، ومزت خطرات من الانتظار والتربص من إطلاق الرصاصات من سلسله، لكن الضابط الإنجليزي استدار مترجعا، فراجع أبو جعب وأدار ظهره لبعضها البعض وقد تم إلقاء القبض على الثين من رفاق أبو جعب وأخذهم إلى الإنجليز فيها بعد. أما حمد أبو جعب فظل مطارد من قبل الإنجليز حتى نهاية الثورة وخروجه مع الثوار إلى سوريا ثم...

سلاحاً وبعضهم أهزل تماماً. كنت إذا سألت الأعراب: لماذا أنت هنا؟ كان يقول: لأضعف الجريح، وأعود بالشهيد إلى أهله. لكن يده لم تكن فارغة أبداً، فغالماً هناك عصا أو بلطة أو شبرية.

كنا جميعاً معيّنين بملك الإحساس: إذا خسر اليهود فإنهم سيعودون إلى البلاد التي أتوا منها، أما إذا خسروا نحن، فسنخسر كل شيء.

حين اقتربنا من ذلك المكان رأينا علم فلسطين، الذي أضافت إليه الثورة، وسط مثله، هلالاً يتجسّن صليبا، فبين لنا أن هناك أكثر من حسنة مسلح من الشوار ونجيدات أهل القرى.

هذا الأمر كان يحدث دائماً في ذلك الوقت، لم يكن على أحدهم إلا أن يقول: أخوانكم في سجن يجاضونكم، أو أخوانكم في اللواصية أو الفالوجة بحاجة لنجدةكم، حتى يهب الناس لنجدة الشوار والقرى التي تتعرض لهجوم.

حين وصلنا وجدا الشوار محاصرون قافلة يهودية توقفت في منتصف الشارع، يحرسها الجيش الإنجليزي، واليهود يحاولون فك الحصار ويطلقون النار من أسلحتهم الحاجرة على كل من يحاول التقدم.

قلنا يا شباب: ماذا تنتظرون؟

قالوا: نحن مكتشوفون، وإذا نزلنا سنقتل.

قلنا: وهل كل من في السهل يهود وإنجليز؟

قالوا: بل هناك بعض الشوار الذين يحاصرون القافلة أيضاً.

في موجة حماس قرر عدد كبير من الشباب النزول إلى السهل، وفي اللحظة الأخيرة جاءهم صوت الحاج خالد الذي عقد كوفية²⁰ على رأسه بإحكام: لن نتحركوا من هنا. لن أخطر بالجميع. أريد منظوفاً أو اثنين لاستكشاف المنطقة.

فقال شاب من (مغسل) لم أكن أعرفه: أنا. التفت الحاج خالد إلينا وسأل: من الثاني. فقلنا: أنا. (على بركة الله) قال.

20 - (المعروف أن الشوار في فلسطين يلبسون على رؤوسهم العقال والكوفية، وذلك أساساً هو ما يلبس على الرأس في القرى، فلم نجد السلطة ما يميز به الشوار في المدن من غيرهم إلا أعياد كل لايس للثقل والكوفية تارة، فأدانت الثورة بلنا نحن فيه حل نزع القميص من الرأس، وهو غطاء الرأس لدى جميع سكان المدن، وبذلك زال الفرق بين الشوار وغيرهم، وقد كتب كبار الموقعين وقضاة المحاكم والقائمون إلى السلطة أنهم لا يستطيعون الخروج من بيوتهم إلى أحيائهم ما لم يلبسوا العقال والكوفية (رمز الثورة) فأدانتهم بذلك فلبسوها كما شئوه بريطانيا ومحبون أجانب يلبسوها.)

نزلنا إلى الأسفل دون أن نطلق رصاصة علينا، فقلنا: لعن الذين هنا من جاعتنا. أمسكت بحظي البيضاء ورفعتها بتدقتي وصحت: عرب، عرب. وعند ذلك انتشر الصمت أكثر.

وخلفنا، أراد الجميع أن يتدفقوا إلى السهل، لكن الحاج خالد منعهم: لن يتحرك أحد قبل أن نعرف ما يدور هناك. لعنه كمين. لن أهاجم بعشاش الناس وعلى الجهة الثانية كل تلك الرشاشات.

تقدمنا أكثر، وظل الأمر على ما هو عليه، لا رصاص ولا غيره، وفجأة حينما اقتربنا، وكنا نركض لعبور شلال صغير، عاد الرصاص ينز من جديد، فقفز رفيقي ابن مغسل ووقع، وحين حاولت القفز من فوقه وقعت في بركة موحلة على وجهي، ضحكنا: لماذا عرفتني؟؟ وكان ملقى في الشلال، شلال لا يزيد ارتفاعه على متر!

نظرت وإذا بدمه يسيل مع الماء. قلبته. قال يا عوي: أنا أصبت. حاولت أن أسقه، لم يكن معي شيء سوى حظي، لكني لم أستطيع معرفة مصدر الدم، كان ينز من كل جانب حتى نحمل إلى أن كل عضو فيه قد أصيب. بدأت بإخراجه دون أن أرفع رأسي، محتما بالشلال، وإذا به يقول لي: تركني، وصل اليهود.

التفت فلما بهم هناك فعلا على بعد خمسين متراً، تركته يسقط من بين يدي، وبدأت بإطلاق النار عشوائية، وما أن أنهى إطلاق رصاص بتدقتي حتى يكون قد عباً لي بتدقته وتاولني إياها، وهكذا.

كانت البندقية الإنجليزية تعبأ بخمس طلقات من أعلاها، تسحب الأقسام إلى الخلف وتضع الرصاصة وتضغط عليها فتنزل إلى المخزن.

قلت له: إنهم يثربون أكثر وأكثر، وكان معي حقيبة فيها ثلاث قنابل ملز، اشتريتها بسعر دينار واحد لكل قبلة في ذلك الوقت، تاولني الحقيبة، تاولت قبلة، نزعت مسبار الأمان وألقيتها إلى أبعد مكان يمكن أن تصله. انفجرت. تاولت الثانية وألقيتها، ثم الثالثة وألقيتها. فلم نطلق بعد ذلك أي رصاصة بالهجمات. لاقتنا إلى السطح فرأينا الرجال يتدفقون من هناك باتجاهنا، وسمعت الحاج خالد يصبح: ليس الآن. لكن الفوضى وعدم الانضباط واختلاط أهل القرى مع الشوار خلط الأشياء بعضها ببعض (شوة!).

رجال يركضون في أرض مكتشوفة وفي الجهة الثانية رشاشات ليس لها عدد تحصد الناس على هواها. الله لا يوربك ذلك الشهيد! لكن ما نفعنا أن أعداد رجالنا

كانت كبيرة إلى ذلك الحد الذي أربكت الكيائن ومن في القافلة. وبينهم لمحت الحاج خالد يتقافز كأنهم من مكان إلى مكان. لا، لم أر أحداً بخفته وقوة إنقاذها أبداً. اختفى قليلاً، رحت أنظر حولي لأعرف أين ذهب، وفجأة رأيته فوق رأسي عند الشلال: سألني عن وضع رجلي، وقد رآه ينزف، فقلت له: لن تعرف قبل أن نسفه.

قال أحد الرجال: سأعيد الجريح، فأنا ليس معي سلاح. فقلت للحاج خالد: سأعيده أنا. لقد قممت بسا على في هذه المعركة، وذقت الكثير!!

حملته بمساعدة رجل آخر حتى أخرجناه من الشلال، ثم واصلت الطريق وأنا أحله وحدي.

بعد أمتار قليلة وجدت رجلاً مصاباً في قدمه، عرفته: كان (حنوك) العجيري، حاولت أن أستهده أيضاً، وكان صغير الجسم، فقال: الترتني. الذي تحمله إصابته أعظم.

وحين قلت له: لن أتركك خلفي. قال: ليس بي شيء، انظر، وأمسك ساقه الكسورة وأعادها إلى حيث هي، مستقيمة كما كانت، دون أن يصرخ والله!! عليك أن تقوم بواجبك، ومن يبطي حياً تقذونه، وكما ترى، لن أعود لأن رصاصة أو اثنين همشتا رجلي.

تركته وصعدت. كانت المعركة أمامي، ثم أصبحت وسطها ثم خرجت منها. إذا ما سألتني كيف حدث ذلك دون أن تُصاب؟ سأقول لك: لا أعرف.

أوصلته إلى أهلي، وكانوا هناك في انتظارنا لنقل الجرحى، وحين اتبعته خطوات قال لي: أنت لم تعرف حتى الآن من أنا! فقلت له: لم تكن هناك فرصة للتعرف، ولكننا نستطيع أن نتعارف الآن. قال: أنا فوزي محمود من (مغلس)، ابن المختار. فقلت له: وأنا فلان من الحادية. فقال: أنتم أهلنا، وأريدك أن تكمل معروفك، أن توصل الخبر إلى أهلي وأخوتي.

قلت: إذا عدت حياً فسأذهب فوراً إلى أهلك. وكانت سيارة قد وصلت لنقل الجرحى إلى الرملة. ثم قال: هذه بنديتي، وهذا مسدسي وحزام الرصاص، أوصلهما هم أيضاً. فقلت له: استعمل. كن مطمئناً. وقد كان معي أربعة وعشرون رجلاً من قريتنا. قلت: سيوصلها كل من معي من شباب.

كنت أريد أن أجلس لأنقط أنفاسي، لكنني تذكرت (حنوك) العجيري. قلت: لا يجوز أن أتركه هناك وحده. سأعود إليه، وتذكرته في أكثر من معركة. كان يقول للرجال: لا أريد بنديتي، بخنجر أستطيع أن أساعدكم أكثر.

عدت إليه، وصلت إلى ثلاثة رجال يجثون خلف صخرة كبيرة، فقال لي أحدهم: إلى أين؟ كل هذه المنطقة مليئة بالإنجليز واليهود ورفع يده وهو يشير، فجاءت طلقة واخترت راحته. فاحتجيت بالصخرة معهم. ولم بعد باستطاعة أحد أن يواصل الهجوم حتى لو كان زاحفاً على بطنه. ظهرت طائرة حربية إنجليزية في سماء المعركة، حلفت وابتعدت..

كانت المعركة أشبه ما تكون بمخزن ذخيرة وسط النار، لا تستطيع أن تعرف من أين تأتيك الرصاص، مثلاً لا تستطيع معرفة المكان الذي يمكن أن تنزل فيه قذيفة.

لكن صورة حنوك وهو يرثى رجله المكسورة كانت أمام عيني، حنوك الذي مررت عشرته قبل عامين بمنطقة الحادية، ثم ذهبت لقصرى الصف الخمس التي جوارها، وعندما رأى عبد اللطيف الحندي تلك الفتاة العجيرة ترقص، سحرته بجملها، فدفع خمس ليرات ذهبية لشيوخ العشيرة مقابل أن يأخذها، وحين رحلت العشيرة لم يرحل حنوك الذي تبعها، نصب خيمة صغيرة، أحرقها عسكر الحندي فجاء بأخري فأحرقوها، لكنه لم يتزحزح من مكانه، وحين بدأت نحرشات الحندي بالحادية، انحاز إلى الحادية، وحين أدرك أن الحندي مع الإنجليز واليهود أصبح ضدهما. كان هجوم حول بيت الحندي كل ليلة ويرد: قلبي عابر من دونها.

طلب الحاج خالد من القوة المتقدمة أن تبدأ بإطلاق الرصاص في الوقت الذي يبدأ الرجال بالانسحاب نحو مناطق أكثر ارتفاعاً، وهذا ما حصل، ولكنني بدل أن أراجع معهم، تقدمت باحثاً عن حنوك، وأنا واثق من أنني سأجده في المكان الذي تركته فيه. أين يمكن أن يذهب رجلاً بقدم مكسورة كقده؟ لكنني لم أجده. قلت: أين ذهب لعين والوالدين هذا؟! على بعد خمسين متراً لمحت جثة، عرفته، رحت أزحف إليه حتى وصلته، ولم يكن علي أن ألقه لأعرف ما جرى له، كانت رصاصة قد عبرت جبينه وخرجت من أعلى عنقه، كان الرصاص ينزل علينا من فوق مثل المطر، وفي يده رأيت بارودة لأول مرة. بارودة لا بد أنه انقلعها من يدي شهيد. أو جريح. فقلت: رحم الله حنوك، لقد مات في اللحظة التي استبدل فيها خنجره ببندقية.

يقاتلهم كما يجب، لا أن يكون سبياً في موت من يقاتل معهم. الآن سيقيم (سافا) يشرح الخطة لكم.

كان سافا يملك قوة حضور غريبة لم أر مثلاًها حتى في الحاج محمود رحمه الله، وحين فتح فمه ليكنلم، أدهشنا قدرته على التحدث بالعربية. وحتى يقطع جبل سافا لانا قال: أنا سافا من يوغسلافيا وأنا متطوع مع الثورة. دخلت الحرب العالمية الأولى طفلاً، وخدمت في الجيش خمس عشرة سنة. سنقسم إلى مجموعات، كل مجموعة هجوم مكونة من عشرة رجال، وخلف كل مجموعة ستكون هناك مجموعة من عشرة رجال للحماية وتغطية تقدم مجموعة الهجوم. وحين تقدم المجموعة الأمية تقوم بدور التغطية كي تساعد المجموعة التي خلفها على التقدم وهكذا.

كان تنظيم جيلاً.

المعركة كانت قد هدأت في السهل، لكن القافلة لم تكن قادرة على التحرك، فمن بقي من جنودها حياً كان خارج العربات، أما الذين كانوا داخل المصفحة فلم يغادروها، وكان هناك ثوار في مؤخرة القافلة لا يمكن لمهاوهم، أما الطريق أمامها فكان مغلقاً بالحجارة والحصون الأشجار.

قاد الحاج خالد واليوغسلافي مجموعتي هجوم، تقدمنا زحفاً، وحين وصلنا إلى نقطة مناسبة لإطلاق النار، بدأت المعركة من جديد، وعند ذلك تقدمت المجموعات الخلفية.

لم تكن تعرف الحوف أبداً. تسألني لماذا؟ لأننا كنا على يقين من أن الروح التي وهبنا إياها الله، هو وحده الذي يستطيع أن يأخذها، وفي الوقت الذي حده الله، لا الوقت الذي حده الإنجليز أو أي مخلوق على وجه الأرض.

حين خرجت من البيت ذلك الصباح سألتني صديقة، زوجتي: أين؟ ما الذي يمكن أن تفعله بقطعة العصا هذه أمام منمرعات الإنجليز؟ قلت لها: لا تصعري على سباح إجابتي الآن، حتى إذا ما خرجت من المعركة حياً، يكون هنالك سبب يذمني للعودة إليكم من جديد!

نجم التقدم وأصبحت قسرين، ورغم أرجاسنا التي تنزف بسبب الفرح وانزعاجنا للصخور بين حين وآخر وشبكة النار التي كنا نسير عبر تقوينا. صرخ اليوغسلافي: تقدموا.

رصاصه في القلب

وجود ذلك العدد الكبير من الرجال، خلق فوضى لا يتصورها عقل. بدأت المعركة، بخمسين رجلاً، وفجأة أصبحوا خمسمائة! من جديد قام الحاج خالد بتنظيم المسلحين بعد انسحاب الجزء الأكبر إلى سهول القمح.

ارتفعت حرارة الجو، وكنا نتوقع أن تُطيق القوات الإنجليزية علينا من ثلاث جهات، لكن الذي حدث أن طائرة التريت، بعضنا كان يعرف ما الذي يفعله، وبعضنا اعتقد أن الحرب منها سيفتعه، كل من هربوا ساءوا أو جرحوا في غارها الأولى. صاح بنا الحاج خالد: سلاح. وطلب منا أن نستلقي على بطوننا ونوجه بنادقنا للسما. ونطلق النار حين يعطي الأمر، كنا أشبه بسور طويل من البنادق، وحين عادت ثانية سمعناه بصرخ: رصاص. فاطلقت البنادق في اللحظة نفسها، كانت أصوات الرصاص قد التحدت لتتحرك إلى رعد لم نسمع مثله من قبل، انهمضت عيني دون أن أعرف السبب، وحين فتحتني على هاميل الرجال الفرخين، ونظرت حيث ينظرون، رأيت سحابة دخان طويلة خلف الطائرة، وبعد لحظات قليلة رأيناها ترتطم بالأرض، قللنا أنها وقعت بين قمريني (صيدون) و (أبو شوشة).

سقوط الطائرة رفع معنوياتنا.

فجأة رأينا شاباً أبيض إلى جوار الحاج خالد، شاباً لم نر بياضاً مثل بياضه من قبل، عيناه صغيرتان لونهما أزرق كالبحر، وقامته طويلة وكان رقيقاً كعمود قصب. تحدثنا دقائق، ثم انجها إلىنا.

كان يمكن أن نموت جميعاً بسبب الفوضى، وقد رأيت ذلك بأعينكم. ما حدث في بداية المعركة لن يتكرر ثانية، من يريد أن يقاتل الإنجليز واليهود عليه أن

تقدمنا، وفعلة رأيت طلقة المصفحة تنفتح والرصاصة تنطلق، ورأيهم جميعاً، أولئك الذين كانوا أمامي يسقطون ميتين. انبطحت، كان هنالك رجل أمامي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وشجاء ترتعش بقوة وتضربان وجهي دون توقف، مددت يدي بصعوبة وأمسكت بقدميه محاولاً أن أثبته دون جدوى، فقل يرتعش بقوة حتى استشهد في النهاية.

عندنا خطتنا الأولى: مجموعة تتقدم وأخرى تحمي تقدمها، فأعاقبت الطلقة أمام قوة النار. وصلنا المصفحة. وسمعت اليوغسلافي يصرخ على من في داخلها: استسلموا. وهو يذئ حديثاً!!

صعد أحد رجالنا محاولاً إطلاق النار على من في داخلها من فتحة الزجاج المشوشة، فأطلق عليه من بداخلها النار فسقط أمامها ميتاً.

هبل!!
وسمعت أحدهم يقول لآخر: انذهب واقتل من قتل أبك! لكن الفئس رفض ذلك، فسمعت الصوت الأول يقول للفئس: جبان. ونحن تقدم بنفسه متسلقين المصفحة ليقوم بإعجز عنه الفئس أثناء الرصاص فوق جثة ذلك الذي قُتل في البداية.

يا عني الحرب ليست شغلنا!!
سحبنا الرجلين عدة أمتار، وكنا نخشى أن تتحرك المصفحة فجأة فنسحقها أيضاً.

بعد قليل وصلت مجنزرة إنجليزية ترفع علمها أبيض قلنا: يا سبحان الله. عشنا لنرى الإنجليز يرفعون الرايات البيضاء!!
طلبوا فأت الحصار عن القافلة مقابل السباح لرجلانا بالانسحاب. انفتحت اليوغسلافي إلى الحاج خالد فقال الحاج قم: أنظروا قتلنا، بعد كل ما خسره لنن تراجع أبداً. وإذا لم تعودوا فوراً فإنا سنسب القافلة بمن فيها.
عادت الراية البيضاء من حيث أتت.

ارتفعت حرارة الشمس أكثر، نظرت باتجاه الماء الذي يسيل جوار الشارع ورأيت الماء أحمر يجري.

قال اليوغسلافي: ليخين كل منكم خلف أي شيء يجده.
كان من في داخل المصفحة قد هداؤوا تماماً، لا بد أن الرب كان قد قتلهم وهم يسمعون الطرقات التوالية على حديد أكتفهم.

سأله الحاج خالد: ماذا تفكر؟

- سأنتفضها. قال له. وأخرج من حقيبته لغماً.

ابتعدنا.

وفي اللحظة التي أصبح فيها اليوغسلافي بجانب المصفحة انفتح برئها وأطلت البنادق وحدها، لم نرجع!! وانطلق الرصاص علينا انفق. كانوا يتوقعون، لا بد، أن هناك الكثير من الرجال حول مصفحتهم. فوجئ اليوغسلافي بذلك، ترك اللغم على بعد مترين لا أكثر، وتراجع بسرعة، وقبل أن يتعد أصاب رصاصة اللغم فانتفجر. تطايرت المصفحة إلى السماء، فأصابته شظية شقت كتفه الأيمن حتى نصف صدره.

لا. لم أرحنا كذلك الجرح في حيال، لكنني سأرى الكثير مثله فيها بعد، في ليلة اللذبة!

مرة أخرى دُبت القوضى من جديد، وتلفع الناس يركضون نحو اليوغسلافي، ولو كان هناك رشاش واحد لا استطاع أن يقتل العشرات منا في لحظة واحدة، لكن، الحمد لله، كان انفجار المصفحة نهاية كل شيء. إذ رأينا الجنود والضباط الإنجليز الذين كانت تفصلنا سيارات القافلة عنهم، يرفعون أيديهم طالبين الاستسلام. أما الفاجئة الكبرى فهي أن الحاج خالد وجد نفسه وجهاً لوجه مع الضابط الفلسطيني سند رجب.

لم يكن باستطاعة اليهود في أعلى المحاجر أن يطلقوا النار بمجرد أن استسلم الإنجليز. كانوا يترقبون ما سيحدث.

حاولت أن أضغط على جرح اليوغسلافي لأوقف النزيف، وإذا بيدي تنزلق داخل الجرح. لأشعر طويلاً بقيت غير قادر على تناول الطعام بها، صرخت أحس كلما رأيتهما تنج إلى فمي بأنها تنظر دماً.

بدأت أبكي. نعم بكيت.

فالتفت اليوغسلافي إليّ، وقال لماذا تبكون؟! انفتحت حولي كان الرجال كلهم يكون بمن فيهم الحاج خالد.

قال اليوغسلافي: تبكون على شخص سقط في صفوفكم، إن من يبكي على شاب يستشهد لا يستطيع أن يوقف هجرة اليهود لفلسطين أو بطرد الإنجليز منها!!

فمسحت دموعنا في اللحظة ذاتها.

كانت تلك آخر كلماته، لكنه لم يكن الأخير الذي سيستشهد في تلك المعركة، إذ فجأة رأينا بندقية جريح إنجليزي كان ملقى في صندوق سيارة جيب مُشهر، وفي اللحظة التي أُطلق فيها النار، أطلق الحاج خالد طريق الرصاصة التي كانت تنجم إلى صدر قاسم عليان، فاخترقت الرصاصة كتف الحاج خالد وواصلت طريقها نحو صدر قاسم فسقط شهيداً في لحظة. في الوقت الذي رأينا فيه الحاج خالد ينحني نازلاً.

تجتمعت حول الحاج خالد نحميه، في الوقت الذي راح بعض الشباب يمشطون صندوق سيارة الجيب بالرصاص. ثم اقترب أحدهم وأطلق ثلاث رصاصات من مسدسه داخل الصندوق وعاد.

كثيرون أكرموا في الحاج خالد ما فعله، أدركوا أن رجلاً كهذا يمكن أن تقتحم معه جهنم ذاتها. لكن الأمر كان أعمق بكثير. كان سرّاً، سيُضح شيئاً فشيئاً كلما اقتربنا أكثر من قرية قاسم، ثم من بيته..

وصل رجال فوزي الفواقجي قائد الثورة، قال الحاج خالد الذي ضعلنا جرحه على عجل: هؤلاء سباحذون السيارات والأسلحة. أما الأخيرة فقد تم وضعها على الشارع، وكان هناك الكثير منها، صناديق. فقال: من أطلق رصاصة فليأخذ مقابلها رصاصتين، ومن ألقى قنبلة فليأخذ قنبلتين أيضاً.

رحنا نتفقد كل من ماتوا إنجليزياً وعربياً، وصلنا إلى شخص ملقى على الأرض، لم يكن يلبس مثلاً، لم أر دماً حولوه أو منه، أشرعت بندقيتي في وجهه وأمرته أن يمد يديه، لم يفهم، فوضعته البندقية على فرائحه الأيمن، ففرد ذراعه، ثم على الأيسر ففرد، وعزته في جنبه فقلب، وإذا به يهودي. صرخت: يهودي.

كان معنا منطوق إنجليزي اسمه جاك. وكان واحداً من جنود إنجليز قليلين فروا إلى البقاء مع الثوار حين ساعدت الثورة عدداً منهم على الهرب إلى سوريا، ومنها إلى حيث أرادوا، الجنود الذين كانوا ضد جبرائيل برطانيا وضد فكرة الاستعمار.

قال جاك الذي يحمل رشاشاً إنجليزياً من نوع فكرز: أرجوكم أن نسمحوا لي بأن أقتله.

هز الحاج خالد رأسه مغالياً الأمل: لن يُقتل أحد هنا. سنسحب ومعنا الأسرى، هم ضيانتنا إذا ما اعترضتنا أي قوة بريطانية أو لاحقنا الطائرات.

حلنا اليوسلافي، وقاسم عليان، وبقية الجرحى والشهداء ورحنا نصعد السفح نحو حقل القمح الذي تصلبت سيقانه لدرجة أحسست معها أن رياح العالم كلها لن تستطيع هزها في تلك الظهيرة.

حين انتهينا، خفنا قبراً اليوسلافي. وقف الرجال صفواً واحداً، أكثر من أربعمائة وخمسين رجلاً والله، وأطلقنا النار راحة له.

كان الجميع يفكرون بمصير الأسرى: أحد عشر ضابطاً وجندياً، واليهودي وسند رجب.

كان الرجال قد تفقدوا حاملين الشهداء والجرحى إلى القرى التي جاؤوا منها، وكنت أحمل ممي بندقية ومسدس فوزي محمود الذي تعهدت له أن أوصلها إلى أهله في مغلس.

بمجرد أن وصلنا إلى منطقة أمان، اختل الحاج خالد ببعض رجاله، وحين عاد التفت إلى الأسرى وقال كلمة أدهشت الجميع: مع السلامة.

التفت حينها بعيني الضابط الفلسطيني سند رجب. وتحلى إلينا أننا سمعنا عيني الحاج خالد تقولان: واحدة بواحدة والباقي أكثر.

قال أحد الرجال بنفسه: لنقتلهم. فرد الحاج خالد صارخاً دون أن ينظر إليه: نحن ثوار ولستنا قتلة. فعاد الصمت من جديد.

انطلق الأسرى بعيداً، وبقينا نسمع وقع خطاهم حتى اختفوا تماماً باتجاه الشارع على مشارف (بيت حسيح).

قال الحاج خالد: هناك مهمة لن يستطيع القيام بها أحد سواي، ولكن أريد أن يرافقني بعض الرجال.

سمعت صوتاً يقول: أنا معك. ثم آخر وآخر وآخر وآخر إلى أن قال الحاج خالد: يكفي. وحين نظرت إلى وجهه كان مختلفاً تماماً، متنعماً وحزيناً وقلماً كما لم أراه من قبل.

حل الرجال الشهيد قاسم عليان فوق أكتافهم، وبقينا نراقبهم حتى تعطفوا باتجاه قرية المحاذية للهادية..

وكانني كنت غالباً عن الوعي وصحوت فجأة، فقلت: كيف نسبت!!! ودبّ الرعب في أوصالي!!

زهرة الماضي

جاء اليوم الذي كان يخشاها.

منذ وصول قاسم، أدرك الحاج خالد أن المسؤولية لا تحتمل. أخفى ارتياكه حين سمع الاسم (قاسم عليان) وقرر أن يعتذر له، حتى قيل أن يعرف إذا ما كان هذا الاسم للرجل الذي في باله، أم لا. أبعد أي فكرة حول تشابه الأسماء المنتشر بين الناس في أرض فلسطين من شياها إلى جنوبها. حسّ عميق ما كان يقول له: ليس هنالك سوى قاسم عليان واحد، وهو هذا القاسم الذي يقف أمامك.

لم يستطع الحاج خالد أن يثني قاسم حين جاء إليه حاملاً بندقية الصواري القديمة التي خاضت، لا بد نصف حروب تركيا، قال له: لدينا الكثير من الرجال هنا، وباتت حركتنا تزداد تعقيداً، ربما كان الأفضل لك ولنا أن نلتحق بمجموعة أخرى من الثوار.

- إن لم أكن معك فلن أكون مع أحد غيرك أبداً. أترك هذه البندقية فرصة أن تكون إلى جانبك، فلعلها اكتفت بما فعلته بنا وهي في أيدي الأتراك.

فجأة أحسّ الحاج خالد بوخزة سريعة موجهة، امتدت يده إلى جيب بنطاله شدّت على الجيب وقد انتابه رعب شديد من أن ذلك القنديل السكري الذي يبيع في جيبه مكشوف، وأن قاسم سيرقه ما إن يلمحه. ترك الحاج خالد مكانه وسار حتى آخر الحرش وحيداً. تحسّ جيبه مرة أخرى، أطمأن، وقف هناك قرب الهوة المحاذية للحرش الجبل، اعتصر جيبه بأصابع يده اليسرى، حدّق فيها طويلاً، وغيل إليه أن الأرض ليست أكثر من هوة عميقة لهذا الكون، هوة من الصعب علينا نحن البشر أن ننسّقها، بعضنا يحاول فيبذل إلى رأس شجرة وبعضنا يصل متصلاًها وبعضنا يصل إلى رأس الجبل وبعضنا يحاول أن يفتقر فيركب طائرة أو يجري بسرعة أكبر ليتجاوزها فيركب حصاناً أو سيارة أو قطاراً، ولكن النتيجة لا شيء، نحن في الهوة، في قعر هذا الكون وعلينا أن نتخذ تلك القرارات التي نحس

من خلالها أننا أصبحنا أعلى من الطائرة وأسرع من الحصان والعربة، أننا على وشك بلوغ الحافة والصعود إلى حيث الهواء.

أخذ نفساً عميقاً وتساءل: من أين خرج لي هذا القاسم؟ ما الذي أتى به؟ ١٩ كنت أعتقد بأنني تركت الماضي كله ورائي، تركته بها فيه، وإذا به أمامي. أكان لا بد من أن يظهر الآن؟ ثم ماذا؟ أن يلتحق بي؟ أي لعنة هذه التي تطاردك يا خالد؟ ما الذي فعلته؟ وما الذي يمكن أن تفعله وأنت تسير جنباً إلى جنب مع هذا الرجل؟ تهاجم الإنجليز واليهود، وتحميه في الوقت نفسه؟ إن لم تكن هذه هي اللعنة، فما هي اللعنة إذن؟

حين عاد لقاسم، قال: كما قلت، ليس هناك مكان لك، ستقدّم الأفضل بالنكيد في مكان آخر.

- أنت لا تعرف، لقد جئت هنا لسبب واحد، هو آل أهود. وكما ترى لست ذلك الولد الصغير الذي يمكن أن نقتعه بكلمة من هنا أو بكلمة من هناك. ها هو الشيب يملأ رأسي.

ورفع طرف كوفيته فالتفت رأسه أبيض لامعاً وقد انعكست عليه حزمة من ضوء الشمس كانت تعبر من بين الأغصان.

- ثم ليس عليك أن تعمل هي!! فلا أولاد لي يمكن أن يتيّموا إذا ما كتب الله لي الشهادة. أنا وإسرائي، ولا أحد سوانا. قال قاسم.

ارتجف قلب الحاج خالد، أشاح بوجهه بعيداً، وحين عاد لينظر إلى قاسم ثانية قال: بصراحة، لا أستطيع أن أحتمل مسؤولية وجودك معنا.

كان الرجال يتابعون الحوار غير مدركين لما يدور خلفه.

- لم آت إلى هنا لكي أكون مبشاً عليك، جئت هنا لأكون ساعدك، ولو أحسنت أنتي غير هذا قتلقت نفسي الآن.

عاد الحاج خالد يسير، إلى أن وصل تلك الهوة، التفت بعيداً فرأى دخان طوابين أكثر من قرية، وسمع صيحات رعيان يردون أبقارهم وأغنامهم وعواء كلاب. ولما وقف ثانية أمام قاسم قال له: أعلا بك. وأرجو أن يلمنا الله الصواب.

في كل المارك التي خاضها قاسم معه، لم تكن عينا الحاج خالد تقارقه، لم يكن قاسم طفلاً ليجتاح كل تلك الرماية، كان يصر الحاج خالد نفسه، ولكن ذلك لم

يمنع الحاج خالد من أن يتحسس قلبه خائفاً من مكروه قد يهب فجأة ويصيب قاسم.

.. وما هو الحاج خالد يسير أمام الرجال الذين يحملون جثة قاسم ويهبطون الوديان ويصعدون الفوح ويقطعون السهول.

حين وصلوا مشارف القرية، أحسّ بحجم الكارثة أكثر. قال لهم: سأنتظر كم هنا حتى نعودوا!

- كيف يمكن أن نتظرنا هنا، لن نتركك وحدك، ولن نذهب وحدنا، نحن بحاجة إليك هناك، فالذي نحمله على أكتافنا ينتظرون عودته حيا لا شهيدا. نحن بحاجة إليك، وأهلك بحاجة إليك، سيعني الكثير لهم أنك قد جئت بنفسك، في ذلك تقدير لهم وتقدير للشهيد.

- والشهداء الآخرون ألم يكن عليّ أن أوصلهم لبيوتهم أيضاً؟
- كل واحد كان يستحق، ولكنك أنت الذي قلت إن عليك إيصال قاسم إلى أهله.

كان الحاج خالد يعرف ذلك كله، ويعرف أن الأصول لحتم عليه ذلك، ويعرف أن رجاله يعرفون وأهل القرية والبلاد كلها تعرف، ويعرف أن القرب الذي يحاول التسلل منه أضيق من أن يتسع لمرور إصبع واحد من أصابعه، فما بالك بجسده كله، بروحه كلها؟! هز رأسه: ما دمنا قبلنا هناك، وسرت إلى جانب جثته إلى هنا، فيسود أن عليّ أن أواصل السير معها كانت النتائج حتى هناك. قال في نفسه.

ولم يكن يعرف إن كان عليه أن يواصل أو يتوقف رغم كل هذه الحجج التي لا يستطيع الصمود أمامها، لكنه وجد نفسه يسير ويتبع الناس وهم يغنون!!

قولي في وين دارك يا ياسمين يا مليحة
والله لشيح أثارك لو حتى على ريحا
قولي في وين دارك يا ياسمين يا لطيفة
والله لشيح أثارك حتى القُدس الشريف

...

يا طول الشعر الأسمر من عكا حتى باقا
ومن غزة حتى المجدل ومن حيفا لـ (صفالة)

وكما لو أن والد العروس راح يجي الجاهة غنت النساء على لسانه:
يا هلا ومرحبا بالي هلا علينا
بترحب فيهم وينحطهم في عينينا

....

فجأة توقفت، فاصطدم به الرجال الذين خلفه وأحس بجمجمة الشهيد ترتطم برأسه، عند ذلك أدرك أنه أمام امتحان أكبر من طاقة البشر.

من بعيد لمحت القرية الرجال الخمسة، تنهت كل حواسها، ومع كل خطوة كانت تقرهم من بيوتها الأولى، كانت الدقائق تشتعل أكثر فأكثر.

وأهم بعض أولئك الذين يعملون في كروم الزيتون، راحوا يركضون نحوهم من بعيد، وصلوا، وعند ذلك تعالت الصيحات: الله أكبر، لا إله إلا الله.

اندفع كثير من أهل القرية نحوهم، التقوا، اقترب أحد رجال القرية ورفع الغطاء عن وجه الشهيد، تراجع خطوتين.

- تم؟ سمع أكثر من صوت عن لم يتمكنوا من رؤية الوجه.

- قاسم. قاسم عيان، استشهد فداكم، فدا فلسطين.

بكي بعض من هناك وكثر بعضهم، ثم راحوا يهبطون نحو بيته.

عرف كثير من الرجال الحاج خالد، اقتربوا منه، ساروا على جانيبه، فأصبح في منتصف الصف إلى ذراعهم فرأى دمه يتسلل من الجرح وينساق قطرة قطرة.

ومن بعيد رآها تظل، وبخطى وجلة تتقدم نحوهم، مثل عشرات النساء اللواتي كن هناك، وحين تعطلت الجنازة وراحت تسير نحو البيت يتودعها ذلك الطفل الذي تصرف كما لو أنه الوحيد الذي يعرف بيت الشهيد، ارتجفت ثم تجسدت. ولم تعد عينها تفرقان..

.. وهمت لنظها: أخيرا قتله حتى بالذئب!

إلا إذا اختفى للأبد، وبهذا أيضاً تكون الدولة قد نالت منه. أحييناه نعم، ولكن هنالك شيئاً تحبكه الأقدار، بل حاكته، يفوق بقوته ما تتمناه قلوبنا. عليك أن تفكري جيداً بما أقوله.

- لكنه عاش، عاش أكثر من الدولة نفسها، ماتت الدولة وظل حياً. قالت لأبيها بعد زواجها.

- هذا الموضوع انتهى، ولا يجوز لك الحديث فيه أبداً.

- لا يا أبي، هذا موضوع لن ينتهي، عل الأقل ما دمنا أحياء، أما حين نموت، فقد ينتهي، وما دام الناس يذكرونه فسيبحث إلى الأبد، كلغة. كل شيء يموت سوى هذا النوع من اللغات.

- الزمن سيمحو كل شيء.

- الزمن يمحو يا أبي، ولكن ليس كل شيء.

حين زارها أمها بعد شهرين همست في أذن ياسمين: بشريني! هل هنالك شيء؟؟

- لا يا أمي، ليس هنالك شيء ولن يكون!

- قاسم لا سمح الله (مش نافع)!

- المسألة ليست في قاسم، المسألة في.

- تأخذك لطبيب، صباح الغد، يأتي أبوك ويأخذك إلى طبيب، إلى الرمل، إلى باغا، القدس، إلى حيفا.

- الطبيب ليس له علاقة بما يحدث في أبها.

- لقد قررت. لن يكون في أولاد من قاسم!!

- كيف يمكن أن تقولي هذا، أنت صبيّة وزوجك في عزّ شبابه، وهذه مسألة لا تستطيع امرأة أو رجل التحكّم فيها، فيها دام الأمر طبعياً فلا بد أن يكون هنالك أولاد.

- لا يا أمي، أنا أعرف نفسي، جسمي لا يجبل ولا يلد، لأن روحي هي التي تجبل وروحي التي تلد.

ولم تنجب ياسمين، ثلاث سنوات مرّت ولم تنجب، أربع، خمس، عشرون.. ولم تنجب.

الفراغ

لم يكن قد فعل ما يُمكن أن يقال فيه إنه وشاية، ولكنه بالغ في الشرارة لسبب يعرفه. كانت تلك الثغرة قد انفتحت عميقاً في روح قاسم، وازداد اتساعها حين لم يستطع أن يتجنب ولداً واحداً من ياسمين.

- لقد حصلتُ عليها. وهذا هو المهم. كان يقول في البداية لنفسه، وعندما أصبحت بين يديه أحس بأنها فارغة تماماً، فارغة بكل معنى الكلمة، لا شيء في الداخل، لا القلب ولا الأحشاء ولا الرّحم ولا الرحم، كانت مثل بناء جميل مهجور، عاود ولا شيء فيه سوى العناكب التي تتكاثر وتتكاثر لتتملأ الزوايا. لم تكن ياسمين تعرف سرّ ما حدث، ففجأة، تحوّل خالد، الذي استعاد الحماية وكل ما شلّبه من القرية، إلى طريد للأثر. كان قاسم يمس لكل من يلقاه: ليس هناك غيره أوكد لكم. إنه البطل. خالد هو البطل الذي فعل ذلك كله بالأثر.

تسرّب الحمس كما يتسرّب المطر في الأرض من إنسان إلى آخر: ليس هو. لا يمكن أن يكون هو. ليس شخصاً واحداً من يستطيع أن يفعل ذلك كله. بنفسه أولئك الذين يحمون خالد. لكن دون جدوى.

حلت الرّيح الغمسات إلى القرى المجاورة، وطافت بها حتى استقرت أخيراً في آنان المذكّر التركي، كما استقرت همسات أخرى أكثر وضوحاً.

حين سمع قاسم بأن خالد أصبح مطرداً، لم يستطع أن يحدد طبيعة شعوره. أحياناً، كان يمس لنفسه: لقد جعلته بطلاً فعلاً، وعليه أن يشكرني! وأحياناً، ينتابه الشك في كلّ ما فعله حين يفكر بصوت عال: كيف يمكن لياسمين أن تقبل به وقد حوّلت خالد بنفسه إلى بطل؟

لكن ياسمين قبلت في النهاية، قبلت لأنها لم تجد أمامها من خيار سوى أن تقبل، مثل نعمة تُقدّم إلى الذبيح بجبل، سارت إلى بيت زوجها. وجملة أبيها للاحقها: غمّر الدول أطول من عمر الناس! وهذه الدولة باقية: لم يحدث أن نجا أحد من المطاردة،

ولم يحرف على أن يقول لها: إذا كان الأمر هكذا، سأ تزوج بامرأة ثانية.

قال لها قاسم: سألت حق بمسك الحجاج خالد.

- أخشى أن تكون السبب في مقتله هذه المرة. قالت، وكعادتها لم تنظر إليه.

- ما الذين تمنيت؟

- على أي حال، لقد فات الأوان، بحيث لم يعد باستطاعتك أن تفعل شيئاً من أجلي؟

- ما أفعله الآن من أجلي فقط. الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن أفعله من أجلك كان يجب أن أفعله منذ زمن طويل.

حين وقف الحجاج خالد وجها لوجه مع ياسمين اقتصرمت أبدان أولئك الذين يعرفون أنه كان غطيها ذات يوم، وأنها باعته من أجل قاسم الثرثار.

وعلى الرغم من أن الحجاج خالد كان يعلم بموت أبيها منذ زمن طويل، إلا أنه ولسبب غامض ما، راح يبحث عنه بين الوجوه.

التفت إلى جنة قاسم. ثم قال لها: البقية في حياتك.

حياتك الباقية ردت. وعند ذلك بدأت تبكي.

وانحدرت الشمس؛ أشار أكثر من رجل إلى أهمية أن يُدفن اليوم: إكرام الشهيد دفنه. قالوا.

.. وسار الموكب الذي كان عدد المشاركين يتضاعف فيه مع مرور الوقت.

- نأخذُه إلى بيته ليودعه أهله، ثم نذهب به للمقبرة.

حملوه لبيتها، جاءت أخواته، أمه، تصاعد البكاء، وبعد لحظة دخل أبوه: لا تلوثن جرحه بالدموع. هذا شهيد.

- إنه ليس له وحده، إنه لي أيضاً، إنه ابني، صرخت الأم في وجهه.

كان قاسم أكبر أولادها، وقد أحسّت دائماً بتلك اللعنة التي أصابته في الصميم منذ أن اختطف ياسمين من بين يدي خالد: أخشى أن الله لن يغفر لك فعلتك،

مهما فعلت، لقد فرقت بين قلبي وحرمته كلاً منهما من الآخر.

وصدقت نبوءتها، لكنه فاجأها وهو يعود إليها شهيداً، نظرت إلى وجهه، كان هنالك طيف ابتسامة على شفاهه، نظرت إلى ياسمين ومن أصدق أعماقها قالت وهي

تنظر للسبأ: رحمتك يا رب.

حين عرف الناس بتفاصيل لحظة استشهاد، وكيف أن الحجاج خالد كان يريد أن يقديه بحياته، اختلطت أحاسيسهم أكثر، وتحدثوا عن القدر وحكمة الله والعمر المكتوب للبشر منذ مولدهم.

أما ياسمين، فقد باتت أكثر ضياعاً. وعذبتها أكثر أن خالد لم يزل مستعداً لتقديم حياته من أجلها بعد كل ما حصل. عذبا أنه كان يمكن أن يموت من أجلها هي في تلك اللحظة، لا من أجل فلسطين؛ وهو لا يعرف أنه لو استشهد وعاد قاسم لكان بذلك ينتقم منها أكثر.

- رحمتك يا رب. صاحت. ما الذي يحدث لي؟!

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي سشاهد فيها الحجاج خالد أمامها؛ اللقاء الأخير المعمد بالدم، والمتفوح على المجهول. اللقاء الأخير الذي كان لا يد منه كي تصدق أنها فقدت خالد للأبد، كما أحس بأنه فقدتها للأبد.

كان ينظر إليها وهو يرى دم الشهيد يتدفق نهراً بينهما، نهراً لا يمكن لأدمي أن يستطيع تجاوزه.

دار الزمن كله دورة واحدة، ورأى الحاج خالد نفسه وهو يعيدها إلى أهلها:
أعشى أن الزمان سيجور على عزيزكم أكثر إن ظَلُتُ معي. قال.
وظَلُّوا صامتين.

- اتركها هنا، حتى تتغير الأحوال قليلا وأعود إليها!
- أنت تعرف أن الفرس التي تُعَاد لا تعود.
- ولكنني سأخسرهما إن بقيت معي. أنا المُطارد فما ذنبها.
- الحرة تحمل.
- جارحة كانت الكلمات.
- ولكنني لن أحتمل.

ظلوا يفتريون منه وهو ثابت في مكانه غير قادر على الحركة. وحين عانقه طارق
وشدَّ بقوة إلى صدره رفع ذراعيه واحتضنه بدوره.

- هذه هي الحماة. ليس هنالك من هو أهل لثقلها مثلك.
- حاول أن يفتح فمه ليعتذر. وضع طارق يده على قم الحاج خالد ومنعه: جنتاك
بابتنا ثابتة إلى هنا، لأنك تعني لنا الكثير.

تجمَّع عسكر الحاج خالد حولهم، يتابعون حديثنا لم يعرفوا في أي زمن ابتداء. نظر
الحاج خالد إلى الحماة: كأنها هي.

- إنها حفيدتها. قال طارق.
- وهي؟ ما أحوالها؟
- مثلنا كبرت، لكن روحها لم تزل مشتتة كما كانت دائما.
- أعشى أن تكون عجملا في قولك هذا.
- في كلامي عنها أم في كلامي عنا؟

ضحكوا.

ثم عم الصمت فجأة.

راح الحاج خالد يمدِّق فيها، وحين وجد القوة التي يحتاجها في جسده كي
يتحرَّك سار نحوها، كان أحد رجال طارق قد ربطها إلى جذع شجرة صنوبر،
احتضن الحاج خالد وجهها بيديه، انقلبت دمة من رغبته وظلت تسيل إلى أن
بلغت شاربه الأيمن، لكن دمة من عينه الثانية لم تستطع قطع منتصف المسافة التي
فصلتها الدمة الأولى. وأمام دهشة كثير من عسكره قبل جبينها، ثم اتحنى حتى

عودة الحماة

حدَّق الحاج خالد في البعيد، ورأى سبعة خيول تقطع السهل، ارتجفت قلبه،
وكلمًا كانت المسافة تضيق بينه وبينها، كان يراها أكثر وضوحا بينها: الحماة. صعد
الفرسان السفح اختفوا بين أشجاره: لسبب ما لم يكن أحد يمتطي تلك الفرس
البيضاء. أحس الحاج خالد بذلك، فراح قلبه يرتجف، ثماسا كما ارتجفت في تلك
اللحظة التي رآها فيها إلى جانبه ليلا، فلم يعرف إن كان ما يراه حقيقة أم حلما.

راح يحاول ما استطاع التحديق عبر الأشجار، ولكن دون جدوى، وحيره أنه
فقد حذره كله دفعة واحدة ما إن أحس بأن هذه الفرس لا يمكن أن تكون إلا
الحماة.

- أي حماة؟ لقد ماتت الحماة لا يد، ولعلها شاعت مثلك. قال لنفسه.

حيزه أنه وقف مكشوقا ومعزولا، بعيدا عن عسكره، كما لو أنه ليس ذلك
الشخص المحكوم بالإعدام: أي سخرية يمكن أن تحدث لو أن الحماة قد أصبحت
طُعْمًا؟ لكنه رغم ذلك لم يتحرَّك.

فجأة أطل رأسها من بين الأشجار، وحيدة: إنها هي. لكن أين من معها من
فرسان؟ حاول أن يتراجع، أن يختفي وراء شجرة، لكن قدميه انغرسا في الأرض
أكثر.

- لست بحاجة لشيء أكثر من حاجتك إلى فرس مثلها. جاءه الصوت عن
بعينه.

الثقت، وإذا به وجها لوجه مع طارق بن الشيخ محمد السعادات، كان قد كبر
كثيرا، بحيث أصبح يشبه أباه الشيخ محمد إلى حد بعيد. ورأى إيليا راظمي الذي
رافقهم يراقب بعينين دامعتين.

لامست ركبته التراب، أمسك بقائمتها اليمنى، رفعها نحو شفتيه، قبّلها، وبرفق أعادها إلى حيث كانت، ثم تناول قائمتها اليسرى وفعل الشيء نفسه.

بعودة الحمامة، عادت إلى الحاج خالد وروحه التي مرّقتها دون رحمة تلك اللحظة التي وجد فيها نفسه وجها لوجه مع ياسمين.

وعندما قيل له: عليك أن تستريح حتى يشفي جرحك. لم يقل تلك الجملة التي رددتها طويلا في الأيام الماضية: ما دام الأمر متعلقاً بجرح فإني سيشفي، عاجلا أم آجلا. قال: الجرح! أما زلتم تذكرونه.

أمسك برسن الحمامة وسار معها بعيداً، وحين تأكد له أن أحداً لن يسمعها قال لها: شريطي الوحيد ألا تذكريني بها.

هزّت الحمامة رأسها.

كان مستعداً لكل شيء إلا أن تعود لمسها القديم الذي كانت تملأ به إذنيه في صحوه ومناحه: إني هي. إني هي. إني هي.

في ذلك البر أوشك أن يجن: كيف يمكن للفرس أن تتكلم؟ راح يصرخ. وحينها لم يعد يحتمل ذلك، قرر أن يُعيدا. كان يعرف المعنى العميق لما يقوم به، ولكنه كان سيفقدنا أيضاً إذا ما واصلت الشمس في أذنه، سيفقدنا لأنه سيجن، ويفقد نفسه معها.

حاول الحاج خالد أن يطرد صورة ياسمين التي انتصبت أمامه تنظر إليه وتنظر إلى جثة زوجها، حاول أن يطرد صورة المرأة فيها، حتى أنه لم يجرؤ على أن يمس لنفسه: إنها هي، كما كانت دائماً، لم تتغير. إنها هي.

لكنه هتمتها أخيراً. إنها هي. قالها بصوت عالٍ للحمامة. إنها هي، وأنا الوحيد الذي يمكن أن يقول هذا بعد اليوم، لا أنت، ولا أي مخلوق آخر. فهمت؟!؟

هزّت الحمامة رأسها مرة أخرى. امتدت يده إلى جبينه تتحسس المنديل السكري، وللحظة رفعه نحو أنفه كي يتشممه بانتشاء كما كان يفعل دائماً، إلا أن يده توقفت في منتصف الطريق. حقق في المنديل من جديد، ففكر بالقاتل في الريح لتحمله إلى حيث تريد أو لعلها تعيده إليها. لعله لم يكن في منذ البداية. هس لنفسه. لعله للحمامة وحدها. امتدت يده إلى رسن الحمامة وعلقته هناك، في المكان الذي وضعت فيه ياسمين ذات يوم. نظر إلى المنديل، لكنه لم يستطع معرفة تلك الأحاسيس التي راحت تمور في داخله بصخب.

طويلاً حاول الحاج خالد أن يهرب من ذلك الصوت الذي ظل يتابعه لزمن طويل: إنها هي. إنها هي.

بصحو ولا يجد الحمامة إلى جانبه، يلتفت ويظل صوتها حاضراً حتى في الصحو، من بعيد يأتي هامساً: إنها هي. إنها هي.

ترك الجبال التي عرفها وعرفته، انحدر إلى مدن الساحل، وفي ضجة شوارعها تلك، استطاع أن ينال للمرة الأولى يبدو بعيداً عن لعنة ذلك الصوت الذي يلاحقه.

لم يبع إيليا راخي الذي عثر عليه هناك بشيء، لكن صمته كان يقول أكثر مما يمكن أن يقوله كلامه. أما محمد شحادة فقد تحدّث فيها بعد عن امرأة ألمانية وسكت. فقد كان على يقين من أن خالد الذي كان هناك لم يكن أبداً هو خالد الذي عرفه أو سيرفه فيها بعد!!

وقب محمد شحادة الذي يصغر خالد بعشر سنوات أمامه كرجل كبير وقال له: ستعود للهادية معاً. الآن.

- وماذا عن الأثراك!

- الأثراك هناك أقل من هنا. كثيرون منا عادوا.

وكما لو أن خالد كان ينتظر ذلك منذ زمن طويل، نهض، تاركاً كل ما يملكه من أشياء قليلة في تلك الغرفة المظلمة على بحر حيفا. وسار معه.

قال محمد شحادة: .. والتفت خالد خلفه مرتين، وحين حاولت أن أنظر إلى حيث ينظر هو، أمسكتني من رأسي وقال لي بهزم أروعني: يا محمد إذا نظرت خلفك سأعود لذلك الذي سترأه.

تحدّث محمد شحادة، كما لو أن رقبته تحوّلت إلى لوح للنج، وبصعوبة قال: لن أنظر.

كانت المشائق التي ملأ بها الأثراك البلاد تملأ الشوارع والتلال المحيطة، وتنصب في الريح كفراعات شرهة تنطلق لأعناق الناس بنهم مجنون، ولن يمضي الكثير من الوقت، قبل أن يأتي لها الانجليز يا محتاجه من فرانس.

التوجه فوراً إلى المشقة، ومن عليه حكم بالسجن فإن عليه أن يمضي ويترك باب السجن ويقول للإنجليز: لقد عدت.²¹

كانت الأيام التالية أكثر حلكة مما يمكن أن تحملها العين، هبط ضباب كثيف فوق الجبال، وصمّت كل شيء فجأة، صمّت العصافير، وتلاشت خطوات الغزلان التي كانت تعبر بين حين وحين، وبدت الحماة كما لو أنها ذابت، لولا صوت تنفسها الرتيب المخافت. لم ينظر الحاج خالد حوله ليرى كم بقي معه من رجال وكَم ذهب، كان الضباب نعمة في تلك اللحظة، بحيث لم يكن باستطاعة أحد أن ينظر عميقاً في عيني أحد أو يشيعه وهو يعبر جدار العتمة البيضاء الباردة. كان الحاج خالد يدرك أن الناس (تعبت)، ولكن تلك الكلمة لم تكن تعني له سوى شيء واحد، أنها حُرمت.

حين تلاشى الضباب أخيراً لم يجد حوله هناك سوى اثنين، إيليا راضي والحماة. قال لإيليا: أظن أن بإمكانك أن تعود، بالنسبة لي، لن أسير إلى المشقة برجلي، سأذهب إلى الشام، ما دامت كل قياداتنا قد أصبحت هناك، ربما نصل إلى حل؟ سأفكر بخطواتنا التالية، يبدو أن الجميع ضلنا الآن؛ لم يعد هناك شيء في هذه البلاد غير الوهم.

- حين خرجت للجبال معك، لم يخطر ببالي أن أعود للهادية إلا معك.
- لا. أريدك هناك. بالنسبة للإنجليز أنت غير معروف، وحينما أحتاجك سأرسل في طلبك، وربما سأتيك بنفسي. اطمئن. ثم أخرج الحاج خالد الزاجلة من قفصها وأطلقها. وأضاف: فليفلذلك جناحها، وراقبها وهي تتطلق، دارت نصف دورة، ألقت نظرة عليها، ثم حدثت مسارها وراحت تبتعد.

على مشارف قرية (كوكب الحوا) رأى الحاج خالد تلك الورقة تتقلب في الريح، أوقف الحماة، نزل والتفتها، كان يريد أن يقرأ أي حرف يشير إلى أين وصلت الأمور، إلى أين تستصل، قرأ الورقة:

²¹ - في تلك الفترة كانت بريطانيا قد أصدرت أحكامها بالسجن، مدداً طويلة على حوالي 2000 فلسطيني، وهددت أكثر من 5 آلاف بيت، وأعدمت شتاتاً في سجن عكا 148 شخصاً، وبلغ عدد المعتقلين لمدة عطلتها أكثر من خمسين ألفاً.

الضباب

في ذلك القجر البارد، أطل من جوف الضباب أحد رجال الفواقجي وسلم الحاج خالد بيان وقف الثورة بصمت شديد. تناوله وراح يقرأ:

بلاغ رقم 16

لتبينة لنداءات مولانا وأمرقنا العرب ونزولا عند طلب اللجنة العربية العليا نطلب توقيف أصال العنف تماماً وعدم التعرض بأي شيء يفسد جو المفاوضات التي نأمل فيها الأمة العربية الخير ونمل حقوق البلاك كاملة، وأن نتجنب أي عمل من شأنه أن يهدد حجة علينا في قطع المفاوضات... إننا نرحب بالمسلم الشريف ولن نعتدي عليه ولكننا عند الضرور تدافع ولن نرمي السلاح....

لقد علم فوزي الدين الفواقجي 1936/10/12
لم ير أحد الحاج خالد غاضباً كما رآه ذلك اليوم، كَوَّر البيان وألقى به بعيداً، سقط قرب الحماة، مدّت رأسها؛ كانت همّ بالتهام الورقة التي أُلقيت أمامها، فصاح بأعلى صوته: لا.

ارتبكت القرمس وتراجعت خطوات.

سار نحو البيان النقطه من على الأرض، طلب عود لثقاب، قرّة البيان ثانية بحيث يسهل حرقه، أشعل عود كبريت، تأمل شعلة النار الصغيرة التي راحت مهبط نحو نقطة النقاء إياهام بسبابته، انطفأت، امتدت يده بالبيان إلى إيليا راضي.

مضى للحماة، احتضن رأسها بكفيه محاولاً يهدئتها، اعتصر جيبه بأصابع يده اليسرى، ثم التفت إلى رجاله: ما الذي يريد، هل يعتقد أن الإنجليز سيسمحون لنا ثانية بالعودة إلى بيوتنا ومزارعنا؟! وهل يمكن أصلاً أن نعود، والبحر لم يتوقف لحظة واحدة عن حمل المهاجرين اليهود كل يوم؟! ثم أي مفاوضات هذه، منذ عشرين سنة ونحن نفاوض، وقرار كهذا سيحكم علينا بأن نظل نفاوض للأبد. والتفت إلى رجاله: على أي حال هذا قراركم. قرار كل واحد منكم، لأن البيان لا يتحدث عن أي عفو عن الثوار، البيان يقول لنا: كل من عليه حكم إعدام فإن عليه

إلى جانبها راح يسير؛ في البعيد رأى بحيرة طبريا، كانت ساكنة إلى حد لا يُصدق، وكل ما حولها ساكن، الأشجار، الطيور وخطوات الغزلان، فأحس أنه يسير في الصمت؛ لماذا يعود هذا الإحساس ليتكرر من جديد.²²

(...) ألقب من الشعب العربي المجيد مراعاة الأمور الآتية بكل اهتمام: عدم مقابلة اليهود بالمثل، وهم الذين أخذوا يعتنقون، لا عن شجاعة أو شهامة... بل بقصد التمس والإفصاح بين جيش الثورة والجيش البريطاني كسي يعود النزاع والاضطراب ولكي يفسدوا علينا المفاوضات فيحولون دون نيل البلاد كلها، وإلى انتظار من الشعب الكريم الصبر وتنتظر ما ستسئله السلطة البريطانية في حقوق العرب... إن جيش الثورة للفقور جدا بأن يكون قام بواجبه، كما عاهد، وأنهى مهمته بالفوز وأوصل البلاد إلى حدود أمتيها وحقوقها التي أصبحت في عهدة الملوك والأمراء والأمة العربية جمعاء. لهذا ترى قيادة الثورة، اعتمادا على ضمانة الملوك والأمراء وحفاظا لسلامة المفاوضات، ولعم جعل أية ذريعة للتخمس يتزعم بها الشعب في الحقوق المضمونة أن يترك الميدان... بعد أن لم يبق له أي عمل، وإنها لتعاهد أن يكون جيش الثورة في طلائع الجيوش العربية التي سوف تسرع لإفئاد فلسطين (!!!)

لقدك العلم/ فوزي الدين القزويني 1936/10/20
كثورها، هم بأن يلقبها بعيداً، تراجع عن ذلك، امتدت يده إلى خُرج الحماة، عادت أصابعه بعملية ثقاب، أخرج عوداً، هم بإشعاله، لكنه قذفها للأرض بقوة، ثم التحن، أمسك حجراً وراح يذقها ويدقها حتى تحولت إلى فتات.
حين أراد أن ينهض، أحس برأسه يدور، والسماء تدور، الأرض تدور، والحماة لا تتوقف عن الدوران، أدرك سريعاً أن عليه أن يتأسك، أن يصل إلى الإبرة في الخُرج، أن يحقن نفسه، وإلا سيموت في هذا البر. بصعوبة بدأ ينهض، دون أن يتوقف عن الدوران، وسط هذه الدوامة التي تنطلق قديمه وتطرح به بعيداً لأعالي السماء وأصقاف الأرض في آن. أمسك بحافة الخرج، كان واقفاً على ركبتيه ليس إلا، لكن وجود الخرج أمامه جعله يحس بأنه واقف على قديمه. امتدت يده، أخرج الإبرة، حقن نفسه، عاد ببطء إلى صحوه، فرأى أن الحماة كانت قد انحنت لتساعده، وأنها ملتصقة بالأرض قريه.

كان أول شيء فعله هو النظر إلى فتات تلك الورقة، لم يكن قد تبقى منها سوى قطعة واحدة ملتصقة بالحجر الذي استخدمه لسحقها، وبصعوبة استطاع قراءة تلك الجملة الممزقة: بلاغ رقم...

بعد أكثر من نصف ساعة، شعر بالحياة تعود إليه من جديد، كان لما يزل واقفاً على ركبتيه، لكن صدره كان ملتصقاً بجسد الحماة.

22 - (دوريل خير يهيد أن الملك السعودي سمح للقزويني وصاحبه من الجاهلدين بالإقامة في (القرينات) داخل حدود مملكته، وجاء خير آخر حول موافقة الحكومة العراقية على استضافته، حيث كان له وداع وطن عظيم في شرق الأردن، وذكرت الصحف أن وفداً من الأردن صحبه بترتيب ورضاء الأمير عبد الله. وكان قد شاع أن سلطات الانتداب البريطانية في الأردن متعيق رحيله، لكن شيئاً من هذا لم يحدث!!!)

ولدين في يوم واحد. فقالت لها أمي: بعيد الشر. آخر شيء يمكن أن يفعله الإنجليز هو أن يشقوا أحداً هذه الأيام، لأنهم لا يريدون أكثر من رضا الفلسطينيين بعد انتهاء الثورة.

في اليوم التالي ذهبت هي ووالدي والحاج سالم ومحمد شحادة إلى سجن المسكوبية، لكنهم منعهم من الدخول، قالوا لهم هؤلاء في التحقيق وتضيقهم طويلاً.

عادت العزيرة إلى بيتنا مع والدي، سألته أمي عن الحاج سالم ومحمد شحادة، فقال: إنهم عادوا للهادية، لأنهم يريدون الذهاب للمحامي الرزوقي. جلسنا أنا وهي وأمي وأختي سعاد في غرفة، بدأنا بتناول طعام الغداء وبعد أن تناولت كل واحدة منا لقمة أو لقمتين، ونحن نسمع نشرة الأخبار من الراديو، سمعنا ذلك الحبر الرهيب: نُفذ صباح اليوم حكم الإعدام بالأخوين فايز عبد المجيد وزيد عبد المجيد بعد أن أدانتها المحكمة العسكرية بقتل ضابط وثلاثة جنود بريطانيين.

تحدثت كل شيء في تلك اللحظة، نظرنا إلى العزيرة، فلما جاء في عالم آخر، كانت صائتة وكأنها تجلس وحدها، وبعد لحظات نظرت إلينا وقالت: شئ صار؟؟ لماذا لا تأكلن؟؟ سمعنا كلامها فبدأنا نبتكي، وقامت أمي لتعجب. قلت لها: على وين باتا؟ فقالت وهي تخفي وجهها: مش قادرة، مش قادرة. لكن العزيرة عادت تخضع للقسمة التي في فيها، ثم مدت يدها إلى الطعام من جديد واستمرت تأكل! فاستزداد بكافوا أكثر. في النهاية لم نستطع إلا أن نمد أيدينا وتأكل معها والدموع تختلط بطعامنا.

لن أكل في حياتي طعاماً مثراً مثل ذلك الذي أكلته ذلك اليوم. بعد أنان العصر قامت ونوضات وقالت لأمي: خليني للمسجد الأقصى. فذهبت أنا وأختي سعاد معها، دخلنا السور من باب الخليل وحين وصلنا إلى المسجد راحت تلطم خدودها وتصبح بأعلى صوتها وتصرخ على السجادة. تركناها تفعل ما تريد، وبعد نصف ساعة عادت إلينا وقالت: هبدو! خلوني للبيت، فرجعنا بها.

علمت الهادية بالبحر فعاد الحاج سالم وإيليا راضي ومحمد شحادة وجمعة أبو سنبل، ماذا أقول لك، كثيرون كانوا. ذهبوا للسجن فقالوا لهم: نسلمكم إياها غداً. فجاؤوا إلى بيتنا. دخلت العزيرة عليهم وسألت على الجميع، وجلست صائتة لم تقل شيئاً ولم يستطيعوا هم أن يقولوا أي شيء أيضاً.

أحزان العزيرة

لم يكن قد مضى على غياب الحاج خالد في الشام أكثر من خمسة أشهر حين علمت الهادية بخبر إلغاء القبض على ولدي العزيرة فايز وزيد بتهمة قتل ضابط وثلاثة جنود بريطانيين على الطريق ما بين قريتي لفنا وقولونيا.

ساقوهما إلى سجن المسكوبية فوراً.

إلى القدس جاء الحاج سالم والعزيرة ومحمد شحادة. لم يسمح الإنجليز لهم بمقابلة فايز وزيد. قالت العزيرة، سأبقى هنا حتى أراها.

- اليوم نعود للهادية وغداً صباحاً نكون هنا. أين يمكن أن تنامي في القدس؟

- ليس هناك سوى بيت الحاج أبو سليم.

- ولكن!!

- إنه رجل أصيل، وكان يمكن أن يكون جد أولادنا لو أن الله كتب الحياة لابنته أمل.

- اللي يتشوفه. قال لها الحاج سالم.

"اللي بيدي أحكيك إياه، رأيته بعيني هاتين وسمعته بأذني هاتين: وصلت العزيرة إلى بيتنا بعد الظهر بقليل، كان معها الحاج سالم، أخوه للحاج خالد، وشخص آخر من بلدهم اسمه محمد شحادة، لم يكن والدي في البيت، دعته أمي للدخول فقالوا سترجع للهادية، ولكن العزيرة سبتني، وستشرح لكم كل شيء.

قالت أمي: أهلاً بالعزيرة، طول عمرك عزيرة أنت وأهلك.

ذهبت وحضرش الشاي، وجلستا، كانت تعبانة كما لو أنها لم تنم من عشر ليال. سألتها أمي شو في؟؟ فقالت القصة من طفلق للسلام عليكم. حزناً عليها كثيراً. ثم نظرت إلى وجوهنا وقالت: يبدو أن نصيبي مثل نصيب أمي التي أضموها لها

تلك الليلة نام الجميع عندنا وفي الصباح ذهبنا كلنا إلى السجن، في الطريق اشترى والذي جريدة (فلسطين) وإذا بصورتها على الصفحة الأولى، تناولت الجزيرة الجريدة من يد أبي، حين لحت وجهي إليها، تأملت صورتين ثم طورت الجزيرة ووضعتها في جيب صدرها.

قال لهم الضابط البريطاني: لن نسمح لأحد، سيوضع أمام باب العاصم ليرى الناس كلهم مصير الأشقياء!

عادت الجزيرة، قالت لنا: خلوني للمسجد الأقصى. فأخذناها، ومثلما فعلت في اليوم السابق فعلت في ذلك اليوم: صرخت وبكت ولمررت على سجاد المسجد حتى استوت، ثم قالت أهيديني للبيت، وهكذا سنغفل خلال الأيام الأربعة التالية.

بعد الظهر وصلت سيارة جيب، أنزلوا الجنتين وضعوهما على الأرض، وكان هنالك أكثر من مئة جندي بريطاني في حالة استعداد لإطلاق النار على كل من يقترب.

كانوا يعرفون أن وضعهم بهذا الشكل سيثير المشاكل ولكن الإنجليز أصروا، ثار الناس، لكن ذلك لم ينفع، حاولوا اختطاف الجنتين فانطلق الرصاص من كل مكان، هرب الناس.

أربعة أيام تركوهم هناك إلى أن ملأث راحتهما الجو ولم يعد الجنود أنفسهم قادرين على البقاء في أماكنهم. صباح اليوم الخامس وصل ضابط بريطاني، حلق في الجنتين ثم التفت إلى الناس: بإمكانكم الآن أن تأخذوا الجنتين.

العودة من الشام

بعد عام عاد الحاج خالد من الشام مكسورا باطمئنان الجميع²³، وأكثر بأساً من أن تعبر الحدود فيمة ماطرة، قال: منذ عام نتظر، ولم يتغير شيء، الأمور تزداد صعوبة، وكل ما يفعله الانتظار هو مراكمة الصدا فوق أجسادنا وأرواحنا. قالوا له: عليك أن تنتظر، أي حركة من قبلنا الآن ستجعل العالم كله ضدنا.

عاد، حتى دون أن يودعهم، وكان هناك الكثير من القيادات التي التجأت لدمشق هرباً من الإنجليز.

في المكان الذي توقف فيه قبل عام مفتتا بيان قيادة الثورة، وقف من جديد، كانت الحماية قد غدت أكثر قرباً منه، في الوقت الذي بدأ يحس أنها كل ما تبقى له. في دمشق لم تتوقف رسائل أسرته، ولا رسالته إليهم، والرسالة التي لم يكن باستطاعة البريد أن يحملها، كان يحملها الناس.

كان أول ما فعله حين دخل الهادية ليلاً، أن ذهب إلى بيت أخته العزيزة، طرق الباب، خرجت، فوجئت به، كانت على وشك السقوط، خطا نحوها خطوات واحتضنها، فراحت تبكي بصمت على صدره، وكلما حاول أن ينظر إلى وجهها

²³ - (...) وأعترف لحمايك بالدعاء فأتت في نظري داعية دماء وذكي من الطراز الأول... تصرف مواهيك وذكائك فلهذا الاستعبار البريطاني... لقد عثت أبناء اللوات في الواقع، وأجلست أبناء العائلات على الكراسي فعدوا رهائن لديك، وارتبطوا بالسلطة ارتباطاً مادياً، وسندك أباييك البيضاء عليها وشعارها دائماً: الحسنة بعشرة أمثالها والنجبة بأحسن منها... وحسبك أنك استطعت أن تجعل الكثيرين من العرب يعتقدون أنهم في حاجة إلى حماية إنجليزية لتقيم عدوان اليهود، وجعلت الكثيرين من اليهود يعتقدون أنهم بحاجة إلى حماية إنجليزية لتقيم عدوان العرب... أحسن أنتي مهان وأن كرامتي جرمية وأنا أتمنى إلى شعب لا تقيمون له وزناً ولا تحترمون له إرادته... وقد عرضتم عليه أخيراً بعد تفصحيات ونورات وجهوداً مخلصاً إشتراعياً هزلاً كسيحاً أبتر، فأخذت الصلاحية مسلوب الإزادة... من رسالة موجهة للمندوب السامي البريطاني.

دفنت وجهها في صدره أكثر، أحس بحرارة دموعها تحرق جسده، أطل ابنها حسين، فتجند في مكانه أيضاً.

زمن طويل مرّ قبل أن ترفع وجهها وتنتظر إليه، كانت الدموع قد اغتخت من عينها، قالت له كما لو أن شيئاً لم يحدث: انتفضك؟

أسكنها من يدها وسار نحو بيته، بتبعها حسين، حين وصل لم يعرف البيت، كان ثمة بيت جديد مكانه، لا يشبهه أبداً، بيت أقل ارتفاعاً وأصغر، وللحظة أحس أنه أخطأ، نظر حوله، تذكر أن البيت القديم قد نسف، نظر إلى أهل النمل حيث قبور أخويه وأبيه، وقبره الفارغ، رأى في السماء برقاً بعيداً، أعقبه رعد مكتوم، شدّ عباءة الضوف أكثر حول جسده، وكما لو أنه زائر غريب طرق الباب، فأحس بالحمام يستيقظ في برجه.

كان الصباح بحاجة إلى ثلاث ساعات كي يطل.
طرق الباب ثانية، سمع خفق أجنحة قادماً من الريح، وجاء صوت من الداخل: مين؟

لم يجب، كان يخشى أن يوقظ صوته أهل القرية، لكنه لم يكن خائفاً من طرقات يده على الباب!

- مين؟ جاءه صوت سمية من جديد. ولم يجب.

حين أشرعت الباب أخيراً، كان ناجي قد وصل وموسى أيضاً.

شيء ما غامض تحرك فيها، فجعلها يتعانق أمها، أمها التي قالت لها بحلوة: ربا الإنجليز، ربا اليهود، سأذهب وحدي. أبقيا هنا، ولكنكنا تبعها.

لم يكن على سمية أن تُضيء قنديلاً لترى ملامحه وترفعه، كانت قامت تملاً باب البيت، العزيزة إلى جانيه وخلفها حسين يمسك برنس الحمامة التي كانت تنظر حولها كما لو أن ذاكرة الحمامة الأولى قد استيقظت فيها.

عانتهم واحداً واحداً، نُكِّل رأس سميّة، وبصمت احتضنته موسى وناجي الذي امتدت يده فتناول بارودة أبيه، وصعد إلى سطح الدار.

مال الحاج خالد ونُكِّل جبين ابنته تمام: كبرت!! قال، وصمت الجميع. فتحت عينها، ولم تعد قادرة على إلخاضها ثانية، ثم حسنت: أبوي! وكحلهم خفيف اعتدلت وعائنته.

- سأوقظ عمتي منيرة. قالت سمية.

- لا. سأوقظها بنفسي. وصعد إلى العلبة، دون أن يترك يد العزيزة. بعد أن طلب من موسى أن يذهب لإحضار فاطمة.

سمع الحاج خالد أذان الفجر، نهض ليتوضأ، تبعته سمية: لا تنسي أن تُسَلِّمي لي على الشيخ حسني.

- الله يسلمك. قالت. واكتشفت معنى جديداً لأمنيتها تلك، معنى مختلفاً تماماً، كما لو أن الأمانة التي يردها الناس في كل يوم ممرات وممرات، وجدت معناها الحقيقي أخيراً.

- انتبه، الجواسيس في كل مكان.²⁴
- الرب واحد والعمر واحد.

صل داخل البيت، وبعد قليل دخل ناجي. قال هامساً وهو يثبّت حوله: طلع الضوء.

- ولماذا تقول في ذلك بصوت منخفض. لن يسمعك أحد بين هذه الخيطان. وكانوا يتحلقون حوله، كما يتحلقون حول كانون نار.

- تذهب اليوم إلى بيت إيليا راضي، وتقول له. أبي ينتظرك.

- أين؟ سأل ناجي.
- سيعرف. فقط قل له أبي ينتظرك.

²⁴ - (.. قام فخري الشاذلي بتنظيم اجتماعات شعبية عامة تدعم (فصائل السلام) وتناوب الثورة وتطارد فلول قواها. وقد كان أهم هذه الاجتماعات تلك الاجتماع التي نظمه في بيته في أيلول 1938 واجتمع آخر نظمه في قرية بعا في قضاء الخليل في كانون الأول عام 1938 بحضور الجشرا البريطاني أروكونو القائد العسكري العام لتفلة المركز.

.. وامتدت ظاهرة (فصائل السلام) لتشمل مناطق نابلس والخليل وجنين والروحة ومرج ابن عامر ومنطقة عكا والجليل الغربي، ووصلت إلى ذروتها، فيما بعد، من خلال مساعدة أحد هذه الفصائل للبريطانيين بالظفر من القائد العسكري العام للثورة، عبد الرحيم الحاج محمد (وقد لاحق الثورة الشاذلي، بعد أن أصدرت عليه حكماً بالإعدام إلى أن تم قتله بعد عامين في بغداد). (وعقد مؤتمر شعبي برئاسة مثقال القاتر في قرية أم العمد، لدعم ثورة فلسطين بالرجال والعشاء، بعد أن كان البريطانيون قد قرروا اعتبار شرق الأردن ميداناً متصلاً للقتال ضد الثوار الفلسطينيين في نجر كاتيم. بعد بناء الأسلاك الحاجزة على حدود فلسطين الشمالية، وتوج نظام شرقي الأردن نشاطه المضاد حين ألقى القبض على اثنين من القادة الفلسطينيين في 1939، أحدهما يوسف أبو دقة، وسلمها إلى البريطانيين حيث تم إعدامها بعد ذلك بشهور قليلة).

سار والحمامة، نحو المضافة، خرج حمدان يجر ساقه وقد سمع وقع حوافر فرس على الأرض، نظر صوب الباب، ورأها هناك قبل أن يبرى الحاج خالد. كانت أشبه بقطعة من قمر منتصف الشهر، وفي العمة الخفيفة تلك، رأى تلك القامة التي يعرفها من قديم، منذ أن كان طفلاً. ركض نحو الحاج خالد وقبل أن يصله كانت الدموع قد ملأت عينيه. احتضنه، لكنه لم يستطع قول كلمة واحدة. سأله الحاج خالد عن أحواله. فهز حمدان رأسه، عن صحته وعن زوجته فهز رأسه من جديد. كان يبكي بصمت، ثم راح ينشج بانفعال عميق.

- قلت لنظي لا يمكن أن أمر بالحادية دون أن أشرب قهوة حمدان.

هز حمدان رأسه، ثم وجد لسانه آخر الأمر: إنها جاهزة.

صَبَّ له الفئجان الأول، شرَّبه، ثم صب له الثاني، فقال لحمدان: كأنك أصبحت بخيلاً منذ رأيتك آخر مرة. يا رجل املا الفئجان!!

بهذوء شرب الحاج خالد قهوته، وهو يتأمل ساحة المضافة، شجرة التوت العارقة، وحدق في السهل البعيد كما لو أنه ينتظر ظهور الحمامة.

همهمت الفرس، نظر إليها خلفه: أعرف. أنت هنا.

صعد التل باتجاه قبور أبيه وأخويه وابني أخته، التفت إلى قبره القسارخ، كان ممثلاً بالباه. حاول أن يثر على إحساس واضح بثره في داخله امتلاء القبر بالما، لم يجد. قرأ القافية، ففزع فوق فرسه، نظر إلى الحادية، كان الناس قد بدأوا بمغادرة بيوتهم، ومن بعيد رأى أكثر من شخص طيف الحمامة الأبيض، وحين اختفت بسرعة، ظنوا أن ما شاهدوه خيال ليس إلا.

المصيدة

لم يصدق إدوارد بترسون، الذي أزعجه كثيراً تجدد العمليات العسكرية، أذنيه حين جاءه الخبر: الحاج خالد عاد، ويُعدّ كمينا لقوة بريطانية ستخرج من جنين وسنمير الطريق ما بين قريتي بُرَّة و سَنَاطِيَّة. أجرى اتصالاته السريّة، وقرر، مع قائد المنطقة، أن تتحرك القوة في الوقت المحدد لها، وأن تسلك الطريق نفسه حتى لا يثير الشبهات. في السادسة والنصف من صباح الثلاثاء حدثت عركات الشاحنات فاخفت الأصوات المنبعثة من أي عربات سواها، وبدل أن يملأ بترسون صناديقها بالصلاح والذخيرة كما كان مقرراً، بُثَّتْ عدداً من الرشاشات الثقيلة فيها، وأغشى ذلك كله بشوادر عسكرية خضراء سمكية يسهل التخلّص منها ما أن تُطلق الرصاصة الأولى باتجاه القافلة. ولأنه لم يكن يريد بأي حال من الأحوال أن تفشل خطته، بسبب وقوع التمعطف في نقطة منخفضة عاطية بالجبال من ثلاث جهات، قرر منح الطيران قرصة المفاجأة.

لم يكن الحاج خالد ومن معه يتوقعون ذلك، كانوا متلهفين لعملية كبيرة، لا تشبه العمليات الصغيرة التي قاموا بها، بعد انتظار طويل لم يسفر عن أي نتائج على الأرض.²⁵

²⁵ - فلا الهجرة اليهودية إلى فلسطين قد توقفت ولا زعماء فلسطين عادوا من متناهم في جزيرة سيشيل ولا لجان التحقيق فيما يحدث في البلاد قد أوصولهم إلى شي، ولم تتوقف عمليات الاعتقال والإعدام: كان عبد السلام البدري، من قرية بُرَّة، عاملاً يعمل في مدينة حيفا، أعدمه الإنجليز شنفاً في سجن عكا، حين ألقى القبض عليه وهو يعمل في يد علية مسافر صغيرة كان اشتراكها بترشين لإصلاح قلاب الحمام الخشبي في بيته. والسبب في اعتقاله أن قبيلة التهجرت في حيفا وكانت تحسوي على مسافر مشابهة للتي يحملها، فاتهم بأنه مُعَدِّها أو مشارك في إعدادها، وحكمت عليه محكمة عسكرية بالإعدام شنفاً دون أن تلتفت لأقواله مع أن الرجل كان مسلماً.. وهذه القصة يعرفها معظم أعالي برقة الذين في عمري.

- إلى أين؟ سألت فاطمة زوجها نوح.
- إليه، إلى الحاج خالد. هل تمانين.
- إذا كنت أمانع شتات الكعبة. أجابت.

ولم يكن ما سمعه نوح جديداً، فهو يعرف أنها لم تكن بحاجة إلى أن تقول له رأيها في أي شيء، بفعله، كان يكفي أن يفتقر نوح ظهر الكعبة لا غير، فإذا تحرّكت فرسه فهذا يعني أن فاطمة راضية، أما إذا ما وقفت الكعبة في مكانها كوتد، فإنه يعرف أن عليه أن يترجل، لأن أي قوة لم تستطع زحزحتها من مكانها ما دامت فاطمة لا تريد لها ذلك.

أسك نوح برسن الكعبة، في تلك الظلمة الأخذة بالتبدد، لا يعرف إن كانت ستتحرك أم لا، لكنها تحرّكت. عاد واحتضن زوجته، احتضنها إلى ذلك الحد الذي أحسّت معه فاطمة أنه لا يريد أن يذهب. عندها رشت على ظهره وهي تبعد رأسها عن كتفه، وهمت: سلّم لي عليه. الله معكم.

كان الغيش الصباحي يملأ الوادي، في حين كانت السفوح قد بدأت تضاه بشمس آذار الباردة. لم يكن الأمر سهلاً وقد بدأوا يتجمعون في المكان منذ الساعة الثانية فجراً. أمام الحاج خالد وقف نوح أخو عسرة، ممسكا برسن الكعبة: لقد أتيت. قال.

عائته الحاج خالد: ما الذي تفعله هنا؟ ألم أقل لك سأرسل في طلبك حين أحتاجك؟

- أفنك بحاجة لي ولسواي.
- وما أدراك أنني بحاجة إلى رجال؟
- ما دمت قد عدت، فأنت بحاجة إليهم.

اعتصر الحاج خالد جيته بأصابع يده اليسرى، ألقى على إيليا راضي تلك النظرة التي باتوا يعرفونها: لم يكن عليّ أن أقول له أي شيء. بمجرد أن أحسّ بأنك سبتاً من جديد، قال لي أنا قادم معك. قال إيليا.

عبرت حافلة ركاب وعدة سيارات مدنية وسيارة جيب عسكرية بسلام. كانوا قد حددوا اللحظة التي سيُفتل فيها الطريق. في البعيد كان هنالك مقاتلان مكثفان

بإعطاء الإشارة بالتناوب وقد اختبأ كل منهما في مكان يبعد عن الآخر مسافة حسنة متر.

كل الأعين كانت تحدّق في الشارع، وكل الأذان تحاول التقاط هدير عرصات القافلة في ذلك المكان المزول، لكن الهدير، الذي جاء خافتاً في البداية، وبعيداً، بدأ يتصاعد، تحوّلت نظراتهم إلى السماء، وفي اللحظة نفسها، رأوا الإشارة التي تعلن وصول القافلة. كان التحرك في تلك اللحظة مغامرة قاتلة، رغم عدم إدراكهم إن كانت الطائرات الثلاث التي تحدّق على ارتفاع منخفض، تلصدهم، أم أن مرورها في سماء المكان مجرد مصادفة.

لقد أدرك بترسون أنهم لن يطلقوا النار نحو الطائرات حتى لو مست رؤوسهم، ما دامت القافلة هي هدفهم.

في الدغل الصغير الذي أخفوا فيه الخيول، تصاعدت الفوضى، بمجرد مرور الطائرات من فوقه، كانت الخيول تحاول التخلص من أرشيتها المتنفة على أغصان الأشجار.

التصق التوار بالأرض، اندسوا في أيّ ظل يمكن أن يخفي أجسادهم، لكن الطيارين كانوا قد رأوهم. سمع الرجال الكامتون حوافر حصان، التفتوا، كان الحصان يجري مبتعداً خارج الدغل، انخفضت إحدى الطائرات أكثر، طارت فوقه تماماً، تعثر الحصان، نبض، لكن صوت الطائرة التي تجاوزته جعله يرتدّ فجأة ويجري للوراء، كما لو أنه سيمود للدخل. سهلت الخيل من جديد حين رآته بجاذبها، تقلّعت، لكنها لم تستطع الإفلات، ورآته يعدو مبتعداً.

في تلك اللحظة عادت الطائرات من الجهة التي أتت منها في المرة الأولى، فوجئ الحصان بها تنجّه نحوه، ارتبك، وقبل أن يقرر الجهة التي سيمضي إليها، انطلقت المدافع الرشاشة للطائرات باتجاه الأرض، حيث اختبأ الثوار في ظلال الصخور والشجر البري.

لم يكن الاتساج ممكناً مع عاصفة النار التي اندفعت من السماء حاصدة كل ما في طريقها، وحين رأوا القافلة تصل، لم يكن باستطاعتهم فعل أي شيء، كانوا عاصرين تماماً، لكن أفضل ما حدث أن المكثفين يقطع الطريق على القافلة، استطاعوا تنفيذ ذلك بنجاح بسبب بعدهم عن مجموعة التلال وعدم اكتشاف الطائرات لوجودهم.

أمام الحاجز الصخري وجدت القافلة نفسها، وقيل أن نُطلق عليها رصاصاً واحدة كانت مدافعها الرشاشة قد ظهرت.

مع الدورة الثالثة للطائرات، بدأوا يمعون أنهم وقعوا في فخ، وأن خطتهم قد انكشفت، أعطى الحاج خالد أوامره لتشكيل حائط نار لمواجهة الطائرات الثلاث، الطائرات التي عادت أكثر اطمئناناً، وقد بدأ الأمر لها مجرد لعبة لا أكثر. ظلّت الطائرات تقترب وتطلق نار رشاشاتها إلى أن أصبحت أمامهم، وعندها أمر بإطلاق النار، فانطلق الرصاص في لحظة واحدة، التفتوا خلفهم لمعرفة ما إذا كانت إحدى الطائرات قد أصيبت لم يروا دخاناً ينبعث من أي منها، وعندها، أدركوا أن الغارة القادمة بعد دقائق قليلة.

في تلك اللحظات المحتشة بكل الاحتمالات، إنتاب الحاج خالد ذلك الحس الغريب، شعر أن الشمس تسطع بقوة مجنونة لم يعرفها من قبل، والرطوبة صلبة لا يستطيع المرور عبرها والهواء أثقل من أن تحمّل الرتان مروره بها. كان القهر يعتصره، وهو يسامد عن سر انكشاف خطته. أخذ نفساً عميقاً، مرة تلو أخرى، حاول أن يبدأ ما استطاع، أن يتناسى الطائرات التي تحوم فوقهم والعميات التي ستقدم لتطاردهم بعد قليل. كل شيء كان يمكن أن يحتمله سوى نوبة (السكري). ألقى نظرة على الحرش الصغير حيث الخيول، فرأى الحماية أبعاد مما كانت في أي يوم مضى.

في الوادي استطاعت القوة المكثفة بسد الطريق إشغال القافلة، لكن الأمر لم يكن سهلاً، لأن قوة النار التي اندفعت، فتحت أعلى وأوسع أبواب الجحيم، كان كل شيء حول التوار يتطاير، الحجارة، فصوص الأشجار، التراب، الأعشاب البريّة، كما لو أن الأرض قد تحوّلت إلى براكين صغيرة بلا عدد. وقد اكتشف التوار هناك أن الطلقات القليلة التي أطلقوها هي آخر الرصاص، كان مجرد ظهور أي جزء من أجسادهم يعني الموت فوراً، في الوقت الذي بدأوا فيه يمتصّون أكثر فأكثر بهشاشة الصخور التي يحتمون خلفها. وفي لحظة تشبه المعجزة استطاع أحدهم إلقاء قنبلة بدوية باتجاه القافلة، عمّ الصمت فجأة، لكن القنبلة لم تنفجر، استقرت تحت إحدى الشاحات، كما لو أنها حجر ليس إلا، لكن ذلك لم يمنع من في

الشاحنة، وقد رأوا القنبلة تنجح نحوهم، من القفز من الصندوق، محاولين الابتعاد بأنص سرعة ممكنة.

في تلك اللحظة استطاع ثلاثة رجال الانسحاب وبلوغ أهل النسل، في اللحظة نفسها التي عادت فيها الطائرات، الطائرات التي وجدت فيهم أهدافاً سهلة، وقبل أن يوجهوا أسلحتهم إلى السماء كانت قد حصدهم. وللمرة الثانية، لم يستطع حائط النار إحراز شيء يذكر.

المفاجأة التي لم يتوقعها أحد أن القنبلة انفجرت أخيراً. القنبلة التي حيرت الجنود الإنجليز كثيراً، فلم يعمدوا قادرين على العودة للشاحنة، أو إطلاق الرصاص على القنبلة، لأن ذلك يعني أن عدداً من سيارات القافلة يمكن أن يمتدح، وكانت الحافلة التي خلفها قد أخليت من الجنود أيضاً.

في تلك اللحظة أدرك الحاج خالد أن عليهم الانسحاب بسرعة قبل عودة الطائرات من جديد، ولن يمضي الكثير من الوقت قبل أن يتقدّم الجنود باتجاه الكمين العاري.

طلب منهم أن يتفرّقوا ما إن يصلوا الدغل، حتى لا يكونوا فريسة سهلة للطائرات.

قبل عودتها من جديد، كانوا قد وصلوا الدغل واختصوا فيه، وبدأ الأمر للطيارين، كما لو أن الأرض انشقت وابتلعت الجميع. لكن الأمر لم يكن كذلك فعلاً، إذ بقي عدد من التوار في أماكن صغيرة خفية، كانت مهمتهم وقف تقدّم جنود القافلة لإتاحة الفرصة للبقية أن ينسحبوا.

اندفعت الخيل خارج الدغل، كان الهدف وصول الأحراش التي تبعد عن المكان الذي هم فيه ثلاثة كيلو مترات، هناك يمكن أن يجتنبوا جيداً، وأن يقاتلوا إذا لزم الأمر.

لكن وجود ثلاث طائرات لم يكن سهلاً، فرغم أن الخيل كانت قد تفرّقت بعيداً عن بعضها البعض، إلا أنها كانت أهدافاً سهلة في النهاية، وهكذا كان يمكن أن ينجو حصان ويصيب الرصاص قارسه، أو ينجو الفارس ويصاب الحصان. كانت آمين الرجال تراقب الحماية وهي تقطع المسافة الصغيرة القاتلة برعب شديد. كانت تراوغ، تركض يميناً وشمالاً وتتوقّف، ثم تعدو من جديد، وتدور في حلقات كاملة ثم تندفع إلى الأمام، وكان باستطاعة الطائرات أن تدور مرّتين قبل وصول

الخيول إلى أطراف الحرش، لكن مجموعة كبيرة استطاعت الوصول إلى هناك أعير والاختفاء فيه.

لم تكن معركة متكافئة، وقد جرد التوار من عنصر المفاجأة من الدقائق الأولى عنصر المفاجأة الذي انقلب ضدهم²⁶.

أصوات الرصاص كانت لمرق الصباح الغارق في الدم، واللحظات التالية حلت باحتمالات لا نهاية لها.

لم يستطع الرجال الذي تبصروا في الكمين فعل الكثير، فقد وجدوا أنفسهم محاصرين من كل الجهات، ومع مرور الوقت كان صوت الرصاص يخنفي قليلاً قليلاً، إلى أن عمّ الصمت.

وقب إدوارد بترسون يتأمل الجثث التي لم يترك فيها الرصاص مكاناً إلا وفجر فيه بانبعاث الدم، ألقي نظرة بعيدة على الأحرار وبدأ سعيداً كما لو أنه على وشك تحقيق كل أحلام حياته في لحظة خاطفة.

لكن، وبمجرد أن راحت سبارة الجيب التي يستقلها تقطع السهل مقضية آثار التوار، بدأت ابتسامته تنطبق قليلاً قليلاً، إلى أن تحولت إلى ثورة غضب لا مثيل لها.

فبمجرد أن رأى الحصان الأول ملقى على الأرض، وعبثاً بجاول النهوض، أقشعر جسد بترسون، وحين عبرت السبارة بجانبه ظل ينظر إلى كتلة الأم التي تتلوى خلفه بالتتابع.

أمر السائق أن يتوقف، نزل من العرب، عاد إلى الحصان، أخرج مسدسه، صوب نحو الكائن الجريح، أدار وجهه بعيداً، أطلق رصاصة، وعاد للعربة دون أن ينظر للحصان القتيل.

بعد مائتي متر رأى مهرة رمادية قتيلة تحت جسدها شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين مصاباً، توقفت بترسون، كانت بتدنية الشاب على بعد حصة أمتار منه، وقرنها كانت كوفته الصفراء ملقاة وبجانبها

²⁶ - (تجمع القرويات الشفوية (معززة بوثائق أرشيفية بريطانية من نفس الفترة) أن سبب فشل هذه المعركة هو معرفة البريطانيين السابقة بأمر الكمين من طريق أحد القصوص والجرحين الذين أطلقت سلطات الانتداب سرهم، أو سبقت فرارهم، وعلقت منهم الاتصاف بالثورة منذ بداية انطلاقها، ووعدهم بالعودة عنهم وتقديم المكافآت لهم مقابل كل ما يحفلونه من نجاحات، وقد نفذ حكم الإعدام بهذا الحاسوس فيها بعد أن أعترف بأسماه بلبية الجواسيس وبخاضه حصة وعشرين جنيهاً للتجسس والاختفاء إن أمكن، مع وعد بتمتعهم بمبالغ أكبر حسب حجم النجاحات التي يحققها).

عقاله، أطلق بترسون رصاصة نحو رأس الثائر، وظل يتأمله إلى أن تأكد أن روحه قد غادرت المكان تماماً.

سبعة خيول كانت قد قُتلت، لكنه لم يعثر على أحد من فرسانها، سارت العربية من جديد، رأى خيط دم، أشار إلى السائق أن يتبع الخيط بحذر، توقفت العربة أمام

التحارب شديد، هبطوا من العربية، وأوا العربات التي خلفهم تنجس للأحراش مباشرة، تقدموا نحو الحافلة، سمعوا صوتاً خافتاً، وهناك وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع فرس كحيلة، لم تكن سوى فرس نوح أخو خضرة.

فشوا المنطقة، لم يجدوا أحداً، صوب بترسون مسدسه نحو رأس الكحيلة، وللحظة التفت أعينها، فرأى فيها جالاً لا يمكن وصفه، تجمّدت يده، وقف

الجنود يترقبون اللحظة التالية، لكن يده تمزقت فجأة نحو السماء وأطلق رصاصة في الهواء، واستدار عائداً.

كان بترسون يعرف أن اقتحام الحرش مسألة ليست سهلة، لأنها ستكونه الكثير، حيث لم تكن خسائره، في المعركة، حتى تلك اللحظة، سوى مقتل جنديين وإصابة ثلاثة بجروح.

ظلت العربات العسكرية تسير إلى أن توقفت على مسافة آمنة من الحرش، راقب الحاضرة الداكنة الغامضة بعينين نافذتين لم يسلبها سهر الليلة الماضية، في انتظار الفجر، برقيها، ثم أصدر أوامره: ستقصف الأحراش بالمدفعية والطائرات، وبعد ذلك لن يكون علينا أكثر من قشط المنطقة.

غابت الطائرات طويلاً، قبل أن تعود ثانية، رأى الطيارون حصاناً ينفذ إلى جانب جثة فارسه، وبعد ذلك كان بإمكانهم أن يمحوا جثث سبعة خيول ملقاة في السهل.

لم يكن بإمكان أحد أن يرى ما يدور في الغابة، لم يكن باستطاعة أحد أن يتأكد من أن الذين التجأوا للأشجار ما زالوا هناك، لكن الطائرات بدأت عملها بسرعة، كانت الانفجارات تلوح بالأشجار عالياً، وبدأت الأغصان وهي تتساقط أشبه ما تكون بكائنات آدمية تموت واثقة، شبّ أكثر من حريق، وتلبّدت السماء بسحابات الدخان الأسود. وبعد ست غارات متتالية، بدأت المدفعية تطلق نيرانها.

في العاشرة تماماً، وبعد حوالي ساعتين من انطلاق الجحيم، رفع بترسون يده معطياً إشارة الزحف نحو الحرش.

تقدمت المصفحات، ثم تبعها سيارات الجيب وعدد كبير من الجنود الذين ترجلوا من الشاحنات. كل دقيقة كانت تعمل الكثير من الاحتمالات، لكن ما أدهش بترسون، أن طلقة واحدة لم تُطلق نحو القوة المتقدمة.

"مع قوة تلك التيران، لن يستطيع أحد بلوغ شاطئ النجاة". هس لنفسه.

عبرت المصفحات الحرش، متجاوزة الأشجار المحطمة، وتوقفت سيارات الجيب على أطرافه.

لا شيء.

وفي اللحظات التالية أدركوا أن تقدم الآليات بات مستحيلًا بسبب كثافة الأشجار. تقدم المشاة، أوغلوا في الغابة الصغيرة، وأمامهم كان بترسون.

لا شيء.

بعد قليل رأوا جثة حصان، كان عنقه قد قطع تقريباً، وبركة من الدم واسعة حوله، تحيل لبترسون أنها لم تزل حارة. بعد عشرة أمتار، وجدوا حصاناً آخر، وآخر. لم يكن هناك سوى الخيول القتيلة، عشرة، وكان بعضها قد احترق تماماً.

أوشك بترسون أن يعود، حيث لم يعد قادراً على رؤية المزيد من الخيل التي نفلت؛ لكنه كان يريد أن يعرف مصير تلك الفرس البيضاء، الهامة، التي سمع عنها الكثير ولم يرها بعد. كان يعرف أن مجرد الوصول إليها يعني الوصول إلى الحاج خالد، لكن الشيء الذي كان يمتناه هو ألا يعثر عليها قتيلة.

حين أوشكوا على بلوغ الجانب الآخر، بات على يقين من أن ساعات القصف كانت فرصة المظاردين للنجاة.

الإسبارطي

كان عليهم أن يتفرقوا ثانية..

إلى الشمال البعيد مضى الحاج خالد، ونمعه زوج ابنة نوح أخو خضرة. مطر غزير نزل من السماء جارفاً حجارة السفوح وصخور الوديان، ولم يكن نوح حزناً مثلما كان في ذلك اليوم، كلما ابتعدا قليلاً، تلتفت وراءه متمنياً أن تعبر الكحيلة جدار المطر السميك وتسهل طالبة منه أن يتوقف.

يعرف أنها أصيبت، لكنه لم يكن يعلم ما الذي يمكن أن يفعله بها جرحها، كان يخشى وقوعها أسيرة، أو فريسة سهلة لطلقة تنهي حياتها.

الفرس الحمراء تحته، كانت فرس جبل السرحان، جبل الذي هشم الرصاص جحمتها، بحيث بدا وكأنه بلا رأس، حين أبصره نوح كانت الفرس تعدو به، ولم يزل جبل ممسكاً برسها، كما لو أنه لم يُدرك بعد أنه قُتل.

دارت الطائرات مرة أخرى وحين عادت أحس نوح أنه لن يبلغ الحرش أبداً، الحرش الذي لم يكن يبعد عنه أكثر من ثلاثمائة متر، لم تكن مسافة كهذه في أي يوم من الأيام شيئاً بالنسبة لمهرة كالكحيلة، لكن الطائرة كانت تتبعه، وكان يعرف أنه لن يستطيع الدخول في سباق مع هذا الطائر الملعني للجنون الذي يزار ويحترث الأرض بتران رشاشاته.

أحس بأنه أصيب، تدفق الدم حاراً بين ساقه وجانب الكحيلة الأيمن؛ إحدى الطائرات جاءت من مكان لم يكن يتوقعه، كانت على يمينه، في حين كانت طائرة أخرى خلفه وأخرى على يساره؛ والطيaron يحاولون القضاء على أي فرصة للمناورة يعرفها أولئك الفرسان الذين يقطعون الشغل؛ أدرك نوح أن قدمه سليمة حين شد على جسد الكحيلة محاولاً الانعطاف، وقد رأى الطائرة الأخرى تغير عليه من اليسار، انعطفت، وللحظة، أحس بأن نزيل الجرح توقف، كان يغلقه فعلاً بقوة

ابتعد صوت الطائرات، وحين تأخرت عنها، أمر الحاج خالد الرجال العشرين الذين معه بالتحرك بسرعة، وقيل أن يفعلوا ذلك، بدأت القذائف تنهال على تلك البقعة الصغيرة؛ وكما لو أن القوات الإنجليزية كانت تعرف أن القضاء على الحبوب يعني القضاء على فرنساها، سقطت قذيفة عمياء وقتلت أربعة خيول. نحو الحماة راح الحاج خالد يركض، صرخ برجاله: بسرعة. وطلب من نوح أن يفتز فوق ظهر الحمراء، لكن نوح، لم يكن يجرؤ على إنزال جميل من فوق فرسه، كان للأمر رهبة لم يستطع معها فعل شيء.

- مستنقسم إلى قسمين، بعضنا سينزل ويسلّل عبر الوديان راجلاً، ومن بقي لديه حصان سير كيه ويخرج من الطرف الثاني.

لكن القذائف راحت تنساق بشدة أكبر، وعند ذلك، اقترب نوح من جسد جميل، أمسك يده وقبّلها، وقال له: سامحي. وأنزله برفق من فوق الفرس كما لو أنه يخشى عليه ثم جراحه إن حرّكه بطريقة خاطئة.

لم يكن أمامهم من سبيل للنجاة سوى ذلك، لكن أفضل ما حدث لهم في ذلك النهار الدامي، أن الثوار الذين امتلأوا خيولهم استطاعوا بلوغ أماكن آمنة، قبل عودة الطائرات، ثلما كما استطاع أولئك الذين هبطوا للوديان الاختفاء بسهولة، والخروج عاتدين إلى قراهم.

كان معهم شاب من حيفا، أحبه الحاج خالد كثيراً، اسمه سامي الأسمر، أمضى عامين في القاهرة يدرس الرسم، ومع الأيام، تحوّلت سعادته في رسم الوجوه إلى مصدر سعادة غير عادية للجميع، إلا أنهم في النهاية كانوا مضطرين لتزيق الصور حتى لا تقع في يد الإنجليز، وكما كان ذلك يمزقهم، ويمزقه؛ ولكي يخفف عليهم راح يعدّهم: ذات يوم سأرسمكم كلكم، سأرسم الأحياء والشهداء، وأقيم معرضاً أطوف به مدن فلسطين كلها، ذات يوم، حيث لا يكون هنا إنجليز ولا مستعمرون يهود.

كان سامي قد قطع دراسته والتحق بالثورة، لكن حنينه للقاهرة كان جارفاً، إذ لم يكن يتوقّف عن الحديث عنها، بل لم يكن يتحدث عن سواها، كان يقول لهم: يكتفي أن يجلس أمام لوحات عمود سعيد وقنايل عمود مختار، الله لو رأيتم ثقال نهضة مصر، الله لو رأيتم ثقال الفلاحة أو الغمامين، الله لو سمعتم أم كلثوم وعبد الوهاب، كان يحدّثهم عن ذلك كله، كما لو أنه يسرد حكايات ألف ليلة

ساقه، لكن الكحيلة بدأت تلهث وتتلفن تحت بطء حزين؛ في تلك اللحظة رأى جميل السرحان يمضي بعيداً بلا رأس، جمع كل ما في الكحيلة من قوة وتيمه، لم يكن من السهل اللحاق بثلث الفرس الحمراء التي غمر الدم عنقها وأذنها؛ تبعها الفرس الحمراء التي غدت طوق نجاته الوحيد قبل عودة الطائرات مرة أخرى أدركها أخيراً، حاذها، وفي لحظة خاطئة ففز من فوق ظهر الكحيلة إلى ظهر الحمراء، كان جميل لم يزل منشأ بالمرس كما لو أنه يريد بلوغ باب بيته، حاول نوح انتزاع الرمن من قبضتي جميل، لم يستطع، أمسك باليدتين المتبستين، وثبث بجسد جميل؛ يعرف أن وجود اثنين فوق فرس واحدة يعني الموت، أحس بشيء غريب، فما دام جميل مصراً على البقاء فوق ظهر فرسه فإنه يريد بلوغ مكان ما، مكان لم يعرفه أحد، سوى الحمراء.

قبل عودة الطائرات وصل الشجرة الأولى من الحرش، كانت تلك الشجرة تعني له الكثير، كانت أجمل أشجار الدنيا، كانت شجرة الكون كله، شجرة الحياة.

يجنون كانت الحماة تدور حول ساق شجرة سرو، ولم يكن الحاج خالد هناك، تلتفت نوح حوله وقد احتسى بجسد الفارس والفرس، لم يره، سمع صوت الطائرات تعبر، نظر إلى السماء، لم يرها، كثافة الأشجار كانت كافيها لإخفاء كل شيء. جاء صوت الحاج خالد: لم يخلق الله وحشاً أسوأ من الإنسان، ولم يخلق الإنسان وحشاً أسوأ من الحرب. قال وهو يمدق فيها تبقى من رأس الفارس. ثم قال لنوح: انزله عن فرسه، أنت بحاجة إليها.

التفت نوح وراءه، كان الحاج خالد ممسكاً ببارودته وقد احتسى خلف أحد الجذوع الكبيرة: سيطلقوننا وسيحرقون كل شيء. علينا أن نهرب قبل وصولهم. كان يعرف، لن يمر الكثير من الوقت قبل أن يبدأ القصف برا وجوا، يعرف أن الطائرات ستعود للتزوّد بالذخيرة والوقود، أما إذا كان يومهم أكثر سواداً من يدايته، فإن طائرات أخرى ستصل قبل مغادرة الطائرات التي تحوم في الجو.

من بعيد رأى طلّاع المصنفات الإنجليزية تظهر، التفت إلى السماء، رغم معرفته أنه بحاجة لأذنيه أكثر مما هو بحاجة لعينه في هذا الأمر.

وليلة، وحين يعلن أكثر من رجل أمنيته في أن يزور القاهرة، كان يقول لهم: أشياء كثيرة هناك يمكن أن تشاهدوها!! الأفلام هنا وأهم كلثوم هنا، والرياحاني وفرقة هنا، أما الذي لا يمكن أن تشاهدوه إلا إذا ذهبت إلى هناك فهو النيل.

وقب سامي وقال: أظن أي لن أستطيع السير أكثر من ذلك.

- ستحملك.

- لا. أنتم بحاجة إليّ هنا الآن، أكثر مما أنتم بحاجة إليّ فيما بعد. سيصل الإنجليز، ولا بد من وجود من يشاغلهم.

- لن تستطيع ذلك وحدك.

- أعرف، بهذه البندقة لن أستطيع أن أفعل شيئاً. خذوها!

كانوا قد بلغوا طريقاً معبداً، قال: هنا سأنتظروهم.

- سيقتلونك.

- لقد قتلوني فعلاً، هذا الجرح لن يتركني أعيش. وأنا أعرف جسدي، صدقوني. سأكون سعيداً إذا ما وصلوا قبل أن أموت. كل ما أريده أن تضمدوا جرحي وتعطوني عيادة غير عيادتي هذه التي تقطر دماً.

على حجر كبير جلس ملتقاً بعيادة القاهما على جسده إيليا راضي بعد أن ضمدوا جرحه بكوفته. حين وصل الإنجليز، كان الرجال قد ابتعدوا كثيراً، ظلت سيارة الجلب تسير إلى أن وصلت، البنادق مصوبة إليه، وقد جلس تاركاً يديه مكشوفتين كي لا يثير ريبة الجنود.

تحلقوا حوله، سألوهم: من أين أنت؟

قال: من تلك القرية.

- وما الذي فعله هنا؟

- أنتظر سيارة تُقلّني إلى جنين.

- وهل رأيت أحداً يمرُّ من هنا؟

- منذ نصف ساعة مرَّ تسعة رجال. وكانوا مسلحين.

- ماذا تقول؟ سأله بترسون.

- قلتُ إنني رأيت تسعة رجال مسلحين.

- وإلى أين انهموا؟

- إلى ذلك الوادي.

- هل تحاول خداعنا؟! هل تريد أن تقودنا إلى كمين كما يفعلون معنا حين يرسلون لنا إخباريات كاذبة؟

- لو كنتُ أريد أن أخدعكم، لما قلتُ لكم بأنني رأيتهم أصلاً. كان يمكن أن أصمت، وينتهي كل شيء.

- وما الذي يجعلك تُرشدنا إليهم؟

- إنها حكاية طويلة. لقد كان أمثالهم السبب في مقتل أبي منذ ستين. اتهموه بأنه يبيع الأرض لليهود!!

- وهل كان يبيعها فعلاً؟

- لا. أكذب عليك إن قلت لك إنه كان يمكن أن يبيعها، لكنهم قتلوه. وشاية، مثل عشرات الوشائات التي كانت تُطلق لتصفية الحسابات ما بين شخص وآخر أو عشيرة وأخرى. ولي هذا أنتم تعرفون أكثر مني!

- هناك طريقة واحدة يمكن أن نتأكد من عدم خداعك لنا.

- وما هي؟

- أن تسير أمامنا.

- لا مانع لدي، لا شيء أتناه أكثر من رؤية جثثهم بعد أن تقتلوهم.²⁷

حيث سقط سامي الأسمر، تركته القوة الإنجليزية المتهكة، أطلق بترسون سبلاً جديداً من الشتايم، لم يسمعه الجنود من قبل ورفع يده يباس طالباً من الجنود العودة.

بعد يومين عثر راعي الغنم من قرية (جَنَج) على سامي، حله فوق حماره وعاد به للقرية. اجتمع الناس يستظعنون الأمر. لم يكن صعباً عليهم أن يعرفوا أنه من الثوار وقد أبصروا الجرح العميق، فنشوه ليعرفوا أهولته، لم يعثروا في جيبه إلا على كسرة خبز وثلاث حبات من التمر، رفعها أحدهم عالياً وقال: أنظروا هذه كل ثروته. ثم مضى نحو بوابة المسجد، وعلقها هناك وكتب تحتها: هذا هو طعام الثوار يا أهالي ججع.

27 - نشرت جريدة الباليستين بوست اليهودية بعد أيام خبراً بعنوان: العربي الأسير طي، قالت فيه: قام أحد أفراد المخابرات العربية الذي أطلق النار على الجنود بتمثيل دور الدليل، وبعد أن سار مع الجنود عبر ممرات جبلية وعرة مسافة كيلو مترين انهار ووقع ميّداً، ولدى فحصه، وجد أنه كان قد أصيب برصاصة اخترقت معدته وأن هذه الرصاصة خرجت من ظهره. وقد اكتشفوا متأخرين أنه خدعهم.

الحملة

كان لا بد من عمل شيء أكبر للوصول إلى نتائج حاسمة، هذا ما أحس به بترسون وأحس به القيادة البريطانية، وعلى الرغم من أنهم لم ينسوا فشل الحملة الكبيرة التي قامت بها القوات البريطانية في شهر تموز من عام 1936، واستخدمت فيها قوة من أربعة آلاف جندي لم يتركوا حجرا إلا وفتشوا تحته ولا قرية إلا وبعثوا كل ما فيها، تحت تلك الشمس الحمرء اللاهية، إلا أن بترسون كان مع التحرك بسرعة واللجوء للوسيلة ذاتها، ولو أدى الأمر لاستخدام قوات أكثر عدداً.

في السادسة من صباح اليوم التالي، تحركت قوتان مؤلفتان من خمسة آلاف جندي، معززين بالدبابات والمصفحات مع قوة جوية كافية لتغطية جبهتين طول الواحدة منها عشرين كيلو مترا على الأقل.

أمضى بترسون الليل مع الكولونيل (لامبي)، الذي سبق له أن اشترك في الحملة الأولى، للتنضير للمهمة الأكبر التي تقوم بها القوات البريطانية في فلسطين، وقد استغلوا الليل كله لنقل الجنود بالشاحنات. كل التقديرات كانت تشير إلى أن الثوار قد مضوا نحو الجنوب الغربي.

تجمعت القوات على طريق القدس نابلس شرقا وسكة حديد طولكرم واللد غربا، وقبل شروق الشمس كان الجنود قد احتلوا مواقعهم على طول خط السكة الحديدية بين قلقيلية ورأس العين.

لم تكن برودة الليل القاسية إلى جانبهم هذه المرة، مثلاً لم تكن شمسوز تموز إلى جانبهم في المرة الأولى. وفي الخامسة صباحاً، بدأ الزحف على الجبهتين المتقابلتين، وكان الهدف أن تلتقي القوتان أخيراً في خط واحد، بعد أن تكونتا قد حشرتا أي عناصر من الثوار بينهما.

تقديرات بترسون كانت تشير إلى وجود ثلاثمائة ثائر في المنطقة.

لم تكن المهمة سهلة في تلك الوديان الوعرة والجبال التي تملأها الكهوف والأشجار البرية، ولم يلبث الأمر أن تحول إلى مهمة مستحيلة، مع تجمع الغيوم المنخفضة التي أهدت مع ضباب الوديان، وحين بدأت أولى قطرات المطر بالنزول، أدرك قادة القوات أن الوضع سيزداد صعوبة. لكن ما حدث بعد ذلك أن الضباب تلاشى وأصبح باستطاعة الجنود أن يستخدوا الرمايات والتلويح بها للتخاطب بالإشارات إضافة لأجهزة اللاسلكي التي تحملها السيارات.

الخوف من الملقاحات، ساهم في الحد من تقدم الجنود بسرعة، وكذلك الوحل الذي لم يكن هنالك حين بدأوا زحفهم. كانت الأيام السابقة شبه شمس، إنه آذار الذي يصفه الناس قاتلين (آذار، مرة شمس ومرة أمطار).

بين حين وحين، كان صوت الرصاص يملأ الوديان ويتردد صدى عالياً بحيث يسمعه الجميع، لكن أحداً لم يكن يعرف بالتحديد ما الذي يحدث. كان على الجنود أن يظلوا النار داخل أي كهف أو بشر قديمة أو أشجار يمكن أن تشكل غياً للثوار، وأن يخلعوا الرعيان بإطلاق النار في الهواء وأن يمسكوا بهم ويعقبوا معهم ويتأكدوا من برأهم قبل إطلاق سراحهم.

أما النساء فكانت قد أصبحت ملعباً للطائرات التي ترافق كل حركة على الأرض، وتطعن لخلل الوديان والسهول من أي أعطال عمتلة، حتى أنها كانت تهبط إلى ارتفاعات لا تزيد على ثلاثين أو أربعين متراً لتأكد من أي أمر يشير الشبهات.

في الساعة الثانية من بعد الظهر، لم تتغير النتيجة، كان الأمر يبدو للجميع كما لو أن مهمتهم ستبدأ بعد قليل. لكن المطر الذي توقف، سهّل حركة المشاة قليلاً، المشاة الذين راخوا يتنافضون من حجر إلى حجر بعيداً عن وخلي الوديان والسهول الحمرء التي غدت مصادات لسيارات الجيب بشكل خاص، مما جعل المصفحات تعود لإخراجها من ذلك الوحل الذي أطيح كالكباشات على العجلات.

أدرك بترسون، كما أدرك (لامبي) من قبل، أن المهمة عسيرة لقد فشوا بسببية، كفر قدوم، جيوس، كفر صور، رامين، عنيشا، برقة، بيت اسرين، سيريس، دير القصون دون جدوى، حيث لم يجدوا هنالك أي شيء، وما كان

بإستطاعتهم أن يحددوا، فيمجرد أن يخفي الشوار بنادقهم، كانوا يتحولون إلى فلاحين، لا يستطيع أحد أن يثبت أنهم حلوا السلاح في أي يوم من أيام حياتهم. ولا يمكن دخول قرية مختلفاً عن دخول قرية أخرى، كان الجنود يعرفون ما عليهم تماماً تطويق القرية، الطلب من أهلها عبر مكبرات الصوت مغادرة البيوت والتجمع في الساحات، لأن كل من يخفي في بيته سيقتل، اقتحام البيوت، تحطيم أي باب مغلق بإطلاق النار عليه، جمع الرجال في جانب والنساء والأطفال في جانب آخر، تحطيم كل ما في داخل البيوت من أوان وبعشرة وسكب ما فيها من حيوب وزيت وأغذية، تخريب الأغطية والفرشات والحيول والأبقار وتفتيش حظائرهما، التحقيق المستمر مع من يعتقدون أنه يمكن أن يكون من الشوار، وإذا كان حظ القرية سيئاً فإن بترسون هو الذي يقوم بالتحقيق، حيث تجبر الرجال والفتيان على المشي حفاةً فوق ألواح أشجار الصبار لكي يتنزع اعترافهم، ولكن دون جدوى، إذ كان الاعتراف بشيء يعني الموت عاراً، وحين ينتهون من ذلك كله يبدأون بإطلاق الرصاص في الهواء على ارتفاع منخفض فوق رؤوس الناس.

في السادسة من مساء ذلك اليوم الطويل، التقى القوتان في النقطة المحددة، أما النتيجة التي حصلوا عليها فكانت صفرًا. عند ذلك صرخ بترسون وهو يضرب الأرض برجليه: فكيف؟ فكن، فكن، فكن.

أسبوع الآلام

لم يكن إدوارد بترسون بحاجة إلى أكثر من رصاصة تُطلق على دورية إنجليزية من الهادية.

رصاصه، كانت شبه طائشة لم تجرح حتى الهواء في ذلك المساء. وقد أقسم كثير من الناس أنهم لم يسمعوها وأقسم آخرون أنهم لم يروا دوريته، وقال آخرون إن الأمر ليس سوى حجة لعقاب القرية.

طُوق القرية وأمر الجميع بالخروج إلى الساحات كما تفعل القوات الإنجليزية ويفعل عادة.

فتشها بيتاً بيتاً، لم يعثر على شيء، نظروا فوجد سبعة رجال أمام حائط، أمر جنوده بإطلاق النار عليهم، وحين انتهى قال لجنوده: ولكن لماذا اصطفوا كلهم أمام هذا الحائط. وصمت لحظة ثم قال: لم يخطر ببال أن أتصلهم، ولكنهم وقفوا أمام الحائط.

فكن عرب. ثم صرخ: إن لم تتعاونوا معنا فكلكم متهمون في هذه القضية.

كانت خسارته في المعركة الأخيرة لا تحتمل: كيف استطاع الفرار وهو بين يدي؟! كان يردد ليل نهار، ويحول الأمر إلى كارثة مع خديعة ذلك (الإسبارطي)

لقواته ونشر حكاياته في الصحف.

- أعرف أنكم عبيدون، أعرف أن أحداً لن يتعاون معنا لكي نريح الجميع.

ولذلك، فإن قراري الأول هو أن تناموا في الساحة حيث أنتم هذه الليلة.

كان العقاب أكثر من قاسٍ لم يسلم منه أحد، لا الأطفال ولا النساء ولا

الشيخوخ، ولا صبري التجار نفسه، الذي كان يؤذ بترسون أن يطلق النار عليه كأي

حصان شائع.

مع غياب الشمس أصبحت برودة الليل غير محتملة، جلس الجنود داخل

العربات مشهورين أسلحتهم، في الوقت الذي بدأ الناس يفتربون بعضهم من

بعض، مع مرور الوقت، محاولة منهم للعثور على بعض الدماء الذي توفره لهم أجسادهم المتلاصقة.

عند منتصف الليل تحولوا إلى كتل متراسة لا يستطيع الهواء المرور عبرها وارفع بكاء أطفال، عبثاً، راحت أمهاتهم يحاولون إسكاتهم.

بعد مرور ساعتين كانوا قد تجعدوا تماماً، وأصبح باستطاعة الجنود أن يسمعوا اصطكاك أسنان الناس وتقرقر رثائهم التي كانت تحاول مواصلة عملها بصعوبة ومع ظهور أول أنوار الفجر كان المرض قد عصف بالكثيرين، ارتفع السعال من كل جانب وراحت الأجساد تلحظ بشدة وتأسعت الأعين مسفرة عن دموع تسيل رغماً عن أصحابها.

لم تمسح الهادية من قبل ليلة مثل تلك. ثمنى الناس أن تنتهي أو يموتوا لا فرق، فثنا أن يخرجوا من جحيم تلك اللحظات إلى الأبد.²⁸

مع فطرات المطر التي بدأت تتساقط، في التاسعة صباحاً، عاد بترسون، وقف أمامهم: هل هنالك أحد على استعداد لأن يبيع الجميع ويتكلم.

تصاعد بكاء طفل هنا وطفل هناك وأنزلت أكثر من عجوز اللعنات على جنود الشيطان، وأدرك بترسون، حين رآهم على ذلك النحو، أنهم باتوا جاهزين للخطوة التالية التي خطرت بباليه في الليلة الماضية قبل أن يغفو بقليل، فنهض وكتبها على ورقة بجانب سريره كي لا ينساها كما يحدث عادة.

ذات يوم قرأ هن شعراء وكتاب يتبعون هذه الطريقة لتدوين أفكارهم التي تأتيمهم كلهم ما قبل النوم أو خلال النوم، وأعجب بذلك كثيراً، فقد كان يعاني، مثل معظم الناس من هذا النسيان الغريب لتلك الانشغالات الفظة التي تعبر الرؤوس، حطفاً، كشهب.

في الصباح استندت يده إلى الورقة لقراءة ما كتبه ليلاً، وقد دهش تماماً حين أدرك عبقريته فكرته.

رفع بترسون ورقة بيضاء في يده، بسط الورقة، وقال: قبل أن أقرأها أحب أن تعلموا أن المكافأة المخصصة للقبض على خالد الحاج محمود قد أصبحت منذ هذا الصباح عشرة آلاف جنيه. وصمت قليلاً، ثم قال: من سعيد الحظ بينكم الذي سيلبّز بها؟؟

تأمل البشر المتكهين وقال: لا أحد. أنتم الخاسرون!! ثم بدأ بقراءة الورقة التي في يده: بسبب نواظير أهالي قرية الهادية مع مطلق النار باتجاه دورية إنجليزية في مساء الثالث عشر من شهر مارس 1939 فقد قررت المحكمة أن يقوم جميع سكانها بإثبات وجودهم مساء كل يوم وليلة أسبوع اعتباراً من تاريخ اليوم، الرابع عشر من مارس 1939 في أقرب مركز بوليس إنجليزي لقربتهم.

التوقيع/ القاضي العسكري كارل نيومان.
أدرك أهالي الهادية أن رحلة العذاب لم تبدأ، وأن ليلة الجحيم لم تكن سوى اللحظة، فأقرب مركز بوليس يبعد عنهم خمسة كيلو مترات، وهذا يعني أن يسيروا عشرة كيلو مترات كل يوم.

وقف الحاج سالم في مقدمة الطابور الطويل وعمد شحادة في نهايته، ووقف صبري التجار في مقدمة طابور عشرينته، وسار متباعها ينظر للحاج سالم كما لو أنه يقول له بأن خالد الحاج محمود ليس أفضل منه في شيء.

في الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم بدأت رحلة العذاب الأولى، كانت السماء تنذر بكثير من المطر، والأمراض التي وجدت لها فسحة في أجسادهم قد بدأت تحلل هذه الأجساد بأكملها، لكن أفضل ما حدث أن السماء لم تمطر.

وقف بترسون هناك في انتظارهم، وصلوا متكهين، كما لو أنهم قطعوا عشر صحار في مسيرهم الطويل ذاك، ولما رآهم، أحس بأنهم أقل من عددهم الفعلي بكثير، ولذلك أصدر على أن يمرّوا واحداً واحداً أمام عتبة مركز البوليس قبل أن يعودوا إلى الهادية من جديد.

في نهاية رحلة العودة، حاول الحاج سالم البحث عن الهادية في تلك العنمة المظلمة على الأرض، لم ير شيئاً، كانت معتمة كأنها لم تكن هناك، لكنهم بمجرد أن وصلوا أطرافها تفرقوا بصمت كل إلى بيته.

كانت اللعنات ترتفع ما إن يصل أي منهم عتبته، إذ اكتشفوا أن الجنود قد نبهوا ما يريدون وحطّوا ما يريدون.

28 - بين عامي 1936 و 1939 (كان الرد البريطاني على اندلاع الثورة الفلسطينية، هاتلاً، حيث أعادت بريطانيا احتياضها لكل فلسطين مرة أخرى، وقتلت أكثر من خمسة آلاف فلسطيني وجرحت أكثر من خمسة عشر ألفاً آخرين، وثقت وأعدمت القيادة الفلسطينية، كما اشتمل الرد البريطاني على تنظيم فرق موت مكونة من جنود بريطانيين وفوات صهيونية عرفت باسم "قوات الليل الخاصة" والتي أغارت على القرى الفلسطينية ليلاً وقتلت العديد من الفلسطينيين.)

ناموا كقتل واستيقظوا كأسرى.

لكنهم كانوا يعرفون أنهم يقتلون بترسون بناتهم كما يقتلهم بقسوته.
في الصباح التالي كانت شوارع القرية خالية تماماً. وعلى مدى ستة أيام أخرى،
تكررت رحلة الجحيم تلك، سطعت شمس وهطلت أمطار وتغيرت بناييع تحت
الأقدام؛ فقدوا طفلين: نور ابن طه سعادة وسميح ابن أدب ناصر، وثلاثة من
كبار السن: فهيم أبو سنبل وفاروق الناشف وكمال سعيد الشريف، وتخر المرض
أجساد الكثيرين أكثر فأكثر...

وناموا كقتل واستيقظوا كأسرى، ولم يعودوا قادرين على معرفة كم تبقى من
العقوبة وكم انقضى، وذات مساء عادوا فوجدوا بترسون في انتظارهم.
- أعرف أنكم قد فعلتم ما عليكم، لكنني متأكد الآن أنني قد فعلت ما عليّ،
وأرجو أن تذكروا دائماً زيارتي اللطيفة هذه!!

أشياء كثيرة ستحدث بعد ذلك، سينسون بعضها، لكنهم سيذكرون أسبوع
العذاب ذاك دائماً، وعندما ستحين الفرصة لمحوه إلى الأبد بعد سنوات، لن يتردوا
أبداً في فعل ذلك.²⁹

سرّ الزهرة الحمراء

بعد ثلاثة أيام من أسبوع العذاب الكبير، مرّ الحاج خالد بالحادية، ترك الحماية في
كروم الزيتون خلف المقرّة، وتسلل متخفياً إليها، كانت أصداء تلك المعركة لم تزل
تهزّ روحه، وتترنّح عارياً، تلك المعركة التي انقلبت عليه وعلى رجاله، ووجدت
فيها البنادق نفسها عاجزة عن مناصرة الطائرات والمصفحات التي أطبق عليهم
من جميع الجهات.

حين وصل البيت فوجئت سمية بزواج الحام الأبيض الذي أحضره إليها، زوج
حام لظالماً تمت أن يكون لها، من ذلك النوع الذي يدعى الحرّاز.

كل ما في ذلك النوع من صفات كان يجعله أقرب إلى الخيول منه إلى أي شيء
آخر، وبخاصة (الحماية) نفسها، الرأس الصغير المرفوع باعتزاز والصدر المتدفع إلى
الأمام والذيل الذي ما إن يبدأ بالاهتزاز حتى ينتشر ويغدو بحجم جسدها كله.

منذ سنوات بعيدة رأت سمية هذا النوع في القدس، وكم تمنّت أن يكون لها
مثله. سمية التي بدت فرحة بالحادية إلى ذلك الحدّ الذي أوشكت معه أن تنسى أن
من أحضرها لن يبقى سوى ساعات قليلة ويتعد من جنيد.

في حجرة أمه وحوله الأنيبة والعزيزة وسمية وفاطمة وبقية أفراد العائلة جلس
الحاج خالد. وفتاة سأله أمه منيرة ذلك السؤال الذي لم يكن يتوقعه: هل استشهد
زوجها فعلاً؟ وما إن سمعته سمية حتى طارت فرحتها بالحادية.

- من؟

- ياسمين.

عم الصمت فجأة، نظر إلى سمية، أحسّ بلونها يتغير وملاحظتها تنكمش تحت

ضوء الفانوس الشاحب.

- أجل استشهد.

²⁹ - تلك القليلة كتب:

الذي لم أحلم به بعد / لم أعته من قبل / الذي كان في ذات يوم / لم يكن قرب عذري في الصباح /
استدك العذب إنه أشد / ولكنه فارغ حين لا تكونين هنا.

- وهل صحيح ما قيل أنك حبه بجسدك، وأن الرصاصة التي عبرت كنفه هي التي قتلته؟ لماذا؟

- كنت أعتقد أن الرصاصة لا يمكن أن تخترق جسدين!

- من أجلها أم من أجله فعلمت ذلك؟

- من أجلنا يا أمي. من أجلنا. كان واحداً من رجالي.

- وهل ذهبت فعلاً إلى هناك؟

- كان علي أن أقوم بالواجب.

- وهل رأيته؟

- رأيته. كما رأيته أي إنسان آخر.

- وأولادها!

- ليس لها أولاد.

- هل...؟

- أظن أن ما قلناه يكفي.

نهض الحاج خالد، أمسك بيد سمية غادر الغرفة. في الحوش كانت عينا حمدان تبرقان وهما تتصفحان المدى، وأذناه مشرعتين على اتساعهما، في حين كانت يده تقبض على يد المهياش كما لو أنها تقبض على بارودة.

- كان شيئاً منها ما زال في نفسك!! قالت له سمية.

- ذلك الماضي انتهى يا أم محمود، انتهى غماماً، ولن يعود.

- أكيد؟

- أكيد؟

- ولكنك تقول ذلك بحزن؟

- سأخون لثقتك لو قلت لك إنني لست حزينا، ولكنني لا أعرف السبب فاما، أعذك إذا ما عرفته ذات يوم أن أقوله لك.

- هذا وعد الحاج خالد.

- لا، هذا وعد أبو محمود.

كانت سمية على وشك أن تسأله: والتبديل الذي يرف في رمن الهامة، أليس مندها؟!

لكنها ابتلعت سؤلها في اللحظة الأخيرة.

تحت عباءة صوفية، فوق السطح، جلس ناجي منتظماً في جميع الاتجاهات، في حين كان حمدان ينتظر أي حركة يمكن أن تصدر عن ناجي لبدأ عمله الفعلي، عمله الذي بات يتجاوز كثيراً إعداد القهوة من زمن بعيد. كانت مهمته، قد تطوّرت منذ بدء الثورة إلى ما هو أكثر من إعداد القهوة، إذ تحوّل إلى رجل الإنذار المبكر، فما كان عليه إلا أن يستخدم مهياشه، في إشباع بات جميع أهل القرية بمرورهم، كي يدركوا أن ثمة خطراً يقترب. تلك الليلة، سمع حمدان ما لم يره ناجي من موقعه فوق السطح، فانتقل بطحن القهوة في ذلك المهياش النحاسي الذي بدا وكأنه جرس كتبة صغيرة في قوته، نظر إليه ناجي وقال هامساً: ما الذي تفعله؟ أنا لا أرى شيئاً.

- ولكنني أسمع ما لا تراه.

شدّ الحاج خالد على يد سمية وقال لها: حان الوقت. فتشبثت بيده لا تريد أن تتركه.

- اهبطي. وليكن قلبك معي.

- قلبي معك ومع كل رجالك، الله يحميكم.

كانت دقات المهياش بذلك الإيقاع كافية لإشباع الجميع، دبّت الحركة في الظلمة الآخذة في التبدد، وفي لحظات تجتمع كل من جاؤوا مع الحاج خالد أمام بيته، ألقى ناجي البندقية من فوق السطح، بندقية جديدة استولى عليها الحاج خالد من دورية إنجليزية، لم تك قد أطلقت بعد، حتى رصاصة واحدة، تلقفها الحاج خالد، احتضن الجميع بسرعة، قُبِلَ يد أمه، ويد عمته الأنيسة ورأسي العريزة وسمية، ثم انحنى ورفع تمام إلى الأعلى وعانقها، انكشف ذراعها الأبيض، أنزلها، أمسك راسها بيد وكوعها باليد الأخرى وانحنى نحو ساعدها بأسنانه البيضاء: هل هذا اللحم الطري للأكل؟؟

- لا، لا. قالت وقد سحبت يدها وهي تضحك، كما لو أنها تلك الطفلة الصغيرة التي كانت ذات يوم بعيد.

لوح لهم، كان جنادا الرصاص يتصاليبان فوق صدره، شدّ معطفه الثقيل حول جسده وصعد التل، مرّ بجانب قبور أخويه وأبيه وابني أخته، تجاوز القبور، لكنه ولسب غامض، عاد وحدّ داخل قبره الذي رآه في المرة الأخيرة ممكناً بالأم، حدّق في داخله، وهناك رأى بعض الأعشاب الخضراء، وبينها رأى برعم زهرة حنون. كانت الظلمة عبثاً تحاول الإطباق على لون الزهرة الفضي، الزهرة التي استطالت

بحيث بدت أكثر ارتفاعاً من الأعشاب التي حولها أربع أو خمس مرات. ولم يكن عليه أن يفكر طويلاً في الأمر، فقد كان يعرف السرّ دائماً، فما دامت البتّة أو الشجر قابعة في ظلّ ما، أي ظل، فإنها تستمو بسرعة أكبر من أي زهرة أخرى نبتت في الضوء وعاشت في الضوء، كان يعرف أن هذه النباتات تطول أكثر من مساوئها، لا شيء إلا لكي تبلغ الشمس.

حس غريب باغته، كما لو أن الزهرة التي تربعت قبل أوانها بقليل كانت جزءاً من جسده.

قال له نوح: علينا أن نسرع؟

قال: إنها تحاول الوصول إلى الشمس.

- ما هذه التي تحاول الوصول إلى الشمس؟

- زهرة الحنون. انظر.

- ومصفحات الإنجليز أيضاً!

ارتفعت دقات مهباش حمدان أكثر، ولأول مرة استطاع إدوارد بترسون أن يهزّك معناها. استجمع المرات السابقة التي داهم فيها القرية، وسمع الإيقاع نفسه، لا يمكن أن تخدعه أذنائه، إنه الإيقاع نفسه. لم يحس بترسون بأنه خدع من قبل، كما خدعته تلك الدقات التي تتوارى خلف قناع البراءة واللامبالاة. وقبل أن يحصل، كان على يقين من أن طرائده قد استطاعت الإفلات.

ظل بترسون يسير إلى أن وصل إلى حمدان، حمدان الذي واصل عمله كما لو أن الجنود الذين تحلقوا حوله في بلد آخر، قارة أخرى، عالم آخر. وحين رفع حمدان نظره إلى الأعلى وقد أحس بحركة غريبة، رأى فوهة المسدس بين عينيه تماماً، وسمع بترسون يقول: الدقة الأخيرة. في وأطلق النار، لكن يد حمدان التي كانت قد تمهّدت في الهواء مع وجود المسدس، هوى بالذراع الذي تقبض عليه داخل المهباش، وعندها سمع بترسون صوتاً يهوى صوت انفجار طلقاته: فكيف عرّب صرخ. وقد أدرك أن حمدان لم يتركه بنعم بدقته الأخيرة التي وعد نفسه بها. تأمل بترسون جثة حمدان، وبعد صمت طويل، أخرج ورقة من جيبه، وعلى غير عادته كتب:

وجهك الأزرق كالبحر / ليس فيه سوى أسماك القرش / ذراعاك المفتوحتان كضياء / يترعضان بالخطوة كقنديل / وحديثك المتهمر كشلال / هل باح في بغير الصمت.

الوصيّة

أمسك الحاج خالد بيارودته، نظر إلى الحماة من شق الباب. تأملها في تلك اللحظات الغامضة، اللحظات المفتوحة على كل الاحتمالات.

قال له صاحب البيت: حتى الآن هنالك فرصة للاستحباب، غلقتنا بيوت كثيرة يمكنك التسلل عبرها، وبعدها مباشرة هناك بستان وكروم زيتون.

حل الفجر الذي لم تشرق شمس، هدير العربات العسكرية وصليل المجنزرات، ولم يكن صعباً على أهل القرية أن يحسّوا بهذا، وأن يأتي ذلك الفنى فرعاً: الإنجليز على أبواب القرية.

اعتصر الحاج خالد جيبه بأصابع يده اليسرى، التفت إلى رفيق دربه وزوج ابنته نوح أخو خضره، وقال: فلنعمل أفضل ما نستطيع كي لا نُنكس رأسي خضرة والعزيرة. وقال لإيليا راخي: اليوم يومك!

نظر الحاج خالد للحماة من جديد في آخر الحوش، كان يريد أن يقول لها شيئاً ما، شيئاً يحس لكنه لا يستطيع تحويله إلى كلمات.

- ما زال راخي كما هو، عليكم الاستحباب من الجهة الخلفية. قال صاحب البيت.

- لا عليك، لقد عبرنا أياماً أصعب، ودائماً، كانت هذه اللحظة في انتظارنا، كما كنا نحن دائماً في انتظارها. لكنني سأقول شيئاً فذكرت فيه طويلاً. أرجو يا نوح وبإيليا أن تبلغاه لأهل الحماة إن لم أستطع أن أقوله لهم بنسي.

هزّ نوح رأسه بأسى غامض.

- كان والدي رحمه الله يردد دائماً: لا يمكن لأحد أن يتصر إلى الأبد، لم يحدث أبداً أن ظلّت أمة متصرة إلى الأبد. ودائماً كنت أفكر فيما قاله، لكنني اليوم أحس بأن شيئاً آخر يمكن أن يقال أيضاً وهو أنني لست خائفاً من أن يتصر مرة ونهزم مرة أو نتصر مرة ونهزم مرة، أنا أخاف شيئاً واحداً أن تنكسر إلى الأبد،

لأن الذي يتكسر للأبد لا يمكن أن ينهض ثانية، قل لهم احرصوا على ألا تمزقوا إلى الأبد.

أحس نوح وإيليا أن كلماته تتحول إلى وداع، كانا ساهمين.

ثم عاد صوت الحاج خالد من جديد: هل تذكر يا نوح ذلك اليوم الذي أتيت فيه بعد خطبتك لقاطمة، قلت لي: إنك قد هُزمت في معركتك من أجل بقراتك؟ وقلت لك: لا لم تنهزم، لأنك حين هجمت لم تكن تريد أن تنتصر، كنت تريد استرجاع حقلك. الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالي في أي يوم من الأيام، أنك ذاهب لأحق الهزيمة بأحد. كنت مثلك ذاهباً لأحصى حقي. وأنا الآن لا أريد التسلل هارباً، ولا أريد أن أقول لهم أكثر من هذا: أنا لا أقاتل كي أنتصر، بل كي لا يضيع حقي.

نظر الحاج خالد إلى السماء، امتدت يده إلى كوفته الصفراء، فلهاها على عنقه وضع معطفه في خرج الحماة، نظر إلى رفيقه، أبصر في عينيه الزيتونيتين بريقاً غامضاً. يتسم.

وصل الخبر لإدوارد بترسون مساء اليوم السابق: سيكون الحاج خالد في واحدة من قريتين، لا ثالث لهما، أجرى حساباته، وقرر تشكيل قوتين، واحدة تذهب إلى ميتلون والثانية إلى صانور، ومرة أخرى، وجد نفسه غير قادر على تحديد الوجهة التي سيمضي إليها، هل يكون على رأس القوة التي تحاصر القرية الأولى أم على رأس القوة التي تحاصر القرية الثانية، قرر اللجوء إلى ميتلون، وأن يقتحمها بسرعة، حتى إذا لم يجد الحاج خالد فيها، عاد إلى صانور جامعا القريتين.

في ذلك الفجر الهادئ البارد من نهايات آذار، لم يكن صعباً على أهالي صانور أن يسمعوا أصوات الرصاص والقنابل تأتي من جهة ميتلون، لقد عاشوا زمناً طويلاً كان باستطاعة الريح أن تنقل أصوات المغنين في أفراس تلك القرية، فكيف لا يسمعون صوت الرصاص.

استطاع بترسون أن يمسح القرية كلها، لكنه لم يجد شيئاً، وعند ذلك أمر قواته بالتراجع نحو صانور.

كان على بترسون أن يعود إلى صانور، قبل أن تبدأ القوة الأخرى اقتحامها للقرية، وحين وصلها أخيراً، قسم القوتين إلى ثلاثة خطوط يبعد الواحد منها عن

الأخر مائة متر، واختار القوة التي ستباغت القرية، دون أن ينسى إرسال ثلاثين جندياً للجانب الآخر كي يفتكوا أي باب للنجاة يمكن أن يكون مُفترعاً هناك.

سار الحاج خالد نحو الحماة، لم يرها بعيدة مثلما كانت في ذلك اليوم، مع أن المسافة التي تفصلها لم تكن تزيد على ثلاثين متراً.

لم يتأكد من وجودها إلا حين لس جبهتها برفق، هزّت رأسها كما لو أنها تريد أن تقول شيئاً، احتضن وجهها، ثم اتحنى وقبّل قدمها اليمنى برفق وأنزغها، ثم اليسرى وأنزغها، نهض، حدّق في عينها مباشرة وقال لها: اليوم يومك. وقبّض فوق ظهرها. نظر إلى نوح الذي كان قد سبقه إلى طهر الحماة، وكذلك إيليا واضي إلى طهر الشهباء.

وضع الطفلة في بيت النار، وكذلك فعل نوح، أشرق بتدقيقه: إن كان الله يحبنا كثيراً فربما نستطيع اجتياز قواهم، أما إذا كان يحبنا أقل، فلن يسمح لهم أن يسكوا بنا أحياء ليمضوا بنا كالنجاج إلى حبال مشاتهم.

أشعر صاحب البيت باب الحوش، اندفع الحاج خالد وخلفه نوح وإيليا، بعد قليل كانوا يندفعون متجاورين، ثم اتسعت المسافة التي تفصلهم قليلاً قليلاً.

لم يروا الجنود الذين كنمو لهم، سمعوا الرصاص ينز حولهم، ازداد اندفاعهم، كان الحاج خالد في المنتصف، على يمينه نوح وعلى يساره إيليا، استطاعوا تجاوز الخط الأول، وقبل وصولهم للخط الثاني قوشتوا بصفت الجنود واقفاً والبنادق المسددة بإتقان، عند ذلك بدأ الحيلة الثلاثة يطلقون النار، أحس الحاج خالد بوخزة في جنبه الأيمن، واصل اندفاعه بشدة أكبر. وقبل وصولهم بقليل لحاجز الجنود الذين أشرعوا حرايبهم، تلقى نوح طعنة اخترقت فخذة بشدة بحيث أفلتت البندقية من يد الجندي الذي وجه له الطعنة، وظلّت تتأرجح بفخذه إلى أن سال عليها وانزعها.

رصاصات أخرى عبرت كتف الحاج خالد، لكنه كان يعرف أن عليه بلوغ الحاجز الثالث الذي ظهر فجأة تنوّسطة ثلاث مصفحات وعدد من سيارات الجيب، وفي لحظة غير متوقعة تعطف إيليا واضي بعيداً، بعد أن لدوى عنق فرسه نحو اليمين، رآه نوح فانهط نحو اليسار، أحس أن ذلك سيثبت نيران القوة الإنجليزية، وسينج للحاج خالد فرصة تجاوز الخط الثالث.

في تلك اللحظة رأى إدوارد بترسون الفرس البيضاء تنجبه نحوه، فصرخ
أوقفوا إطلاق النار. أوقفوا إطلاق النار.

استجاب بعض الجنود للأمر، فاستطاع نوح وإيليا الإفلات، لكن جنود
المتصف الذين كانوا يريسون داخل المصفحات واصلاً إطلاق النار، وفي لحظة
غريبة رأوا جسد الحاج خالد يرتفع ويظهر في الهواء، تاركاً الحماة تواصلاً
اندفاعها، الحماة التي كانت تعدو، دون أن تتبين أنه لم يعد فوق ظهرها.

سقط على الأرض، كان مسدس في يده، أما بارودته فلم تكن هناك، كانت قد
سقطت، ربما قبل وصوله للأرض، أطلق عدة رصاصات مباشرة صوب الجنود
الذين لم يكونوا يبعدون عنه أكثر من عشرين متراً، رأى أحدهم يسقط قبل أن يمس
ضباب مفاجئ ويملا عينيه، لكنه كان لا يزال قادراً على مسلح صباح عسكري
يُحصد أوامره: لا تطلقوا النار. لا تطلقوا النار. ووقع حوافر الحماة تتباعد، ويسرى
ذلك المندبل الشكري الذي يخفق بمحاذاة وجهها.

كانوا على وشك قتل الحماة التي عبرت خطهم فاستدارت البنادق نحوها
وإذا بترسون نفسه يقف بينهم وبينها وأفعاء يديه: لا تطلقوا النار، لا تطلقوا النار.
فجأة هدأ كل شيء، انثفت بترسون نحو الحماة فرأى قطرات دم تنبعثها.
- فكن حرب، فكن إنجليزي، فكن العالم. فكن.

كان بترسون يقترب من جسد الحاج خالد، يتناقل أنهل جميع جنوده، رآه
ثلاثي، وجهه للساه ويده ممسكة بمسدسه، جسده ممتلئ بقلوب الرصاص وثيابه
غارقة في الدم. سدد أحد الجنود بندقيته وكان يرمي بإطلاق الرصاص الأخيرة نحو
الجسد المسجي. امتدت يد بترسون وأثرت البندقية: لقد مات.
- مبروك!! سمع أحدهم يقول.

ودون أن يلتفت ليعرف مصدر الصوت، قال بترسون: هذا رجل شجاع، من
العيب أن ننتلقى النهاية بمناسبة موته. ثم قال وهو يحدق في وجوه الجنود: كان
رجلاً شريفاً، من أين لي بعدو مثله بعد اليوم!!؟

أمر بترسون جنوده أن يحفروا قبراً، ليواروا جسد الحاج خالد التراب، ولم تكن
عيناه تبععدان عن الحفرة التي كانت تتسع وتتسع، وقيل أن يتقوا الحفر، كان قد

وصل الميجر جنرال برنارد مونتغمري قائد القوات الإنجليزية في شمال فلسطين،³⁰
وقف صامتاً إلى جانب بترسون، أشار بترسون أن يحملوا الحاج خالد إلى القبر،
حين وضعوه داخله، اصطفت عدد من الجنود ثم أطلقوا الرصاص في الهواء تحيةً، في
الوقت الذي كان بترسون ومونتغمري والضباط الكبار يودون التحية العسكرية
للجسد المسجي.³¹

بأكثر من جرح في جسدها، وصل نوح وإيليا إلى منطقة آمنة أخيراً، ولم يكن
عليها أن يفكر طويلاً بالسبب الذي جعل الإنجليز لا يطاردونهم، لقد وصلوا إلى
هدفهم الكبير، ولم يعد يعينهم أي انتصارات صغيرة يمكن أن تتحقق.

نظرت سمية فرأت الحماة تأتي من بعيد، تعدو بجثث، ولم يكن عليها أن تحرق
كثيراً لتعرف أن الحماة تعود وحيدة. تجذبت سمية في مكانها، ولحظة بعد أخرى،
كان عدد من أهل البيت يتجمعون حول سمية، وللحظة أحسوا بأن الحماة التي
تعدو بكل هذا الجنون لن تصل أبداً.

لكنها وصلت أخيراً، مصابة برصاصة في فخذه الأيمن، أحدثت جرحاً
عريضاً نازفاً بحيث غدت قاتمته الخلفية حراء وكذلك ذيلها الذي تطاير الدم
وأغرقه. وعندما توقفت أخيراً أمام سمية، بدا وكأن الحماة تنتظر الحاج خالد أن
يترجل عنها، وحين لم يفعل بدأت الحماة تكيي. وعند ذلك انهارت سمية
فصاحت بها: ما الذي تفعلينه هنا؟

ارتبكت الحماة، تراجعت خطوات، ثم التحدرت تسير بتناقل نحو الشرق،
تنظر خلفها بين لحظة وأخرى، بحيث لم تكن بعد ساعة قد اختفت.
جلست سمية تكيي: ما الذي فعلته؟ هاتوها. ركضت فاطمة خلفها، طلبت
منها أن تعود، لكن الحماة واصلت طريقها بتناقل مكسور، نادتها باسمها، لكن
الحماة لم تلتفت. كانت المرة الأولى التي لا يستجيب فيها حيوان لفاطمة، وعندها
أدركوا أن جرح الحماة أكبر من أن يلتئم. وحين انطلقت الخيول تجري وراءها،
أخذت تعدو بجثث كوا لها تريد اللحاق بفارسها.

³⁰ - سيبدو أحد أبرز أبطال الحرب العالمية الثانية بعد معركة (العلمين) في الصحراء المصرية.
³¹ - في تلك الليلة كتب: هل كنت بحاجة لك أيها القدامى؟ كني أحسن إلى ذلك المكان البعيد/
وأشأن كل من صادفني هناك: هل حقاً وصلت؟ هل كنت بحاجة لك أيها القلب كي أكره وأحب؟
قال لي والذي قالها: إن أرت العودة حياة للبيت. أكره غمشك.

بعد الظهر بقليل كان باستطاعة الجميع أن يسمعوا الخبر مباشرة من الإذاعات وأن يروا محمد شحادة وشاكر مهنا وكثيرين آخرين يصيحون: لقد ضلنا.³²

خسة أيام ظل نوح يتأرجع ما بين الحياة والموت، أما إيليا راضي فقد اصطحب عددا من الرجال وتسلطوا إلى القبر الذي دفن فيه الإنجليز الحاج خالد، حضروا وأخرجوا جثته من القبر، وساروا به نحو الهاديّة.

حين توقفوا هناك، رآها إيليا راضي ونوح، كانت قد تجاوزت حافة القبر، زهرة الحنون الحمراء التي تفتحت. هم أحد الرجال بأن يهبط لكي يزيل العشب، نصرخ بهم إيليا: اتركوه.

وضعوا الجسد بجانب الوردة، بدأوا بإهالة التراب عن الجانبين: قال لهم إيليا، لا تتركوا التراب يغمر رأس الوردة.

في الصباح التالي عاد إيليا وحده، نظر إلى الوردة كانت قد غدت أطول، جمع التراب بيديه ووضعه فوق القبر، وهكذا ظل يفعل كل يوم، والوردة ترتفع وترتفع، بعد سبعة أيام وصل القبر صباحا، قرأ إحدى بثلاث زهرة الحنون تسقط، وعندها، بدأ يبكي ذلك البكاء المر الذي لم يسبق لرجل أن يبكي مثله.

كانت تلك السنة هي سنة الموت، وقد صدف أن فقدوا الكثيرين، وكان على كل فتاة وامرأة عمرها اثنا عشرة سنة فأكثر، يموت قريب لها، أن تبقى في ثوبها الذي كانت ترتديه عندما جاءها الخبر، أربعين يوما، بعدها تحمله وتستحم وتلبس الثياب السوداء، كانت كل العائلات ترتدي السوداء، وجاء العيد، فرأى الحاج سالم النساء في السوداء فراح يصرخ: والله إيلي ما بتشلع الأسود إيلي لابسته لأكثر وجلبها. فتلحن الأسود كله، ووضع عليه الكاز وأحرقه.

أما السر الذي بقي يفتش مضجعهم لزم طويل فهو سر اكتشاف مكان الحاج خالد، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي سأل فيه إيليا راضي شميّة: ولكن ألم تصلكم الهجمة الزابجة؟ وسبكي سمية: كانت آخر مرة رأيناها حين أخذتها معك!!

32 - (...) وتوقفت الحركة في المدن الفلسطينية وأغلقت المحلات التجارية وأضرِب طلاب المدارس الأميرية والوطنية والأجنبية وتوقفت حركة النقل والواصلات فخلعت الشوارع من السيارات والعربات، ونمى المسلمون من كل الأقاليم وقرع المسجونون نواويس الكنائس حزنا على الشهيد وحل الناس أكابيل الزعمور والأعلام السوداء محترقن الشوارع، وألقت الطائفة الأرثوذكسية جميع الاحتفالات التي تقام ابتداء من أحد الشعانين حتى طهر يوم (الثين الموت)

البصقة

تلقت نحو الغيم وبصق، عادت البصقة نحوه، تحملها الريح، انعطفت فجأة، رآها تطير محاذية كتفه وتحط على حذاء سليم بيك الهاشمي.

نظر سليم إلى حذائه، ثم نظر إلى الضابط.

تجمّدت أعينها الجافة الباحثة عن كلام يقال في هذه اللحظة المبتلة.

كان سليم بيك الهاشمي على وشك أن يفتح فمه، حين تلقى تلك الضربة المراجعة من هراوة بترسون، ضربة صاعقة كان يمكن أن تطيح برأسه لولا أنه سال في اللحظة الأخيرة فطلقها بلراعه، دارت به الدنيا وهوى. صرخ رشيد عدنان الرجل السبعيني بترسون: ما الذي تفعله، ألا تعرف مع من تتعامل!!! وعندها، تلقى رشيد ضربة على رأسه، فتناثر الدم في كل الاتجاهات ملطخا ثياب سليم بيك الهاشمي، وفي اللحظة الأخيرة تلالى بترسون قطرات الدم الطائرة وقد رآها تنجس نحوه يبطه أدمعه.

تركها وسار في طريقه، وحين سمع صيحات الاستهجان والشتائم تنطلق خلفه، توقف حذق في القيمة السوداء ثانية، فكر بأن يبصق، لكنه بدل أن يفعل ذلك عاد إليهم. أثار كثور هاتج مشتتا الحشد ومُنزلا الضربات كيفما اتفق غير عابرين بشيء، كان يركض خلفهم وقد امتلا بأحاسيس غريبة وهو يراهم يشاقطون واحداً إثر واحد، ويسمع ولولة جراحهم خلفه، ولما توقف أخيراً، وقد غدت المساحة التي تفصله عن الناس كبيرة، بصق، مدركاً أن الريح ستحمل بصقته إليهم هذه المرة دون أخطأه.

في طريق عودته لم يسلم أحد ممن سقطوا من ضربة ثانية أو ثالثة تلصقته بالأرض، وعندما وصل إلى سليم بك الهاشمي توقف وبصق ثانية.

رفضوا التراجع، فقال: لا تقولوا بعد ذلك إنني لم أنكركم.
كانوا مضطرين في النهاية للعودة كل إلى بيته.

صبيحة اليوم التالي عادوا، تظاهروا ثلاثة أيام، وانضمت إليهم مجموعات من
الألمان قادمة من القدس وحيفا، لكن إدوارد بترسون لم يعمرهم انتباهاً. كل ما
يمكن أن يقوله كان قد قاله.

في النهاية، توجهوا إلى المستشفى وحلوا جثة شيفان قاصدين الكنيسة. ولأن
الأمر قد أصبح حديث المدينة كلها، فقد اندفع كثير من الفلسطينيين باتجاه
للمستشفى لمراقبة الجنازة.

- كان يوماً ماطرًا. أنكره حماما، كما لو أنني أحس بقطرات المطر تساقط على
جسدي الآن وأنا أحدثك!!

حين وصلت الجنازة إلى ساحة الكنيسة الألمانية، كان بترسون يقف على بابها
وحوله مجموعة كبيرة من قوات البوليس. لم يكن عابثاً بالمطر الذي يساقط كما لو
أن السماء تحاول إفراغ كل ما في جوفها من ماء دفعة واحدة!! اقترب الناس
حاملين النعش، أشهر بترسون مدمسه، رفعه صوب السماء، فجاءه دوي انفجار
رصاصه مختلطاً بصوت الرعد الذي تجر في اللحظة ذاتها، تراجع الناس قليلاً
واهتز النعش للحظات بين أيديهم.

على أبواب ملبية وجد الناس أنفسهم.
هتفوا، شتموا، ولكنهم كانوا مضطرين للتراجع.
- لقد أنذرتكم، ولكنكم لم تسمعوا.

تساووا الناس، وقرروا الذهاب إلى المقبرة مباشرة، الصلاة عليه هناك، ودفنه.
وقبل وصولهم وجدوا بترسون أمامهم سائداً الطريق.
حاولوا تجاوز القوة فاطلق الرصاص من كل جانب باتجاه المشيعين: تريدون
موتى آخرين. لن أتردد في متحكم ذلك فوراً.
تراجعوا قليلاً.

إذا أردتم أن تدفنه فابحثوا عن مكان خارج هذه المدينة.
عادت الجنازة من حيث أتت، إلى المستشفى، ومع اقتراب المساء، عادت أسرة
شيفان وحدها، حملت النعش متوجهة إلى الجنازة.

كانت الأيام العشرة التالية لاستشهاد الحاج خالد أسوأ أيام بترسون على
الإطلاق، أضربت البلاد كلها، وحيثما التفت وجد صورة للحاج خالد هنا أو هناك
عنه هناك، ولم تتوقف الإذاعات عن الحديث عن تفاصيل حياته، نزاعته وأخلاق
الرفيعة، وتحذرت إحدى الصحف عن سُر القرس البيضاء واحتفائها.

كل شيء بدأ ليرتسون مغراً من معناه، وبلغ به الأسر أن تسأل: ما الذي
يمكن أن أفعله الآن؟ وحين وصل قيادة المنطقة الوسطى قال أريد الابتعاد عن هنا
لم يكن أحد يتوقع أن يعود ثانية للمدينة التي كادت تحتطف حياته، لكنه عاد
كان أول شيء يفعله هو الذهاب إلى ذلك المقهى الذي تعرّض فيه لمحاولة
الاغتيال، بل لم يتوان عن أن يجلس خلف الطاولة نفسها، وفي لحظة غريبة وجد
نفسه يحرق في الأرض، وإذا بدمه هناك لم يزل طرياً. وقف مدحوراً، أخذ نفساً
عميقاً ثم عاد وجلس من جديد غير عابٍ بشيء، غير عابٍ بالدم الذي ظل يراه.

الشخص الوحيد الذي كان مزهواً طيلة الأيام التالية بيده التي عُلفت في عنقه
كان سليم بيك الهاشمي، الذي تخلف الناس حوله مستكرين جريمة بترسون
وكانت تلك مناسبة غير عادية لكتابة أكثر من رسالة احتجاج للمندوب السامي،
وكتابة أكثر من مقال ناري كان أشهرها بعنوان (عودة الوحش إلى الشوارع).

حاول الطبيب أن يقتنع سليم بيك الهاشمي بضرورة نزع الرباط عن يده، وحين
فعل أخيراً، قال له: ولكنها لم تزال تؤذي! فقام الطبيب بوضع رباط أبيض جديد.

مقتل الألماني شيفان شيفر، صاحب مطبعة شيفان، على يد مجموعة من اليهود،
فجر الغضب وسط أبناء الجالية الألمانية، التي تظاهرت في الشوارع ورفضت
بإفراط احتجاج أمام قيادة البوليس الإنجليزي، مطالبة بالاعتور على القتل قبل
دفنه.³³

خرج إدوارد بترسون، وقال: إن لم ترحلوا الآن، وتحملوه إلى المقبرة فلن نجدوا
مكاناً واحداً يمكن أن تدفنه فيه.

³³ - ومع بدء الحرب العالمية الثانية، راح اليهود يلاحقون الجاليات الألمانية بأكملها ويحرقونها
على ترك القرى والتجمعات والزرايع والمعامل، وما إن جاء عام 1948 إلا وكان الألمان كلهم قد
غادروا فلسطين ورحل معظمهم إلى إسرائيل.

الحاكم برأس مرفوعة، وأرسل رسالة للحاكم بأنه يُكُنُّ له من الاحترام ما يجعله يتغاضي عن تلك الإهانة تقديراً له.

أحدث الساعة الأولى اتصت حول الذراع، الألم الناتج عن الإصابة، الموعد المتوقع لإزالة الرباط، وما إذا كان الهاشمي قد أخذ أكثر من رأي طبي حتى يطمئن أكثر، وهل (لا سمح الله) هناك أي مضاعفات مستقبلية.

كان الهاشمي يستمع إلى ذلك كله ويحبب وعينه تتابع الحضور، وهو يقفُّ في من حضر وفي من تغيب، ويمرر حساباته السريعة الخاصة حول أسباب الحضور وحجج الغياب وأسبابها الفعلية.

أما حاكم اللواء فلم يكن كريماً وسعيداً في أي يوم من الأيام، كما كان في تلك الليلة، تحرك بخفة وجدل واضحين وعينه الصغيرتان مضامتان يبريق عجب، تأمل الحضور وسمع ضحكاتهم بانتشاء، فقد كان مثل الكثيرين من ضيوف العرب واليهود، يدرك أن سنوات (الاضطراب) السوداء الأربع الماضية قد انتهت وأن بإمكانه، مثلهم، أن يستريح قليلاً.

البرنامج الحافل الذي افتتح بتلك اللقاءات الحرة التي تخللها تبادل الكثير من الأنخاب، عاد ليتجسَّع في كلمة مختصرة بالعربية، رُحِبَ فيها الضيف بالخاصين وضيف الشرف وأُسيى كلمته بتلك الدعاية: لست طبيباً، ولكنني أعددكم، قبل أن تنتهي هذه السهرة سيخرج ستر هاشمي بيد سلمية من هنا إلى بيته!!

ضحك الجميع بمن فيهم صاحب اليد المعلقة، وبعد لحظات راح يقلِّب الدعاية على وجوهها باحثاً عما فيها من معان خفية.

بدأت الفرقة الموسيقية التي أحضرها حاكم اللواء بعزف عدد من المقطوعات الموسيقية، ولدى وصولها إلى منتصف مقطوعة (ذا دراغون أف الكالا) حدثت القاجأة الكبرى التي لم يكن يتوقعها أحد: وصول مدام روزلين متألمة ذراع حاكم اللواء الذي كان في انتظارها أمام الباب. بمجرد أن اختلط إيقاع خطواتها بموسيقى (بيزه)، تغير معنى المقطوعة، إذ بدأت روزلين وكأنها الآلة الموسيقية التي كانت تلك الفرقة بحاجة إليها لتقدم بيزه كاملاً في تلك السهرة.

ليلة روزلين

قبل وصول نهار اليوم التالي إلى منتصفه، كان خبر سهرة الليلة الماضية قد تحوَّل إلى حديث المدينة. وحين أطلَّت الصحف بعد يومين، كان هنالك أكثر من مقال يشير بوضوح ويتحاشى ذِكر الأسماء.

كان حاكم اللواء قد سمع بها حدث لسليم بيك الهاشمي، فأرسل إليه باقة من الزهور مصحوبة بورقة اعتذار وغيتات بالشفاء العاجل. وصول تلك الزهور أبقت عدداً لا يحصى من الأفكار المتضاربة في رأس الهاشمي، لكن أهمها كان إرسال رسالة عتب غاضبة لحاكم اللواء، الذي التقطها سريعاً وقرر إقامة سهرة يدعو إليها عدداً من الزعامات والوجهاء والشخصيات العامة وتكون على شرف الهاشمي نفسه.³⁴

فكر الهاشمي بالصورة التي يجب أن يدخل بها بيت حاكم اللواء، هل يتنزع الأربعة البيضاء عن يده، ويمرر عنقه من ثقلها، أم يمضي إلى هناك بما؟ اختار الحل الثاني. وكما توقع، كان لظهوره باليد المعلقة سحر خاص، وأحسن بدوره أنه يدخل ذلك البهو القسيح كأبي محارب عائد من المعركة. لقد استطاع اصطياد عصفورين بحجر واحد، إذ أرسل رسالة لأصدقائه وخصومه من الحضور بأنه يجيء إلى بيت

34 - (...) ومع الأسف الشديد إن بعض العاملين في الحركة الوطنية ومنهم أعضاء بارزون في اللجنة التنفيذية على اختلاف صفاتهم الحزبية استسلموا لسياسة القاذب والمفلات التي تجمع اليهود والعرب، وقد أخذت السلطة الإنجليزية تinker المناهضات والأساليب، فلبوا دعوات القذوب الساسي إلى ولائهم وحلفاتهم وجلسوا أحياناً فيها مع اليهود في صعيد واحد كما قبلوا تكليفه واشترى كوا في اللجان الاستشارية المختلطة كتلجان المال والطرق والتجارة والزراعة... وهكذا نشأ في فلسطين ونتيجة لبلواها المزدوجة بالإنجليز واليهود من جهة وما حل في حركتها الوطنية من ضعف في الجهة الأخرى ما يمكن أن يسمى بالوطنية الثنائية أو المختنبة. فلم يبق أحد لم يشعر بمرطاً على الحركة الوطنية الاستقلالية في هذه البلاد من ضعف وقور وما ولعت فيه من اضطراب والتحلل وفوضى

- في هذا البيت، كل المعجزات يمكن أن تتحقق. أسألني. أنا التي تعرف هذا. وأطلقت ضحكة عالية زلزلت روح سليم بيك الهاشمي.
حتى الساعة الحادية عشرة والنصف، لم يكن الطعام قد وصل، لكن وجود مدام روزلين قد أنساهم ذلك.

على المقعد الطويل جلست بين سليم بيك الهاشمي وحاكم اللواء. كانت الحرارة اللبنة من جسدها تلغص الجميع، وتوقد ليل أبار ذاك. كانوا فرحين ومستغربين ويحسدون الهاشمي بسبب استناره بها طوال السهرة. لكن ما حدث بعد ذلك، كانت بدايته مجرد لعبة، أو كلمات لم تكن مقصودة تماماً، فحين مال الهاشمي بجسده نحو روزلين، وأحسّت بذلك، التفتت إليه وقالت بصوت مسموع: مستر هاشمي لم تعد ذلك الشاب؟! لم تتجاوز السبعين؟
- بل لم أصل الستين بعد.

- هذا غير معقول. أرنه هويتك.

مد يده وتناول الحقوة مخاضراً أن يحرك يده للصابية، وتاولها إياها، تأملتها. فعلاً، لم تزل شاباً؟

كانت تلك الكلمات كافية لإعادة الحياة إليه من جديد.

- ما رأيك أن نلعب لعبة إذن، وإذا فزت بها، أعدك أمام الجميع أن تكون الليلة ليلتك. مستعد؟

نظر الهاشمي إلى وجوه الحاضرين، كانوا قد صمتوا فجأة، كما لو أنهم أمام فرقة إعدام، وقد بدأ كل منهم يفكر: هل سيكون الهاشمي أول شخص من بينهم يحظى بها فعلاً.

أدرك بعينه الزائغين أن حسد العالم كله قد تجتمع في تلك الصالة.

- ماذا قلت؟ مستعد؟

نظر إليها الهاشمي وقال: مستعد!

أسكتت ببطاقة هويته والفتها بعيداً في آخر الصالة.

- ماذا تفعلين؟

- إذا استطعت أن تُسك بها بأسنانك وتعود بها إلى هنا وتناولني إياها فانا لك؟

- هذا غير عادل؟ صاح السيد عزيز باشا وقد بدأ أكثر الجميع ثمة.

كانت مدام روزلين حديث الطيقة الرفيعة في المدينة، باعتبارها أجل امرأة تعد قدماء ساحل هذه البلاد في نظر الهاشمي، والمرأة التي لو أصبحت ملكة لبريطانيا بدل الملك، لما تردنا في النزول إلى الشوارع للمطالبة بإخافتها ببريطانيا، كما كان يردد رشيد عدنان الوجه السمين حاكم اللواء كلياً جمعهم سهرة من هذا النوع. أما حاكم اللواء نفسه فقد كان يقول لهم: أظنكم لن تغادروا مقرّ الحاكم أبداً لو تعينتها مكاناً!!

منذ زمن طويل يتطلع سليم بيك الهاشمي لما هو أكثر من لقائهما، حاول كثير لكنه في كل مرة كان مضطراً للوقوف عند ذلك الحد الدقيق الذي يفصله عن مدام روزلين.

ما أن انتهت الفرقة الموسيقية، حتى كان الهاشمي قد أنهى الكأس الخامسة بحيث نسي أكثر من مرة السبب الذي دفعه للتقدم بيد معلقة في كتفه، فراح يجرّكها صموداً إلى ذقنه ليحك أسنفلها.

لسهرة طويلة كان حاكم اللواء قد غطط، ولذا، حرص على تأخير موعد العشاء إلى ذلك الحد الذي دفع السيد فخري سليمان أن يقول ضاحكاً بصوت عالٍ موجهاً كلامه لحاكم اللواء، لم تعرف أنكم دعوتونا لتناول طعام السحور! ضحك الجميع، وقال له حاكم اللواء: اعتذر لكم، ألسنا في شهر رمضان!!؟ وضحكوا أكثر...

أدرك سليم بيك الهاشمي أن الليلة ليلته، وباستطاعته أن يتصرف بحرية أكثر. راح يسير باتجاه مدام روزلين، وقبل أن يصلها بأربع خطوات اعترض حاكم اللواء طريقه: أسمح لي أن أقدمك لمدام روزلين، فأنت عريس هذه الليلة.

- يا ليتها كانت العروس؟ رد سليم بيك وهو يضحك.

- لا أظن أن هنالك ما يصعب عليك! ثم ما هي الصفات التي تريدها مدام روزلين في رجل ولا تنوفر فيك!

فوجئ سليم بيك الهاشمي أنها مالت عليه وعانقته بحرارة، ثم تراجعت خطوات وقالت: أرجو أن لا تكون إصابتك كبيرة بحيث تمنحك من أداء كل أمثالك!

- لا، أبداً، بضعة أيام وانتهى من هذه الأروطة.

- ولكنني وعدته أن نخلصه منها هذه الليلة. قال حاكم اللواء ضاحكاً.

- هذه فكرة رائعة. قالت روزلين.
- تضع الحويات بجانب حوية مستر هاشمي إذن. قال حاكم اللواء.
- لحظة، لحظة، يجب أن يكون هناك شرط آخر. إذا فشلوا كلهم فلن من حقنا الدخول في السباق بعدهم. قال زاهر اتندي.
- هذه ستر كها مناسبة أخرى. قال حاكم اللواء. أظن أن علينا أن نأكل الليلة!! أليكم نعيمو؟
- لا. لا. ودوا معا بحماس.

بدأ السباق يتدافع غير عادي، كان حاكم اللواء قد جلس في الجانب المقابل أمام الحويات مباشرة، وصلوا بسرعة، تصاعدت المهبّات وارتطام الرؤوس ببعضها البعض، انقسم الضيوف بشجعون التسابقين، استطاع سليم بيك الهاشمي أن يستغل وجود يد طليقة له، إذ اتحن واستطاع بعد ثلاث محاولات الإمساك بالهوية مستعينا بلسانه، وحين وصل قبل الجميع لاهتا، كان قد نسي تماماً أن يده المصاصة قد تحررت من رقبته.

اعترض التسابقون حين رأوا يده الطليقة، أمسكها الهاشمي بيده اليمنى وأعادها إلى مكانها وهو يحاول ما استطاع كتم ألم مزعوم.

أمام الباب، مال حاكم اللواء نحو أذن الهاشمي: أظن أن عليك التخلّص منها تماماً إذا ما أردت إنجاز شيء يستحق هذه الليلة.

- أتخلص من روزلين؟ سأله وقد بدأ تلعلاً تماماً.
- لا، من ربطة يدك.
- أوكي. أوكي.

وراحا يبهطان الدرجات باتجاه عربتها المنتظرة.

بعد الظهيرة بقليل تلقى سليم بيك الهاشمي اتصالاً من حاكم اللواء: طمّني، كيف سارت الأمور؟

- تمام، إنها تميّزة، صحوّت وإذا بكل قطعة من ثيابي في غرفة!
- أعلق الساعة وأتصل بروزلين: كيف سارت الأمور.

- ماذا تقترح؟
- أقترح أن يكون دخول المسابقة من حق من يريد.
- لا، هذا ما لا أستطيعه. قالت مدام روزلين. بهذه الطريقة ستحرمونني من فرصة انتقاء الشخص الذي أريد أن يكون جازتي أيضاً.
- لنحدد عمر المشاركين في السباق إذن، أهذا برضيك؟ قال حاكم اللواء.
- دعني أفكر؟ قالت روزلين. وهي تتأمل وجوه الحضور ثم هزّت رأسها.
- أتمن تقولون بالعربية (أمري إلى الله) أليس كذلك؟
- هزوا رؤوسهم، وقد كان حديثها بالعربية سحره الخاص.
- إذن، أمري على الله، ولكن لن أقبل أي شخص يزيد عمره يوماً واحداً عن عمر مستر هاشمي، موافقون؟
- موافقون.

وظهرت الحويات كلها.

كان سليم بيك الهاشمي من مواليد 16 أكتوبر 1882، استبعد حاكم اللواء الذي أصبح الحكيم أيضاً، كل من ولدوا قبل ذلك اليوم، تعالت صرخات الاحتجاج حين تبين أن أربعة فقط كانوا أصغر من الهاشمي.

- أعدكم. قال حاكم اللواء. أعدكم أن تكون المسابقة في المرة القادمة لمن هم أكبر قليلاً. دعونا نتوجّح سعادتنا باختيار الفائز في هذه الليلة السعيدة.
- تأملت روزلين المشاركين في السباق، لم يزل الهاشمي أجلبهم فعلاً، فهو الأطول والأكثر بياضاً ولا يمكن للتأخر إليه إلا أن يقع في سحر امتداد شاربيه الرائعين.
- قالت: ولكن في شرطاً وحيداً هو أن تربط أيدي التسابقين وراء ظهورهم.
- لا أستطيع أن أفعل هذا، أنت تعرفين. قال الهاشمي غاضباً.
- أنت غير مضطر لذلك، لكن على البقية أن يفعلوا ذلك.
- لماذا لا تطفنون الأضواء أيضاً، ستكون المسابقة أكثر إثارة. قال حسن باشا.

- من يريد الرقص في العتمة فليرقص وحده. قال السبعيني رشيد عدنان وكأنه ينتقم من التسابقين.
- معك حق. نحن هنا لنرقص؟
- إذن يجب أن نحددوا وقتاً للمسابقة وإلا ستفقد معناها. قال عزيز باشا وقد بدأ أن نصف سكرته قد طار.

- لاحتني من غرفة إلى غرفة وفي كل واحدة منها كان يتلجج قطعة من ملابس
وحين وصلنا إلى السرير أخيراً كان قد نسي لماذا يلاحقني فنام.

رصاصه بعد صلاة الصبح

استيقظت الهادية على صراخ وعويل ينطلق من حارة النجار ويملا سماء القرية:
لقد قُتل صبري النجار.
انتشرت القوضى،
وقبل أن يعرف أحد القتلى، اندفعت عشيرته باتجاه حارة الحاج سالم. وقبل أن
يصل أحد إلى هناك صاح كريم صبري النجار: أنا الذي قتله!!
لم يصدّقوا.
أشهر مسدسه وأطلق رصاصه في السماء وقال: وبهذا المسدس.
تجمّد الجميع في أماكنهم. ولم يعد أحد قادراً على معرفة ما عليه أن يعمل.

لم يكن كريم يرافقه أباه في أي من مشاويره إلى خارج القرية، لم يكن يحب أن يراه
أحد وهو يسير بجانيه، سواء أخرفه ذلك الشخص أم لم يعرفه..
- وبالطابق، كانت المشكلة المحرجة بالنسبة للنجار باستمرار هي ابنه كريم
الذي كلما اختفى جاء خبر يقول إنه في السجن بسبب اشتراكه في مظاهرة هناك أو
مظاهرة هناك.. حيث لم يكن يسمع أو يقرأ عن مظاهرة في الرملة أو بافا أو القدس
حتى يتسلل للمشاركة فيها. وبعد خروجه من السجن في إحدى المرات، أقسم
الحاج صبري بالطلاق أنه سيزوجه، فقبل كريم حتى لا تُطلق أمه. كان النجار
يعتقد أن الزواج سيجعل ابنه (يقول) وممرت فترة هادئة كما لو أن كريم أصبح
شخصاً آخر بعد أن رزق بولدين، فقال النجار: كان يجب علي أن أزوجه قبل
خمس سنوات!! وفي إحدى المرات رأى النجار زوجة ابنه تسير في الشارع المليء
بالجنود الإنجليز، فتأداه من الشباك: عودي. لكنها لم تستجب، فخرج إليها
وعندما وصلها أمسك بها وهو يصرخ: وتحرجين بابنك الرضيع دون خوف!
وامتدت يده ليأخذ الولد من بين يديها، وعندها أدرك أنها تحمل سلاحاً. جرّها من

بدها نحو البيت على مرأى الجنود وعندما تجاوز العتبة وأغلق الباب وراءه راح يصيح بها: رُكِبَتْه ليعقل، واليوم بعد سنتين، اكتشف أنك أصبحت مجنونة مثله!!

منذ استشهاد الحاج خالد أصبح كريم أكثر إحساساً بالخزي، وكلما وجد نفسه ينظر إلى أبيه أطلت تلك الفكرة الغريبة: لم يكن أبي طوال حياته يعادي الحاج خالد بل كان يعادي الشهيد خالد.

في ذلك الصباح كان إصرار الحاج صبري غريباً، قال لكريم: تذهب معي، يعني ستذهب معي.

عندما علم، في منتصف الطريق، أنها سيمرّان ببيت عبد اللطيف الحمدي أولاً، قال كريم: سأعود. فاقسم الحاج صبري بالطلاق. ستذهب معي، يعني ستذهب معي.

حاول كريم أن يفهم معنى لإصرار أبيه، لكنه لم يفهم، واصل الرحلة معه صامتاً.

رفض كريم أن يدخل بيت الحمدي: سأنتظرك هنا في السيارة. قال لأبيه. خرج الحاج صبري بعد أقل من ربع ساعة، وقال لأبيه: سنكمل مشوارنا. وانطلقت السيارة التي استأجرها خصيصاً نحو هدفها الجديد.

- إلى أين؟

- إلى بافا.

- إلى بافا؟

- نعم إلى بافا.

حين وصلا إلى (ساحة الساعة) في المدينة قال لأبيه: سأتركك هنا، تنتظري في ذلك المقهى، نصف ساعة وأعود.

كانت الساحة التي تأخذ شكل مستطيل، قد أصبحت الميدان الرئيس للمدينة منذ مطلع القرن العشرين، وبؤرة للحركة الاجتماعية والاقتصادية والسياحية وملقى الفئات الاجتماعية كافة، بسبب وجود عدد كبير من المقاهي والمطاعم فيها. كما عرفت باسم (ساحة الخناطير) لأنها كانت، ولزمن طويل، مركز تجمع وانطلاق العربات التي تجرها الخيول لنقل الركاب إلى مختلف أنحاء المدينة، وما لبث اسمها أن تغير ليصبح (ساحة الشهداء) لأن المظاهرات المعادية لبريطانيا عادة ما كانت

تخرج من الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة، حيث سقط عديد الشهداء في ذلك الميدان.

بعد خمس وعشرين دقيقة توقفت السيارة من جديد أمام المقهى، أشار له والده أن يصعد بسرعة، صعد، التفت كريم ورأى تلك الرزمة الغريبة التي يقبض عليها الأب بكلتا يديه.

لم يتحدثا طوال الطريق.

قبل وصولهما للمقهي عادت السيارة وتوقفت أمام بيت الحمدي، لكن التجار لم يطلب من ابنه أن يرافقه، غاب عشر دقائق وعاد.

نظر كريم إلى الرزمة فوجدتها قد تقلّصت إلى نصف حجمها، وكاد الأمر ينتهي عند ذلك الحد، لولا الفضول الذي غلب الابن ودفعه للبحث عن سرّ تلك الرزمة.

الوصول السهل إلى السائق الذي يعرفه الجميع كان الخطوة الأولى، ذهب إليه، وبعد نقاش حاد اعترف بأن الأب قد يكون ذهب إلى مقر الحاكم الإنجليزي، فقد طلب منه أن يوقف السيارة في أحد الشوارع القريبة من المقر، وألا يتحرك من مكانه حتى يعود إليه.

عاد كريم للبيت باحثاً عن الرزمة نفسها، بعد ليلتين لمح غيباً مثيراً بمسبار صغير فوق ظهر خزانة الملابس في غرفة أبيه وأمه. شدّ الحيط، أحس بأنه وجد ما يريد، سحبها برفق، كي لا يثير أي ضجة، لكنه لم يستطع قطع الحيط، ذهب، أحضر سكيناً، قطعه، خرج بالرزمة، في الحوش فتحها، فرأى كمية من المال لم يرها أحد من سكان الحادية من قبل.

وفجأة دامه ذلك الشعور الغريب: أنه يعرف عدد الجنيهات تماماً: خمسة آلاف. قال لنفسه. إنها خمسة آلاف. ولكي يتأكد قام بعدّها: خمسة آلاف لم يكن ينقصها فلس واحد.

نهض، توجه إلى المكان الذي يعرف أن والده يجيئ مسدسه فيه، أخرج المسدس وجلس ينتظر عودته على عتبة الحوش.

وصل الأب عائداً من صلاة الصبح، وقبل أن يصل بقليل أشعل كبريم النار الخمسة آلاف التي بدت كومة عملاقة حين بعثها، وقبل أن يقول الأب أي كلمة أو يفعل أي شيء لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المال، أخرج كبريم المسدس وصوّق نحوه، كانت المفاجأة وحدها كافية لقتل الحاج صبري، لكن كبريم كان بحاجة لإطلاق النار أيضاً.

في القلب تماماً استقرت الطلقة، وعندها استدار كبريم وأغلق باب الخوشتا تاركاً أباه يتخبط في دمه على مسافة ثلاثة أمتار من العتبة.

لم يستطع أحد من الناس أن يقول شيئاً، تجمّدوا. وحين رأوا بقايا النشوة المحترقة ازداد الأمر غموضاً.

كانت أم كبريم نصيح في وجه ابنتها، وهي تمزّه: لماذا؟
كان سؤالها في تلك اللحظة هو سؤال الجميع.
فردت: ذات يوم ستمعرفون.³⁵

الكتاب الثالث

البشر



³⁵ - لم يعرف أحد كيف وصل سرّ الزجالة التي يستخدمها الحاج خالد في نقل رسالته لأسرته ورجاله في العاقبة، إلى صبري النجار، الذي ما إن عرفه حتى أدرك أن أيام الحاج خالد باتت معدومة، حيث قام باستبدال الزجالة بأخرى تشبهها تماماً.

راقب بعض أعمامه الأمر إلى أن رأوا الزجالة في قفص حل ظهر فرس إيليا راضي، هاجموا قبل شروق الشمس بقليل، استطاع الفرار والاختباء بعيداً، وعندما عاد إلى المكان الذي هوجم فيه، متولفاً أن يكونوا قد أخذوا الشهاب، فوجئ بأبنا هناك والزجالة أيضاً. واصل طريقته إلى حيث يجب عليه أن يلتقي الحاج خالد بالقصى سرعة. بعد أيام، عادت الزجالة برسالة جديدة يطلب فيها الحاج خالد من هاشم شجاعة أن يلاقيهم ما بين صانور وميتلون، ولم يكن يحمده للكلان خوفاً من أن تلحق الرسالة بين يدي أحد ما، لكنهم كانوا يعرفون أنه المكان الأول دائماً، لكن الزجالة هيبت في بيت صبري النجار الذي رأت التور فيه وعاشت وفرّخت فيه. وبوصولها، كان الأمر قد انتهى.

عَصْرُ مُتَوَلِي

عندما فتح محمد شحادة الذي كان الحاج سالم يدعو "ليب الهادية" فمه، قال كلمة واحدة: يا جماعة، لا تؤاخذوني، لم يكن علينا أن نذهب إلى الرملة لنكتشف أننا حبر!

كان وصول سيارة البونتيك السوداء، التي أقلت الأب متولي، قد قلب حياة الهادية رأساً على عقب، أما الأب ليودورس فلم يكن الأمر مفاجئاً بالنسبة إليه، لكنه، وكما فعل الأب جورجيو من قبله، لم يخبر أحداً أنه سيمضي، حتى الحاج سالم الذي أصبح كبير القرية بعد استشهاده شقيقه الحاج خالد. كان ليودورس جُهز حقييته وصندوقه الحشوي الكبير، واكتفى بمصافحة القادم الجديد على بوابة الدير، كما لو أنه لا يريد أن يجمعها مكان واحد.

تابع الناس السيارة المتباعدة، وعندما بلغت الطرف الشرقي من سهل الهادية، دون غبار يلاحظها، كالعرية التي أحضرته ذات يوم، توقفت. ساد صمت ثقيل، ظنُّ معه البعض أن السيارة ستقف عائدة. لكن ذلك لم يحدث.

ومع استمرار وقوفها، فُكر أكثر من رجل أن ينتهي حصانه للذهاب إلى هناك، ومعرفة ما يدور. وبينما هم في حيرتهم، رأوا باب السيارة يُفتح، ويترجل منها الأب ليودورس.

استدار يتأمل الهادية من بعيد، يتأمل امتداد السهل وزيتونه، وانساعها الذي عبر الوادي، بحيث لم تعد البيوت التي على التل سوى جزء صغير من القرية. كان الأب ليودورس يودع جزءاً عزيزاً من حياته، وتساءل: أكان يجب علي أن أغادرها حتى أراها من هنا، (هادية) أخرى؟

زمن طويل مرَّ على وقوفه، بحيث بات الناس يظنون أن الوقوف في تلك النقطه بالذات أشبه ما يكون بشعائر لا بد من أدائها، وعندما صعد السيارة من جديد واغتفى في جوفها، لم يبق في البعيد سوى ما يمكن أن يُستسى سراب السياره، كان للسياره سراب كالماء.

ترقب الناس ظهور راعي الدبر الجديد، لكنه لم يظهر، واغتفى ما تبقى من الأختين ميري وسارة اللتين تحلستا وتلوسا ظهرهما وغدا أنفاسهما أكثر طولاً وغارت أعينهما وجفت.

في اليوم الرابع، أشرع باب الدبر على مصراعيه. كان الأب منولي رقيقاً وطويلاً إلى حدٍّ لم يروا مثيلاً له، عيناه صغيرتان كعيني قطة وتافرتان بشكل غريب، بحيث يظن المرء أن باستطاعته أن يرى ما وراء ظهره أما يده فكانتا أكثر طولاً من أي يده أروها، حتى لو قورنتا بطول جسده. ولم يكن الثوب الأسود الواسع الذي يرتديه قادراً على أن يعجب حجم حذائه الذي كان أشبه ما يكون بفاردين صغيرين. لكنهم لم ينسوا أبداً أن أول ما رأوه من تعابير على وجهه، كان تلك الانسامة الغريبة بالتوسع تلك السهول التي راح يتصفحها كسابقه يتصفح إنسان كتاباً.

فكر الحاج سالم بذلك السر الذي يجعل أناساً يقيمون زمناً طويلاً كهذا في القرية، ولما يجين موعد رحيلهم لا يؤدسون أحداً، ولا يتركون في البعيد سوى نظراتهم المعلقة في الفضاء كخيمه لا يعرف إنسان ما في رحها.

أول ما خطر له أن يكون الأب منولي ضيف القرية لثلاثة أيام على الأقل، "هذا ما كان سيفعله الحاج خالد رحمه الله لو كان موجوداً" همس لنفسه؛ لكن بداية الزيارة لم تخلف ذكريات مُحب.

علق راشد، الذي احتل مكان حدان، القهوة على الأرض، وبدأ يحتمس القهوة الجديدة، وعندما بدأ بطحنها، لم يكن مهياش ذلك المهياش الذي عرفوه، مهياش حدان، ولا الإيقاع الذي اعتادوه، كان ثمة حزن غريب، حزن عميق ومجهول، ولو كان يجوز لأحد أن يشبه المهياش بالناي، لقال إن مهياش راشد كان أقرب إلى ناي منه إلى أي شيء آخر.

من أين يأتي كل هذا الشجن؟! هل بسبب فراق حدان، وقد كان راشد دائماً أكثر الناس حرصاً على مشاهدته وهو يطحن القهوة، والاستماع إلى أناته التي يمسحها صدى مهياشه ليعبد لا يعرفون آخره؟ لا أحد يعرف.

حين وقف الحاج سالم ومدَّ لئال منولي يده يفتحجان القهوة؛ شكره: أنا لا أشرب القهوة. وحين سأله: هل يمكن أن تقدم لك الشاي. قال: لا بأس. وعندما أحضروا الشاي لم تلمس يده الكوب الذي راح البخار التصاعد منه يتلاشى قليلاً قليلاً، إلى أن اغتفى، وحين جيء به بالمشاء قال: أنا لا أكل اللحم. فأشار الحاج سالم أن يعودوا بالطعام من حيث أتوا به.

كان الحاج سالم على وشك الانفجار، وأدهشه أنه لم يزل قادراً على ضبط نفسه إلى هذا الحد، تأمل الرجال القادمه الحديد بصمت، ولم تكن اللغة هي الحاجز، فقد كان الأب منولي يتكلم العربية بلهجة أهل الشام، ويمكن لكل من تحدث مع شامي أن يكتشف ذلك القدر من الدقة الذي تتدفق فيه حروف كلياته من غارجهما.

كانت كل أسئلته حول القرية، الزراعة، المواسم الأخيرة، الأرض، المساحة التي أصبحت ضمن حدود السوطنة والمساحة التي سيطر عليها الحندي والحظها بالقرية المجاورة، العُشُر الذي لم يعد عشر، وقال: إن أناساً يستهيمون ترك الأرض والتحول إلى حمال لن يستطيعوا تقديم شيء لا للأرض ولا للحكومة.

وعندما وجد الحاج سالم نفسه مضطراً لتجاهل أصول الضيافة، وتناس أنه في حضرة رجل دين: الخدمة الوحيدة التي تقدمها بريطانيا العظمى للناس ليست سوى سعيها لتحويلهم إلى عبيد يعملون في أراضيهم ليواصلوا دفع الضرائب التي تؤمن ثمن الرصاص الذي يقتلهم وحبال المشاق التي تلتف على أعناقهم، والمراوات التي تلتهم لحجمهم بلا رحمة. تقول لي إن الناس تركت أرضهم!! لا، الناس لم يترك أرضهم، الناس تعود من شقاها هناك لتعمل هنا في الأجازات التي من المفترض أن ترى فيها أبناءها. وكل ما فعله الحكومة في النهاية أنها تأخذ الوليد من باب رحم أمه!! ولا تتركها إلا بقايا الدم الذي يلوئها. نعم الناس مضطرة للذهاب إلى هناك لكي تستطيع الحصول على الماء الذي تنظف به بقايا هذا الدم هنا!

كان صوت الحاج سالم قد ارتفع إلى ذلك الحد الذي أحس معه جميع من في المضافة أنه سيمسك منولي من عنقه ويُلقي به خارجاً.

عند ذلك وقف الأب متولي وقال كلمته التي سيظل صديعا يحوم بلا رحمة في آذان الناس وقلوبهم سنوات وسنوات: لو كانوا أصحاب هذه الأرض فعلا لما كنا وصلنا هذه النتائج التي نعاني منها الآن!!
انتفض الحاج سالم ووقف أمامه وجهها لوجه: ما الذي تعنيه يا متولي بكلامك هذا؟!

- على أي حال، المسؤولية كانت مسؤولية الأب ثيودورس، ولذا كان لا بد أن يدفع الثمن الذي دفعه، بعد أن حوّل بليونته هذه الأرض التي تسلمها جنّة إلى صحراء!!
كان الكلام الأخير لا يقل قسوة عن سابقه، فصرخ به الحاج سالم: أهيتنا في بيتنا؟!!

ترك اللقاء الأول أكثر من سؤال مُعلّق في سماء القرية، ولذا بدأ العدد القليل من الناس الذي كانوا يملكون كواشين تثبت ملكيتهم للأرض بالتوافد على السّير طالين إعادتها لهم. ولم يجدوا هنالك إجابة لسؤالهم سوى سؤال واحد: أي كواشين؟

وحين ألحوا واندفعوا ذات مساء خارجين من المضافة بعد اجتماع كبير لناقشة هذا الأمر، خرج الأب متولي وقال لهم: لم يحدّثني الأب ثيودورس بهذا الأمر قبل أن يغادر الدّير إلى غير رجعة!!

قرر مجموعة من الناس النزول إلى مدينة الرملة لفك غموض هذا السر، وحين عادوا مساء، لم يقولوا أي كلمة. عادوا صامتين، لم يستطع أحد أن يعرف ماذا رأوا هناك أو ما الذي قيل لهم. وعندما فتح محمد شحاتة، الذي كان الحاج سالم يدعوه "ليب الهادية" فمه، قال: يا جماعة، لا تؤاخذوني، لم يكن علينا أن نذهب إلى هناك لنكتشف أننا حبر!

انهالت الأسئلة عليه من كل جانب، قال: مصلحة الضرائب تقول ليس لدينا أي أرض بأسبانتا!! تقول هذه الأرض يملكها الدّير، وثبتت ذلك الضرائب التي يدفعها عنها منذ أيام الأتراك.

قبل أن يقرروا ما الذي عليهم فيّمّله وصلهم ذلك الإنذار الغريب الذي يطالبهم (كمحال) بإخلاء البيوت والأراضي التي يعملون فيها، بناء على رغبة الدّير في إعادة استصلاح أرضه واستغلالها وفق أساليب حديثة.

نظروا حوشم، لم يكن هناك سوى العراء.

بحثوا بعضهم عن البعض، لم يكونوا هناك.

- كنا نتنظر العاصفة أن تأتي من ذلك البعيد، وإذا بها هبّت من تحت أقدامنا. قال الحاج سالم.

- ليس لنا سوى أن نذهب إلى سليم بك الهاشمي، هو وحده الذي يستطيع أن يساعدنا، والجميع يعرف أنه مناضل كبير، وأنه ينقذ أمواله من أجل الوطن، ولهذا سجت الإنجليز أكثر من مرة. ثم إنكم تعرفون ما يقال عن كرمه، فحين يقصده محتاج يمرر له حاجته من المال من فتحة أسفل الباب حتى لا يخرج ذلك المحتاج، أو يشعر بأنه من عليه إذا ما رأى في مكان ما. قال إيليا راضي.

- كأنك لم تقابل مع الحاج خالد يا إيليا، لسه طيب وصلّي نيّتك، ما الذي تقول عن هذا وأمثاله، يدافعون عن الوطن؟ كل الذين دافعوا عن الوطن ماتوا إما على المشاق أو برصاص اليهود والإنجليز، أما هؤلاء الزعماء فلا يمتوتون، مسيحيان الله، إلا مائة ربحهم!! قالت الأسيّة. وأضافت: ما لكم يا رجال، ما الذي حصل لكم هل عييت؟ ما الذي يمكن أن يقدّمه لكم شخص كهذا، لو فيه خير، لا يأتي إلى هنا ويبيّني قصرا يقول كل من رأى قصره في المدينة بأن هذا أكبر منه. ألم تسمعوا الناس تقول: إنه كلما غر الوان أثاث بيته يُجير كل من يعمل فيه على أن يرتدوا اللون نفسه. ألم تروا الناس مرة خضرا ومرة سُفرا ومرة حمرا ومرة سودا. وتقولون ينقذ أمواله من أجل فلسطين، لا تؤاخذوني، لو كان ينقذها فعلا لما كان لديه كل هذا المال.

لكنهم أصرّوا: ما فعله داخل بيته لا يختصا. لا يهتما سوى ما يفعله للوطن. قال إيليا راضي.

- لو كان باستطاعته أن يأخذ الهادية منكم لأخذها من ستين، إنه واحد من أكبر المربين. ما الذي تقول به يا إيليا؟³⁶

36 - (...) ولا نكاد نمر بقصده من الأفضية حتى نسمع بأخبار عن بقورات فلسطين أو عن الصاملين على إقام تعريب وعد بقور بإنشاء الوطن القومي لليهود ومن هؤلاء المربين الذين يستفيدون من

- الأئمة معها حق. قال الحاج سالم. فلذلك يذل الناس، لا يمكن أن يعمل إلا لصالحته. لكن إذا أردتم أن تجربوا، فجربوا، حتى لا يقال بأنني أقفلت باباً تعتقدون أن الضوء يمكن أن يدخل منه.

لم يكن عليهم أن ينتظروا طويلاً، فهم يعرفون أنه يأتي في الخميس الأخير من كل شهر ويقيم في قصره إلى صباح السبت. كان بينهم وبين لقائه عشرة أيام. انتظروا..

خرج متولي صبيحة الأربعاء من الدبر قاصداً سهول القرية، فوجى الجميع بأن الأخوين سارة وميري كانتا تبعانه، كانتا هرعين إلى ذلك الحد الذي يدعو للشقة، تستند كل منهما إلى الأخرى، وتحاولان معا ثلاثي أي سقطة قد تعصف بهما الاثنتين معا. كجسد واحد كانتا تتحركان، يتحدثون، وهما صامتتان، وعندما يشير إلى جهة ترفعان أعينهما يتناقل وتنتظران دون أن ترأى أي شيء.

بعد قليل التفت إليهما، قال كلاماً لم يسمعه أحد، جلستا على صخرة، وأصل طريقه، التحنى، ملاً يديه بالتراب حتى فيه، تركه ينساب من بين أصابعه وهو يراقبه، وعندما وصل أول كرم زيتون، قصف غصنا، ونظر لطره باحثاً عن كمية الحياة فيه.

عاد بعد ساعتين، بعد أن مرَّ برعيان وفلاحين، نساء يعملن في الحقول ورجال يعبثون ترميم الساسل ويرفعون الأضراس الماطبة.. لكن أحداً منهم لم ينظر باتجاهه، مرَّ أمامهم كما لو أنه ليس هناك. وعندما وصل إلى تلك الصخرة التي تجلس عليها ميري وسارة، أشار إليهما بسبابته أن هتئا بصعوبة نهضتا، كما لو أن جسديهما قد أصبحا جزءاً من تلك الصخرة.

إلى الدبر مضى، أخلق الباب بنفسه، ولم يظهر ثانية إلا مساء الجمعة.

كان سليم بيك الهاشمي سعيداً دائماً بالأوقات التي يُعطيها في قصره الريفي، الذي لم يكن يبعد عن الهادبة أكثر من سبعة كيلو مترات باتجاه الغرب. يذهبو

شدة الضائقة الاقتصادية يسلفون الناس بملائة 50 بالملائة لسنة وأحياناً لثلاثة أشهر وأحياناً لسنة.. فكان من الباعة وكان من السائرة، وقد بلغنا أن السالومة تجري على بيع أراضي زينا وكفر صابا.. وبعضها ملك الرئيس الثاني حرب الزوام الذي لا استوصاه من البيع قال إن مديون بالقي ليرة للبرابرين من زعماء الوطنية.. وقد عرضت عليهم أن يستوفوا مني أرضاً بدلتهم بتصف جبه أدنى من السعر الذي يشتري به اليهود فأبوا، فرجوه أن يذروا المائة من ثلاثين إلى 12 بالملائة فأبوا..

أصدقاءه من العرب والإنجليز في الخميس الأخير من كل شهر، وعند وصوله للمنقطف الساعد نحو القصر يجد مشايخ وغانير القرى التابعة له، كما خطط لذلك، مصطفين لاستقباله، أما طريقه فيكون قد زينَ بصور الحاج أمين الحسيني، في حين تكون مهمة أهالي القرى كنس الطريق المعبّد ورشه بمياه عين النخيل.³⁷

- وصل اليك. إلا أنه لم يزل نائماً. قال أحد الرجال (الزُّرق) لرجال الهادبة الذين وصلوا إلى بوابة قصره ضحى الجمعة.

قرروا ألا يعودوا للهادبة بلا إجابات: ستتظهروا إلى أن يصحو. قال إيليا راضي. سمح رجال الهاشمي للقادمين بتجاوز أسوار القصر بلا ابتهاج. نظرة واحدة كانت كافيه لأن يدركوا أن الهاشمي في وادٍ والعالم في وادٍ آخر. رأوا أعمدة رخامية بتيجان وأقواس، توافير ماء، أزهاراً بألف لون ولون، وطوراً غريبة في أنفاس لم يلزمهم الكثير من الفظة كي يدركوا أن هياكلها تشبه الشكل الخارجي للقصر تماماً.

- إن كان علينا أن نحفظ كرامتنا فإن علينا أن نعود الآن. قال عبد الرحيم سليمان. فلا يليق بنا أن نضع أنفسنا في موقف كهذا.

- أخشى ألا يكون هناك كلام نقوله للناس حين نعود غير الكلام الذي قاله محمد شحادة حين عاد من الرملة. قال إيليا راضي وقد أحس بأن السَّمع غير الشّوف تماماً.

- الأئمة كانت على الحق. قال نمر عباس.

كان إيليا راضي يرم فتح فمه حين سمع صوت باب القصر يُفتح، ومنه يخرج سليم بيك الهاشمي برداء حبري أسود مزين بأزهار صغيرة حمراء وبيضاء وزرقاء.

- لا تؤاغلوني. وصلنا يوم أمس متأخرين، فسهرنا كثيراً ونمنا متأخرين، وكما ترون كان لا بد من أن نصحو متأخرين.

تبادل رجال الهادبة النظرات، وهم يُقَلِّبون كلامه.

³⁷ - (بعد أقل من عام سيقام احتفالاً بمناسبة زواج ابنه أنس سيحضره المندوب السامي وكبار أركان الدولة من الإنجليز وسيكون احتفالاً أسطورياً حيث سيجمع الآلاف من المدهوعين وكلهم من الأعيان ورجال السلطة في فلسطين ويستمع نحو 500 عروفاً وآلاف الطيور من الطواويس والطيخ والدجاج وتذبيحها كلها مائدة للفرح.)

- بهذا أخدمكم؟
- العفو. قال إيليا راضي. لا بد أنك سمعت بحكاية الغادية مع الدير.
- ومن لم يسمع؟!
- لكن أحدا لم يتحرك. قال اختيار أبو سنبل. ولذلك كان لا بد من أن تأتي إليك.
- أنتم تعرفون، في مسائل وطنية كهذه، أنا رهن إشارتكم.
- لقد وصلتنا إنذارات لإخلاء البلد. قال اختيار أبو سنبل.
- هزّ اليك سليم الهاشمي رأسه.
- وهذا يعني، وأنت سيد العارفين، أن الدير قد حسم المسألة لصالحه. قال الحاج جمعة.
- موما المطلوب منا؟!
- أنتم تعرفون أن السلطات البريطانية ستكون إلى جانب الدير، لأنها لن تدافع عن سارق أرض، فكل ما تفعله هو سرقة أرضنا أو تسهيل سرقتها. ولذلك نحتاج إلى قوة تنفّذ إلى جانبنا في هذه القضية الكبيرة.
- اطمنوا، سنعمل جهدنا.
- إذا راحت البلد، فهذا يعني أن أربعة وعشرين ألف دونم من أرض فلسطين ستطير في لحظة واحدة، منها ثمانية عشر ألف دونم أرض زراعية وستة آلاف دونم أرض حرجية.
- كما قلت لكم، قضيتكم ليست سراً، ونحن معنيون بها مثلكم تماماً، فاطمنوا، سنعمل جهدنا.
- وللحظة أحس اختيار جمعة أبو سنبل أن اليك يتعامل معهم كما لو أنه يريد أن يرضي ولدا صغيراً يلحّ في طلب شيء. أحس بالغضب، هبّ واقفاً، وقال له: يا سليم!! إذا ولّك الناس ومن معك الزعامة علينا، ولم تكن على استعداد للوقوف إلى جانب قرية بكاملها، فنحن سنعمد على أنفسنا وسنعمل ما نريد. والتفت إلى الرجال الذين معه: يا الله يا رجال.
- في تلك اللحظة وصل أحد الخدم يحمل القهوة على صينية فضية مذهبة أطرافها: لا يعقل ألا تشربوا قهوتكم!! قال سليم بيك الهاشمي.
- لقد شربناها مرّة هناك قبل أن تأتي. رة أبو سنبل.
- قفزوا إلى ظهور خيولهم بصمت عاتدين.

- اذهب إليهم وراضهم. قال لأحد رجاله.
- وما الشيء الذي يمكن أن أقوله لهم ولم تقله جنابك؟
- قل لهم سنكلّف عماما للدفاع عن قضيتهم.
- لم يكونوا قد ابتعدوا كثيراً، سمعوا من يصيح خلفهم: استنوا.
- أنصتوا الرسالة اليك دون أن يقولوا شيئاً، وواصلوا طريقهم.

على حجر كانت الغادية تنتظرهم، وحين أطلوا من بعيد تكاد خيولهم تسقط تحت ثقل من على ظهورها، أدارت الأيسة ظهرها عائدة لبيتها وهي تقول: شو بشتنوا، ما المكتوب باين من عنوانه. يا خسارة! صرنا مش عارفين حالتنا وبين طاسه وضايعة. الانجليز بنهشوا فينا واليهود بنهشوا فينا ومشايخنا بنهشوا فينا... وكلمة نأخذنا وكلمة تودينا!!

حكمة بترسون

خبران متتاليان لا يقل الواحد منها سوءاً عن الآخر وصلّا إلى بترسون، لا يفصل الواحد منها عن الثاني سوى أسبوع واحد. كان الخبر الأول يقول: الذي أطلق عليك النار استطاع الفرار من سجن عكا مع اثنين من السجناء.
قال: خالد!!

- هو.

ارتبك بترسون، لا لأنه يسمع بخبر الفرار فقط، بل لأنه يسمع اسم (خالد) يتردد مرة أخرى، وقد كان يحس أنه انتهى من هذا الاسم إلى الأبد.

ولم يكن قد توقّف عن تأمل تلك المقارقة الغريبة حين وصله الخبر الثاني: هناك من يخطط لقتلك.

- وما الجديد في أمر كهذا؟ أجاب مستكراً. كل ما في الأمر أنني أؤدي عملي كما يجب، أما النتائج فهي شيء آخر ينتمى للمستقبل الذي لا مجال لجسّره نحو الحاضر لمعرفة مدها، كل ما في الأمر أنني تغلّدت دائماً ما يوجد هنا، وأنشأ إلى رأسه.³⁸

- هناك من سيضرب اليوم، سيستغلون عودتك للمدينة، وسيثقلون العملية.

- لقد اقربوا كثيراً إذن وهذا ما أريده.

- لنبحث لهم عن طعم يثير شهيتهم!

لكنه أصّر: بعض الطيور بحاجة لطعم حقيقي حتى تظل برؤوسها.

³⁸ - في تلك الليلة كتب:

الذي يجيء أخيراً لا ينتظره / الذي تستطيع اللحاق به مائياً / لا تركض خلفه.

لم يعرف بترسون لماذا انتابه ذلك الحس الغامض حين وجد نفسه يستعيد عذبات رحلته في فلسطين كما لو أنه يتابع فيها سبيلها.

استعاد صورة الحاج خالد والتراب ينهال عليه، استعاد صورة الهامة وهي تبعد، استعاد محاولة البحث عنها التي لم تسفر عن شيء، استعاد صورة ذلك الشاب الذي أوقفه بعد ذلك بأيام، وكان يمتطي فرساً عجيباً لم ير بترسون مثلاً من قبل. استعاد ارتباطك ذلك الشاب، كيف فشله الجنود فوجدوا معه خنجراً حربياً، سأله ما هذا؟ خنجر. أجاب الشاب، وقد أدرك حجم المشكلة التي وقع فيها. ولماذا تحمله؟ لأحي نفسي من اللصوص في هذه الوديان. أتعرّف، خنجرك سبب كاف لكي أقتلك الآن؟ قال بترسون. صمت الشاب. لكن عيني بترسون كانتا تتأملان القوس طوال الوقت. أهي لك؟ سأله. هُز الشاب رأسه مؤكداً ذلك. قطع بترسون الخطوات التي تفصله عن القوس، رُيت على ظهرها، تأملها بحب، ثم قفز على ظهرها. ابتعد إلى ذلك الحد الذي لم يعد باستطاعتهم مشاهدة شيء سوى غبار انطلاقة، وعندما عاد، ترحّل عنها ببطء، وقال كأنه يخاطب نفسه لا أياً من أولئك الذين ينظرون إليه دهشين: حين ينتهي هذا الحراء سأشتري فرساً مثل هذه وأعود بها إلى إنجلترا. ثم التفت إلى الشاب وقال له: جريمة امتلاكك لهذا الخنجر لا يفرها أحد، ومثلكمكم أني عدوكم، لكنك تملك فرساً جميلة. ولذلك سأمنحك فرصة لم أمنحها لأحد من قبل. وأخرج رصاصة من مسدسه. إذا عرفت في أي يد ستكون الرصاصة فهي لك، أما إن لم تعرف فأسألكها عليك. وضع يديه خلف ظهره وسأل الشاب الذي راح يتأرجح على حافة الموت: هل أنت جاهز لكي تختار!!!

في السادسة من بعد الظهر تماماً، وأثناء تواجد في المقهى نفسه الذي تعرض فيه للاختيال في المرة الأولى، أطلّ ذلك الشخص المثلث من زاوية الشارع، سار نحوه مباشرة وبجاسته التي لا يثق بسواها أدرك بترسون أنه الطائر، وبعد لحظات كان على يقين من أنه خالد نفسه الذي حاول اغتياله سابقاً، أشهر بترسون مسدسه بسرعة وأطلق رصاصة أصابت المثلث في جبهته، أتبعها برصاصتين في جسده قبل أن يراه يسقط؛ لكنه أحس أنه أخطأ حين أطلّ شخص آخر يشبه الأول خطأً فأطلق بترسون ثلاث رصاصات أصابته جميعها، وحين ضغط الزناد ليطلق رصاصة أخرى اكتشف أن السدس أصبح فارغاً. في الوقت الذي تحوّلت فيه

الساحة إلى جحيم من القوضى، وقبل أن يعيد بترسون حشو مسدسه أطل شخص آخر ملثم يسير نحوه بثبات غير عابر بالطلقات التي راح الجنود يطلقونها في الهواء، كان بترسون يحدّق فيه في الوقت الذي انشغلت يده بحشو المسدس، واقترب الرجل، خسة أمتار، أربعة، ثلاثة، وفي لحظة خاطفة أخرج الرجل مسدساً من جيبه وأطلق النار على بترسون من تلك المسافة القاتلة.

كصاعقة هبطت المفاجأة على رؤوس الجنود، فيها هو قائددهم يموت أمامهم وهم حوله، رغم معرفتهم بما يدور مسبقاً.

كانت الطلقة التي تقيت رأس بترسون قد أصقت جزءاً من دماغه بواجهة المطعم. ومع تصاعد تلك القوضى، استطاع مُطْلِقُ النار أن يخفي بين الجموع، لكن أحد الجنود كان قد رآه، وفي وقت تحركت فيه الأهداف في كل اتجاه، ظنّت عينا الجندي مسّرتين على هدف واحد لا غير، راح يركض خلفه، وبعد أقل من دقيقتين كان الجندي يضع مسدسه في رأس خالد ويأمره بالتوقف. توقّف.

في تلك اللحظة المجنونة انفجرت طلقة أخرى مهشمة رأس ذلك الجندي.

تحسّس خالد سيف الدين رأسه، نظر إلى الخلف، كان رفيقه يصرخ: هيا.

بحار يافا

لم يكن محمود يتطلع لشيء حين وصل إلى يافا، مثلهما كان يتطلع للعيش مع البحر، فجراً نهض، لبس ثيابه على عجل، تجاوز العتبات، عابراً حي النشبة الغارق في الصمت، مرّ بمحاذاة المدرسة الرومانية ثم المدرسة العباسية انعطفت باتجاه شارع النشبة، ومن هناك، كان يمكن أن يُلقى نظرة على مسجد حسن بيك الكبير، في طريقه للشاطئ.

قبل وصوله بقليل، أحس بأنه يسمع ما هو أكثر من صوت الموج، تسارعت خطواته، وأذا به أمام شباك طويلة قد تحولت إلى جدران للقرط ما غلّق بها من طيور منهكة، لم تعد في أجنتها أي قوة لمقاومة الحيطان التي أطيقت عليها.

لم يكن ذلك هو المشهد الذي يريد أن يبدأ به حياته في يافا، لكن ذلك حدث. لم يعرف إن كان عليه أن يعود لشقته الصغيرة أو يحاول تجاوز الشباك. بحث عن فسحة وحين وجدها، فاجأه المشهد الأكثر قسوة: عدة طيور اصطدمت بجسده وسقطت على الأرض شبه ميتة.

قرر العودة بسرعة. ولزمن طويل، لم يعد قادراً على الذهاب لرؤية البحر، البحر الذي لم يره تماماً، البحر الشاحب المغشى بشاشة الأجنحة، وعلى الرغم من أن طيور الشبان تغدو وجبة شائعة في الحريف، وغير مكلفة، إذ كان باستطاعته أن يشتري خمسة عشر طائراً بخمسة قروش، إلا أنه لم يفكر بأكله أبداً بعد الذي رآه.

في النهاية، استبدل البحر برائحة يافا، الرائحة التي تفوح وتغمر المدينة كما لو أنها بحر آخر، بحر خاص بها وحدها، وصار يمشي كل مساء بجانب البيارات كما لو أنه يمشي على شاطئ البحر.

قالت له ليلي: سأخذك للبحر.

تردد. استشعرت تردده. سألك: الخاف البحر؟ أم تخاف مني؟؟

حدثنا عن لقائه الأول بالبحر. حدثها عن فزعها، وعن طيور تصطدم به كل ليلة في أحلامه وتسقط أمامه شبه ميتة.
قالت له: أنت قصة كاملة تسير على قدمين. وضحكت.
لكنه لم يضحك.

وأخذته للبحر. قالت له: البحر في يافا بحار، هكذا أحسُّ دائماً، البحر مقابل حي المشية غير ذلك الذي أمام البرية، وهذا يختلف عن الشط أمام البلدة القديمة، والبحر في المعجمي يختلف عنها كلها. سأعذك للمعجمي. ما رأيك؟
فلَّ صامتاً. كان يتطلع لمشهد آخر يراه ويمحو به تلك الذكرى الحزينة.

خرجنا من (ساحة الساعة) نحو شارع المعجمي، مرّاً بمقر النادي العربي، المدرسة الأرثوذكسية، للمدرسة الإنجليزية للبنات، مدرسة الفرير، مقبرة الأرمين، قبل أن ينطلقا مباشرة إلى البحر بمحاذاة المستشفى الإنجليزي.
كان يسجل ذلك كله في رأسه، وهذا ما كان يفعله في رام الله الصغيرة والقدس الواسعة ويافا الضاحجة بالحياة كخليفة نحل. لم يكن يخشى شيئاً أكثر من الضياع، ولذا كان يبحث باستمرار عن تلك العلامات التي تعيده يسر إلى عتبة بيته.
حين سأله: هل تأكدت مما قلته لك عن اختلاف بحر يافا.
هزَّ رأسه، كان البحر، غير ذلك الذي رآه معنا وعمتلنا بالموث في ذلك القجر.
ولم يكن هذا فقط، فقد كانت ليل هناك.

لم يكن موسم طيور الشمان التي تصل شواطئ يافا منهكة أمراً جديداً، فقد عاشه محمود خريفاً خريفاً، منذ تلك الذكرى: آلاف الطيور تصل منهكة فلا تجد في انتظارها سوى شباك الصيادين، فتما كأسماك السردين التي تندفع إلى الشاطئ مع بدايات شهر أيلول في أسراب يصل طولها إلى مئات الأمتار، ويكون الصيادون في انتظارها.

كان عليه أن يفعل الكثير، أن يذهب للعمل في الصحيفة، وأن يذهب للقاء ليل بعد ذلك، لكن ما حصل أن أقدم طيور الشمان فاجأته مرة أخرى، وبطريقة أكثر قسوة، فما إن أشرع الباب حتى وجد المئات منها على العتبة، وقبل أن يعرف ما عليه أن يفعل، تدرجحت عدة طيور كالكرات وارتدت في الداخل عند قدمية، التحنى،

أسكنها بيده ووضعها خارج الباب. ويحذر شديد استطاع تجاوزو تل الطيور المنهكة، وقبل أن يتعطف نحو الشارع العام رأى الأولاد يجمعون الشمان، بعضهم يضع الطيور في أكياس وبعضهم في أقفاص وبعضهم في جيوبه أو تحت ملابسه.
لم يستطع مواصلة طريقه، عاد للبيت مسرعاً، خائفاً من أن يرتطم به طائر ويسقط شبه ميت أمامه من جديد. كان يمكن أن يحدث كل شيء إلا مفاجأة مثل هذه!! : المفاجآت هي نهاية النهايات. كان يقول لليل دائماً.

بعد العصر بقليل نجراً ثانية، أشرع الباب، التفت إلى العتبة، لم يكن هنالك أي أثر للطيور، وعندما رفع بصره وجد نفسه وجها لوجه مع ليل: أين أنت؟ لقد قلبت الدنيا بحثاً عنك، وحين اتصلت بالجريدة قالوا لي إنك لم تأت!

حَدَّثَهَا عَنْ لِقَائِهِ الْأَوَّلَ بِالْبَحْرِ. حَدَّثَهَا عَنْ فِرْعَانَ، وَعَنْ طُيُورٍ تَصْطَلِمُ بِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي أَحْلَامِهِ وَتَسْقُطُ أَمَامَهُ شَبَّهَ مَيْتَةً.

قَالَتْ لَهُ: أَنْتَ قِصَّةُ كَامِلَةٍ تَسِيرُ عَلَى قَدَمَيْنِ. وَضَحِكَتْ.

لَكِنَّهُ لَمْ يَضْحَكْ.

وَأَخَذَتْهُ لِلْبَحْرِ. قَالَتْ لَهُ: الْبَحْرُ فِي يَافَا بِحَارٍ، هَكَذَا أَحْسَنُ دَائِلِهَا، الْبَحْرُ مُقَابِلُ حَيِّ الْمَشْيَةِ غَيْرِ ذَلِكَ الَّذِي أَمَامَ الْبَرِّيَّةِ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ عَنِ الشُّطِّ أَمَامَ الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ، وَالْبَحْرُ فِي الْعَجَمِيِّ يَخْتَلِفُ عَنْهَا كُلِّهَا. سَأَعْلَمُكَ لِلْعَجَمِيِّ. مَا رَأَيْتُكَ؟

ظَلَّ صَامِتًا. كَانَ يَنْتَظِعُ لِشَهِيدٍ آخَرَ يَرَاهُ وَيَمُحُو بِهِ تِلْكَ الذِّكْرَى الْخَازِنَةَ.

خَرَجَا مِنْ (سَاحَةِ السَّاعَةِ) نَحْوَ شَارِعِ الْعَجَمِيِّ، مَرًّا بِمَقَرِّ السَّادِيِّ الْعَرَبِيِّ، الْمَدْرَسَةِ الْأَرْثُذُوكِيَّةِ، الْمَدْرَسَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ لِلنِّبَاتِ، مَدْرَسَةِ الْفَرِيرِ، مَقْبَرَةِ الْأَرْسَنِ، قَبْلَ أَنْ يَنْعَلِقَ بِمَابِشَرَةٍ إِلَى الْبَحْرِ بِمَحَافِظَةِ الْمَسْتَشْفَى الْإِنْجِلِيزِيِّ.

كَانَ يَسْجُلُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي رَأْسِهِ، وَهَذَا مَا كَانَ يَفْعَلُهُ فِي رَأْمِ اللَّهِ الصَّغِيرَةِ وَالْقُدْسِ الْوَاسِعَةِ وَيَافَا الضَّاحِيَةِ بِالْحَيَاةِ كَخَلِيَّةٍ نَحْلٍ. لَمْ يَكُنْ يَخْشَى شَيْئًا أَكْثَرَ مِنَ الطُّبْحِ، وَلِذَا كَانَ يَبْحَثُ بِاسْتِمْرَارٍ عَنْ تِلْكَ الْعَلَامَاتِ الَّتِي تَعِيدُهُ بِسِرٍّ إِلَى عَتَبَةِ بَيْتِهِ.

حِينَ سَأَلَتْ: هَلْ تَأْكُدُنَّ عَمَّا قُلْتَهُ لَكَ عَنْ اخْتِلَافِ بَحْرِ يَافَا.

هَزَّ رَأْسَهُ، كَانَ الْبَحْرُ، غَيْرِ ذَلِكَ الَّذِي رَأَتْهُ مَعْنَا وَتَمْتَلَأُ بِالْمَوْتِ فِي ذَلِكَ الْفَجْرِ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا فَقَطْ، فَقَدْ كَانَتْ لَيْلِي هُنَاكَ.

لَمْ يَكُنْ مَوْسَمُ طُيُورِ السَّهَانِ الَّتِي تَصِلُ شَوَاطِئُ يَافَا مِنْهَاكَ أَسْرًا جَدِيدًا، فَقَدْ عَاشَهُ مَحْمُودٌ خَرِيفًا خَرِيفًا، مِنْذُ تِلْكَ الذِّكْرَى: آلَافُ الطُّيُورِ تَصِلُ مِنْهَاكَ فَلَا تَجِدُ فِي أَنْتَظَارِهَا سِوَى شَبَابِ الصَّيَادِينَ، تَمَامًا كَأَسْمَاكِ السَّرْدِينَ الَّتِي تَتَدَفَّعُ إِلَى الشَّاطِئِ مَعَ بَدَايَاتِ شَهْرِ أَيْلُولٍ فِي أَسْرَابٍ يَصِلُ طَوْلُهَا إِلَى مَتَاتِ الْأَمْتَارِ، وَيَكُونُ الصَّيَادُونَ فِي أَنْتَظَارِهَا.

كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ الْكَثِيرَ، أَنْ يَذْهَبَ لِلْعَمَلِ فِي الصَّبِيحَةِ، وَأَنْ يَذْهَبَ لِلْمَلَقَاءِ لَيْلًا بَعْدَ ذَلِكَ، لَكِنْ مَا حَصَلَ أَنْ أَقْدَارُ طُيُورِ السَّهَانِ فَاجَأَتْهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَبِطَرِيقَةٍ أَكْثَرَ قَسْوَةً، لَمَّا إِنَّ أَسْرَعَ الْبَابِ حَتَّى وَجَدَ الثَّلَاثَ مِنْهَا عَلَى الْعَتَبَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ مَا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، تَدَخَّرَتْ عِدَّةُ طُيُورٍ كَالْكَرَاتِ وَارْتَمَتْ فِي الدَّخْلِ عِنْدَ قَدِيمَةٍ، انْحَنَى،

أَسْكَنَهَا بَيْدَهُ وَوَضَعَهَا خَارِجَ الْبَابِ. وَبِحِذْرٍ شَدِيدٍ اسْتَطَاعَ تَجَاوِزَ تَلِّ الطُّيُورِ الْمَنْهَكَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْعَلِقَ نَحْوَ الشَّارِعِ الْعَامِ رَأَى الْأَوْلَادَ يَجْمَعُونَ السَّيَانَ، بَعْضُهُمْ يَضَعُ الطُّيُورَ فِي أَكْيَاسٍ وَبَعْضُهُمْ فِي أَقْفَاصٍ وَبَعْضُهُمْ فِي جَبُوبِهِ أَوْ تَحْتَ مَلَابِسِهِ.

لَمْ يَسْتَطِعْ مُوَاصَلَةَ طَرِيقِهِ، عَادَ لَبِيتٍ مَسْرَعًا، خَائِفًا مِنْ أَنْ يَسْرُطَ بِهِ طَائِرٌ وَيَسْقُطَ شَبَّهَ مَيْتَةً أَمَامَهُ مِنْ جَدِيدٍ. كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْتَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا مُفَاجَأَةً مِثْلَ هَذِهِ!! : الْمُفَاجَأَاتُ هِيَ نَهَايَةُ النِّهَايَاتِ. كَانَ يَقُولُ لَلَّيْلِ دَائِلًا.

بَعْدَ الْمَصْرِ بِقَلِيلٍ نَحْرًا ثَانِيَةً، أَشْرَعَ الْبَابَ، التَفَتَ إِلَى الْعَتَبَةِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيْ أَثَرٌ لِلطُّيُورِ، وَعِنْدَمَا رَفَعَ بَصَرَهُ وَجَدَ نَفْسَهُ وَجْهًا لَوَجْهٍ مَعَ لَيْلٍ: أَيْنَ أَنْتَ؟ لَقَدْ قَلْبَتِ الدُّنْيَا بَحْثًا عَنْكَ، وَحِينَ اتَّصَلْتُ بِالْجَرِيدَةِ قَالُوا لِي إِنَّكَ لَمْ تَأْتِ!

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

مزارعون، حرّاثون ورعاة!

لم يكونوا بحاجة للكثير من الذكاء كي يعرفوا أنهم خسروا القضية قبل انتهاء الجلسة، فالمحامي الذي أرسله سليم بيك لم يكن غير ابنه أنس.

قال له: لا أظن أنهم سيجدون أفضل منك!!

- ولكن ليس لي خبرة بهذا النوع من القضايا.

- ومن قال إن الناس ولذت وخرباها في الطب والقانون معها؟! فرصتك لتتدرب في مثل هذه القضايا الصغيرة، بانتظار القضايا التي تصنع لك اسماً.

- ولكن هذه القضية ليست سهلة.

- أعرف أنها ليست سهلة، ولكن إذا ربحتها سيشهدون لك بالكفاءة ويسجل ذلك في تاريخك الوطني وإن خسرتها سيُقال إن القضاء الإنجليزي المحيّر كان السبب. لقد فكّرت في الأمر طويلاً. اعلمت!

كان الدبر معزّزاً بصندوق خشبي يخشى بالوثائق التي ثبتت أنه لم يتخلّف عن دفع الضرائب، لا في زمن الأتراك، ولا في زمن الإنجليز. وأن القضية كلها قائمة حول مجموعة من العمال لم يبق لها من شيء تعلّله، بعد أن أُنجزت ما عليها من أعمال، سوى أن تغادر؛ عمال يأتون ويذهبون، قد يتكرر عجيء أحدهم مرة أو مرتين أو حتى ثلاثاً لسنوات متتالية، لكن، وبمجرد أن يقبضوا أجرتهم يعودون لقرائهم من حيث أتوا. وحين طلب القاضي العسكري الإنجليزي من عمالي القرية أن يُقدّم إثباتاً واحداً يؤكد ملكية (هؤلاء العمال) للأرض، لم يجد ورقة واحدة في يده. وفي أقل من لحظة حكم القاضي للدبر، واعتُبر الحكم بمثابة وثيقة أخرى تثبت ملكية الدبر لأراضي الهادية، تصاف للوثائق القانونية التي أبرزها.

في تلك الظهيرة ساروا كما لو أنهم مصابون جميعاً بضربة شمس، قصرات احتجاجاتهم التي أطلقوها لم تجِد، والحقيقة الوحيدة التي باتوا يعرفونها أنهم لا يملكون شيئاً، لا أرضهم ولا بيوتهم ولا حقوقهم ولا كرومهم ولا الطرقات التي يعرفونها، ولا حياتهم التي عاشوها هنا أبداً عن جد، وأن الحكم يشول لهم إن ذكرياتهم مجرد أحلام وأحلامهم أوهام والعذابات التي عاشوها والتضحيات التي قدّموها من أجل الحفاظ على هذه الأرض لم تكن؛ أدركوا أنهم يُجرّدون من النفس التي حقروا بها ومن التجل الذي حصّدوا به والحصان الذي عاشوا معه الأجل والأقصى، والأبقار التي حلبوها والقطعان التي سهرروا الليل في البراري يدفعون عنها خطر الموت وصفرة جفاف المواسم.

كل ما في الهادية، فجأة، لم يعد لهم.

عمال هم، مزارعون وحرّاثون ورعاة، لا يملكون غير ما على أجسادهم من ملابس.

- بعد نصف ساعة كان يمكن أن تسمع رجلاً يشتم أو يصرخ وأن ترى آخر يستدير لكي لا يلمح أحد الدموع التي تملأ عينيه.

- إلى أين؟ جاء السؤال قاطعاً ومؤثراً.

التفت الحاج سالم خلفه، كان يعرف أن الصوت هو صوت الحاج خالد.

- إلى الهادية؟

- وما الذي يمكن أن نقوله لأملك، لعنتك الأليسة، للعزيزة، لأهل البلد؟ لقد خسرت الهادية؟ ما الذي فعلته يا رجل!!

- تسرّرت قديماً الحاج سالم، بحيث لم يعد قادراً على أن يتخطو خطوة واحدة. هرّة الاختيار أبو سنبل: ما لك؟!!

أدرك الحاج سالم أن الموت أعون من عودتهم مكسورين للقرية.

- ليس هنالك سوى مكان واحد يمكن أن نقصده الآن. قال الحاج سالم.

- جهنم. وهل بقي لنا مكان سواها؟

- نعم بقي لنا الكثير، نحن قاتلنا الأتراك وقاتلنا الإنجليز وقاتلنا المستعمرين اليهود، قاتلنا الجوع وقاتلنا الفقر، وأن لنا أن نقاتل هذا القرار الظالم.

- وما الذي تقترحه؟

- لا نعود إلى الهادية قبل أن نذهب لثرى المحامي سليمان المرزوقي.

ولم يعترض أحد.

إلى مكتبه، في شارع جمال باشا بيافا، وصلوا بعد العصر بقليل، لم يكن هناك.
انتظروهم.

- لا عليكم، قال لهم المحامي المذنب لديه. سيكون هنا في الثالثة والنصف تماماً، ما عليكم سوى أن تراقبوا عقارب هذه الساعة. الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يفعله هو أن يتأخر عن مواعيد العمل.

تحولت مراقبة ساعة الحائط إلى عذاب حقيقي، ورغم كل تلك التنظيمات، وكما لم يحدث مع البشر الذين ينتظرون بلهفة، منذ اختراع الساعة، وتكتسكات عقاربها، راح ذلك الصوت الواهن المنسي في العادة، يتحول إلى طبول يتصاعد إيقاعها شيئاً فشيئاً باحثاً عن لحظة انفجاره. كيف يمكن للساعة أن تتحول إلى قبيلة، ولا يكون لهم إلا أن يربطوا أنفسهم إلى جوارها بكل هذا اليأس؟

لم يكن أحد منهم خارج هذا الحس القاتل، فجأة نهض إيليا راضي، وقال: أكاد أختنق سأنتظر في الخارج. تبعه محمد شحادة والختار جمعة أبو سنبل الذي قال: أنتم تعرفون متى تصل هذه العقارب إلى الثالثة والنصف، لكنني لا أستطيع، لن أبقي هنا معذباً بهديرها إلى الأبد!!

في الثالثة والنصف تماماً فتح الباب، دخل المرزوقي، ودخل الذين كانوا في الخارج معه.

شرحوا له القضية من أولها إلى آخرها، وأخبروه بقرار القاضي.
لم يقل شيئاً، ظل صامتاً إلى ذلك الحد الذي جعلهم يحسبون أنه لا يسمعهم، أو ربما هو نائم، من يستطيع أن يعرف؟ كان يحدق في الحائط الذي توسطه الساعة، كما لو أنه يعد ثوابها، وحين انتهوا قال: في المرة الأولى، حين أنتموني، خرجت من دخول المحكمة ستة أشهر، وقضية كهذه ستكون السبب في حرمان من دخول المحكمة مدى الحياة ربما، هل تعرفون هذا؟

- ليس لنا غيرك. قال الحاج سالم.
- كان يجب أن تأتي من قبل، لا أن نذهبوا للسعادة ابن البيك!!
- نحن لم نذهب إليه، لقد ذهبنا إلى أبيه، وهو كما تصرف من كبار زعمائنا الوطنيين.

- تعرفون. المشكلة الكبرى التي تهدد البلاد كلها أنكم أطيب مما يجب. طيبون إلى حد بحيث. كان الحاج خالد لم يكن منكم، ولم تعرفوه!
موجة كانت كليته وحزينة.

- نرجو ألا تترك الحادية تضع هذه السهولة. قال الحاج سالم، وقد بدأ لأول مرة في حياته شخصاً آخر، يمكنه أن يفعل أي شيء، أن يستجدي حتى، والتفت إلى محمود فوجده دهشاً مما يسمعه. فعاد للحاج سالم حبه العميق بنفسه: والله لو كان هذا القرار يُمحى بالدم لمحوها، ولو كان يحمل بإحراق منولي حياً لما ترددنا في فعل ذلك. لكنه قرار لا يحمل بهذه الطرق.

- تعرفون أن قضيتكم هذه قد تكلفني مستقبل في هذه المهنة!!
- نحن مستعدون لكل ما نطلبه.
- هل تحبون قريبتكم؟!!
- وكيف لا نحبها. إنها حياتنا.

- ما دعمت تقولون هذا وأنا أراه واضحاً، سأقول لكم: حققتم سيمود إليكم. سواء كان القاضي إنجليزياً أو حتى شيطاناً. ولكن مقابل هذا سندفون لي حسين جنبها عن كل كلمة أتوها في قاعة المحكمة!!

- خوس جنبها عن كل كلمة! اليس هذا كثير؟!!
- هذا هو شرطي، وإن لم تقبلوه فأنتم أحرار.
- ولكنك تعرف أن هذا فوق طاقتنا. قال الحاج سالم.
- وهل سيكون خسرانكم لقريبتكم في حدود طاقتكم؟!!
- لا والله، لن يكون. قال الختار أبو سنبل.

- هل أقول إننا اتفقنا؟ وحدث في وجوههم، فأحسوا بأن ملاعهم قد انطعت إلى الأبد في عينيه المشرعتين.

- اتفقنا. قال الحاج سالم. وامتدت يده إلى جيب قباذه. أحس المرزوقي بذلك: لا أريد منكم شيئاً الآن، حين أعيد إليكم حققكم كاملاً سندفون لي حتى كاملاً، وليس قبل هذا.

- مستظرون لبيع البلد إذا ما أعادها لكم كي تدفعوا أجرته. قال البرمكي.
- نهر الكلام الذي سيندق من فمه، يحتاج إلى نهر مال، وحسب علمي لا نهر مثل هذا في الحادية. قال الختار أبو سنبل.

- لقد كنت معنا وسمعت بأذنيك كل كلمة قلنا ولم تعترض. قال الحاج سالم.
- لأنني كنت مجنوناً مثلكم! من يوافق على شرط كهذا؟!
- أنت. ألم توافق؟ سأله محمد شحادة.
- إذا التجن قومك لن ينفعك عقلك!! كان لا بد من أن أجنَّ معهم.
- يا جماعة، كل شيء سيكون أرحم من أن تؤخذ الحادية من بين أيدينا وأسام أعيننا ظلماً. وتذكروا إذا انتصر الدين فكل من ينجسكم مكاناً تعيشون على أرضه باحترام أو تموتون وتدفنون فيه باحترام. وأضاف: ما أريك يا محمود؟
- لا أعرف، دائماً هناك مفاجآت!
- لكنني أسألك لكي نعرف، فالشيء الوحيد الذي لم نعد نحتمله هو المفاجآت!!

لم يكن محمود يخشى شيئاً مثلما كان يخشى المفاجآت: المفاجآت هي نهاية النهايات.

انتهى عرض فيلم (الرجل النحيل) للممثلة ميرنا لوي. أمام باب السينما، فوجئ بتلك المظاهرات التي تلطف شوارع يافا، المظاهرات الصاخبة التي لم يبر أشد منها من قبل، سأل: شو في؟

- مظاهرة. كل شيء ينتهي في هذه البلاد إلا المظاهرات. قال له أحد العاملين في السينما.

عاد لغرفته في حي المنشية، خطر بباله أن يعرف سبب تلك المظاهرة التي رآها قبل أقل من ساعة، فتح المذياع وانتظر موعد نشرة الأخبار، غشت اسمها، لم يسمعها، وغنى صالح عبد الحلي لم يسمعه، وحين حان موعد نشرة أخبار السادسة ترك كل شيء في يده وبدأ يحدّق في المذياع الكبير الذي أمامه كما لم يفعل في أي يوم مضى، وفجأة جاءه الخبر الذي لم يكن يتوقعه: خرجت الجهادية العربية اليوم في مظاهرات كبرى في مدن فلسطين كافة حين بلغها نبأ استشهاد القائد خالد الحاج محمود، وقد أصدرت الأحزاب الفلسطينية بياناً تدعو فيه الأمة إلى إعلان الحداد لمدة ثلاثة أيام....

ملك النهايات

دقة مواعيد ليل، كانت تلتزم بمحمود، لا شيء إلا لأنه كان يحس بأن أي دقيقة تأخر ستعزبه من قطعة ما من ملاجسه في ذلك الميدان الكبير، كم يكره الوقوف وحيداً. منذ الموعد الأول اختار مكاناً لا التباس فيه: (دوّار الساعة). وكسّم أسعده ذلك، كان المصور على مكان يعرفه الجميع واحداً من أهم انتصاراته. هكذا فكّر دائماً. ولم يكن هنالك من مكان فيها أشهر من (عمارة السراي) التي كان يتظرها أمامها.

- أنا هنا يا عم، وين إنت؟! قالت ليلي ضاحكة. وأضافت: عجب، في كل مرة أعر فيها عليك تكون ضائعاً؟
- آسف، سرحت.
- خليك معانا يا عم أحسن تضجع.

لا ينكر محمود أنها خفيفة ظلي على نحو غير عادي، لكن عفاف كانت أجمل وأطول، لولا مشكلتها الوحيدة تلك: جاهلة!

المرّة الأولى التي التقى فيها ليلي كانت لا تنسى، كالتهايات التي لا يكف عن التحدّث عنها، امتدت يده نحو كتاب (المجيم) لدانتي الذي كان قد ترجمه أمين أبو الشعر، لكن بعدها اختلطت النسخة في الوقت الذي كان يحاول قراءة عناوين الصحف الرئية على الأرض.

حين وصلت يده أخيراً إلى مكان الكتاب كان فارغاً، فارغاً تماماً، التفت، وجده في يدها، قال لها: ولكنني كنت أريد أن أشتريه.

- ماذا؟
- الكتاب، كنت أريد أن أشتريه.
- بإمكانك أن تشتريه. خذ!!
- آسف، لا أقصد ذلك.

- وما الذي تقصده؟! تريد، هذه، ليست هناك مشكلة في هذا، فلديّ من الكتب التي أحتاج لعشر سنوات حتى أهيّأها، حتى لو لم أشر كتاباً واحداً غيرها.

- صحيح؟

- آه، صحيح.

- أنا آسف.

- خلاص، أنت تستحقه أكثر مني إذن. وناولك إياه وقد رقت ملاحظها.

دفع ثمنه بسرعة، حاول اللحاق بها قبل أن يتعد. تجاوز باب المكتبة كسهم، وعندما حدث ذلك الذي لم يكن متوقعاً: اصطدم بها فأوشكت أن تقع. مشكلة ثانية في أقل من ثلاث دقائق.

- آسف، فعلاً آسف، وبدا مرتبكاً إلى حدٍّ غير عادي. تقصّد جيبه عرقاً واحراً وجهه وأوشك الكتاب أن يسقط من يده.

- لا عليك. لماذا كل هذه السرعة؟ هل تحاول اللحاق بالطيار؟

- لا، لا، أبداً. قال وكأنه برء همة!

- فقط كنت أسأل.

تأملته من رأسه إلى قدميه، وفجأة سألته السؤال الذي لم يكن يتوقعه: هل تريد أن تمشي قليلاً؟

سار معها، حتى دون أن يجيب. ولحسن حظه أنه كان يعرف الكثير عن هذه الأمور في رام الله. لكن أكثر ما أثار دهشتها أنه يعمل في جريدة. قالت له: وأنا أكتب. فسألها: وهل سبق لك وأن نشرت شيئاً؟ قالت: لا.

كان من الطبيعي أن يقول لها: ولماذا لا تعطيني شيئاً أنشره. لم يمرّ على قول كبير كهذا، فهو يعرف نفسه، ويعرف أنه لا يستطيع أن يفعل ما هو أكثر من قراءة ما يُقدّم له.

قوة النهايات، كانت ذروة تأملاته بعد سنوات من العمل الصحفي، لكنه حين التفّاحا لم يكن يعرف الكثير عن البدايات، كان أفضل ما يحدث له أن تأتي البداية وتأخذ بيده، تسير إلى حيث أرادته لتختار النهاية التي تمنعها. لكنه كان قارفاً جيداً، وهكذا يمكن القول إنه تعلّم. كما أن قيامه، على مدى سنوات، بترجمة عدد

كبير من قصص أوسكار وايلد، موباسان وتشيفوف التي كان ينشرها بتوقيع م. خ، تركت فيه أثراً عميقاً لم يدركه لزمن طويل.

حين صارح ليل بأنه يترجم وينشر بعض القصص في الصحيفة، بعد عامين من تعرّفه إليها، سأله: ولمن تُترجم؟ قال لها: لموباسان وتشيفوف ووايلد. صرخت بابتهاج: أنت! إذن، كيف لم يخطر ذلك ببالي!!؟

- ما الذي تعنيه بـ (مخ) هذه؟

- ألا توقّع في نهاية القصة بالحرّفين (م.خ)؟ أنت مخ إذن.

أخيراً انتبه لما تعنيه: تعرفين لم يخطر ذلك في بالي من قبل! وبعد قليل قال لها: الحمد لله حل أي حال!

- ما الذي تقصده؟

- الحمد لله أن اسمي لم يكن يسير لكان سيصبح (تخ).³⁹

وفي موجة ابتهاج قالت له: أو أسوأ من ذلك بكثير.

- ماذا؟

- لا، ليس من اللائق أن تقولها فتاة.

أقلّب الموضوع فوراً، لكن عقله راح يدور باحثاً عن اسم يُمكن أن يُشكّل مع اسمه الثاني فضيحة ما، وحين اكتشف ذلك قال: فعلاً، كان يمكن أن يكون الأمر مصيبة لو كان اسمي شكري أو شاكراً أو شريف.

أما على الطرف الآخر من عالمه، فقد كانت عفاف تتابع آخر فصول الحكاية صامتة، إذ لم تكن ليل تتركه يعود للقريبة دون أن تضع في يده رسالة، يقرأها في القطار عشر مرات على الأقل وخمس مرات في الحادية، وفي بعض الأحيان قصة جديدة كتبتها، ولم يكن ينقصها شيء سوى النهاية، ألم تقل له: النهايات اختصاصك.

- والبيانات اختصاص من؟

- البيانات اختصاصي. ألم أكن الباذلة بالتعرّف إليك؟

لكن ما حيرة دائماً أنها لم تكن تلتصق إلى أين لمضي علاقتها، علاقتها التي لم تصل إلى أن يلامس يدها، أو تلامس يده، حتى في العتمة.

من كل جهة حاصرهم الناس.

تقدم الحاج سالم متدفعاً شبه مجنون، بعينه الواسعتين المحمرتين وقامته الشبيهة
بوتد: ما الذي تفعلونه هنا؟؟

- لا شأن لكم بهذا. هذه الأرض للذير ويحق له أن يتصرف فيها كما يريد،
ولستم في النهاية أكثر من أجراء. قال متولي.

- أجراء إذن!!

- إن لم تعرفوا ذلك من قبل فهذا ليس ذنبكم. إنه ذنب الأب ثيودورس
الذي لم يقل لكم.

- هكذا إذن. قال الحاج سالم. وأضاف: لمر من هم الأجراء هنا. التفت إلى
الناس ثم وجه أصبعه نحو العربة.

السمسار والشاري اللذان كانا يظنان أن اقترابهما منها يعلمهم أكثر أماناً، أحسا
فجأة أن ابتعادهما عنها هو الصحيح. ابتعدا، لكن حشهما خدعها مرة أخرى.

مثل عاصفة لا مجال للوقوف في طريقها اندفع قسم من الناس نحو السيارة
واندفع القسم الآخر نحو السمسار والشاري.

تأرجحت السيارة، وبعد لحظات كانت قد قُطِعت، دفعةً أخرى جعلت عاليها
سافلها، ثم أخرى وأخرى حتى وصلت إلى طرف منحدر صغير، وعندها جاءت

الدفعة الأولى: تأرجحت السيارة قليلاً ثم انقلبت ثلاث مرات واستقرت أخيراً
على أحد جانبيها. وخلف هؤلاء، كانت العصي تهال من كل جانب على الرجلين

الذين لم يجدوا مكاناً يحميها. التجأ إلى الأب متولي، أبصر في عينيه نظرة ترسمي بسما
لصير غامض. في حين وقف الحاج سالم والأب متولي وجهاً لوجه، لا تفصلهما

أكثر من خمس خطوات، يُمَدُّ كل منهما في عيني الآخر يتحدَّ مجنون.
راقب سكان المستعمرة المشهد من بعيد، وكان باستطاعة الجميع أن يروهم.

وما إن أصبح السمسار والشاري يعيدان عن الناس الذين يلاحقونهم، حتى
راح الرصاص ينهال على أهل البلد.

التفت الأب متولي إلى المستعمرة صامتاً: هل جئتم؟؟ كما لو أنهم يسمعون.
فرد الحاج سالم: ذاك جنونك.

أدرك الناس أن الرصاص الذي يُطلق ليس له سوى هدف وحيد: أن يُقتل،
عندما صاحبت شمس ابنة جمال ربحي: بابا، دم.

السمسار والشاري والبايع!

وصلت عربة جيب، ترتجل منها ثلاثة رجال، سمسار اسمه أسعد تسناس⁴⁰
ويبودي اسمه ليبي والأب متولي.

وقفوا يعاينون قطعة أرض غربي سور المستعمرة التي أقيمت على أطراف الهادبة
وعلى جزء من أرضها.

لم يكن الأمر بحاجة لتفسير. وهكذا اندفعت البلد بأكملها تركض إلى حيث
هم، من وجد حصاناً ركبته ومن وجد حماراً ركبته ومن لم يجد هُبَّ يركض، حتى لو

كان، حافياً.

ركضت نساء وأطفال وشيوخ وصبايا من الحازنين، وهذا يحدث للمرة الأولى
منذ زمن طويل، فقرار الحكمة الذي صدر لصالح الذير ترك الجميع عراة في ذلك

الذي المفتوح على خاطره لا حدود لها. أحسَّ الثلاثة المحاصرون بما يجري، حاول
السمسار والشاري الصعود إلى السيارة، منهم الأب متولي: هذه الأراضي للذير

ولا يستطيع أحد أن يقول لنا لمن نبيع ولن نبيع!

تراجعوا خطوات، لكن قريهم من السيارة كان يعطيهم بعض الأمان.

⁴⁰ - كان أسعد تسناس واحداً من أبناء البلد. أحب سلمي ابنة عمه شحاتة، لكن ابن عمها قال إنه
يريدها زوجة له، فتزوجها، ذهب أسعد وخطف فتاة جميلة جذا وعاد إلى الهادبة، كان يريد أن يخطب
سلمي وأهلها، ولذا كان يستعرضها كل يوم وهو يسير معها. ذات يوم التقى وجهاً لوجه سلمي
في الشارع وكانت امرأته تسير معه فصرخ: والله مئة زوجة لا نستطيع أن نتسبي سلمي! أغضبته
زوجته: ما الذي يقصيني؟ قالت له معاتبة. رغباهما، قال لها إنه لم يلتق بها منذ أربعين عاماً،
أما سلمي فكان يفرح معها للفرح. قالت زوجته: ما إذن إلى الوعر. وهناك عراة، فسأته هل كنت
تفعل هذا مع سلمي؟ فقال: وأكثر. ثم لم لحظة خاطلة أهدم سكينته في صدرها وحلها وألقاها في
أرض زوج سلمي، ثم ذهب للبوليس وسلم نفسه: لقد وجدته زوج سلمي فوق زوجتي فقتلتها.
كان يعرف أن هذا سيخفف الحكم عليه. لكن الذي لم يكن يتوقعه، أن زوجته لم تمت، وحين وجدوها
وحلواها للقرية قالت كل شيء، فحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً. وحين خرج من السجن، بعد
قيام الإنجليز بإطلاق سراح المجرمين والصوص خلال ثورة 1936-1939 لم يعد للهادبة.

لم تكن قد تجاوزت العاشرة. بعد قليل صاح حاتم أبو عميرة بصعوبة: الحفوي.
وكان الدم ينفور من رقبته.

حين أبصر الناس ذلك، انطلقت مجموعة من الرجال تركض خلف أسعد
نسناس وليفي اللذين راحا يجرّان نفسيهما بصعوبة نحو الأسلاك الشائكة
للمستعمرة. انهار الرصاص على اللاجئين منهم من الوصول إلى هدفهم، فأصبح
بإستطاعة الناس على الطرف الآخر الابتعاد أكثر، والتواري خلف السناسل وبين
أشجار الزيتون، حاملين معهم شمس وحاتم الذي فارق الحياة.

كان الرجال يركضون بجثثهم غير عابئين بالرصاص الذي يحتاج كل ما أمامه.
سقط عباد الأخرس وحسين الضعوب، لكن أحداً لم يتوقف. كانت كثافة النار
تغل شيئاً فشيئاً كلها ضاقت المسافة بين الحارين وتمن خلفها. وما إن أسكروا بها
وراحوا ينهالون عليها بالعصي حتى توقف إطلاق النار تماماً.

- لا تقتلوا. صاح زياد نجم.
- ما الذي تقول؟! جاء صوت حسن بركات.
- إذا قتلناهما سنقتل في مكاننا. سنستحب وهما معنا أحياء.
- كيف لم يتبهوا لهذا؟! كيف لم يتبهوا إلى أنهم أصبحوا في منتصف الشّرك؟!
- إذا عشتُ سأقول لقد أنقذ زياد حياتي وحياة هؤلاء الرجال. قال حسن
بركات.
- إذا عشنا سنقول لقد كتب الله لنا حياة جيدة. قال زياد.

تراجعوا يجرّون نسناس وليفي، وصلوا لعاد الأخرس، كان ينفذ بفزارة، لقد
عبرت رصاصة كتفه الأيمن وأخرى خصره اليسرى، صاح: اقتلواها!!
حملوه، وحين وصلوا لحسين الضعوب كان قد فارق الحياة.
أطلق الناس من مخابثهم، وعندما أدركوا أن الرصاص لن يوجه ثانية إليهم،
راحوا يركضون نحو القرية حيث وصل الرجال مع نسناس وليفي.

لم ير أحد الأب منولي بعد ذلك، اختفى تماماً، حاول الحاج سالم أن يعرف أين
إنهم، لم يصل لنتيجة، في أقل من لحظة اختفى، اختفى وهو يحدّق فيه. وهكذا
سيظل يكرر في الأيام الصعبة التي كانت في انتظارهم على عتبات المستقبل.

بعد دقائق من وصول الجميع إلى أطراف القرية، دوى انفجار كبير لم يسمعوا
مثله من قبل، انحنوا، وقيل أن برغوا رؤوسهم لعمرة ما يدور انفجرت القنبلة.
أدركوا أنها سقطت في مكان بعيد، وروا قرب العرية المجاورة دخاناً يتصاعد.
قنبلة ثانية، كانت أقرب، فثالثة، انفجرت السيارة، وتحولت إلى كتلة نار
يتصاعد منها عمود دخان إلى أعالي السماء.
حدّق الناس بعضهم في وجه بعض. كانت المفاجأة الأكبر أنهم أدركوا وللحرة
الأولى أن السلاح الذي صُوب إليهم من تلك المستعمرة أكبر من أي سلاح توقّعوا
وجوده فيها.

القوة البريطانية التي وصلت بعد أقل من ساعة لم تر في المكان سوى بقايا عمود
دخان، جثتي حاتم أبو عميرة وحسين الضعوب، وجراح عباد الأخرس والصغيرة
شمس، وغضب الناس الذي تفجّر في وجوه الجنود، وضد بريطانها التي تشق
الواحد منهم من أجل سكنين ولا تسمع دوي القنابل الذي يتساقط عليهم تحت
ضوء الشمس.

لكن ذلك لم يمنع الملازم جاك إدmond من أن يتراجع عن أسئلته التي وجهها
للقرية حول مصير نسناس وليفي والأب منولي.

- إذا وجدتم الأب منولي ستجدون نسناس وليفي. لقد انشقت الأرض
وابتلعهم بمجرد أن بدأ إطلاق النار علينا. أين اختفوا؟! الله وحده الذي يعلم. قال
الحاج سالم.

في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من عمره كان الملازم جاك، كل ما
فيه يوحي بأنها المرة الأولى التي يجد فيها نفسه وجهاً لوجه مع قضية كهذه.

- سكان المستعمرة يقولون إنكم أسكنتم بها.
- ونحن نقول، إننا لم نرهما منذ أن بدأ إطلاق النار. فهل تهموننا بقتل أناس
لأنكم لم تجدوهم ولا تهمون المستعمرة التي قتلت وجرح هؤلاء.
- المستعمرة كانت تدافع عن نفسها.
- بإطلاق القذائف بالجملة والرصاص ونحن نرّل؟
- سأضطر أسفاً لتضييق القرية بكاملها!! قال جاك. وقد بدا مؤدياً على نحو
لم يروه من قبل.

- بإمكانك أن تفشش كما تريد. لكنك لن تجد شيئاً، لأنها ومعها الأب منوي في الجهة الأخرى الآن. نعم لقد وقفنا في وجههم ومنعناهم من أن يروا أرضنا التي يريدون التاجرة بها. لكن ذلك كل ما فعلناه، وسنعله مرة أخرى وأخرى إذا ما تكرر الأمر. أما ما عليك أن تفعله فهو أن تساعدنا الآن في إنقاذ الجرحين حتى لا تكون السبب في موتها.

لم يجد الملازم جاك إدmond ما يبحث عنه، وعندما وصل إلى باب الدبر خرجت الأخت سارة، وقالت له: إن الأب منوي غير موجود. فاكثني بجمالها تلك، وساعدنا في إغلاق الباب الثقيل بأن سحبه باتجاهه، وعاد إلى أهل القرية من جديد، حيث البكاء لم يتوقف ومحاولات إسعاف الجرحين لا تُشفر عن نتيجة. وقبل أن يقول لهم إنه سيعود للمستعمرة لمعرفة المزيد من التفاصيل. صرخت أم شمس فوق جسد ابنتها، فأدرك الجميع أنها فارقت الحياة. التفتوا للملازم جاك: لقد قتلتها.

- أي أم شوري. راح يتأسف مرة بعد أخرى بالتفعل حقيقي. ثم أشار إلى الجنود أن يحملوا الجرح إلى السيارة.

بدأ الجنود مستغربين امرأة عسكرياً كهذا، وأهم مترددين فصرخ بهم وقد اختفت كل ملامح برأته مرة واحدة، وأخذ وجهه لوناً داكناً: ناو. الآن.

لم يعد منوي للظهور إلا صبيحة يوم المحاكمة، أما نسانس ولفي فقد فشل كل محاولات الملازم جاك في الوصول إليها، حتى بعد عودته حاملاً عباد الأخرس في سيارته كبادرة حسن نية.

- هم يقولون بأننا أخذناهم ونحن نقول إنها هربا للمستعمرة، ونحن لدينا ثلاثة قتل وجريح، فما الذي يقولونه هم؟

أفضل التحقيق بسبب عدم وجود أي دليل مادي، والاستحالة توجيه الاتهام لشخص أو أشخاص بعينهم.

وصول غريتا غاريو

أقبلت من بعيد، تأمل وجهها الطفولي وشعرها الذي يغطي جزءاً من كتفها، السعادة الدائمة التي كانت تملأ تسامها فتجمل شفيتها أكثر تورداً، واندفاعها، كما لو أنها قادمة لاحتضان العالم كله.

لم يكن هناك ما ينقصها، ولعلها تعتدت أن تسير على ذلك النحو بعد أن دعاها أربع مرات لحضور فيلم (الفتدق العظيم) ومرتين فيلم أنا كارنيتا، وظل يردد على مسامعها تلك الجملة التي حفظتها غيباً يقول: تعرفين...

وقبل أن يكمل نقاطعة وتكملها: .. أن غريتا غاريو أجل امرأة على سطح الأرض ومشيتها أجل مشية مخلوق خلقه الله.

كانت ليل ترى فيه مغامرة جبلة، لا بد لكاتبه مثلها من أن تحظى بها دون أن تُنكر أيضاً أنه يُعجبها، وأنها رغم مرور وقت طويل على موعدهما الأول، لا تجرؤ على النظر إلى عينيه مباشرة، لقد جربت ذلك مرة واحدة، واكتشفت أنها ستقع في حبه لا بد، إذا ما فعلتها ثانية، وكلما حاول النظر إليها مباشرة، كانت تُطلق ضحكة صغيرة عذبة وتبتعد بعينيهما بدقة في أي شيء يمكن أن تراه حولها في تلك اللحظة. أما أكثر ما كان يفتنها فيه فهي قدرته المعجبة على اختراع نهايات غير مألوفة لقصصها. كان يقول لها: كل البدايات ليست مهمة. المهم النهايات، قولي لي ما النهاية أقل لك ما تستحقه قصتك من اهتمام.

كل قصة كتبها ابتكر لها نهاية جديدة، حتى تلك التي كتبها قبل أن تعرفه، وفي المرات القليلة التي لم تأخذ برأيه، تدمت فيها بعد، إذ انصب الحديث عن ضعف النهاية. لكنها لم تبتعد عن عالمها لتكتب عن عالمه، كان عالمه بالنسبة لها شيئاً جليلاً طيباً (أكثر من اللزوم) ولا تستطيع قصة (جديدة) أن تغامر بالكتابة عنه؛ وبالطبع، لم تقل له ذلك؛ كان مستوى القصة مرهونا لديها بمدنية الموضوع، القصة التي تقرأ

هي القصة التي يُمكن أن يقرأها من يقرأون، ولم يكن يلزمها الكثير لتُنتج نفسها: لماذا أكتب عن أناس لا يعرفون القراءة أصلاً؟ ولماذا أجبر القارئ، الذي رأى وعرف كل شيء، إلى حكايات لا تهتم؟!

ومنذ أن عرفته أضافها من إجابة ذلك السؤال الذي لم يطرحه: لماذا لا نكتبين إلا عن حياة يافا؟ مع أنها لفترة طويلة حفظت غيباً تلك الجملة التي ستقوله له، حتى قبل أن تكمل السؤال: أنا لا أكتب إلا عما أعرفه. وحددت الله على أنه لم يسأل، فقد باتت تُفكر بسلسلة من الأسئلة المحتملة التي يمكن أن يسألها أياها حين يسمع تلك الإجابة، مثل: وهل من الضروري أن تخبرني عن شخص يموت؟ وهل من الضروري أن تعيش حتى السبعين لتكتبي عن امرأة في هذا العمر؟ وهل من الضروري أن تكوني مهندسة أو طبيبة أو معلمة أو حتى امرأة ليل في حانات يافا كي تكتبي عن كل هؤلاء؟

كان يقول لها شيئاً واحداً: النهاية، المهم النهاية يا ليل.

الشيء الغريب أنها لم تبحث عن نهاية ما لملائقتها تقول إنها علاقة تستحق أو لا تستحق، ولم يكن بينهما وجود زوجته أصلاً، لأن من العيب أن تتحدث إلى ذلك المستوى الذي تصعب فيه امرأة فلاحاً، جاهلة بالبدن، جزءاً من تمكيد صفو حياتها. رغم ذلك كله، ودون أن تدري وجدت نفسها متورطة في تقليد مشية فريشا غاروبو وتسريحة شعرها والتفانها المدروسة بإتقان كلما استدارت بوجهها لتلقي نظرة على أحد، في الوقت الذي تلعب عيناهما للتحديق في شيء ما، لا يراه هو، ولا تراه هي، موجود فوق رأسه.

ولاحظ محمود ذلك، وكان فرحاً به.

الأمر الجديد الذي لم يهره اعتياداً أنها بدأت تحرضه على أن يكتب وألا يكتفي بتحرير المقالات والأخبار، يجب أن تُخرج موهبتك إلى العلن، أن يعرفك الناس. لا أريد أن يعرفني أحد. وكلما كنت مجهولاً أحس براحة أكبر، فلا أحد يسألني ولا أحد يشير إليّ ولا أحد يوقني ليسألني ما رأيك في هذا الذي يبدو؟ تصوّرني أن يقرب أحدهم ويسألني: أستاذ محمود ما رأيك فيها يبدو؟ وإلى أين تسير الأمور في فلسطين باعتمادك؟ سأجبر حينها، من يستطيع أن يجعل معادلة أطرافها كل هؤلاء: الفلاحون الفلسطينيون، وزعمائهم في المدن وزعمائهم في الريف، الفقير الذي هناك في القرى والغنى الذي هنا في المدن، التفوق الصناعي

الأوروبي الذي حله اليهود معهم والتخلف في كل شيء الذي تركه الأمراء لأهل هذه البلاد. من يستطيع أن يجعل معادلة فوضى عشرات الأحزاب هنا وإرتباك أهدافها وتضاربها وصراعاتها التي لا تنتهي، ودقة تنظيم المنظمات اليهودية التي تصبّ في هدف واحد ووحيد: احتلال فلسطين وطرد أهلها منها؟ من يستطيع أن يجعل معادلة أطرافها: نحن والعرب والإنجليز واليهود؟!

- تعرف كان علي أن أسألك هذه السؤال من قبل وأنت تلك النهايات: أين تسير الأمور في فلسطين باعتمادك؟

- هل تسألين بجهد؟ أم تعتقدين أن ما أقوله طرفة؟

- لا. أسألك بجهد فعلاً.

- ومن قال لك أن باستطاعتي الإجابة عن سؤال كهذا؟!

- ما دمت سألتك فعمني ذلك أنك تفكر فيه.

- كنت سأفكر فيه لو كنت كاتباً، ولكنني لسْتُ كاتباً ولذلك لم أفكر فيه.

- سأسألك سؤالاً آخر إذن، ما الذي تريده؟

- ماذا أريد؟ هل تريدني الحقيقة؟ أظنها موجودة هناك في فيلم (الفتى العظيم)، لقد فكرت طويلاً بالأسباب التي تدفعني لشاهدة الفيلم، وأظنها ثلاثة أسباب، الأول ما يقوله الكونت المزيّف للبطلة (ليس لدي شخصية على الإطلاق، عندما كنت صغيراً علّمني ركوب الخيل والتصرّف بئيل، ثم في المدرسة علّمني الصلاة والكذب، ثم في الحرب علّمني القتل والاعتناء) صحيح أنني لم أقتل، ولكنني أختبئ.

- ولكنك لسْتُ كذلك؟

- الذي تعرفه إذن ويعمل اسمي واحد غيبي.

- لن أتأكدك، وما السبب الثاني؟

- ما يقوله الكونت المزيّف أيضاً للبطلة؟

- ماذا بالتحديد؟

- (أحب أن أكون في غرفتك لأنفس الغواء الذي تنفسه). هكذا أذكر وأنا معكِ دائماً!

- صحيح!! والسبب الثالث.

- كنت أتوقع أن تقول أكثر من كلمة واحدة حول السبب الثاني، ولكنك سأقول لك السبب الثالث، إنه النهاية.

- هذا ما لا أستطيع أن أحدث فيه، فأنت الأستاذ. ولكن ما الذي تقصده؟
- نهاية الفيلم لا نهاية لها، هذا ما اكتشفته أخيراً، أظن أن هذه أعظم النهايات، لأنها نهاية وبداية في الوقت نفسه.

- لم أفهم!

- بعد مقتل الكونت الزيف يقول الدكتور المشوّه (ماذا تفعل في الفندق، تأكل، تنام، وتتكاسل وتتودّد للنساء قليلاً، وترقص قليلاً، مائة باب تقود للمقاصة نفسها، لا أحد يعرف عن الشخص المجاور له، وعندما ترحل يشغل أحد غرفتك ويستلقي في سريره). لأول مرة أدرك أن الفندق الكبير ليس فندقاً حسب، إنه أكثر من ذلك بكثير، ألم تلاحظي أناساً جدداً يدخلون وآخرين يخرجون تماماً بعد أن انتهت حكاياتهم، من الأبواب التي لا تتوقف عن الدّوران؟ إنه الحياة. هل يمكنك أن تعطيني نهاية بلا نهاية؟ نهاية هي بداية؟ بداية نهايتها بداية؟
- لا أعرف.

- هذا ما يجبرني أيضاً. فلديّ بدايات كثيرة لا طعم لها.

- وماذا عن نهايتك، يعني، هل تتصوّر نهاية لشوارك في هذه الحياة؟ صمتٌ كثيراً إلى ذلك الحدّ الذي ظنّنت معه أنه لن يتحدث أبداً، بحيث ندمت على طرحها لسؤال شائك كهذا، وقبل أن تنفتح فيها المتورّد الصغير لتعترف قال: لم أكن سوى واحد من عائلة كتبت الخيل أقدر رجائاً؟

عندها تجمّرات وقالت بصوت حزين: ولكنني تحدّثت عنك.

- أنا؟! لم يكن في حصان في أي يوم من الأيام!
- أظنك غير طيبي اليوم!
- نعم، إنني مريض ألم تلاحظي ذلك؟ هل نسيت ما يقوله الدكتور في الفيلم (عندما أرى شخصاً ملبسه كبيرة عليه، أعرف أنه مريض..) وأنا ملبسي كبيرة عليّ، ألا تلاحظين.

لا. إنها مناسبة تماماً!!

الخطوة والزمن

الشيء الذي لم يكن يتوقعه الحاج سالم، هو أن الزمن كان دائماً أسرع من خطواته.

نظر إلى ابن أخيه ناجي وابنه عليّ وقال: عندما نحصل على الرصاص لا نجد البواريد، وعندما نحصل على البواريد لا نحصل على التدريب وإذا حصلنا على قبلة فإن السعيد منا هو من لا تنقع على رأسه حين يرميها. لقد فكرت طويلاً، هنالك شيء يمكن أن نفعلاه ولن نساء البلد أبداً.

ظلاً صامتين بحيث لم يخطر ببالها أن يسألاً: وما هو؟

قال: أن نذهباً وتلتحقاً بالبوليس الإنجليزي

- البوليس الإنجليزي!!!

- نعم البوليس الإنجليزي. هنالك يمكن أن نعلّمنا وتعوداً لعلّمنا الناس. لم يسبق لناجي أن أحس بهذه المسؤولية من قبل، حتى عندما رُزق بابنه الأول. فجأةً وإذا به مسؤول عن مصير البلد ومصير الناس وعلومهم العسكرية!! إلى مدينة (اللد) ذهب مع عليّ.

- إن لم تنجح أنت سينجح عليّ، وإن لم ينجح عليّ، ستجرح أنت. قال الحاج

سالم لها.

قدماً طليين.

المقابلات ستكون بعد يومين. قالوا لها.

قبل ساعتين من موعد المقابلة كانا هناك، وقف التقدّمون في صف طويل، جاء ملازم إنجليزي، تفحص الجميع حتى آخر الصف ثم عاد من جديد. أشار لناجي أن يتقدّم، تأمل الجميع مرة أخرى، ثم اختار عليّ، وكانا يقفان جنباً إلى جنب، بعدها صاح انصراف، ففرّق الطابور!

وكما حدث في المرة الأولى طلبوا من الجميع أن ينتظموا في أربعة صفوف، وقبل أن يختاروا أحداً، طلبوا ممن خدموا في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية أن يتقدموا ثلاث خطوات، فكان هناك خمسة عشر رجلاً.
من الصف الأول اختار الملازم المسؤول اثنين، ومن الصف الثاني أربعة، ومن الصف الثالث واحداً، وحين وصل إلى الصف الرابع الذي يقف فيه ناجي اختاره مع شابين آخرين.

تذكر ناجي الشيء الذي لم يكن عليه أن ينساه، انه كان مريضاً وأن ظهره كان قد تحول إلى دوائر من دم ناشقة بسبب (كاسات الهواء)، ذلك العلاج الشعبي الذي يستخدم لسحب الدم الفاسد، أحس بخطورة عودته إلى البلاد غائباً بعد مغادرة عليّ.

في ساحة خلفية صغيرة تجمع الرجال الذين تم اختيارهم، وبقي الآخرون يراقبون المشهد من بعيد، لكن ناجي كان حزناً، فقد أدرك أنه سيسقط بمجرد أن يتخلع قميصه.

رآه أحد الشباب مهموماً، فسأله: ما الذي يزعجك؟

شرح له الأمر.

- ولا يهتّم. سأحلّها لك بسهولة.

أشار إلى شاب يقف بعيداً فجاء: هذا أخي. وكما ترى فهو قويّ البنية، سيدخل حين يتأدون عليك، وسيقدم الفحص. والسلام!!

- وهل يمكن أن تمرّ مسألة كهذه أيضاً؟

- اطمنن، يا ما علمناها.

وحزّه كيف يمكن أن يكون شخصاً آخر بعد أن أصبح يحمل اسم عليّ! لكن الأمور سارت في اتجاه معاكس، حيث طلبوا من الجميع الوقوف في صف، وأوتقوا كل عمتين واحداً بالآخر حتى لا يحدث أي تلاعب في الفحوص!

طلّبت السيارة تسير بهم إلى أن وصلوا (الضمانة). كان ناجي قد فقد الأمل تماماً، وأحس بذلك الحجل الذي سيفرمه حين يقف أمام الحاج سالم وقد عاد غائباً.

أشار لها مساعد الإنجليزي الذي كانت تربطه بعليّ صلة نسب من ناحية أمه أن يتبعها، وما إن أصبحوا بعيدين حتى طلب عشرين ديناراً، قال إنه سيدفعها للإنجليزي الذي اتفق معه على ذلك.

التفت إليه عليّ وقال: تريد عشرين ديناراً!! وأنا لا أريد أن أدخل صفوف البوليس من الأصل.

وقبل أن يصل الباب قال له المساعد: كنت أعتقد أنك أنت، لأنهم لن يقبلوا ناجي في البوليس حين يعرفون من هو.

- ولماذا؟

- لأنه ابن خالد الحاج محمود، هل نسيت!!؟

- رغم ذلك سأذهب.

أوقفه المساعد من جديد.

قال ناجي: أنت تعرف أننا لن نملك عشرين قرشاً وتطالبنا بعشرين ديناراً.. وأنا سأبغ.

- لا، دخيلك! أعرف. ستضضحتني في البلد. ابتق، الله يمؤّض عليّ، سأدفعها من جيبي!! قال المساعد. ثم التفت إلى عليّ وناجي، تأملها طويلاً، ثم قال لها: ليعطني كل واحد منكيا حوته.

راح يحدّق في الحوتين، ثم قال: أظن أنني وجدت الحل، فالشبه بينكما كبير.

- ما الذي تفكر فيه؟ سأله ناجي.

ناول ناجي حوته عليّ، وناول عليّ حوته ناجي. وقال: هذا ما أفكر فيه.

- وهل تعتقد أن ذلك سينجح؟

- لقد فعلتُ ما عليّ، وبالبقي على ناجي، الذي عليه أن يتذكّر منذ الآن أن له اسماً واحداً هو عليّ، عليّ سالم الحاج محمود.

بعد ساعتين حضرت سيارة عسكرية، طلبوا من ناجي الصعود إليها، ظلّت تسير إلى أن وصلت منطقة البضة بيافا، نزل، فوجد مشات الرجال ينتظرون على الرمل لحظة الاختيار.

- هل كان يريد اللعين عشرين ديناراً ليرسلنا إلى امتحان آخر!!؟ قال ناجي لنفسه.

بدأ الأمر بفحص نظر المجندين. تأملت الممرضة صورته في الموية ثم حدثت في وجهه فتغير لونه للحظات، لكنه تذكر ما عليه من مسؤوليات، فمأسك. سألته: هل تستطيع أن ترى الإشارات جيداً يا علي؟

- بالطبع. قال لها. وقد بات سعيداً لأنها لم تكتشف شيئاً.

قالت له: اجلس على هذا الكرسي إذن.

أسس الكرسي، حملته، وظل يسير به حتى أصبح خارج الغرفة.

- ما الذي تفعله؟

- سأثبت لك أنني أرى الإشارات حتى عن هذا البعد.

لقد عاد ناجي القديم إلى نفسه. ضحكك: لن ترى شيئاً وأنت بعيد إلى هذا الحد.

لكنه فاجأها ونجح، سنة على سنة، كانت قوة نظره.

- لم أر شيئاً كهذا من قبل. قالت. وأضافت: أسسك علي، صحيح.

- أجل.

- لن أنسى هذا الاسم!

كان الأمر يحتاج إلى معجزة أخرى، وقد حدثت.

أدخلوا المجندين إلى قاعة كبيرة لإجراء الكشف؛ واحداً واحداً.

القائفة الأولى التي هزمت، هي أن عليهم أن يخلعوا ملابسهم كلها كي لا يدمرهم أمهاتهم. وقد دفع هذا الأمر بعضهم إلى الهرب! أحس ناجي أنه الوحيد الذي لا يستطيع الهرب من امتحان كهذا مهما فعلوا به، وأن عليه أن يقوم بها عليه، أما النتيجة فهي قدره الذي لا مجال لمعرفته في تلك اللحظات.

لم يكن قد تبقى بينه وبين الطبيب سوى مجند واحد. راح يفكر بالطريقة التي سيخلع فيها ملابسه، هل يبدأ بالبنطال الذي لبسه خصيصاً لهذه المناسبة، أم يبدأ بالقميص: سأبدأ بالقميص، هل الأقل لن أكون مضطراً فيها بعد خلع البنطال بجانباً!

بقوة، طرّق أحدهم الباب، وقال بلهفة: دكتور. هناك سيارة للجيش دهست طفلة وبطلونك فوراً. نهض الطبيب بسرعة، وغادر القاعة. أشاروا لمن نجح أن يتبعهم، وكانوا قد طلبوا ممن رسبوا المغادرة أصلاً. ولأن ناجي في الداعل، ذهب مع التاجحين، هكذا بسهولة.

الذي حتره، أن حوادث الدُخس كانت نادرة، نادرة تماماً، ولذا أمضى الأيام الثلاثة التالية يحاول معرفة شيء عن أخبار تلك الطفلة التي كانت سبب نجاحه، دون جدوى.

وضع المجند الذي يقف في مقدمة الطابور يده على القرآن، في حين وضع الثاني يده على كتف الأول، وهكذا حتى نهاية الطابور:

(أقسم أنني لن أخون حكومة بريطانيا وأن أخدمها بإخلاص وأكون مخلصاً في عملي وصادقاً في وطني وألا ألتجئ إلا للحق).

عندما انتهوا حللوا ملابسهم العسكرية التي وضعوها في صناديق ورُعت عليهم: يتطابق صيغتين وقميصين، بنظاًل شتوي وقميصاً مثله، بالطول، وحذاء عسكرياً.

دخل ناجي الثكنة، اكتشف أنه سيكون الوحيد بين واحد وثلاثين مجنّداً هندياً، أزعجه الأمر، بعد قليل حضر شاب فلسطيني، فرّخ، تعرّف إليه، كان اسمه سامي عطية، سأله عن قريته فقال: إنه من شُغْفَاط. وقال له: وأنا علي، وينادونني في القرية ناجي! وهذا ما سبقوله كلما طلب أحد منه معرفة اسمه.

لكنها رغم ذلك، أحسا بغربة وسط كل هؤلاء الناس الذين لا يعرفونهم ولا يستطيعون التحدث معهم.

لم يكونا قد استراحا بعد كل سريبريا حين تقدّم منهما ذلك الشخص الطويل العريض الأنف بجعل، اتحنى وتناول علبة سجائر سامي عطية، أشعل سيجارة، ثم مضى حاملاً العلبة، وبدأ بتوزيع ما فيها على زملائه.

في الأيام التالية أدهشهم ذلك الرجل الطويل العريض بقدرته الهائلة على العزف على آلة تشبه الناي، حتى نسوا أنه أخذ علبة السجائر. لكن تلك الدهشة تراجعت شيئاً فشيئاً حين عاد للتحرش بهما من جديد.

جاء وأشار إليهما: منذ اليوم ستكونان مسؤولين عن تنظيف الثكنة وحمايتها.

عند الظهيرة طلبوا من المتدربين الفلسطينيين الالتحاق بدورة اللغة الإنجليزية، اجتمعوا في قاعة كبيرة مخصصة للمحاضرات، وبعد قليل دخل معلم أرمني. كان الهدف من الدورة تمكينهم من التعامل مع المسائل البسيطة التي لا بد منها، كالأوامر وما تحتاجه نوبات الحراسة من مفردات.

شعر كثير من الجنود والمتطوعين بالزلزال، فتدافعوا راكضين، ولم يكن الشاهد يحتاج إلى شرح، فصدر قرار بمحاكمة الجميع. وانقسم المعسكر إلى قسمين: الهنود في جهة والفلسطينيون في الجهة الأخرى، وتساعد التوتر بحيث غدا إنهاء المشكلة مطلباً للإيجاز.

لم يكن مستر (كوبن) مدير المعسكر راضياً عن الحكم الذي أصدره، ولكنه كان بحاجة إلى إقفال هذا الباب. فكان أن حكم على الجميع بأن ينطلقوا المعسكر على مدى أسبوعين. كما تقرر معاقبة سامي بحسم عشرة أيام من راتبه الذي لم يسبق له أن استلمه. ومعاقبة ناجي بتكليفه بحراسة بوابة المعسكر عشر ليال متتالية. في اليوم التالي تدخل المدرب الفلسطيني: عبد النعم، وكان برتبة ملازم وأصلح بين الهنود وسامي وناجي. لكن ذلك القرار الذي اتخذ ماستر كوبن سيفتح باباً سهلاً عبره رياح شتوية لم تحطر بباله من قبل!!

جلس ناجي إلى جانب سامي عطية. كتب المعلم على اللوح كلمة (Photograph)، فهمس سامي الذي كان قد تعلم القليل هنا وهناك: ما هذا، سيدأون من هذا المستوى البسيط، إنها كلمة فوتوغراف!

- سأل المعلم من يستطيع قراءة هذه الكلمة.
- لا ترفع يدك أنت. قال ناجي لسامي. وأجاب قبل أن يسمح له المعلم (فوتوغراف)!!

- هل يعرف أحد آخر قراءة هذه الكلمة؟
- هذه من الكلمات البسيطة، يجب أن نعلمنا ما هو أفضل من هذا! قال ناجي.
- اصمت أنت. أمره المعلم.

وهكذا تواصلت الدروس، كلما كتب كلمة أو جملة رفع ناجي يده، وعندما يقول له المعلم: اصمت أنت. وستنتهي الدورة، وينجح ناجي، وجملة الأستاذ تتردد في اليوم عشرات المرات: اصمت أنت.

حين عادا للثكنة، وجدا أن الهنود قد جهّزوا لها مستلزمات التنظيف كلها.
- إذا سكنتا (سيركيوتا) غداً. قال لسامي عطية.
- وما الذي يمكن أن نفعله؟
- سنتنظّر دخولهم جميعاً إلى الثكنة، وبعدها سأقول لك.

حين دخلوا جميعاً، خرج ناجي، وطلب من سامي أن يتبعه، قال له: أترى طوب أحواض الورد هذه، أريد منك أن تناولني إياها طوبة بعد طوبة، ما إن أشير إليك، واترك الباقي على.

أسك ناجي بعضاً مكتسة، وضعها خلفه على الحائط قرب الباب، أشار لذلك الرجل الطويل العريض أن يتقبل، وعندما وصل استل العصا وضربه بها على رأسه مباشرة ففار الدم، وقبل أن يدرك الرجل الكبير ما يدور ضربه ضربة أخرى فانكسرت العصا، تراجع ناجي خمس خطوات وقد ثار الرجل الكبير وتقدم هاتجاً، وعندما نادى: سامي. ناولني الطوب، وما إن أسك بالطوبة الأولى حتى تراجع الرجل الكبير إلى الداخل هارباً، فرماه بها، وظل يشذّطهم بالطوب حتى لم يبق هناك واحدة، وقد اضطروا للاختباء في الركنين البعيدين للثكنة.

ارتبك محمود: ولماذا ليل؟؟؟ فقالت: لأنني أحب هذا الاسم. قال: أي اسم إلا هذا؟ فقالت: عليك أن تختار إما أنا وهذا الاسم أو غيرنا!!
أدرك محمود أن حكايته مكشوفة كراحة اليد بالنسبة لعفاف. ولكنه راح يردد:
لعلها مصادقة، كيف يمكن أن تعرف ما دامت لا تعرف القراءة على أصوغا!!

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أحزان عفاف

قبل مولد ابنته الأولى بشهور وصل محمود إلى الهادبة في واحدة من زياراته النصف شهرية، التي ستغدو شهرية بعد عامين وفصلية بعد ثلاثة أعوام ونصف سنوية بعد خمسة أعوام، زيارته، التي لم تعد تختلف عن أي زيارة تفقدية بقوم بها مسؤولا للمنطقة. فمتذ استشهاده والده بدأ يحس بالآشيء يربطه بالهادبة، ولم يعد يحس حساباً لعتاب أو غضب أحد، مثل طائر مربوط بخيط وأقلت، هكذا أصبح.

كانت عفاف تريد أن تفاجئه بأنها تعلّمت القراءة على أصوغا، كانت تريد أن تؤكد له أنها تعلمت لأنها تريد أن تتعلم لا لأنها مجبرة على ذلك، كانت تريد أن تقول له أنها نجية، وأنها ليست أقل من زوجة صحفي محترم.

حين أسكتت بشيابه لتعلّمها، أحسّ بشيء ما في جيب بنطاله، كان الأمر أشبه بوعزة لم تعرف إن كانت أصابتها في يدها فعلاً أم في مكان غامض في نفسها لا تعرفه، مدّت يدها وأخرجت ما في جيبه، كانت ورقة مطوية بعناية، أخرجتها، قرأها، كانت رسالة من امرأة في يافا، عرفت عفاف أنها كاتبة أيضاً، فهي تتحدّث من كتابها الذي تريد أن تنشره قريباً، وتطلب من (حبيبها) محمود أن يختار عنواناً للكتاب (لأنه سبق وأن قرأ كل ما فيه).

جُثّت عفاف، أوشكت أن تصرخ في وجهه: من ليل هذه؟؟؟ لكنها استطاعت بحم غضبها؛ فجأة فقدت تلك الروح التي كانت تريد أن تقول له فيها: أنظر ها قد تعلمت القراءة. صمتت، وقررت أن تواصل حياتها معه كجاهلة تماماً، جاهلة نسب كل ما تعلّمت من قبل، جاهلة برأس فارغ وعمياء، فكّرت أن تلقي الرسالة في وجهه، لكنها في النهاية لم تجد وسيلة أفضل من أن يجعله يعرف بأنها تعرف إلا أن تقول له: ما دُثنا رُزقنا بابتة فسأستبها ليل.

الليلة البيضاء

نوقفت سيارة على بعد مائتي متر من باب بيت الحاج سالم، نزل منها شخص واحد، سأل أول من رآه عن بيت الحاج سالم، وقد كان يعرف أنه قد أصبح شيخ القرية، منذ أن جاء لتقديم العزاء بالحاج خالد، ظل يسير يتناقل إلى أن وصل طرق الباب خرج الحاج سالم: عرفه.

- الأب إلياس!!

- أخفض صوتك. هذه الأشياء كلها لكم. لقد سمعتُ بها قيام به الكثير. يؤسفني أنني لم أعرف بهذا إلا متأخراً. ولكن ما أثبت به سيحلّ لكم المشكلة من جلودها. هذه هي كواشيتكم ووشاتكم. كان من المفترض أن تلتفها الأب ثيودورس بعد عامين أو ثلاثة من وقف المطالبة بها. لكنه لسبب ما لم يفعل.

- ولكن لماذا فعلوا ذلك بنا، لقد أمناهم على حياتنا؟ سألته الحاج سالم بحيرة.

- هذا المدير كأديرة كثيرة موجودة هنا في بلدنا وموجودة في بلاد أخرى من

أفريقيا إلى الهند، لا علاقة لها بالدين، إنها لا تختلف عن الديانة في شيء ولا عن المدفع الرشاش الذي، حين ينطلق رصاصه، لا يكون له إلا هدف واحد، أن يصد كل ما حوله. أرجو أن يكون باستطاعتني أن أسحب الخنجر الذي غرزوه في ظهوركم دون أن يتدفق دم كثير، أما منولي فلا تستهينوا به، لقد عرفته قبل أن أتى إلى هنا، وقابلته في اجتماعات كثيرة، إنه أكثر تعصباً من أي كائن عرفته في حياتي. وعندما قالوا إنه ذاهب إليكم قلت: فليرحم الله الهادية لقد أتاها الجحيم!!

الليلة السوداء

لم يدرك ناجي أنه ولعشر ليالٍ سيعيش داخل مصيدة. فلم يكن قد نجا أحد من قبل من مستر كوجن الذي يفتن في اختراع الطرق التي يتبعها لضبط الحراس متلبسين بإغفاءة أو غارقين في نوم.

- أنت، ومنذ الآن، محكوم عليك بحسم راتب عشرة أيام فوق عقوبتك الأولى. قال له ربحي المحمود الذي وصل المسكر قبله بشهرين.

- ولماذا؟

- كل من ذهب للحراسة وقع في فخ مستر كوجن. لم ينج أحد أبداً.

من منتصف الليل حتى السادسة صباحاً يمتد زمن الحراسة. قرر ناجي: لن يفرّج مستر كوجن هذه المرة.

بعد ساعتين من بده المناوبة أحس أن عليه إعادة الاعتبار لكل أولئك الذين عاثوا بسبب هذا المدير.

عتمة بلا قمر، أصوات حشرات الليل، المحركات التي بهلر في البعيد، خشخشة الأعشاب الطويلة الجافة، يد الريح التي تتحرك متوجّهة في الفضاء القنوج، كانت تدعوه لأن يستريح ويهدده كي ينام.

كان يسمع صوت باب مستر كوجن يُفتح، فيتحوّل جسده إلى كتلة انتباه، يُطلق أذنيه تنتحسان نبض العتمة، وعينه تنقبان جدارها الأسود الرهيب، تستيقظ كل حواسه التي يعرفها، وحواسه التي كان يملكها ذات يوم قبل آلاف السنين.

- ها قد وصل مستر كوجن. يهمس لنفسه. ويُشهر سلاحه طالباً كلمة الشر، لكنه يُفاجأ بكلمة مستر كوجن وحدها.

في الليلة الثالثة سارت الأمور في اتجاه آخر، فعند الرابعة صباحاً فُتح الباب، فرأى ناجي مستر جيمس يتسلل نحوه متجهاً، لم يأت نحوه، دار حول البيت؛ الكلية أمامه، اختفى، وعندما ظهر من الجهة الأخرى كان يسير على أربع.

تحفّر ناجي.
وما إن اقترب حتى صاح به ناجي: مكانك. كلمة الشر.

وصاح ثانية، لم يجيب أحد.
وضع الطفلة في بيت النار. فجاء الصوت عبر الأشجار الجافة: لا تطلق النار.

أنا مستر جيمس.
هاتنذر أب. ارفع يديك.

رفعها.

إلى اليسار. أمره أن يسير. فسار.

إلى اليمين. أمره. فسار. وكان هنالك حقل شوك.

توقف مستر جيمس على حافة الحقل رافضاً السير؛ صرخ: أنا مستر جيمس.

فكّن جيمس!! ثبأ جيمس. في الليل أنا لا أعرف مستر جيمس من سواء، أعرف من يحفظ كلمة الشر.

راح مستر جيمس يطلق الشتائم دون توقف وبصوت عال، في الوقت الذي راح فيه ناجي يشتمه مستخدماً كل الشتائم التي يعرفها بالعربية. إنها المرة الأولى التي تتاح له فيها فرصة شتم عسكري إنجليزي، استغلها إلى أقصى الحدود!!

ثاني لتضبطني هنا. سأريك!!

أنا جيمس.

لا، أنت حرامي. انبطح أرضاً، ازحف.

استلقي وزحف.

انقلب على ظهره.

انقلب.

بعد أن اكتمل ناجي، صاح: فولن حرس!! إلخفوني!!

وما هي إلا لحظات حتى تراكض الحراس وقتلهم.

كان مستر جيمس على الأرض يرتجف ويشتم دون توقف.

أبعد البندقية، إنه مستر جيمس. قال قائد الحرس لناجي.

- أي أم شورى!! أنا أسف، لن أرفع سلاحي إلا حين أراه في ضوء التكنة وأؤكد من أنه مستر جيمس فعلاً. مستر جيمس عسكري، وهذا ليس عسكرياً تريباً أصبح لون القاذبة البيضاء التي كان يرتديها، وكذلك بتطالعه القصير وحذاء الرياضة الخفيف.

عبثاً حاولوا إقناع ناجي.

- إذا لم أؤكد من ذلك فسأقتله هنا.

- وهنا وجد الجميع أنفسهم مضطربين، للموافقة طبعاً!! لأن الحارس يملك الحق في أن يتصرف ويعمل ما يراه مناسباً!!

وقف مستر جيمس، سار أمام البندقية المشرعة، وصلوا التكنة المضادة.

- أدر وجهك الآن حتى أراك.

استدار مستر جيمس، وقد تغفّر وجهه غيلاً.

أزّل ناجي البندقية، ثم رفع يده بالتحية العسكرية بانضباط شديد: أنا أسف مستر جيمس. أي أم شورى.

- وط، أي أم شورى، فك يو ناجي. ثم التفت إلى رئيس الحرس وقال: ضعه في الزنزانة.

سار ناجي أمام قائد الحرس، وفي منتصف المسافة بين التكنة والمبنى الذي توجد فيه الزنزانة توقف. أمره قائد الحرس بأن يتحرك، رفض.

- أنا لست مجرماً لكي أساق إلى الزنزانة، إنني أرفض هذا الأمر. فإما أن أذهب إلى مكتبي وإما أن أعود إلى موقعي لأكمل الحراسة، إذا أراد أن يهاكمني فليفعل!

عاد قائد الحرس إلى مستر جيمس وأخبره بما قاله.

- دعوه، إنه عنيد، كان يمكن أن يقتلني فعلاً ليكمل المناوبة، وفي الصباح سترى. قال مستر جيمس.

أخبروا ناجي ظهيرة ذلك اليوم أنه سيحاكم صباح اليوم التالي. أخبر رفاقه المفود في التكنة، فقال له الرجل الكبير: لا عليك. وي نو مستر جيمس. نحن نعرف مستر جيمس. قال له الرجل الكبير الذي لم يزل آثار جرح في جبينه.

- وما العمل؟

- نحن نعرف ما علينا أن نفعله.

أخذ أحدهم بسطار ناجي ونظفه، ظلّ يعمل عليه حتى حوَّله إلى مرآة! وكوى آخر البدة الكاكي، وغدت قبة القميص بأبسة كخشية. خلَّق ناجي ذقنه ثلاث مرات، وعانته، ونظف شعر مؤخرته، كما أوصوه، غيرَ ملابسهِ الداخلية، قَصَّوا أظفارَه، نظَّفوا أذنيه، وألبسوه بدلته، وحين همَّ بأن يجلس، صرخوا جميعاً: لا! عليك أن تذهب إلى هناك وكل شيء فيك مستقيم كحد السيف!! ظلَّ واقفاً إلى أن حضرت العربية العسكرية، سار حتى وصل باب الثكنة، وحين هم بأن يخطو الخطوة الأولى خارجها صاحوا: لا!! فتوقَّف في مكانه.

حلوه من باب الثكنة إلى داخل السيارة حتى لا يَعبُرَ الحذاء.

- هكذا تكون معظمتين.

وعندما وصلوا إلى المكان الذي سيُحاكَم فيه، حلوه من السيارة إلى عتبة الباب أيضاً.

في الداخل وقف ينتظر. بعد قليل دخل عدد من الضباط والفُتُولوا أماكنهم، بينهم، جلس مستر جُون.

خلع ناجي الطاقية والخزام العسكري وأدَّى التحية.

لم تكن الكلمات الإنجليزية البسيطة التي يعرفها كافية ليفهم ما يدور فكلَّفوا الملازم عبد النعم بالترجمة.

- لماذا فعلتَ ما فعلته معي؟ سألَه مستر جُون.

- قل لمستر جُون، إن هذا العسكري يقول لك، لقد كتبَ الله لك حياة جديدة، لولا رحمة الله لكنتُ قتلته. فأَنْ يأتيني شخص بملابسٍ داخلية ويمشي على أربع في آخر الليل، ولا يقول في كلمة الشر، فلا يعني هذا سوى شيء واحد. إنه مشتلٍ قادم لنسف المِسكر!! وربما يكون قادماً لاختيال مستر جُون شخصياً! فكيف يمكن لي أن أسمع بذلك وأنا حارس مستر جُون!!

تغيَّرت ملامحُ مستر جُون ما إن سمع ترجمة ما قاله ناجي. أسند ظهره للكرسي: فعلاً، لقد كان هذا الحارس قاتلاً في تلك اللحظة، لقد أحسستُ أنه لم يعد بيني وبين رصاصته سوى صوت انفجارها.

- قل لمستر جُون، إنني كنتُ على وشك أن أقتله، ولم أكن أخالف القانون في تلك اللحظة بل كنت أنفذه!

نهض مستر جُون من مكانه، اقترب من ناجي حتى أصبح أمامه تماماً، حدَّق في وجهه: ماذا كنتَ تعمل في بلدكم؟

- عندما يبلغ الصبي السابعة من عمره يخرج بالبقر والغنم إلى السهول والسهول ويتام هنالك مع القطعان لأيام طويلة؛ نحن لا نخاف الليل، وأنا على استعداد أن أسهر ليلاً على بابك، ولن تستطيع أن تمسكني نائماً.

ابتعد مستر جُون خطوتين ثم حدَّق في بسطار ناجي، وجَّده يلمع.

أدرك ناجي أن التفتيش الشخصي قد بدأ.

دار مستر جُون حوله، نظر إليه من الخلف، وضع نظارته، اقترب من وجهه، رفع يده تحسَّ ذقن ناجي، تأكَّد من نعمته، همَّ رأسه! امتدَّت يده حتى أزرار البطال، فتكَّوم البطال فوق الحذاء اللامع. حلَّ أزرار القميص، تأكَّد من نظافته، ملأه الداخلية، أمسك أذنه اليمنى سحبها قليلاً وحدَّق خلفها وفي داخلها، استدار إلى أذنه اليسرى وفعل الشيء نفسه. همَّ رأسه ثانية! تراجع خطوة، حدَّق في الكلسون، أمسك بطرفه، جذبته، وحدَّق في داخله حيث العانة، وهمَّ رأسه ثانية!! ثم أمسك بيده وتقلَّد أظفارَه، وهمَّ رأسه.

عاد مستر جُون إلى مكانه بعد أن أشار إليه أن يسوي وضع ثيابه، أسند ظهره إلى الكرسي ثم قال: تستحق أربعة عشر يوماً.

ارتبك ناجي وهو يسمع ذلك.

- ما هذه الأيام الأربعة عشر!!؟

- إجازة. رد المستر جُون. فأثت من الرجال الذين أعشُرُ بهم، ورغم هذا العذاب الذي ذقته على يديك.

كانت فرحة الفئود في الثكنة أكبر من فرحته، أحسَّوا أن ناجي كان فريقهم الذي يشجعونه، فريقهم الذي فاز.

ولن تُمرَّ أيام طويلة، حتى تكون هناك مفاجأة أخرى بانتظار الجميع.

كان أول شيء فعله هو تغيير الأماكن التي كان يرتادها واستبدالها بأماكن أكثر رقباً. وهكذا أصبح يمضي وقته في مقهى ليون ومقهى بريستول اللذين كانا ملتقى التجار ورجال الأعمال. في البداية كان يمضي إلى هناك يتجمل، ويوما بعد يوم، بدأ أكثر ثقة، مع شيوخ خبر توليه منصبه الجديد، كما أن كرمه الواضح جعل العاملين في المقهيين يمنحونه اهتماماً أكثر من خاص.

كل شيء يشتري في بالا حتى الاحترام.

وفي بعض الليالي، صار يمضي إلى ملهى غنطوس ولورنس وعبد المسيح التي كانت مزيجاً من المقاهي والملاحم، أقرب إلى الأوروبية منها إلى الشرقية، وحين كان يصل إليه خبر عن زيارة أحد الفنانين المصريين المشهورين، الذين يأتون لتقديم عروضهم في المدينة، أو ينزلون فيها في طريقهم للبنان عبر فلسطين، كان يذهب إلى الفندق أو المقهى الذي يمكن أن يكونوا فيه لمجرد مشاهدتهم لا غير.

وبات يحس أن ليل أصبحت أكثر قرباً منه، ليل التي ما إن سمعت بخبر منصبه الجديد حتى دعت به فرح، لأول مرة، للتعرف إلى أهلها.

لكنه رفض. ما الذي يقوله لهم حين يلقاهم: لدي زوجة ولدي أولاد؟!!

قال لها: سأذهب للسبيا.

غضبت: أدهوك لزيارتنا فنقول سأذهب للسبيا.

حين خرج من فيلم (لن تفرح الأجراس) كان على يقين من أن أنغريد بيرغيان، قد أطاحت بغيرتها غاروب عن العرش. كان وجهها الأكثر صفاءً وعذوبة من بين كل الوجوه التي رآها على الشاشة من قبل، لكن الشعور الغريب الذي انتابه فجأة هو أن ليل لم تكن تشبه غريتا غاروب في أي يوم من الأيام، لأنها لم تكن تشبه إلا أنغريد بيرغيان.

يوم جديد

طلبه رئيس التحرير، ذهب لمكتبه، قال له: أستاذ محمود، أظن أنك قد فعلت الكثير منذ وصولك إلى هنا، وقد أثبتت بجهودك أنك قادر على تحمل مسؤوليات أكبر، ولذلك قررت أن أعينك سكرتيراً لتحرير الصحيفة، وأن أرفع راتبك عشرين جنيهاً، ما رأيك.

لم يجد محمود الكلمات المناسبة، بانفعال كبير قال لرئيس التحرير: شكراً. وخرج.

- إلى أين؟ تبعه صوت رئيس التحرير.

- إلى مكنتي!

- مكنتك لم يعد على الشال، مكنتك على اليمين. هناك.

لم يكن المكتب غريباً عليه، ولو ترك له الأمر لفضل العودة إلى الغرفة التي عمل فيها دائماً، إذ كان المكتب الجديد معناه دائماً، كما أن مدى نافذته المفلق بجدار اسمتي ينتصب على بعد مترين لا أكثر، يجعل المكوث أمراً معذباً، وبخاصة في أيام الصيف، حيث ترتفع الحرارة والرطوبة ويصبح العشور على نسمة هواء أمراً لا يوازيه شيء حتى منصب سكرتير تحرير.

لقد أدرك رئيس التحرير بلفظته أن وجود اسم محمود خالد الحاج محمود على صدر الصحيفة بمثابة وسام كبير، وسبق صحفي سيظل يتجدد كل يوم، سبق صحفي لن يستطيع أحد انتزاعه منه؛ ولن يمسر الكثير من الوقت قبل أن تبدأ الصحيفة بحصد خبرات ذلك الاسم بما يفوق كثيراً العشرين جنيهاً التي مُنحت لمحمود كعلاوة.

أشياء كثيرة تغيرت منذ ذلك اليوم.

- ليس لك أفضل من معتقل عوجا الحفير في صحراء النقب هناك لا يوجد أحد؟

- صحيح أنني طلبت من سعادتك أن تحبسوني ولكن لا أريد أن يكون السجن حقيقياً إلى هذا الحد؟

- أتعتني مستر هاشمي، هل هناك سجن ما في ذهنك؟

- ربما سجن عكا يكون مناسباً. ما رأيك؟

- أنت تأمر مستر هاشمي، متى تريد أن تأخذك إلى هناك، ومن أين؟

- غدا صلاة الجمعة، أظن أن اعتقالي أمام الجامع الكبير هو الأنسب.

- تعرف أنني أحب الابتعاد عن أماكن العبادة، فالأمر حساس دائماً في أسود كهذه، ولكن بما أنك أنت الذي تريد ذلك، ليس هناك مشكلة!!

- أشكر سعادتك؟

- هل يكفيك أسبوعان، أم نجعلها ثلاثة أسابيع؟

- ثلاثة أسابيع أفضل. أنت تعرف، ما حدث في الفترة الماضية لن نحموه حتى ثلاثة أشهر.

بعد إلقاء القبض عليه بصمت، دون اعتراض أحد، طلب من الضابط المكلف بذلك أن يأخذه لبيت، كان قد أعد الحقيبة المملئة بالماليس قبل ذهابه للصلاة، مرّ بالبيت تناوفاً على عجل، توجهت السيارة إلى محطة القطار، طلب من الشاويش المرافق له أن يفك قيوده ما إن اتخذوا مقعديهما في القطار، استجاب لطلبه، وحين وصلا عكا طلب من الشاويش أن يسمح له باستئجار حافلة لأن الحقيبة ثقيلة كما أن السجن بعيد عن المحطة، ولا يمكن الوصول إليه إلا بعبور أسواق المدينة، فوافق له: ولكن ستدفع أجرة الحافلة من جيبيك. قال له الشاويش.

كانت الفرقة قد جهزت قبل وصوله، سار معه أحد الضباط حتى بابها، ألقى الهاشمي نظرة عليها، كانت مثالية فعلاً، لا ينقصها شيء، ولم ينسوا أن يضعوا فيها مذياعاً وهاتفاً. طلب منه الضابط بعد أن يستريح أن يمر على مدير السجن لأنه ينتظره.

شدّ المدير على يده بحرارة وغنى له إقامة طيبة، قال له: إن الموانئ لم تنتطع، وقد أوصاني حاكم اللواء بتقديم كل ما تحتاجه. ولذا أقول لك إن مكتبي تحت تصرفك في أي لحظة.

خمس نجوم

فكر سليم بك الهاشمي يحل بخرجه من تلك الفضائح التي تطبق عليه من كل جانب، لم يكن الناس قد توقفوا عن الحديث في تفاصيل تلك السهرة، فالكثير من أعدائه ومتابعيه كانوا هناك، ثم راحت حكاية تكليفه لأبيه بالدفاع عن قضية الهادية تنتضح أكثر فأكثر، بمجرد أن تسلمها المرزوقي، وتحدثت الصحف عن وطنيين في النهار وسياسة أراض ونجار في بيت المندوب السامي في الليل. قرر أن يتصل بحاكم اللواء، قالت له زوجته: ما تفكر فيه جنون ليس إلا. ووافقها ابنه أنس.

- مشكلتكما أنكما لا تنتظران للبعد.

- أظن أنني في أمس الحاجة لسعادتك هذه الأيام. قال لحاكم اللواء.

- وما الذي لم تقدمه لك حتى الآن؟

- تعرف أن أمثالي بحاجة دائماً لشقة الناس. وأظن أن نيلنا ثقتهم بفرح سعادتك.

- وكيف لي أن أقوم بما عليك أنت القيام به مستر هاشمي؟

- احبسونا أكرم من يوم!!

- أعذربي مستر هاشمي، لم أفهم؟

- أريد أن تصدر أمراً بحجبي، أسبوع أسبوعين، وكما نقول نحن (أنت وكرمك)!!

- فقط هذه. أنت تأمر. مستر هاشمي. هل تفضل سجننا بعبته؟

- أظن أن سجننا بعيداً عن هنا يمكن أن يكون أفضل.

- المسكوبة في القدس جيد؟

- لا. يفضل أن يكون أبعد، أنت تعرف القدس ممتلئة بالمعارف!

- عليّ أن أحذركَ مستر هاشمي، هناك كثير من الناس الذين يمكن أن يعرفوك، أريدك أن تكون حذراً.
- اطمئن. سأفعل. كما سأفعل حين أذهب للمطار وأعود منه.
- أتريد السفر أيضاً؟!
- ساعات قليلة، أقل من نصف يوم، أذهب فيها إلى القدس وتل أبيب بالطائرة، وأعود.
- لم تكن مضطراً للقدوم إلى السجن ما دامت أعمالك كثيرة إلى هذا الحد.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

لم يكن يزعمه خلال فترة وجوده في السجن أكثر من تذكُّره للحقبة اعتقاله التي تمت بهوء شديد: لم يتحرك أحد من أولاد الحرام، حتى أولئك الذين كنت اعتقد أنهم أصدقائي!!

وفي أحيان كثيرة كان يسيطر نفسه بفكر بصوت عال: أولاد الحرام لا يصدِّقون أن أمثالي يمكن أن يكونوا مطلوبين للحكومة، والذين يقولون إنهم أصدقائي يعرفون أن الوسام الذي يُعلّق على صدرى منذ حقبة اعتصالي يُستترع من على صدورهم.

لكنه اكتشف في السجن أنه كان بحاجة لتلك الفترة، للاعتناء عن كل شيء. في الأيام الثلاثة الأولى كان يتناول طعامه على مائدة مدير السجن نفسه، بلعبان بعد ذلك الشطرنج إلى ساعة متأخرة، ثم يمضي إلى المكان المريح الذي خصصوه له، وفي اليوم الرابع اكتشف أن ثلاثة أيام في السجن ليست مسألة بسيطة حتى لو كنت تتناول طعامك مع مدير السجن نفسه، مدير السجن الذي باغته بذلك السؤال: صباح غد ستعقد النين من (المُصفاة)، إذا كنت مهتماً بمشاهدة ذلك أخبرني منذ الآن كي أرسل إليك من يوقظك باكراً.

- كان يوذي فعلاً، ولكني لا أحب أن أبدأ يومي بمشهد كهذا. ربما لو كانت عملية الإعدام ستتم عصراً لخيرتها.

- يمكنكني ببساطة أن أغير الموعد بحيث يكون مناسباً لك.
- أقدر لك ذلك كثيراً. لنفم يا هو عليك، ولأفم يا علي: أن أستريح.
- لم أكن أعرف أن قلبك ضعيف إلى هذا الحد!!
- كأنك تتحدّثني؟!
- لا. أبداً.

- حتى تعرف أي قلب هنا في هذا الصدر، سأحضر تنفيذ الإعدام وصباحاً أيضاً.

- هذا هو مستر هاشمي الذي تُقدِّره.
- بعد ساعة من تنفيذ حكم الإعدام، قال للمدير: سأفادر اليوم!
- هل تريد العودة لبيتك؟
- لا، فقط أريد أن أنزل إلى المدينة، أتموّل هناك قليلاً وأعود.

دخل المدرب عبد المنعم بعد عشر دقائق، وقف في مكان مناسب بحيث يراه الجميع، قال: سأقول شيئاً، لكنني غير مطمئن أنه سيُنفي إلى نتيجة!
انتبه الجميع.

- أريد أن أقول إنني فقدتُ هويتي العسكرية، وأرجو من وجدها أن يُلقي بها في الشارع، لا أريد أن يُعيدها إليّ مباشرة، وألتمس أن يكون ابن الناس الذي وجدها يسمع الآن هذا الكلام. وأنتم تعلمون أن عبد المنعم الذي جعل الإنجليز يستمعون له، يستحق أن تُعاد إليه هويته، هويته التي من العار أن تُضيع بينكم، وهو الذي يحكم كل هذا الحب.

ساد الصمت، حدّقوا بعضهم في وجوه بعض، وقف ناجي، قطع عدة خطوات، أصبح على مرأى من جميع المتدربين.

- عبد المنعم أفتدي! ناداه ناجي.
- نعم.
- إذا سمحت، صِفْ لي المحفظة التي فقدتها.
- أُوِّز وجهك إلى الشباب، قال ناجي.
أداره.

- ما الذي طلبته مني؟
- طلبتُ أن تعطيني أوصافَ محفظتك.
- أنا طلبتُ هوية فقط، وأنت تقول محفظة. هذا الشاب كما تسمعون يسألني عن أوصاف محفظة، أتسمعون ذلك، سأقول له: هناك ثلاث كباشات أحدها غلوع.

- وماذا يوجد في داخل المحفظة، نقود أو غير ذلك؟ سأله ناجي.
- اسمعوا يا شباب!! إنني يتحدثُ عن نقود، ويسألني عنها. في داخل

المحفظة اثنان وعشرون جنيهًا. عشرة، خمستان، وجنيهان.
- هذه محفظتك إذن، وهويتك ونقودك في داخلها. قال ناجي.

- أشكرك على أمانتك. أعترف، لم أسألك من قبل. من أي بلد أنت؟
- من الحادية.

- أحبيك وأحي روح الأمانة فيك، أحبي بلدك والأُم التي أرضعتك.
وصمت قليلاً، نظر إلى وجوه المتدربين ثم قال لناجي: منذ اليوم ستأكل في مطعم

الطيف

مضت أيام التدريب بتسارع غير عادي، فقد كان الزمن في الخارج يجري بسرعة لم تترك للأيام فرصة التناقل أنفاسها. وقبل أسابيع من انتهاء الدورة وقع ذلك الحادث الصغير الذي أوشك أن يُغيّر مجرى حياة ناجي.

بعد طابور الرياضة، كانوا يذهبون إلى المطعم لتناول طعام فطورهم، دخل ناجي إلى الحمامات، كانت صنابير المياه مترافقة، لا يفصل الواحد منها عن الآخر أكثر من نصف متر، فتح صنوبر الماء، بدأ بفصل يديه ووجهه، لاحظ أن المياه تتجمع في الممر الإسمنتي الصغير الطويل أسفل الصنابير، حاول تصريف المياه. محفظة صغيرة كانت تُغفل المجري. التحن، تناول المحفظة، رفعها، نقض الماء الذي عليّ بها، تلفّت حوله، لم يكن هناك أحد، فتفحها، رأى هوية المدرب عبد المنعم وفي الجانب المقابل نقوداً، أخرجها، كان هنالك اثنان وعشرون جنيهًا.

وضع ناجي المحفظة في جيبه وغرغ، وعندما وصل الباب راودته نفسه الاحتفاظ بها. فتح المحفظة من جديد، دخل حماماً. كان الباب قطعة خش، حديق في البلع. سمع صوتاً، وضع المحفظة في جيبه، أهدم قطعة الخش، أطلّ ليرى من في الخارج، وفجأة جاءت الصفعة قوية، كان أبوه الحاج خالد هناك أمامه، وقبل أن يتنطق أي كلمة كان أبوه قد اختفى.

راح يترجف، غادر الحمامات بسرعة نحو قاعة الطعام.

الشيء الذي تركه المدرب عبد المنعم عميقاً في قلوب الجميع، كان احترامهم ومحبتهم له، وقد وجد فيه الإنجليز مدبراً جيداً. رفعوه مرة بمنحه نجمة، ورفض، قال: نجمتين وإلا فلا. بعد مشاورات كثيرة أعطوه ما يريد.

ثمان وأربعون مجنّداً كانوا يسرون على إيقاع خطواته، ويستجيبون لرثّة صوته العريض.

الضباط، ومنذ الغد ستكون في رتبة مُدرَّب، ستحمل شريطين مؤقتاً، إلى أن تُرقَّع رسمياً، وهذه ثكنتي وخيمتي تستطيع أن تدخلها متى شئت!!
عندما سمع التدريب ذلك، راحوا يصفقون.

تغيَّر كل شيء في حياة ناجي، فالأكل الذي يُقدَّم للضباط كان يختلف تماماً عن ذلك الذي يُقدَّم للمتدربين، والأجواء التي تسود هناك كانت عالماً آخر. وفي موجة الاحتفاء به، حددوا له موعداً مع مدير المعسكر، عندما دخل عليه ناجي، ابتسم مسرَّحاً، ووقف وصافحه بقوة قائلاً: بظِّ وأمين!! سأكتبُ كتاباً يترجمُك كما أوصى مسرَّح عبد النعم. ثم التفت إلى عبد النعم وسأله: هل منحتهم إجازة، إنه يستحقها أيضاً.

لا.

إذن ليمنح إجازة مدتها أسبوع. وبعد تخرجه سيكون مُدرِّباً لواحدة من الدفعات الجديدة.

كانت عودته للبلد واحدة من المناسبات الكبيرة التي باتوا ينتظرونها، فقد راح ينقل هم ما تعلَّمه أولاً بأول، يبحث بدأوا يحمسون بذلك الفرق الكبير الذي سيغير مجرى حياتهم وحياة بلدتهم مستقبلاً.

سأله عمته سالم: لم تقل لي. كيف أحوالك هناك؟

إنها على أفضل ما يرام.

لا تتصوَّر كم أنا سعيد بأنك ستتعلم كل شيء وتعود لنا قريباً.

كان ناجي يهم بأن يقول لعمته كل ما حدث معه، ولكنه صمت فجأة.

وضع رأسه على المائدة، ولم يكذب ينهم حتى سمع ذلك الصوت: مستصح عريفاً في البوليس البريطاني ومدرباً؟

ارتبك ناجي: ولكن كيف عرفت ياها؟

كان الحاج خالد أمامه.

الناس مستعدون لدفع مائتي جنيه حتى يصبحوا مدربين ولا يتأخروا إلا خريج الثالث الثانوي!! قال ناجي. وبدأ يحدث فرحاً بما حدث.

صمت الحاج خالد، ثم راح يهرَّ رأسه بأسي.

ارتبك ناجي أكثر: شو في ياها؟

ياها، المُدرَّب لا يجب أن يجمل، ولذلك عليه ألا يكون ابن ناس! فإذا جمل وأراد أن يكون أديباً وابن أبيه فإنه لا يستطيع أن يُدرَّب أحداً، ما يحتاجه المدرِّب هو نسيان الأخلاق كلها، المدرِّب يشتم ويلعن أبناء الناس وأصوهم، وقد يصل به الأمر أن يمدَّ يده فيصم. فهل تستطيع أنت أن تفعل كل هذا بأولاد الناس!! إذا قلت لي نعم، فإني أقول لك منذ الآن، لا أنت ابني ولا أنا أعرُفك. اذهب إليهم نفراً عادياً، ربنا يرسلونك إلى جهنم، إذا كنت نسيت ما أرسلناك أصلاً من أجله!! ولكنك في جهنم تلك تكون إنساناً، أما أن تشتم الناس وتُدوس كرامتهم فهذا لن نقبله بأي شكل من الأشكال.

في لحظة واحدة، قلبت الآية، وانقلب رأس ناجي، انهارت كل قصور الأحلام التي بناها في خياله. استيقظ فرحاً. تلتفت حوله، لم تكن هناك سوى العتمة. لم يستطع العودة إلى النوم ثانية.

اشترى ناجي كنافة من (الرملة) التي وصلها بالقطار، وتوجَّه للمعسكر. كانت الفرحة بعودته كبيرة.

في ذلك اليوم، انطلقوا بتدريبن على الرماية من السيارات التحرك، استمرَّ التدريب حتى الظهيرة. حين مضى لطعم الضباط، جلس مقابل الملازم عبد النعم. بعد تناول الكنافة التي أحضرها والشاي، التفت لمدرِّبه وقال: يا عبد النعم أفتدي.

نعم.

أبي يهديك السلام!!

سَلِّمَ السَّلَام وحامله. خير إن شاء الله!

أبي يُسلم عليك ويقول لك إنه لا يرُضى أن أكون مُدرِّباً!

انتفض عبد النعم وقال: الله وأكبر! لماذا؟ هذا شيء لا يتصوره عقل. إن هناك من هو مستعد لدفع مائتي دينار حتى يصبح مدرِّباً.

إن أبي يقول، إذا ما أراد المدرِّب أن يُعلِّم الناس فإنه قد يضطر لضربهم وشتمهم، وأبي يقول إننا من عائلة ترفض إهانة إنسان.

صمت عبد النعم طويلاً وقد تركت الكلمات أثرها العميق في داخله ثم قال سأخذك إلى مسرَّح كجّون.

ذهبا إليه، نهض مبسباً، صافحه بحرارة وسأله كيف الإجازة؟

تمام مسرَّح كجّون.

- لكنه عاد حاملاً مفاجأة جديدة لنا. قال عبد المتعم.

- مفاجأة جديدة! ما هي؟

شرح له عبد المتعم الأمر من أوله إلى آخره، وتاجي يحدّق في وجه مستر كجوس، ورأسه، الذي راح يبتز كلها سمع جملة جديدة، وعندما انتهى التفت مستر كجوس إلى تاجي بتأثر وقال له: أنتم أناس أصيلون، شجعان، وأمناء، لقد ازدادت عجبكم في قلبي. قل لوالدك حين تراه في الإجازة القادمة، مستر كجوس يمتنى أن يراك ويتعرف إليك!!

وفي الخارج كان الزمان يدور بسرعة أكبر.

وادي الصّرار

معسكر وادي الصرار، الأكثر اتساعاً من أي منطقة محظورة وأوها من قبل، أسلاك شائكة، بوابات حراسة بلا عدد، يفصل الواحدة منها عن الأخرى مسافة ثلاثمائة متر، وشارع معبد يلتف محاذياً للأسلاك الشائكة من الداخل، خلفها أسلاك شائكة، أبنية ومستودعات، قاطرات تنسل إلى جوفه عميقاً نحو مخازن الأسلحة المحصنة، مخازن تحت الأرض ترتفع فوقها أربعة أمتار من التراب لتحميها أكثر، مع سكة حديد تتيح للقطارات أن تتوقف في داخلها.

- كل شيء فيه قال حسين ابن المريزة. من الفشكة حتى المدفع الثقيل.

لم تكن القوات البريطانية قد أعدته لضرورات اتساعها على فلسطين، بل استعداداً لما كان يمكن أن تحمله الحرب العالمية الثانية من مفاجآت.

كان بعض رجال الهادية والقرى الأخرى الذين يعملون في المعسكر يهرون بأمام أعينهم شاحنات المستعمرات اليهودية تأتي فارغة وتذهب ممتلئة بأسلحة وذخيرة وقنابل والغمام من كل الأنواع.

- يا جماعة، أنتم قاعدون هنا واليهود ينقلون أسلحة الإنجليز إلى مستعمراتهم.

- وما الحل الذي تراه؟ سأل الحاج سالم.

- أنتم تعرفون أن فشكة واحدة تضغط في جيب أحدنا ستكون سيئاً كافياً لشنته. إذا أردتم نصيحتي فليس هناك سوى حل وحيد. إنهم مطمئنون، ينقلون الأسلحة أمام أعيننا ويتعاملون معنا كما لو أننا عميان. نحن نعرف متى يأتون ونعرف متى يعودون ونعرف حجم الحراسة التي ترافقهم في كل مرة.

- وماذا ترون؟

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

مع إحساسهم باقتراب الخطر أكثر عادوا للسلاح من جديد، ولم يكن هناك من هو أقدر على قيادتهم أكثر من إيليا راضي ونوح أخو خضرة اللذين شكلتا مجموعتين لهذا الغرض. كانت البدايات أكثر من ناجحة، لأن المفاجأة كانت في أيدي الثوار، يتصوبون كميناً هنا وكميناً هناك، في تلك المنطقتين الحادة أو الوديان الضيقة، كما كانوا يفعلون قبل سنوات، حيث لا يكون أمام القوافل إلا أن تستسلم أو تباد. كانوا يريدون السلاح لا أكثر، وفي مرات كثيرة كانوا يطلقون سراح أولئك اليهود الذين يعرفونهم، اليهود الذين عاشوا معهم دون أي مشاكل من زمن طويل.

بين حين وآخر كان يقع واحد من هؤلاء أسيراً.

- نحن لا نحب المشاكل. يقول هؤلاء. ولكن اليهود الذين جاؤوا من الخارج يجبروننا على العمل معهم. فيطلقون سراحهم.

لم يمض الكثير من الوقت حتى راح الإنجليز يراقضون قوافل السلاح هذه بحراسات لا طاقة لأحد على النيل منها، لكن ذلك لم يمنع أن تهاجم قافلة في ذلك الوادي أو قرب تلك الغاية.

وعندما بدأ الإنجليز بالانسحاب مخلفين وراءهم القليل من جنودهم، أرسلوا حرساً من الجيش العربي الذي كان تحت أسرة الإنجليز (كلوب باشا) لسد القراع. وهنا تغير اتجاه الربيع قليلاً بتعين شوكت مختار قائداً للمعسكر.

بعد تعيينه، لم تتوقف الشاحنات اليهودية يوماً واحداً من نقل السلاح. قرر علي سالم وهاشم شحادة وحسين، الذين كانوا يعملون في المعسكر الذهاب إليه والحديث معه معها كانت النتيجة.

- يا شوكت أفندي، أنت المسؤول عن الحراسة، وأنت ترى اليهود يبيعون سياراتهم بالأسلحة والذخائر، اسمح لنا أن نحمل بعضها على أكتافنا، نحن بحاجة إليها، أنت تعرف هذا، وأنت عربي مثلاً!

- لا أستطيع، فأنتم ترون دوريات الجيش البريطاني حولنا.

كانت حركة الدوريات لا تتوقف، دراجات نارية وعربات جيپ.

- المهم أن نتفق معك أولاً، ولكل ما نريد، ثم نجد الحل. نحن نعرف المعسكر تماماً، ومهما حدث فإننا نضمن أن نكون بعيداً عن المسؤولية.

- وهل تستطيعون القيام بذلك!!!

- بالتأكيد!!!

- الدوريات تحوم حول المعسكر حتى منتصف الليل. تعرفون هذا!!!

- نعرف، ولذا يمكن أن تأتي في الواحدة صباحاً أو الثانية.

- لكنني لا أستطيع أن أكون معكم.

- لا عليك. أترك باب المخزن الذي نتفق عليه مفتوحاً وعلينا البقية.

- كان الرصاص يرمح كالغضب داخل صناديقه، رصاص لم تكن في أي يوم قادرين على الحصول على مثله أبداً، وكان هناك الكثير من قتال المزر. والكثير من قتال الفدائية التي يلزمها مدافع لم تكن تملكها.

- سأترك جندياً أتق به بفتح لكم الباب. والباقي عليكم كما تقولون.

لم يصدق أحد أن اتفاقاً مثل هذا يمكن أن يكون، تردد كثيرون في الذهاب، وحين رأوا بعد ذلك أن النتائج مضمونة، اندفعوا جميعاً: الرجال والنساء والأولاد والشباب. يربطون الجمال والتخيول بعيداً وقد كتموا أفواهها حتى لا تصدر أي صوت ثم يتسللون زحفاً نحو المعسكر.

في كل صندوق ما يقارب ألف رصاصة.

لم يترك شوكت مختار أمراً كهذا عرضة للغموض: الصندوق بعشرة جنهيات.

يقف الجندي بالباب بصحي الصناديق، وحين يتنهد، يذهبون إليه، فيجدونه كما في كل مرة يعتبر يبدأ بيد مطملاً للباب.

وتحت ضوء الكشف الصغير، يبدأ الدفع. يتناوذاً ويختمها في جيبيه، وعندما يصلون الباب يعيد جملة التي يرددها كل ليلة: تذكروا إذا نجحتم فأننا معكم أساً إذا وقعت فإنتي ضدكم!

لم يكن الأمر مطمئناً رغم تكرار الأمر ليلة تلو أخرى، ولم يكن أقل من متوتر كلما جاؤوا إليه بنقوده.

- لا أريدها من فقة الجنهية!! أريدها من فقة العشرات. يقول لعلي الذي خدا حلقة الوصل.

أصبح يخاف كثيراً، ولم يعد يحتمل إضاعة أي ثانية في تلك اللحظات الحرجة.

ولكن يطمئن أكثر صار عدد من الرجال يبيعون إليه مباشرة في الوقت الذي يذهب فيه الآخرون نحو المخازن.

- كلما رأى جنهائنا يتطّلع أكثر. قال حسين. لكن الحاج سالم طلب منهم أن يكونوا حذرين.

أرسل إليهم شوكت مختار أنه لن يستطيع أن يراهم ليلاً لأن عدداً من الضباط والجنود الإنجليز عادوا إلى المعسكر.

في ذلك النهار ذهب إليه حسين ابن العزيزة، وسليمان شقور، وهاشم شحادنة. لكنهم لم يتوقعوا أن تسير الأمور في اتجاه آخر هذه المرة.

ظلوا يسيرون إلى أن وصلوا أحد أبواب الخراصة، طلبوا من الجندي مقابلته قائد المعسكر. فقالوا له: إننا أقرأوه وقد جئنا لزيارته.

رد الجندي: سأريكم من الذي سيحضر الآن!!

رفع ساعة الهاتف، وبعد قليل فوجئوا بعناصر الشرطة العسكرية الإنجليزية بقمعهم الحمراء يحيطون بهم فوق الدراجات النارية.

- ما الذي تفعلونه هنا؟ صرخ أحد الجنود، وقبل أن يجيب أحد، طلبوا منهم أن يركبوا خلفهم. تشب هاشم بالجندي خائفاً أن يقع، فتلقى ضربة قوية بكوع الجندي.

ظلت الدراجات تسير إلى أن توقفت أمام معسكر السكن.

- ما الذي جاء بكم إلى هنا؟ سأل ضابط إنجليزي نضحيه كتفه تجبات ثلاث.

- لا نعرف! كنا في طريقنا إلى (بيتة) لشراء المواشي فأحصّرتنا العساكر إلى هنا!!

كانوا يحملون نقوداً كثيرة، ستون جنهماً في جيب كل واحد منهم!!

بعد قليل وصل شوكت مختار فصرخ فيهم: ما الذي تفعلونه هنا أيها اللصوص!!

كان الضابط الإنجليزي يتحدث العربية مثلهم تماماً.

- نحن ذاهبون إلى بلد اسمها (بيتة) كي نشترى المواشي مثلاً نعمل دالبا. وفوجئنا بالجندي يوقفنا ويصّبل بالدورية وتحضرنا إلى هنا. رد حسين.

- لا بد أنكم كنتم قريبين من الأسلاك الشائكة للمعسكر. قال شوكت مختار بغضب!! كما لو أنه يبحث لهم عن عذر.

أمر الضابط الإنجليزي الجنود الذين أتوا بهم أن يقوموا بتفتيشهم، فعمدوا على المال.

- لماذا كل هذا المال!! سأل الضابط.

- قلنا لكم لكي نشترى حلالاً.

- بل لكي نشترى بوبو!!

- اتركوهم لي سأحقق معهم بنفسي. قال شوكت مختار.

وعندما ابتعد الضابط والجنود، سألهم: من هو الجندي الذي أجبركم على القدوم؟

- إنه الواقف على بوابة 12.

عاد الضابط الإنجليزي: لا بد لي من أن أسلمهم لمخفر (قطرة).

كان الأمر العسكري واضحاً للجميع في تلك المنطقة: خسون متراً يجب أن تفصل المدنيين عن المعسكر سواء كان الأمر متعلقاً بالزعي أو الزراعة أو المرور، وكل من يقترب أكثر من ذلك يتم التعامل معه كمتهم.

- حاول الثلاثة أن يظهروا غضبهم أمام القرار، لكنهم في داخلهم، كانوا مسرورين، فهم يعرفون مدير البوليس هناك، وقد كان من المتعاطفين. ضابط فلسطيني يعمل مع الإنجليز. شاب شقرة. كما يصفونه. اسمه عبد الفتاح ملخص.

كان الناس يحبونه ويتعاملون معه كضيف كبير حين يزور القرى، عكس رجال الأمن والضرائب وموظفي الحكومة الذي لم يكونوا أكثر من (ضيوف القصور).

ظل الجيب العسكري يسير حتى وقف بهم أمام باب مركز البوليس، شرح جندي من المراقبين القضية لمدير المركز، ولوح له بثلاثة مغلفات ثم وضع المال فيها، وعمل كل مغلف كتبوا اسم صاحبه.

سأل مدير المخفر الجندي: كم يوجد من مال في هذه المغلفات؟

- ستون جنهماً في كل واحد.

- ستون أيها الخراصة!! ما الذي تخططون له، ما الذي ستفعلونه بهذا المال!!

قال مدير المركز بغضب.

- نشترى حلالاً. هذا كل ما في الأمر. قال حسين.

أدركوا أن عيونهم ساهرة، وبيع ما يريد من ذخيرة دون أن ينتبه أحد. وقد وصل به الأمر أن يرسل هذه القرية أو تلك: لا تأثروا الليلة فهناك إطلاق نار.
لكن الشيء الذي كان يجتر شوكته مختار هو: كيف يستطيع هؤلاء الفلاحون تنظيم العمل بمفردهم، دون قيادة، مع ما يرزحون تحته من مصائب؟

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أما المفاجأة غير المتوقعة فهي أن الجندي لم يُسلم المال لمدير المخفر: سيبقى ما هم في الرملة إلى أن تكتمل التحقيقات معهم.

لم يكذب الجيب العسكري يتمدد حتى راح مدير المخفر يمانقهم واحداً واحداً وهو يلومهم: كيف وقعتم هذه الواقعة؟

شرحوا له كل شيء، ولم يكن جاهلاً بما يدور.

- هيا بنا، سأوصلكم بنفسي إلى الهادبة. قال.

- بالله عليك، دعنا ننام في الزنزارة هذه الليلة، حتى لا ينتبه أحد، وفي الغد تكون ضيفتنا!!

- لم أعرف أنكم أصبحتم بخلاء إلى هذا الحد، أقول لكم سأكون ضيفكم الليلة، فترقون، لا، ستكون ضيفتنا غدا!!

- سيتقدونك بسبب هذا.

- لا عليكم. الإنجليز لن يبقوا إلى الأبد وليس لنا سوى بعضنا البعض.

فقالوا معاً: خلاص. يلعب أبو الإنجليز.

قبل أن يغادر الهادبة كان قد كتب تقريره الذي أكد فيه أنه بعد سماع الشهود ومختار البلد تبين أن الشبهين لم يكونوا يفكرون بشراء السلاح، بل الحلال فقط، وقد تم إطلاق سراحهم بعد توقيفهم لمدة أسبوعين؛ وحتى لا يثير أي شكوك، قال للحاج سالم سأرسل التقرير للإنجليز بعد أسبوعين.

لم يطل الوقت، ذات ضحى توقفت سيارة إنجليزية بمحاذاة البلد، سألت عن أسماهم واحداً واحداً، وسألهم ما كان معهم من أموال بأيديهم، بعد أن وقّعوا على ما ثبت ذلك.

- شوف!! في هذه المسألة فقط كان الإنجليز جيدين!!

أما الجندي الذي تسبب في هذا كله، فقبل أن تعود أموالهم إليهم كان شوكت مختار قد أعاده من حيث أتى. إلا أن ما حدث جعله أكثر حرصاً؛ فبات يقتنع المناسبة تلو المناسبة كي يطلق جنوده النار ليستطيع تبرير تناقص الرصاص في مخازن الأسلحة، وفي تلك الأجواء المحمومة لم تكن هناك حجة أفضل من هذه. ومع إطلاق هذه النار كان يصيب عصفورين بحجر واحد: ثلثة الإنجليز وقد

رأى محمود ذلك، أحس بأن كل الشكوك الصغيرة التي راودته لم تكن في محلها، وأن كلماته كان لا بد أن تقال لا من أجل الهاشمي فقط بل من أجل أبيه أيضاً.

وجود كل تلك الأخبار دفع الهاشمي لأن يتصرف بمسؤولية أكبر، وبخاصة بعد أن امتلأت الصحف بصوره. لم يعد يخرج من السجن، ولم يجد من وسيلة أفضل من أن يأتي طعامه المفضل إليه، فاتفقت إدارة السجن مع مطعم شهير في عكا أن يُرسل الطعام إليه مرتين في اليوم ظهراً ومساءً، وقد كان الطعام كافياً له ولنديب السجن ولتكبار الضباط فيه، ولم يتوان عن دفع تكاليف ذلك من جيبه الخاص.

الشيء المهم الذي حدث هو أن الاتصالات لم تعد تتوقف مع إدارة السجن، تحدث عدد كبير من الزعامات، ومن مختلف المدن، مردهين الطلبات نفسها: أن يُعامل الهاشمي كما تعامل أي شخصية كبيرة، فهو رجل وطني وصناعي كبير وواحد من أبرز العقول في البلاد كلها.

مع بدء تذوقه خلاوة انتصاره، أصبح أكثر إطمئناناً وراحة، تحدث مع ابنه وطلب منه أن يُسرّب خبر تنفيذ سجنه أسبوعين آخرين بعد أخذ موافقة حاكم اللواء.

في صبيحة اليوم التالي نُشر الخبر فهاجت الناس، وكتب أكثر من مقال حول ضرورة الإفراج عنه في أسرع وقت. وظفت المقالات تتوالى حتى الليلة ما قبل الأخيرة له في السجن. فاتفق بأنس وطلب منه أن يذهب بنفسه لحاكم اللواء ويبره الخبر الذي سيبليه عليه بعد قليل؛ وشدد، من الضروري أخذ موافقته وإلا فإن مسألة السجن ستتحول إلى أمر جدي.

لم يعارض حاكم اللواء، قال لانس: ولكن فليتذكر لن أستطيع أن أعطيه أكثر من هذا!

كانت العناوين الكبيرة غلاً الصفحات في اليوم السابق لخروجه من السجن (سلطات الانتداب تقرر الإفراج عن الهاشمي بعد موجة الاحتجاجات الشعبية الواسعة).

انتصار متأخر

تجاهلت الصحف خبر اعتقال الهاشمي أسبوعاً كاملاً؛ أقلقه هذا، كل شيء سيذهب هباء. اتصل بابته أنس وطلب منه أن يُحرّك الصحافة بمعرفته: أريد مقالات، مقالات محترمة، مقالات لا غبار عليها، اعمل على أن يكتب محمود الحاج واحداً منها.

- ولكنه لا يكتب.

- لقد جاء الوقت لكي يكتب، قل لرئيس التحرير ذلك، إننا أكبر اللعنين، ولها بعد أريد محمود لشيء أكبر.

- غدا ستقرأ أخباراً تسرّك.

- أظن أن علينا الآن أن نرى مواهيك تتجلى. قال رئيس التحرير لمحمود. وليس هنالك من بداية أفضل من مقال تكتبه حول اعتقال سليم بيك الهاشمي. فالجرائد كلها، حسب معلوماتي مستشغلة به خلال الأيام القادمة.

- وماذا أكتب؟

- أكتب ما تريد، هاجم الإنجليز وسياساتهم. ثم ما الذي يمكن أن أقوله لك وقد فعلوا بك وبأسرتك وبنا الكثير حين قتلوا شهيد الجميع، والدك؟!

كما لو أنه كان عبوساً في داخل ذاته، وفجأة رأى نور روحه، كتب محمود مقالا هو الأعنف والأهم، لأنه الأصدق، ورغم أن اسم الهاشمي لم يرد فيه سوى مرة واحدة كنموذج على عسف السلطات الإنجليزية، إلا أن ذلك كان كافياً بالنسبة للهاشمي وأكثر.

ظهرت مقالات في ثلاث صحف، ثم ما لبث أن امتدت لصحف أخرى، رأت أن عليها أن تكون في الصفوف الأمامية حينما يتعلق الأمر بمسائل وطنية. وحين

مطفاً مثل طيور الشبان التي تنساقط في الحريف على الشاطئ منهكة، كان محمود ينساقط، وكما تنساقط الفاريون من الحرب على الشواطئ الفلسطينية، وغدت مشاهد نيات الليل ظاهرة تنصص بها الشوارع من يافا إلى حيفا إلى القدس. أحس أنه مجرد فتاة ليل أمام ملهى لا أكثر..

بعد أسابيع كانت الرياح تسير في اتجاه آخر، ويتسارع لم يكن يتوقعه الهاشمي أبداً، إلى ذلك الحد الذي دفعه للتفكير يجسدى تلك الفترة التي أمضاها في السجن، أدرك بغريزته، وبالمعلومات التي شُرِّبَتْ إليه، أن عليه أن يُنهي كل شيء بسرعة، فالبلاد في طريقها إلى الهلاك، وأي نياض سيكون سبباً في خسارته للكثير.

41

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

حين قرأ الأخبار في الصحف التي أحضرت قال: حان وقت الرجوع إلى البيت. وتفصل بابه. عليك أن تكون صباح الغد هنا ومعك محمود الحاج خالد. أريده أن يكون إلى جاني حين أنزل من القطار.

كان الاستقبال الذي أعد له في محطة القطار كبيراً، حملته الجموع، كما حملت محمود الذي كان ظهوره بمثابة مفاجأة غير متوقعة، وسارت بها إلى ساحة المدينة وهناك أقيم مهرجان عظيم كبير، اختتم بكلمة مؤثرة لمحمود، لم تكن في الحقيقة غير ذلك المقال الذي كتبه، وقد أحضره أنس وأعطاه إياه قاطعاً عليه أي محاولة للاعتذار عن المشاركة بسبب عدم استعداده، وأعقبها كلمة لا تنقل تأثيراً القاعا الهاشمي، كلمة كان قد فُكر فيها قبل دخوله السجن وكتبها وحفظها غيباً أثناء وجوده فيه.

بعد انتهاء المهرجان، تفشّر الناس، وجاءت سيارة حملت الهاشمي وابنه، الهاشمي الذي التفت إلى محمود وأشار له بيده من شياكها مُودّعاً.

- نوصله إلى أي مكان يريد، بعيداً عن هذه الساحة. قال أنس لوالده.

- ولماذا؟ لقد انتهى دوره.

في تلك الساحة الفارغة، أحس محمود بأنه ينتظر، وأن ما ينتظره لن يجيء، مرّت الدقائق واحدة بعد أخرى. لا أحد، وما إن خلع طربوشه، حتى بدأت ملايحه تنساقط عن جسده مثل أوراق الحريف، نظر إلى نفسه، كان عارياً تماماً، ومطفاً بدا كل شيء حوله مثل نوافذ يافا أيام الحرب، النوافذ التي جرى تجميلها وإسدال الستائر السوداء لحجب أي ضوء قد ينسلل ويكون السبب في تصف المدينة، مع قيام الطائرات الإيطالية بالإغارة على مصفاة تكرير النفط في حيفا.

مطفاً مثل عيون الناس التي راحت تتابع سقوط البلاد واحداً بعد الآخر أمام الجيوش الألمانية، غير قادرة على أن تنتظر إلى شيء ما يوضح، وحين سقطت رومانيا ويوغسلافيا واليونان وفكّرت هذه القوات إلى جزيرة كبريت أصبح الأمر أكثر تعقيداً، وغدا انطلاق صفارات الإنذار في يافا مناسبة شبه يومية حتى تنهال العتمة فوق العتمة أكثر.

كان صفارات الإنذار تدوي في أذنيه، منطلقة من كل مكان..

41 - (ولا استطار الشر في طول وعرض فلسطين، واستمرت النيران في الشجر والشمس، وتطارت شظايا الأدمام والتفجيرات تحصد الأرياء في الفنادق والسيارات، في أسواق الخضار والندرس وفي التجمعات البشرية، نشر شائعة نقلها رجاله في المدينة والريف مقادعة: أن أوساط الثورة تصحله بالرحيل عشية الفتحاء أثناء غدوه ورواحه، بسبب حقد اليهود والإنجليز الكبير عليه! فراح مصانعه ويوتيه وأراضيه وجماله وغيره ونزع قبل النكبة إلى لبنان وأقام في بيروت حيث استمر في رعاية شؤون أبناء المدينة وقضاهاها من مكتب لغوية العربية العليا هناك!!

- أبدأ.

- وهذه هي قصة الهادية سيادة القاضي.
- الهادية ليست قرية. إنها، وكما ثبت في محاكمة سابقة أراض يمتلكها السيد
وهناك مزارعون جاؤوا من قرى كثيرة، ويعملون في أراضيهم ويتقاضون أجرهم
لقاء ذلك.

- لا بأس بما تقوله سيدي القاضي، ولكنني أحب أن أسأل، عندما يحضر
مزارع للعمل في أرض زراعية ما، فهل يبنى قرية ويرى المواشي والكلاب ويبنى
مدرستين واحدة للأطفال وأخرى للبنات، ويكون له مكان للعبادة؟ المزارع كما
تعرفون سيادتكم لا يأتي بأكثر من عمراته في أفضل الأحوال، وغالباً ما يكون
المحراث ثلثاً لصاحب الأرض.

- في هذه المحققات كان هاشم شحادة قد جلس في الركن بعد الكسبات التي
ينطقها المرزوقي، كما أوصاه رجال القرية، ودقات قلبه تتسارع، وما إن تجاوز عدد
الكسبات التي قالها المرزوقي المائة كلمة حتى أحس برأسه يدهور ولم يعد قادراً على
مواصلة العدد. كان المبلغ قد تجاوز خياله تماماً.

- الهادية قرية يا سيادة القاضي وهي معروفة ضمن القضاء، قرية لها تاريخها.
قبل أن تُقسَّم البلاد إلى أقضية كانت موجودة، وبعد أن قُسمت البلاد إلى أقضية
ظلت موجودة. قبل وصول أول جندي إنجليزي إلى هذه البلاد كانت موجودة،
وقبل وصول أول مستعمر مهاجر من اليهود كانت موجودة. وحتى أثبتت اقترابي
ها هي الأوراق التي تؤكِّد ذلك، وأظهر الوثائق والكواشين التي أعادها الأب
إلياس.

كانت المفاجأة قوية إلى درجة لا تُصدق، وبها استطاع المرزوقي أن يقطع نصف
الطريق؛ فضعف القضية من أساسها وترك عمامي الدَّير مشدوهاً غير قادر على
فعل شيء، أما الأب متولي الذي جلس في نهاية القاعة يتابع سير الجلسة بعينين
زجاجيتين، فقد ذهب بعيداً باحثاً عن سرِّ هذه المفاجأة التي لم تحطه له ببال.
وقبل أن يفيقوا، طلب المرزوقي من القاضي السماح له باستجواب شهود
الدفاع.

أثبتت الأنيسة من خلال سجلات الولادة التي تمَّ إحضارها، أنها وأباها
وجدها وأخوها، قد ولدوا في الهادية. وشهد مجموعة من أهالي القرى المجاورة بأن
هذه القرية كانت موجودة على زمن أجدادهم، وأنهم صاهروا أهلها، وعاشوا

الطوفان

حين نهض المرزوقي لالقاء مرافقته، سار لمس عطفى باتجاه القاضي ثم أسقط
عصاه حامداً، اتحنى يبحث عنها، تحس الأرض، يميناً، شمالاً، أماماً. وجدها
أخيراً.

كان القاضي ينظر إليه، ينتظر أن يقف، لكنه واصل البحث!

- كنت تبحث عن العصا أم تجدتها؟

- نعم وجدها.

- عَمَّ تبحث إذن؟

- عن عدالة بريطاني، سيدي القاضي. قال وهو يواصل بحثه.

- انفض إذن، لأنك لن تجدها بهذه الطريقة!!

نهض.

- ولكن هل تسمح لي سيادة القاضي أن أقول شيئاً واحداً بعيداً عن هذه
المحاكمة.

أخذ القاضي نفساً عميقاً ثم قال له: تفضّل. بشرط ألا تُطيل.

- اطمن، لن أطيل.

- تفضّل.

- اسمح لي أن أسألك سيادة القاضي، من أين أثبت؟

- من بريطانيا بالطبع!

- وما اسم مدينتك هناك؟

- مانشستر.

- وهل تنتمي لعائلة هناك.

- بالطبع، عائلة جونسون.

- لو أخذ أحدهم بيتك بالحيلة أو بالقوة، فهل تتركه له؟

أفراحهم وأحزانهم، وأثبت اليرمكي أن ابنه قد ذهب إلى حرب تركيا كما هو مسجل في الوثائق الرسمية التي تحدد من أي قرية هو.

- وأحضروا عدداً كبيراً من شهادات الزواج، إذ لم يكن من السهل إحضار شهادات طلاق، لأن الطلاق كان نادراً في تلك الأيام.

طلب القاضي من محامي الذير تقديم مرافعة لطلاب بتأجيلها، فأصدر القاضي أمراً بتشكيل لجنة للقيام بالكشف والتأكد من صحة ما جاء في مرافعة الدفاع حسباً للأمر.

أمام باب المحكمة، اختل الحاج سالم بنهاشم شحادة وسأله: هل عرفتَ عدد الكليات التي قالها المحامي في قاعة المحكمة!!!

تلعثم: والله يا حاج ما إن أصبحت مائة كلمة حتى أحسستُ براسي يدور.

- هكذا ستظلم الرجل. ألا تستطيع أن تُقدّر عدد الكليات التي قالها بعد المائة؟

- سأكذب لو قلت لك أعرف.

- أوصيك. الطريق طويل، انتبه أكثر في المرة القادمة.

قبل ليلتين من موعد وصول اللجنة، وقف الشيخ حسني على ظهر المسجد وصاح: يا أهل البلد، الحاضر يعلم الغائب والسامع يخبر الذي لم يسمع، ممنوع خروج أي منكم من البلد، يوم بعد غد الثلاثاء، ولتجمعوا أولادكم، ومن كان له ابن خارج البلد فليرسل إليه كي يحضر، ولتجمعوا كل ما لكم من خيول وأبقار وجمال وأغنام وماعز ودواب وكلاب وخير وبغال ودجاج، وحتى القطط، داخل بيوتكم.

لم يبق أحد من أهل الهادية، خارجها، حتى محمود الحاج خالد، حضر من يافا، ووقف ينتظر كالأحرار يمسكاً بيد ابنه سمير ويد ابنه ليلى، في الوقت الذي كانت زوجته عفاف تراقب المشهد من ورقتها حزينة.

حين لاحظت سيارة اللجنة المكلفة بالكشف وتقديم تقرير للمحكمة، صاح الشيخ حسني، إلى بيوتكم، لا تزيد أي شخص خارج سور بيته. وانتظروا إشارتي.

بعد ثلاث دقائق كانت السيارة قد وصلت طرف القرية، وفي منتصف تلك الساحة التي تتوسطها توقفت.

نزل منها ثلاثة رجال، يتأملون المشهد البت.

- ليس هنالك من شيء إلا البيوت. قال أحدهم.

- أين الناس؟ ساءل آخر.

وأخرج الثالث أوبرقه، استند إلى طرف السيارة وهو يقول: لقد انقضت خدعة المحامي. وقبل أن يلامس قلمه الصفحة البيضاء جاء صوت الشيخ حسني: يا أهل الهادية اتحموا الأبواب.

انفجر الصمت مدويًا..

اندفعت الجبال والأبقار والخيول والأغنام والكلاب والقطط والدجاج كلها معاً وغلغلتها الناس يستحثونها ويندفعون معها. هذّر السيل الحُرّ جارفاً كل ما في طريقه، وأدرك أعضاء اللجنة أنه يتجه نحوهم فلم يجدوا مكاناً آمناً أكثر قريباً لهم من السيارة فقفزوا داخلها، لكن السيل اجتاحتها فانقلبت وواصل اندفاعه في جميع الاتجاهات. أما الناس فقد توقفوا أخيراً في الساحة حول العرية التي ظلمت إحدى عجلائها تدور دون توقف.

كان أعضاء اللجنة في حالة ذعر شديد، وبصعوبة استطاعوا الوصول إلى بابي السيارة، وبصعوبة أكثر استطاعوا فتحها، كان أول ما شاهدوه السماء وهم يتسلفون للوصول إلى جانيها الذي أصبح أعلاها. وعندما قفزوا بمساعدة الناس، كان الشيء الوحيد الذي يردونه: ما هذا؟ ما هذا؟

فأجاب الحاج سالم: هذه هي الهادية!!

- وهل هذه المواشي والخيول و... تعيش هنا؟

- كما ترون. إنها لأهل البلد.

كان كثير من الشباب قد اندفعوا يرقون القطعان الهائجة، وحين عادوا بها كان أعضاء اللجنة يتفحصون العيار من ملابسهم.

- هذا القطيع لمن؟

- هذا قطع ليلى راضي.

- وهذا؟

- وهذا؟

- وهذا؟

تجمع الرجال وأعادوا السيارة إلى وضعها الطبيعي، لكن سقوطها على عجلاتها ترك ضجة غير عادية. كما لو أن السيل عاد ثانية.

- ألم تكن هناك وسيلة أرحم من هذه كي تقولوا لنا إننا هنا؟؟

تحدد موعد الجلسة بعد أسبوع، كانت الممارك مشتعلة في كل أرجاء فلسطين، وبدا الوصول إلى قاعة المحكمة مغامرة كبرى، لكنهم قرروا الذهاب إلى هناك.

كان المرزوقي في انتظارهم: خشيًا ألا تستطيع الوصول.

- لا تخشوا عليّ، في أزمته سوداء كهذه لا يبرى طريقه أحد أفضل من الأعمى!!

على عجل عقدت الجلسة، حيث قرر القاضي الحكم بملكية الهادبة لأهلها وردّ دعوى الذير. وعندما تقافز الناس يترقصون.

- هدوء. صرخ القاضي.

.. هداؤا.

- هل تسمح في سيادة القاضي بأن أقول جملة واحدة في هذه القضية.

- لقد أغلقت القضية لصالحكم، فإذا ستقول بعد؟

- كنت أثنى سيادة القاضي أن يكون السيد جيسر آرثر بالصور الذي وعد اليهود بوطن قومي في فلسطين أن يكون هنا في هذه القاعة الآن لسمع حُجَّتُك الذي يقول إن الهادبة لأهلها. شكرًا سيادة القاضي.

- رُفعت الجلسة.

أمام باب المحكمة، اختل الحاج سالم بهاشم شحادة وسأله: هل عرفت عدد الكليات التي قالها المحامي في قاعة المحكمة هذه المرة؟

تلعثم: لقد أناسي غولي من الحُكْم الذي سيصدر كل شيء منذ البداية.

- هكذا ستنظم الرجل. ألا تستطيع أن تُفكر عدد الكليات التي قالها!!

- سأكذب لو قلت لك أعرف؛ ولكني أحس بأنها أكثر من ألف!!

- أكثر من ألف!!!

عاد الحاج سالم إلى المحامي وقال له: الدنيا قائمة قاعدة، والذي أوله شرط آخره رضا. أعلن أن علينا أن ندفع أتعابك الآن.

- أمور كهذه لا يجوز الحديث عنها في الشارع؟

- ما المكان الذي يربحك؟

- مكتبي، ليس هناك أفضل من مكتبي.

- وهل ستذهب إليه في أوضاع كهذه؟

- وأين يمكن أن أذهب، إلى البيت، ما الفرق؟

- والآن نريد أن نسألك، وسأعنا، كم عدد الكليات التي قلتها يا أستاذنا في المحكمة؟ سأله الحاج سالم.

- هذا هو السؤال الضعب الذي لا أستطيع الإجابة عليه، فلا يمكن أن أتكلّم وأعدّ الكليات في الوقت نفسه. ألم تُكلّفوا شخصاً بهذا.

- أجل، ولكن بعد أن تجاوز العدد مائة كلمة في الجلسة الأولى بدأ رأسه يدور ولم يعد قادراً على الاستمرار. أما في الجلسة الثانية فانتظاره الحُكْم أسماء الأمر من أساسه!

- معه حق في المرة الأولى لأن المبلغ كبير، ومعه حق في الثانية لأنني كنت مثله، ولكن ماذا لو قلت لكم أنني قلت ألف كلمة.

تبادل الرجال النظرات دهشين وقال الحاج سالم: تكون صادقاً.

- إذن يكون لي في ذمتكم خسون ألف جنيه.

- خسون ألفاً. رده أكثر من صوت برعب.

- فقط، خسون ألفاً.

عندما أحس المرزوقي بالصمت الذي سقط فجأة على رؤوسهم، انبسم وقال: يا أنكم أحضرتكم كثير من الكواشين والوشائق، فسأعتبر أن مساهمتكم تُعادل نصف أتعاب القضية!!

- بارك الله فيك. قال له الحاج سالم.

- لكنني لم أسمع أحداً غيرك يتكلّم، أغشى أن يكون الآخرون غير راضين عن هذا الحل!! وكان يبتسم.

- لن نقول لا، يا أستاذنا.

أخذ المرزوقي نفساً عميقاً، ثم أسند ظهره للكرسي: كأنكم لم تعرفوا بعد سرّ ذلك الطلب الذي طلبته!! حين قلت لكم أريد حسين جنبها مقابل كسل كلمة أقولها. يا أخوان، لم أكن أريد إلا شيئاً واحداً لا غير، أن أتأكد من أنكم مستعدون

لفعل أي شيء من أجل قرينكم. لقد أعدت لكم الهادية نعم، ولكنني أعدتها لي أيضاً، أم أنكم تعتقدون أنها لكم وحدكم!!
في تلك اللحظة طفر الدمع من عيون الرجال.

لم يُفتح باب الدير طوال عشرة أيام، بعدها، وصلت سيارة سوداء، مضى سائقها نحو البوابة الكبيرة على عجل، وطرقها خمس مرات، أطلقت الأخت سارة، وبعدها الأخت ميري، تجاوزا السائق العتبة، وحين عاد للظهور من جديد كان يحمل حقيبتين بينتين متهرئين، ألفاهما في الصندوق الخلفي للسيارة، واستدار عائدا للطريق الذي جاء منه، وعندما مرت السيارة أمام الناس، كان يمكن أن يلاحظوا بوضوح أن الأختين لم تكونا راغبتين في النظر إلى أي أحد منهم، وعندما وصلت السيارة تلك النقطة التي توقف فيها الأب جورجيو والأب ليودورس، لم تتوقف، ظلت تسير إلى أن اختفت.

بخطى وجلة سار بعض الناس إلى بوابة الدير، لكنهم سمعوا صوت الحاج سالم: إلى أين؟ فعادوا.

- تسألني عن متولي؟ لا، لم يره أحد بعد ذلك. والدير!!! ظل مغلقاً حتى بعد أن أكلته النار!!

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

قذيفة أو اثنتان!

في الأيام الأخيرة لتلك الفوضى التي كانت تعصف بكل شيء، وصلت قافلة يهودية، عبأت السلاح، ومضت.

كان شوكت مختار موجوداً، ولو سأله هذه المرة، كما سأله ذات مرة عن هذا الأمر لقال: إنهم الإنجليز، وهذا ما هم!

كانت القافلة تقصد يافا، علمت المنطقة كلها بذلك، فانطلقت الخيول في كل الاتجاهات تخبر القرى المجاورة، وراحت كل قرية تنعم الخبر على القرى القريبة منها، وقبل أن تقطع القافلة مسافة كبيرة، أحسّت بالخطر الذي يحيط بها، فالتجأت إلى مستعمرة (خلدة) التي كانت تطل على وادي الضرار وبيت محسر وتحاذر أرض النعانة وصيدون وشحمة وعاقرة.

بعد أسابيع سير على أيه الحاج سالم: لم تكن الشظارة شطارتني هذه المرة، لقد أرسل إليا شوكت مختار يُعلمنا بالأمر وقال: بعد يومين ستخرج قافلة من هنا، فذهبوا حالكم!!⁴²

اندلعت نيران المعركة في الثامنة صباحاً، وظلّت تدور حتى الثامنة ليلاً، لكن المستعمرة كانت تمثل كل السلاح الذي لا يملكه أهالي القرى.

راحت قذائف المورتر تتساقط على المهاجرين، بحيث شلّت حركتهم. ولذلك قرر عليّ وعبد الجواد صلاح وإيليا راضي أن يذهبوا إلى قائد مصفحة للجيش العربي تربض بعيداً ليقنعوه بالتدخل.

رجوه أن يُطلق قذيفة، التفتين على الأقل.

رفض: ليس معي أوامر. راح يُردد تلك الجملة التي لن يسمع الفلسطينيون عبارة تتردد أكثر منها على ألسنة جنود وضباط قوات جيش الإنقاذ فيما بعد.

⁴² - شارك شوكت مختار فيما بعد في عدد من معارك الدفاع عن (باب الواد) التي خاضتها وحدات الجيش العربي بقيادة حابس الجبالي. وقد عاش طويلاً ونال عدداً كبيراً من الأوسمة.

- وهل نحتاج إلى أوامر كي نقوم بما يعليه عليك ضميرك في الدفاع عن هذه البلاد المهتدة بالمستعمرين!!؟
أطلق قائد المصفحة رأسه فجعلنا.

- أترك أحدا على الأقل يستعمل المصفحة وعلمه كيف يُطلق القذائف.

- وهل مستعملون إطلاق القذائف وقادة المصفحة في لحظات!!

- فقط، أرنى كيف تُطلق النار إذن وأنا المسؤول إذا ما قتت محاكمتك عند شوكت مختار. قال عبد الجواد.

- هذه المصفحة ليست لشوكت مختار، بل لكللوب باشا وهو الذي سيحاكمني!!

بعد نصف ساعة من الأخذ والرد وافق قائد المصفحة على حل اقتضه: يقترب بها من أرض المعركة، يُوجه المدفع إلى المستعمرة، ويقوم عبد الجواد بإطلاق النار بنفسه. وبذلك يستطيع قائد المصفحة أن يُقيّم اليمين إذا ما حوكم بأنه لم يطلق النار!!

عباً قائد المصفحة المدفع، صوّبه، أطلق عبد الجواد النار، ثم عباً مرة أخرى وأخرى وهكذا.

كانت القناجة كبيرة على الطرف المقابل، حين راحت القذائف تنهال على المستعمرة، من سلاح لم يتوقعوا وجوده. وحين أصابت إحدى القذائف خزان المياه ودفرت رأت المهاجمون بأعينهم راية بيضاء ترتفع.

ومع إطلاق تلك القذائف بدأت نتائج المعركة تتغير شيئاً فشيئاً وانثبثت في أرواح المهاجرين حاسة لا توصف، فاندفعوا نحو المستعمرة من كل الجهات إلى أن اقتحموها فاستولوا على الأسلحة بعد انسحاب من فيها.

- قيل تلك ليلة، وصل الهادية أربعة رجال يحملون البنادق، سألوا عن المضادة، فأخبروهم. استقبلهم الحاج سالم. كان الوقت متأخراً، أخذوا لهم طعام العشاء. أوقدنا النار وجفنا ملابسهم الفارقة بيماء المطر، بعد أن أحضر الحاج سالم لهم بعض ملابس. حين أنهوا عشاءهم، سألهم الحاج سالم: من الضيوف؟ فقال أحدهم: أنا هارون بن جازي. وكان من الرجال المعروفين. وهذا محمد الفايز. لا أذكر الآن اسمي الرجلين الآخرين. سألهم الحاج سالم عن سبب قدومهم في هذا الطقس الماطر، فقال هارون: جئنا من شرق الأردن للمشاركة في القتال. فزاد احترامنا لهم. في الصباح ذبحنا لهم، وحين عرفوا بخبر القافلة، قالوا كيف

تأكل وغربنا يموت!! ومضوا معنا للمعركة، بعد انتهائها قلت لهم وأنا أشير للبنادق والرصاص والأسلحة التي غنمناها: إنها لكم، فخذوا ما تريدون؟ فقال هارون: نحن لا نبيس إلا مناصرركم. فقلت لهم: تعود إذن للبيت لتتناولوا طعامكم الذي ينتظر. فقال هارون: سنبحث عن منطقة أخرى في فلسطين قد تكون بحاجة إليها.

سمعوا صوت رصاص في البعيد، فقال محمد الفايز: عرفنا الآن إلى أين نتجه. ورحنا نراقيهم إلى أن اختفوا.

كانت معركة لم يعرفوا مثلاً من قبل، أصيب عبد الفتاح ملحم، ومحمد أسعد، وهاشم شحادة، وإيليا راضي، واستشهد عدد من الرجال الذين أتوا من قرى أخرى.

كانت تلك المعركة تاريخاً. كما ظل يردد الحاج سالم. فقيلها كانت المعارك لخاض سراً.

قبل وصول عربة الجيب الأولى إلى الحاجز الذي وضعوه هناك، توقفت. نزل منها ضابط إنجليزي وأشار للسيارات التي خلفه أن تتوقف.

هبط الجنود من العربات بأسلحتهم المشرقة، تفحصوا جانبي الطريق، شتموا رائحة غريبة، وفاجأهم أن ليس هناك أحد كما كانوا يتوقعون في حوادث كهذه. لم يكن هناك سوى الصمت، الصمت العميق في ساعة ما قبل الضحى تلك. لم تكن هناك سوى الريح التي بدا وكأنها تهب من جميع الجهات.

حين مضى الجنود لإزالة الحاجز، سمعوا حركة خلفهم، التفشوا، رأوا حجارة تندرج، وتسد الطريق خلفهم. وفي تلك اللحظة رأوا شعلات نار تسقط من جانبي الطريق باتجاه الإسفلت. كان الأمر مثيراً للجنود، كما لو أن الذي يذوقها أعمى، وإلا فلماذا يُلقَى بها بعيداً عن العربات، بدأ الجنود رغم ذلك بإطلاق النار، وبعد لحظات، شاهدوا النار ترحف باتجاههم، شاهدوا الشارع نفسه يحترق، دُهلوا، كانت النار تتقدم بسرعة باتجاه العربات، التصق الجنود بحواف الطريق، وقد أدركوا أن النار ستلتهم السيارات. تسلت النار تحت العربات وواصلت طريقها حتى السيارة الأولى، وفي أوج دھولهم ذلك، رأوا إحدى السيارات تطير بسبب انفجار غزان وقودها، وسريعاً اندفعت النار تآكل كل ما تلمسه، لكن ذلك لم يكن هو الأصعب، أدركوا أن الذخيرة ستبدأ بالتفجر بعد لحظات، اندفع بعضهم نحو مقدمة القافلة متجاوزاً الحاجز الأمامي غير عابئين بأي خطر يمكن أن يكون خلف الحاجز، وكذلك فعل الجنود القريبون من الحاجز الخلفي. لم تطلق رصاصة واحدة باتجاههم. وهذا ما جعل الأمر أقرب للكوابيس منه إلى الواقع. كانوا ينظرون صارخين إلى أولئك الذين حاصرتهم النار، طالين منهم الحرب.

اشتعلت الساء بالنار وامتلا الفضاء بأصوات الانفجارات.

- من سمع ورأى المشهد في ذلك اليوم فوجئ أن في الدنيا رصاصة وقنابل إلى هذا الحد!!

وصل سكان المستعمرة بأسلحتهم لنجدة القافلة أعيرة، ولكن بعد فوات الأوان، اقتربوا بحذر وهم على يقين أنهم سيحاصرون المحاصرين، لكنهم لم يجدوا أحداً. ظنوا أن المعركة، لا بد، تدور وجهاً لوجه، اقتربوا بحذر أكثر، سيطت أكثر من قذيفة إلى جوارهم فتراجعوا قليلاً. كان التقدم مستحيلاً مع كثافة النار تلك.

وصرخ: وجدتها!

وصل الخبر متأخراً: هناك قافلة إنجليزية ستمر صباح غد من الهادية لإمداد المستعمرة الواقعة على التل الشرقي بالسلاح.

كانت المستعمرة مثل مستعمرات كثيرة غيرها قد تعرضت لهجمات ليلية متواصلة، حتى اضطر بعض من فيها للهذاب إلى تل أبيب هرباً من مفاجآت الليل هذه.

- طبعاً، في حالات كهذه تستطيع الأفلام أن تحل مشكلة القافلة من أساسها، لكن الحصول على لغم واحد كان صعباً، أما إذا تعلق الأمر بعدة ألغام فلن الأمر مستحيل.

فكروا في أي وسيلة تُمكنهم من تدعيم القافلة بمن فيها، فكروا بإرسال خبر للثوار، لكنهم كانوا يعرفون خطورة التنقل في الجبال في الليل: فإن لم يصطدم، من سيذهب، بدورية أو كمين إنجليزي أو يودي فيصطدم بالثوار أنفسهم. تردد محمد شحادة طويلاً قبل أن يقول ما يفكر فيه، لكن تأخر وصولهم إلى حل دفعه لقول كل ما لديه دفعة واحدة.

كان رد فعلهم الأول: ومن يستطيع أن يحمل كل ذلك الزماد إلى هناك؟ فرد: الجميع. ألم يعاقبوا الجميع ذات يوم بسبب رصاصة واحدة أطلقت من القرية على دورية إنجليزية؟ أم نسيتم!!

اختاروا الموقع الذي سيحاصرون القافلة فيه، لم يكن يبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات عن آخر بيوت الهادية: شارع بين تلّين صغيرين، لكن حواف الطريق كانت عالية بحيث يصعب على الجنود تسلقها إذا ما أرادوا ملاحظة أحد.

لم يكن على شباب القرية أن يقوموا بالكثير بعد ذلك، فقط، أن يوقدوا النار!!

طوال الليل، حملت النساء والرجال والأطفال كل ما تجمع من رماد في القرية، جمعوه في أربعة أكوام صغيرة على طرف الشارع في النقطة المحددة، ثم أحضروا كل ما لديهم من نطف، عجنتوا الرماد بالنطف وفرشوه على طول المنطقة التي قدروا أن القافلة ستقف فيها أمام الحاجز الأول. ثم عاد الجميع إلى بيوتهم آخر الليل، سودا، لا تستطيع معرفة الواحد منهم من الآخر. وخلفهم ظل بعض الرجال الذين كانت ملامحهم تختفي خلف طبقات الرماد.

- وما الذي كانوا بحاجة إليه أكثر من إشعال النار. ما حصل ذلك اليوم لا يمكن أن أنساه أبداً. لا، لا يمكن!

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

وعندما هدأ كل شيء في النهاية، زحفوا حتى وصلوا، وفي الوادي الصغير الضيق لم يكن هناك سوى عربات تحترق.

بعد ساعة وصلت قوة بريطانية كبيرة، حاصرت المنطقة قبل أن تعرف ما حصل! كل ما حدث كان يشير إلى معركة مثل عشرات المعارك التي يعرفونها، وظهرت في السماء طائرتان على ارتفاع منخفض. لكن ذلك لم يسفر عن شيء، وحين سألوا الجنود الناجين عما حدث ازداد الأمر غموضاً. قال أحد الجنود: لم نر أحداً. رأينا الأرض تحترق تحتنا.

وقال آخر: لا لم نسمع انفجارات. لم يكن هناك الدخان. فقط أرض تحترق. كل محاولات البحث عن غيبض ضوء يُبدد ذلك الظلام الذي أحاط بالمعركة - اللامعة، لم يُنفض إلى نتيجة.

داموا الهادية وكل القرى المحيطة دون جدوى. اعتقلوا عشرات الرجال، لم يصلوا إلى شيء.

قبل هبوط الليل انسحبت القوات الإنجليزية بعد أن أبعدت ست عشرة عربة محترقة بصعوبة إلى أحد طرقي الشارع، لكن صدى أصوات وبريق تلك الانفجارات سيظلان إلى أمد بعيد بضيئان قبة السماء المنحنية فوق تلك المنطقة.

محمد شحادة الذي استطاع الاختفاء بعيداً مع رجال القرية، عاد إليها غير مُصدّق للنتائج التي حدثت. كان الأمر بالنسبة إليه لا يقل أبداً عن اختراع البارود، اختراع بارود من نوع آخر لم يفكر أحد بوجوده، بارود يُلقونه للريح لتحمله بعيداً عن المواقف والظوايين وضيق ربوات البيوت يتراكمه المستمر.

- طبعاً، كان محمد شحادة في ذلك اليوم هو الأكثر عِلماً ومعرفة بين من رأوا من بشر في حياتهم!!

قال لأهل الهادية: القافلة ستصل قبل وصول الثوار. لا بد أن هنالك حلاً.

- أي حل ذلك الذي نتحدث عنه يا لبيب!

- داتها هنالك حل. ولكن المشكلة هي، هل نستطيع العثور عليه أم لا. هذه هي مشكلتنا الآن.

في تلك اللحظة رأى أم الفار تجرف الرماد من طاوونها. فصرخ: وجدتها.

ولحسن الحظ، لم يناقشه أحد.

يافا- القدس

- أخرجتني. قال له المدرب عبد النعم. كيف يمكن أن نقلك إلى القدس وقد تقرر أن تكون في يافا؟
- أنا أحب هذه المدينة، كما أن لدي أقارب هناك يمكن أن أسكن عندهم. قال ناجي.
- تحب المدينة، أفهمك، ولكن لا تقل أبداً إن لك أقارب هناك، لأننا لا نرسل أحداً إلى حيث يكون له أقارب أو تكون قريته في القضاء الذي سيُعين فيه.
- ذهب المدرب عبد النعم إلى مستر كيون فقال: إلى يافا. لا يمكنه الذهاب إلى أي مكان سواها.
- كانت سيارتنا القدس ويافا تنتظران، بعد أن ذهبت سيارات، غزة، الخليل، صفد، يافا، نابلس، حيفا.
- عاد عبد النعم من جديد: مستر كيون يرفض ذلك تماماً.
- وأنا لن أصعد إلى عربة يافا إلا مبتأ.
- أمام إصرار ناجي عاد من جديد إلى مستر كيون: إن 8410 يصر على الذهاب إلى القدس.
- بعد قليل أطل مستر كيون وعبد النعم: أوكي، سترسلك إلى القدس، ستكون تحت التجربة، وإذا تبين أنك ذاهب لسبب لا نعرفه، فسأعمل على نقلك إلى آخر نقطة في هذه البلاد، إلى قضاء صفد. مفهوم؟
- مفهوم مستر كيون، نأكد من أنني أريد أن أكون في هذه المدينة فقط لأي أجبها، ولو أردت أن أختار قضاء آخر لاخترت الذي فيه قريتي.
- إلى القدس إذن. وهناك لا تكن أقل عما كنت هنا. كما عرفناك. سأوصي بمنحك شريطين، وإلى أن تُرفع رسمياً ستكون برتبة عريف احتياط.

- بعد أيام من العمل في مركز الطالبة قرروا نقله إلى المحكمة العسكرية حارساً.
- كانت الاشتباكات في تصاعد مستمر، وكان اليهود ينشرون الرعب بين الفلسطينيين بشتى الوسائل.
- ذات يوم انتشر ذلك الخبر كالتار في الحشيم: اليهود كتبوا اسم الحاج أمين الحسيني على حمار، وهم يدورون فيه في كوياتية عمانية يهودا من شارع لشارع.
- انتفض الناس، وعُتت القوضى، فبدأ الفلسطينيون بالتجمع لمهاجمة سوق الشاعة، حيث الكثير من محلات المجوهرات والأصواف اليهودية.
- وصل الخبر سريعاً إلى البوليس الإنجليزي، فقرروا إرسال قوة إلى هناك، من بينها ناجي. وقبل أن تتحرك قال الملازم الإنجليزي أنطوني فهم تلك الجملة الغريبة: إذا أرادوا إحراق السوق وتدميره فلا تتدخلوا! أما إذا أرادوا نبيه فليحرقوا أن تمتعوا ذلك بالقوة.
- لم يذهب الناس السوق. أحرقوه، فلم يتدخل أحد من القوة البريطانية.
- كانت تلك هي الأيام الأخيرة لبريطانيا، يعرف الجميع هذا، ولم يعد يمعها شيء سوى أن تتسحب بأقل الخسائر الممكنة.
- كان ناجي قد استقر في بيت الحاج أبو سليم (والد أمل) في المشهور، بيت كبير، يسكن الحاج أبو سليم جانباً منه وتُستأجر الجنبات الأخرى عائلة مسيحية وأخرى يهودية في حين أقام ناجي في غرفتين يوصلهما درج حجري بالساحة الصغيرة التي تُسمت إلى نصفين بحاجز خشبي رقيق.

- قبل وصول ناجي إلى البيت، وجد الحاج أبو سليم وزوجته قد طردوا منه، ووفقاً في الشارع يصرخان ويطلبان تدخل الناس، قالوا له: إلى أين؟ إنهم يطردون الجميع! لكن ذلك لم يثنه عن التقدم نحو البيت، وبعد قليل أبصر عائلة سمعان المسيحية خارجة تهر أولادها من هناك والفرح يملأ ملاحظتهم: إلى أين تذهب؟ قال له سمعان، لقد جاءت قوات الهاجاناه وأخذت البيت، لم يبق هناك سوى العائلة اليهودية التي قالت لنا: إذا ما أردتم البقاء على قيد الحياة فاحلوا ما تستطيعون حله من متاعكم وارحلوا. إن بقيتم هنا فأنتم تحكمون على أنفسكم بالموت.
- كل ملاهي وأشيائي داخل البيت. سأذهب معها حدث. وكان يرتدي الزي الرسمي.

قبل أن يصل أهل واحد من قوات الهاجاناه من شباك غرفة ناجي، كانوا يعرفونه، وفجأة أشهر سلاحه وأطلق النار. تراجع ناجي.

- ابن الحرام كان يطلق النار ليصيب، لا ليخيف. قال ناجي بانفعال.
- لا عليك، ستحضر أغراضك. قال الملازم أنطوني.
- وهل تعتقد أن المسألة تتعلق بإعادة بعض الأغراض، ما الذي سأقوله للحاج أبو سليم. لقد احتل اليهود منزله ووعده أن تساعدوه.
- في مسائل كبيرة كهذه لا نستطيع أن نفعل شيئاً. الأوامر واضحة، ليس هناك أوامر. وانتفت إلى عدد من رجال البوليس: غادوا مصفحة، واذهبوا معه لإحضار ملايسه.
حين وصلت المصفحة، تراجع أفراد الهاجاناه، وبدا الأمر كما لو أنهم لم يعودوا هناك.

دخل الحوش، أبصر ملايس وأغراض أسرة سمعان ملقاة في الخارج. أزالته الأسرة اليهودية الحاجز الخشبي، وأطلت تراقب للشهد من شقتها وشقة عائلة سمعان. لقد احتلوا كل شيء بسرعة غير عادية.

خرج شاولو الرجل الستيني، رب الأسرة اليهودية واقترب من ناجي: ليس هناك ضرورة لكي تصعد الدرج، أغراضك وضعتنا في تلك الزاوية، وراءك مباشرة. استدار ناجي، كانوا قد وضعوها إلى جانب الباب. خذها وارحل بسلام، وإن كنت تريد نصيحتي فاحملها ولا تتوقف قبل الوصول إلى شرق الأردن.

اتحتى ناجي ليتناول بعض الأشياء التي تخص عائلة سمعان، ليعيدها إليها: لا. هذه اثر كها. إن أرادوا شيئاً منها فإن عليهم أن يأتوا بأنفسهم. ولكن صدقتي لن يأخذوا شيئاً حتى لو أتوا على ظهر مصفحة مثلك. هذه هي المرة الأخيرة التي يعود فيها أحد إلى هنا ليأخذ شيئاً بالقوة!! قال شاولو.

في الجانب الآخر من البيت، كان رجال الهاجاناه ينتظرون انسحاب المصفحة، كي يعودوا للظهور من جديد. وفي نهاية الشارع كانت عائلة الحاج أبو سليم هناك: ما الذي حدث؟

- لقد احتلوا البيت. أجاب ناجي، وألقوا بكل شيء في الحوش، ولن يسمحوا لأحد بالعودة لأحد أي شيء. رأيي أن تذهب إلى الهادية، إلى أن تنضح الأمور.

- إذا كان هذا يحدث للقدس نفسها، فهل تعتقد أن الهادية ستنجو؟!

بعد أيام أصبحت قوات الهاجاناه تتحرش بالحراس، في الوقت الذي قام فيه البوليس الإنجليزي بسحب السلاح من أفراد العرب وتزويدهم بالمعصي فقط. رفض ناجي أداء الوظيفة بغير سلاح، وتضامن معه العريف السوداني أحمد مبروك الذي قال: لن أخرج لأكون هدفاً عارياً لرصاص اليهود.

عندما أسك ناجي بالسلاح، اكتشف أن هناك مهمة واحدة عليه القيام بها: القرار بسلاح الحراس.

احتجوا: ستوقنا في مشاكل أكبر منا.

- لا عليكم. سجد الحل.

كان مركز البوليس يحتوي على أربع عشرة بندقية، ستة مسدسات، رشاش (برن) ومسند إشارة.

- المسدسات ستكون لكم، أما البرن والذخيرة والبنادق فنحن بحاجة إليها في الهادية.

قبل منتصف الليل بقليل وصل إلى الهادية، شرح للحاج سالم ما يدور هناك، وأخبره بخطته: هذا السلاح هو أماننا الوحيد. قال لعمه. فقط أريد من يساعدني.

في الليلة التالية توقفت سيارة أمام المحكمة، هبط منها ثلاثة من رجال الهادية، أوقفوا الحراس، ومعهم ناجي، وحلوا السلاح وغادروا إلى حيث أتوا.

مرت دورية إنجليزية عند الفجر، حيزها عدم وجود الحراس في أماكنهم، هبط الجنود بسرعة ثمسهرين أسلحتهم، وما إن سمع تن في الداخل غطواهم حتى راحوا يصرخون، دخل جنود الدورية فاكتشفوا أن الحراس موتقون ووجوههم للأرض.

لم يكن باستطاعتهم إقناع الضابط أنطوني بربابتهم: كيف يمكن أن نتم السيطرة عليكم كلكم؟ كيف لم يستطع أحد أن يدافع عن نفسه؟ هذا غير مقنع!

ساقوهم إلى زنانة: ستوقنا هنا إلى أن تظهر الحقيقة.

بعد أسبوعين، أطلقوا سراهم، ووزعهم من جديد على مراكز مختلفة، وهكذا وجد ناجي نفسه في سجن الكشلة باحثاً عن فسحة للقرار.

البرج

اختفى برجاً المستعمرة الحشيبان فجأة، لاحظ الجميع ذلك، كان البرجان قد أصبحا جزءاً منها، جزءاً لا يمكن أن يتخيل أحد المستعمرة دونه، لم يفهم الناس شيئاً، كيف يمكن أن يحدث ذلك والنار تب من كل مكان؟

- سير حلون. لا شك أنهم سير حلون بعد أن عرفوا أن جيوش الإنقاذ قادمة.
- إذا أرادوا الرحيل ما حاجتهم للرجين؟! الذي يرحل يأخذ ما يحتاجه، ربما يأخذون بيوتهم التي هبطت من السماء فجأة أما البرجان...

وكما لو أن الأمر أشبه بعمجرة، رأوا برجاً ينمو مكان البرج الشمالي، كان يخرج من الأرض عريضاً وينمو أمام أعينهم غير المصدقة، لم يروا أحداً خارج البرج، ليتأكدوا من أن هناك من يعمل على بنائه. كل العمل كان يتم في الداخل، بعد ثلاثة أيام كان قد أصبح أكثر علواً من أي تناية في القرية، أكثر ارتفاعاً من أي مرتفع، وفي أعلاه أطلت أعين الطلائع، كما لو أنها شخص يحاول إغياض عينيه ليري بصورة أفضل.

- لن يفرحوا بما يتوته هنا أبداً، ما دامت جيوش الإنقاذ قادمة. قال الحاج سالم.
- غريب أكرمكم يا ابن أخي. قالت الأنيسة. كأنكم لم تتعلموا مما حدثت لكم عام 36، فما زلت تتعاملون مع الزعامات العربية على طريقة البدوي في حكاياته مع بلة التين! مع أنكم شتمتم هذه الزعامات إلى أن فحيت الستكم! وحين سألتها: ماذا تعنين؟ قالت: حل بدوي سلة تين وخرج مع قطيعه إلى الجبال قبل شروق الشمس. في الصباح أكل ما أكل من التين، وولاً منه أن هناك من سيأتي له بفدائه ظهره، نظر إلى التينات وبدأ يشتم، تين سيء، تين معفن، وتظنور الأمر قبيل عمل التينات. عند الظهر جاع، ولم يأت أحد، وانتظر أكثر، فلم يأت الفداء، فقام إلى سلة التين وبدأ ينظر إليها بحسرة، ثم قال: هذه الحبة لا بد أن البول لم يصل إليها!

وأكلها، وهذه أيضاً وأكلها وهذه أيضاً وأكلها، حتى أكل كل ما في السلة، وهو يفتح نفسه بمثل هذا الكلام.

ثم صمتت وقالت: لو أكلتم تيناً في المرة الأولى لقلتُ أمر الله، ولكن ما أكلتموه، بعيد عن السامعين!! كان خراء.

لم تكن شمس ذلك اليوم قد أضاءت كل ساحات القرية وزوايا أحواسها، سمعوا طلقة، طلقة واحدة، وبعد ثوان سمعوا صراخاً.

لم يعرف أحد ما يدور، سوى أولئك الذين كانوا في الساحة، أولئك الذين أبصروا رجلاً يتخبط في دمه ووجهه في التراب، قلبوه، وإذا به تيم أبو دينة، كانت الطفلة قد اخترقت قلبه، تلفتوا يعرفوا مصدرها، لم يروا شيئاً، وفي البعيد، كانت المستوطنة هادئة، وحجارة البرج مضادة بنور الصباح.

في اليوم التالي، حدث الأمر نفسه، في الحارة الثانية، قرب بوابة دكان أبو ربحي، صاحت امرأة، وسقطت، ركضوا نحوها، إنها ليلى حشان، أم تاييف، واحتاروا هل سمعوا رصاصاً قبل صبيحتها أم لا. حدقوا في الجهات كلها ولم يكن هناك أحد. وبدأ البرج في هدوئه والساعة التي تفصله عن المكان بعيداً بحيث لا يمكن الاشتباه به.

في اليوم الثالث، لم يسقط أحد، مضى كل شيء بهدوء، حتى أنهم باتوا يظنون أن ما حدث في اليومين الماضيين كابوس ليس إلا، لكنهم تذكروا أنهم ساروا في جنازي القتلين.

في اليوم الرابع دوت رصاصات، ولم يكن لهم إلا أن يسمعوها، وقد بانوا أكثر بقلعة، سقط عبد الله رشيد قرب بوابة مطحنة القمح، صاحت زوجته ثركبة الوسى وبدأت تيكى فوق جثته، ثم وقفت تستنثت، وقبل أن تكمل صبيحتها جاءت رصاصات وأسفلتها تماماً فوق جثة زوجها. اندفعت القرية نحوها بحذر، كأنها هناك ميتين.

جبر درويش أكد أن الرصاصات انطلقت من البرج، نعم من البرج، وليس من أي مكان آخر سواء، لقد رأى يربطها. لم يصدقوا أن أحداً يمكن أن يصيب إنساناً من مسافة بعيدة كأنني تفصل أول بيت من بيوت الحامية عن الأسلاك الشائكة للمستعمرة.

قال: سأذهب وأناكد بنسي قبل شروق الشمس، سأذهب وأراقب وأعرف، فقال له عباس رشيد: سأذهب معك. لن يذهب دم أخي ودم زوجته هدرًا.

حين أظلت الشمس سمعوا طلقة، كان رأس جبر قد ظهر من خلف صخرة كبيرة، صخرة المراقبة تلك. تحت عينه اليمنى تماماً عبرت الرصاصة. ارتد للوراء فسقط رأسه على كتف عباس، عباس الذي وجد نفسه ملطخًا بياضورة الدم وفات العظم واللحم. وقبل أن يقول شيئًا، سمعوا في القرية الرصاصة الثانية. تحت عينه اليسرى تماماً عبرت الرصاصة. فتناثر الدم وفات اللحم والعظم على التراب خلفه.

اختفت الحركة في شوارع القرية تماماً.

وفي اليوم السابع وصلت قوة من جيش الإنقاذ. اجتمع قائدها واصف بشير بالحاج سالم وكبار البلد.

- منذ الآن لا مجال لحرب العصابات. إنها حرب جيوش. قال بثقة أذهلتهم. ولكن اليهود لا يحاربونا كجيوش بقدر ما يحاربونا كعصابات. فلماذا لا نفعل الشيء نفسه، ثم لماذا نحرمونا من الدفاع عن بيوتنا؟

- الأوامر واضحة، لا مجال هنا إلا للحرب الجيوش.

جمعوا الأسلحة التي استطاعوا الوصول إليها، وبدأوا بحفر الخنادق على طول واجهة المستعمرة في المنطقة الوسطى بين حدود القرية والأسلاك الشائكة. ووصلوا خط الخنادق الطويل بالقرية بختناق مترج.

حيز الجميع أن التام لم يُطلق صوب أحد من يحفرون.

لكن الموت عاد يذق أبواب القرية من جديد حين سقط الطفل يحيى عتياد، كان في الثانية عشرة من عمره، ذهبوا لوصاف بشير، لم يفعل شيئًا. وعلى مدى أربعة أيام تكرر الأمر.

دخل الحاج سالم عليه غاضبًا، وقبل أن ينطق كلمة، حاله الأمر، لقد كان الضابط يكي.

- ما لك؟

- كل يوم أرى إنسانًا يُقتل ولا أستطيع أن أفعل شيئًا. أيّ هوان هذا؟

- اتركنا نتصرف، نحن سنحل الأمر.

- وكيف ستصرفون؟

- أترك الأمر لنا.

صمت واصف بشير، لكن الحاج سالم لم يعد للبيت، ظل يسير إلى أن وصل بيت حسين ابن العزيزة: يا خال نحن بحاجة. عليك أن نجد لنا طريقة لتدمير ذلك البرج.

- اطمئن، كنت أفكر بهذا، ستسفه.

- وكيف تنسفه؟

- هناك صديق في اسمه إسمايل الغلايني يستطيع أن يصنع الألغام، سأذهب إليه وأطلب منه أن يصنع لي لغماً يحلّ مشكلتنا من جذورها.

- وأين يسكن؟

- في الخليل.

- ومن يستطيع الوصول إلى هناك؟

- سأصل وأرجع.

مساء عاد حسين ومع الغلايني نفسه، الغلايني الذي قال له: لن أستطيع أن أصنع اللغم إلا إذا رأيت البرج بعيني.

في الصباح تأمل البرج من بعيد، قال: الآن أستطيع أن أعمل.

ذهب الحاج سالم لقاائد القوة وآخره: اليوم سنريح الجميع من هذا الشيطان.

- ولكن لا تنس أن المستعمرة محمية من الإنجليز واليهود معاً.

- سيجد الشباب حلاً.

كان اللغم جاهزاً قبل الفجر بقليل، قال الغلايني: سأذهب معك.

- مهمتك انتهت هنا، وأنا الأعرف بالمنطقة. قال له حسين.

- إذن سأرافقك إلى أقرب نقطة لأطمئن.

سارا داخل الخنادق حتى وصلا النقطة الأقرب، زحفاً، اختبأ الغلايني خلف صخرة كبيرة، وهمس لحسين: لا تنس شيئاً عما قلته لك.

- اطمئن.

كان باب البرج على الجانب الآخر، خلفه حرش صغير، ظل حسين يزحف إلى أن وصل الباب. لم يكن هناك أحد، كل شيء صامت، دخل، وفجأة انطبق الباب خلفه، حاول أن يفتح، لم يستطع. أحس بحركة، حدّق برعب وهو يرى باباً يُفتح تحت قدميه، ورصاصة تنطلق، تخترق عنقه وتصلعده لترتطم بسقف الدرج، بدأ يهرب إلى الأعلى ويبدد اللغم. كان الفخ قد أُطبق عليه تماماً، حاول أن ينظر باتجاه

الأسل، فلم يجد سوى سيل من الطلقات التي وُجّهت إليه، أمسك بواحدة من القنبليات التي يعملها، سحب مسبار الأمان، ثم ألقيها، سمع ارتطامها بحواف الدرجات.

الحلقات وانفجرت.

صعد إلى الأعلى بكل ما فيه من قوة، كان الدرج يلتف بصورة دائرية على جدران البرج الداخلية، ولذلك كان باستطاعته أن يرى القاع بسهولة إذا ما انحنى قليلاً.

أحسّ بالدم حاراً يتدفق على وجهه ورقبته. قرر أن يعود، عندما أدرك أنهم لا يتبعونه، عاد، في منتصف الطريق سمع الباب يُفتح من جديد ورصاصاً بدوي، كان الصوت مرعباً في تلك المساحة الضيقة المظلمة.

ألقي قنبلة أخرى، كان انفجارها جليحاً لا يُطاق.

على حافة الباب الأرضي وضع اللغم، أشعل الفتيل، وصعد بكل ما فيه من طاقة إلى الأعلى. وقف على حافة البرج؛ لم يكن لديه أي خيار آخر، قفز. وانفتحت أبواب الجحيم، كان الرصاص يتناثر حوله في الهواء، وعندما سقط فوق تل التراب الأحمر الصغير أسفل البرج، اكتشف أنه لم يمت، أنه حي، لكنه كان بحاجة إلى لحظات كي يُصَدَّق.

لم تكن الشمس قد أشرقت، لكن الضوء كان كافياً لرصد أي حركة.

واصل زحفه، حتى وصل إلى المكان الذي ترك فيه الغلاييني ينتظره.

- تحتاج لإسعاف فوري.

- أي إسعاف؟ اللغم لم ينفجر.

- لا تقلق لقد رُبِّت ذلك، كي أضمن غروك من البرج سالماً.

كان حسين يضغط المجرح بكفه، لكن نزيف الدم كان شديداً.

- يبدو أن اللغم تعبان.

- قلت لك لا تقلق.

وقبل أن يُنهي الكلمة الأخيرة حدث ذلك الانفجار الرهيب، وتساقت الحجارة في كل مكان، حتى كادت تسحقها.

- الآن، قال الغلاييني.

راحا يركضان، حتى وصلا الخنادق، دون أن تُطلق عليها رصاصة واحدة، فقد كان الانفجار على درجة من القوة بحيث أشعل الجميع، ومن الهادبة تصاعدت

أصوات الفرع غامرة كل شيء، وظلت تتصاعد إلى أن تحوّلت إلى عرس مع شروق الشمس.

- كثرة الأحرار يا عتي جعلت الناس مفاجيعاً لفرح!

ذهب الحاج سالم إلى الضابط، وقبل أن يصله، وقف الضابط وقال له: ستمشي قليلاً. وبعد صمت طال، سأله الحاج سالم: شو في؟ هناك شيء كبير لا نستطيع أن نقوله!

وظل الضابط صامتاً.

أسس جاءته الأوامر أن تنسحب، لكنني لا أعرف متى سيكون ذلك. لقد أعلنت الهدنة.

- الهدنة؟ أي هدنة، وهذه الجيوش التي جاءت لتحارب، ما الذي فعلته، هل جاءت لمصادرة سلاحنا فقط.

- سأعيد لكم ما أخذناه من سلاح، سأحمّل مسؤولية ذلك. لكن هذا هو أقصى ما أستطيع تقديمه.

في البعيد كانت أصوات عربات تقرب، ظُلت تسير إلى أن توقّفت عند حافة الخندق الطويل. كان فيها ضباط من جيش الإنقاذ ومراقبون من الأمم المتحدة، ذهبوا وعقدوا اجتماعاً مع الإسرائيليين في المستعمرة. بعد ساعتين عادوا: منذ الآن، هذا الخندق سيكون حدود المستعمرة!

ولأول مرة ترى القرية سكان المستعمرة عن قرب، لقد خرجوا وعلّقوا بسبرون إلى أن وصلوا الخنادق فدخلوها، كانت أكياس الرمال التي جهّزها جيش الإنقاذ في طرف الخندق المواجه للمستعمرة، فبدأ اليهود بنقلها إلى الطرف المواجه للقرية. أمسك أحد جنود جيش الإنقاذ بندقيته وشرّبها بمسحرة فالتكسرت. وبدأ يكي.

- لماذا فعلت ذلك؟ صرخ وأصف بشر.

- هذه البارودة التكسرت قبل أن أكسرها.

وصل ناجي الهادية مساء، حاملاً بندقته التي فُز بها، كانت المعارك في القدس على أشدها، لكن رائحة الغزمية كانت تفوح من كل شيء.⁴⁴

حين وصلت السيارة التي نقله إلى مشارف القرية، قال له السائق، هذه آخر نقطة يمكن أن أصلها.

- ولماذا؟

- أنظر إلى هناك.

كانت المقاجة أكبر من أن تُحتمل. النيران تأكل كثيراً من بيوت القرية.

هبط من السيارة، لم يكن هناك سوى الصمت.

- هناك أشياء كثيرة، حدثت خلال الأيام الماضية. قال له السائق. وكل ما أستطيع قوله لك: ابتعد عن الطريق المعبّد، وأنتبه.

ترك الشارع خلفه، مضى شرقاً، ثم انعطف جنوباً، وعاد يسير إلى الغرب.

لم يكن هناك أحد، النار تلتهم الكثير من البيوت، الجثث تملأ الشوارع. حين وصل لبيته لم يجده، كان البيت قد سُفّ، لم يبق هناك سوى حجارة مبعثرة. حفر يديه عما ولا الوصول إلى حقيقة ما، أن يعرف مصير أحد، زوجته، أطفاله.

ليس إلا الحطام.

صعد باتجاه بيت أبيه.

يبدو أن المهاجرين لم يستطيعوا الوصول إلى هناك، لكن القوضى كانت تعم برج الحمام، طائر يحط وطائر يطير.

دار في القرية، لم يعثر على أثر للحياة.

صعد إلى سطح المدرسة، كان يبكي، تذكّر البندقية التي في يده، نظّر صوب المستعمرة، وبصمت راح ينتظر قوات الأعداء.

⁴⁴ - (قائد الملازم غازي الحربي من الجيش العربي (الأردني) هجوماً جريئاً من باب العمود لاحتلال بناية التور دام بغلطة من القوات الموجودة خلف السور وبعض القرعات، واحتلها، لكن أسراً من قائد الإنجليز اللواء العقيد غوردلي قد صدر إليه بالاسم، بعد أن خسرت السرية 19 شهيداً، وقد لُحق نائب السرية لياضى الدخيلان من مشيرة الحفطات ومعه ثمانية جنود احتجاجاً والتحقوا بالثور. وصدرت الأوامر لغازي الحربي بالعودة إلى عتبان، وعندما فصلت مدفعية الجيش العربي جميع الأمهات اليهودية في القدس الجديدة بكتافة شديدة، تم تبديل قائد المدفعية القديم محمد المايطنة وإرساله إلى حبان هجوماً لحاكمته على تلبير العناد، وعين مكانه الجبر بولاك.)

الهادية ليلا

كان ناجي آخر شخص يصل إلى الهادية. أما أخوه محمود فقد وجد نفسه بعد أن تلعّطت الطرق وسقطت الرملة واللد ويافا وحيفا، وحيداً وعارياً كما تركوه في تلك الساحة ذلك اليوم، وحين وصلته رسالة من ليل تقول له فيها: إنها ستغادر مع أهلها بالطائرة إلى بيروت، أصبح عارياً أكثر وسط الجموع التي راحت تتدافع، بعضها يتجه للبحر وبعضها للشمال وبعضها لرام الله وبيت لحم. لكنه قبل أن يفعل ذلك، انتابه حين جارف إلى ساحة الساعة. وهناك أمام ما تبقى من عمارة السراي التي كان ينتظر ليل أمامها، وقف كعمود ملحق، العمارة التي تمّ تدميرها قبل أربعة أشهر بواسطة سيارة ملغومة أوقفها اليهود في زقاق ملاصق، ما أدى لقتل العشرات الذين كانوا فيها في ذلك اليوم.⁴⁵

أمام عمارة مهذمة وباب لم يعد موجوداً وقف ينتظر.

أخرج رسائلها من جيبه قرأها أكثر من مرة، وقرر أن يتجه إلى الشمال.

⁴⁵ - كان الصهاينة قد شرعوا (باستخدام طرق جديدة لتقسيم الثورة الفلسطينية، تضمنت تلجير القناري بالقبائل (في القدس مثلاً في 17 آذار 1937) وزرع القمام موقوتة كهربائية في الأسواق المكتظة بالفلسطينيين، والتي استخدمت لأول مرة ضد فلسطيني حيداً في 6 تموز 1938. وعندما اضطر البريطانيون للتخلي عن دعمهم للمشروع الصهيوني، بعدما انتهوا بدورهم من قمع الثورة الفلسطينية عام 1939، فقد أصبحوا هم أنفسهم هدفاً للهجمات الصهيونية. وكانت هذه خطة حاسمة في تاريخ العلاقة البريطانية - الصهيونية. حيث تضمن الرد الصهيوني .. اغتيال مسؤولين في الحكومة البريطانية، وخطف مواطنين بريطانيين كرهائن، وتلجير مكاتب تابعة للحكومة البريطانية وقتل موظفين ومدنيين، وتلجير السفارة البريطانية في روما عام 1946، وتلجير سيارات متوقفة بالقرب من مبان حكومية، وقتل رهائن كره على المراسلات الحكومية، واليوت برسائل وطرد متفجرة لسانة بريطاني في لندن، وأعمالاً أخرى مشابهة، (وكان الخطة الرئيس هذه الهجمات، وخاصة التلجيرات في الأسواق والقناري العربية وتلجير السيارات، هو متابع يثن، الذي أصبح رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد.)

أصوات رصاص وانفجارات قنابل الأنحاء، ما يظنه صادراً من الجنوب، يكتشف بعد لحظات أنه من الشرق، وبين حين وحين يضاء الأفق بانفجار آخر من ما يلبث أن يتلاشى كالبرق.

لم يعد يعرف إلى أين يمكن أن يتجه. لم يكن هناك سوى المستوطنة التي لا تبدأ حركة السيارات الداخلة إليها والخارجة منها.

قبل الفجر غلبه النوم لحظات لا غير، فرأى الهادئة تندفع من كل جانب، ورأى سيارة لجنة الكشف التي أرسلتها المحكمة تنقلب في وسط الساحة. استيقظ، التفت حوله. ليس هناك أحد.

فكر بالتسلسل إلى المستعمرة، مهاجتها، والموت مثل كل أولئك الذين ماتوا.

نزل من على السطح، سار في الشارع، كانت دكان أبو ربحي مشرقة، سمع صوتاً ما، حركة غريبة، أول حركة يسمعا منذ وصل، تراجع خطوات، تحفز، أطل ذلك الجسد التهك: مكانك. صاح ناجي.

تجعد الجسد مكانه: أنا ربحي.

- ربحي! شو يتسوي هان؟

- أبحت عما يمكن أن تسكت به الصغار في الكروم والبساتين.

- ما الذي حصل.

- ليس هذا وقته. خذ هذا الكيس والمحظي.

- نمنا ونحن واثقين أن هنالك جيشاً يحمينا، وفي الصباح، حين ذهبنا للصلاة، أحسست بحركة غريبة، كانت الأرض التي تركتها جيش الإنقاذ فوقها ليلا، فارغة تماماً، كأنها انشقت وابتلعته⁴⁵. لم يبق أحد، كنت قد وصلت المسجد حين سمعت تلك الأصوات الغريبة، عرفت فوراً أنهم اليهود. دخلت المسجد وقلت يا شيخ حسني اصعد إلى سطح المسجد وثب الناس اليهود وصلوا. صعدت، وقبل أن يُتمّ جملته: يا ناس اليهود دخلت جاءت صليبة رصاص. كانت تلك هي الصليبة الأولى، من قُتل قبل ذلك قُتل بالبلطاط والسواطير؛ ألقته لم يزل هناك

⁴⁵ - (.. وكان لنجاح فوزي القاتوق في وقف ثورة 1936 أثره الكبير في تعيينه فيها بعد إجماع الملوك والزعماء العرب قائداً لميليشيا جيش الإنقاذ، وبعد دخول هذا الجيش إلى فلسطين، أقيم الملك عبد الله على القاتوق بطلب بانثا... فانتسب إلى سوريا خلال ثلاثة أيام ابتداء من 17/5/1948 مسلماً ومراقباً للجيشين العراقي والأردني. ثم عاد واحتشد في جنوبي لبنان ودخل إلى منطقة الجليل شمالي فلسطين).

فوق المسجد؛ هربت، لاحقني الرصاص، رحلت أركض محاولاً الوصول إلى (البرن) الذي أحضرته، وصلت، كانت البلدة قد استيقظت، اندفعت كلها إلى الشوارع، كلّ يعمل ما يستطيع الوصول إليه لرد الهجوم، وصل سليم عقل بالبارودة، فقلت له، إنهم ورائي، استعظم في زاوية المساحة وبدأ بإطلاق النار، وكانهم فوجئوا، توقف اندفاعهم، ولم يعد هناك غير الرصاص، انفجرت قنبلتان، لا أعرف أين، وسمعت الصراخ في كل مكان، كما لو أن شقايبا القنبلتين قد أصابتا الجميع، كان البرن في مكانه، داخل الجدار، كما تعرف، أزلت طبقة الطين، سحب القماش الذي يلتصق عليه، كانت ساحة القرية أمامي كلها، لم يكن هنالك ضوء أبداً، الليل كله كان هناك في الساحة، لكنني استظمت أن أرى، ربما لم أكن أرى، ربما كنت أسمع فيها لي أنني أرى ذلك الصوت الذي ينتقل من مكان إلى مكان، حين أطلقت الصليبة الأولى أدركت أنني أصيبت بعضهم، قتلته، لا أعرف. وفرحت حين جاء الرصاص من الجهة المقابلة، فلاحظت أحسست أن الرصاص الذي أطلقته كان باتجاه أهل القرية لا باتجاه اليهود. بعد قليل اختلط كل شيء، اشتبك الرجال معهم وجها لوجه، ولكن، من يستطيع أن يعرف إن كان الذي أمامه ابنه أم عدوه، كنا نقاتل هؤلاء، نقاتل كل شيء، أنفست، ثم دق انفجار بعيد، في الحارة الأخرى، وارتفعت السنة النار، قلت لا بد أن حظيرة صبري النجار تحترق، وكانت هي. ولكن أين ذهب جيش الإنقاذ؟! لا أعرف، لا أحد يعرف، كيف انسحب ولم نحس به، كالمصوص، سلموا البلد نائمة لليهود، ورحلوا. خرجت حاملاً البرن، أركض خلف المهاجرين، رأيتهم ينسحبون، أطلقوا الرصاص نحوي، ولم أعد أحس بشيء، ركضت لكي أركمهم، أركمهم فقط، وكنت أطلق النار كما لو أنني أريد أن أخفيهم لا أن أقتلهم، حينئذ ذلك كثيراً فيما بعد، أدركت أحدهم، وجهه بنديته نحوي، أحسست بأنه يوجهها لشخص آخر غربي، ضغط الزناد، لكن البندقيّة كانت فارغة، قذفها، كان يمكن أن تشم رأسي لو أنها أصابته، قر، وقفت أرائيه يتعبد، بعد لحظات صحوحت، أطلقت عليه النار، قتلته، لا أعرف إن كان لم يزل هناك تحت شباك بيت سميد محمد أم لا، حدث، رأيت خس بواريد في أيدي الرجال، لم تكن من بواريدنا، وتناجر سليمان عبد الله وحسن شحادة وجبال ربحي. هذا يقول البارودي لي، وذلك يقول بأنبا لي. سألتهم أين كانت مرمية؟ فقالوا: هناك. قلت هم هذه البارودة كادت أن تشم رأسي حين ألقيت بالناجيه، إنبا لي. فصمتوا. تناولني سليمان البارودة، فسألت: من

يستطيع استخدامها بصورة جيدة، فلذلك حسن: أنا، ناوله إياها. سألني حسن: شفت أبوي؟ قلت: لا. فجاء، بدأ يركض نحو بيت أبيه فقلت له: انتظر. كان علينا أن نتسلل بحذر لنعرف أين أصبحوا، لم يكن هناك في أيدينا سوى ثلاث عشرة بندقيّة، والبرن الذي نراه. وكلما كنا نصل إلى بيت كنا نسمع البكاء والصراخ فيه، كان القتل في كل مكان؛ فاجأوا الناس نائمين، وكنا نعتقد أننا في حماية جيش الإنقاذ، لكن الحق علينا يا عمي، فحين ننسى، الله كم ننسى، يا عينا كم ننسى، كيف نسينا أنهم خدعونا عام 36، كيف؟ كيف ننسى!!! أرسلوا لنا جيوشاً صنعتها الإنجليز وبقودها الإنجليز لتقاتل الإنجليز واليهود الذين يحميهم الإنجليز، كيف صدّقنا؟⁴⁶ دخلنا بيت محمد شجاعة وجدناه ميتاً فوق جثة أحد الهاجين، حاولنا أن نرفعه، لم نستطع، كانت يدها كالخيشة حول رقبة اليهودي الذي تحته، يبدو أنه لم يجد شيئاً في يده تلك اللحظة فهجم عليه، بصمغية فككتنا بيده فوجدنا أن اليهودي الذي تحته قد أطلق عليه النار من مسدس الذي في يده، خمس رصاصات والله، رأينا آثارها في جسد محمد شجاعة، وفي الداخل وجدنا العائلة كلها قد قُتلت، وأدركنا أن محمد لم يمت معهم، ربما كان في غرفة أخرى، وحين عاد ورأى عائلته غارقة في دمه هجم على اليهودي، وعرفنا أنهم دخلوا من الشمال أيضاً وقتلوا غزاله نمر وأولاده الستة وأختها عاتية نمر وأولاده الخمسة، كلهم أقتلوا نائمين، نهار الخامس من السبعين سنة وأخوه الأصغر أحمد الجاسم، رجلاً الفارس الأعشى الذي لم يعرف أين يذهب، طخواه بالفرش، ويوسف محمود لم يستطع أن يتحرك، رجلاه كانت مكسورة، حامد خليل، حسني، عمه الصغوب المعجوز الحشيرة، أحمد عابيد، علة زوجة محمد الخليل.. كلهم، كلهم..

وقلتنا سليمانودون، يا جماعة سيمودون، وسيسريون بقوة أكبر هذه المرة، بعد أن عرفوا أن لدينا سلاحاً. قُتلت، خلدوا الأولاد وأطلقوا النبال، السيارات، الكروم، اللهم توخّوهم بعيد، سيمودون، ولن يرحموا أحداً.

⁴⁶ (أوم يكن يوجد أيضاً طوال العام الأخير قبل الفتنه من أعضاء militia العربية العليا في فلسطين سوى الذين فقط، فـ لقد ألزت "الفيلاد" الرحيل بدون وأمانة، قبل مجيئ الطوفان الكبير.) و (كانت تعمر بمخيمات الزناتة - القادمة من الخارج - تدعو الناس إلى الانضمام وفتح الجبهه العربية المغيرة بكل شكر وثناء، وكانت هذه التعريجات مثالا تاريخيا على التضليل السياسي إلى أبعد حد ممكن، ذلك أنها تناقض تناقضا كاملا مع القرارات السياسية في حينها)

خسائر حرب!

كانت القوات الإسرائيلية قد قطعت الطريق على سرية مصرية من جيش الإنقاذ بين القبية والهادية، فوجه الجزء المتواجد شرق القبية إلى الحلبيل، وتوجه الجزء الموجود غرباً إلى عراق النشبة. ثم هاجمت القوات الإسرائيلية بين عراق سويدان والمجدل فلقاً جزء من الجيش إلى الهادية.⁴⁷

كان عددهم أكثر من ألف ضابط وجندي، حين دخلوا شوارع القرية، راحوا يبيكون، ساعدوا من بقي من أهل القرية على دفن القتلى، وطلب قائد القوة أبيوب عبده من الرجال أن يذهبوا ويعودوا بأسرهم من الجبال والبياتين. وقبل وصول أول عائلة كان قد أمر بتحصين القرية بحاجزين متوازيين من الأسلاك الشائكة وأمر بزرع الألغام بينها. خُشرت خنادق جديدة غير تلك التي تمّ تسليمها للإسرائيليين، وجهّزت الدُشَم للمدافع في أقل من يومين، رُبِطت المواقع الأمامية والحلفية بخطوط هاتف، وتمّ نشر الجنود في الخواكير والبيارات المحيطة بالقرية، وأمر جنوده ألا يطلقوا طلقة واحدة إلا إذا رأوا العدو على مسافة تضمن إصابته بدقة.

"إن لم تستحيوا ستعربكم خسائر حرب!!"

⁴⁷ - (من المخابرات المشهورة قيام فرقة من جيوش الإنقاذ بقتل فرقة أخرى هاجمت مستعمرة إسرائيلية قرب غزة، لأنها لم تأخذ الإذن من الفرقة الأولى، وأمرها بالترابيع...) لم يكن هناك تنسيق بين الجيوش العربية، وكان عمل القيادة على أعلى مستوى في حكم المدوم، تين أن أسلحتنا في كثير من الحالات أسلحة قاسدة، وفي أوج القتال صدرت الأوامر لسلح المهندسين بناء شالية للاستعجاب في غزة للملك فاروق، وحين صدرت الأوامر إليّ بأن أفرق قوة من كتبة المشاة السادسة إلى عراق سويدان التي كان الإسرائيليون يهاجمونها، وقبل أن أبدأ في التحرك نشرت لمركانا كاملة في صحف القاهرة (1)

جاء جواب القيادة واضحاً على طلب الدعم الذي قلّته القوات المحاصرة.⁴⁸

تحت زيتونات دار الثمري اجتمع ثلاثة عشر ضابطاً ومعهم الحاج سالم للتشاور في الأمر. كانت المفاجأة صاعقة حين أخبرهم القائد برؤ الحكومة: هذه هي الصورة اليوم، وقد أحسب أن تكونوا على علم بهذا، وأن تأخذوا القرار بأنفسكم؟

- ما تأمر به. قال الضابط عمر.
 - لم نجتمع هذا اليوم لإصدار أي أمر، اجتمعنا لكي نتشاور ونخرج بقرار مشترك. هل تتسحب بقرارنا، أم نقف وندافع عن حياة هؤلاء الناس وقضيتهم العادلة، ومن يعرف، فلعلنا إن تركناهم الآن، لن يمضي زمن طويل قبل أن نرى الإسرائيليين في القاهرة.
 - الموت أو العودة إلى بلادنا مرفوعي الرأس.
 - هذا الكلام، لا يكفي. قال القائد.
 - ماذا تريد إذن؟
- نهض الحاج سالم وأحضر القرآن، فاقسموا معاً: إما الموت أو العودة إلى بلادنا مرفوعي الرأس.

⁴⁸ - شوف!! في الشمال الفلسطيني كان الأمر مختلفاً تماماً فقد (خرجت الجاهليين.. لاستقبال البطل فوزي القاتوني قائد جيش الإنقاذ!! وكان في خيلنا صور البطل فوزي القاتوني المعلقة على الجدران من أيام 1936، لكنه هذه المرة في قرية (جبع) والتد مقره في سرابا (دبة ترسللا) قرب سبتة الظهر وهي سرابا شخصنة لخمسة كانت رئاسة للبوسلي قبل ذلك، وعندما أعادت به وقود الأعمال للثلاث كان جوابه أنه سيقاقل بعد انتهاء فصل الشتاء (إنني أنظر قلنا حسنا وجافا للأرض لأنني سأستخدم أسلحة ثقيلة). وقد كانت وفود الحوافيات تنظار عليه في مقفه وتحت حراسة رجاله دون أن يترك الناس أتيم بعض قادة الصهيانية كما اتضح لاحقاً!! قضى 4/1/1948 اجتمع القاتوني سراً مع جوش بالون أحد قادة الحافاة وأول رئيس للموساد في الكيان الصهيوني - فيما بعد - من أجل تنفيذ المخططة العدة مسبقاً، وقد جرى هذا الاجتماع في أعراس قرية نور شمسي، وله طلب القاتوني من بالون (نصرةً لثيليا وأحد!!) قرّة عليه بالون: إن حاجتنا كنيها كان سرّة عليك بالأسوأ، إليك أن تندخل!!

وعندك كانت له وخيشة فخر كانت مشروعة، ومهما الناس أنه يقاتل، فسلم منطقة الجليل كلها إلى اليهود وفي وجود جيش الإنقاذ سلطت مدن فلسطينية كبيرة مثل حيفا ويافا وعكا والناصرة وصدد. لا، لم يكن متفاساً كما عجل الناس في بادئ الأمر وحسب، بل لبث للجمع بين لا يبيع عمالاً للشك أنه كان متواطئاً مع الصهيانية، ويتسوق غريب، وقد خرج من فلسطين مدموماً لتلاحقه الدماء.

التفت القائد إلى الملازم لطفي وقال له: أنت المسؤول عن العمليات. ولا أريد أن نطلق مطلقاً واحدة إلا ونصيب هدفها. ليس لدينا سوى ما بين أيدينا من ذخائر. أما ما أريد من أهل الهادية فإن يُحفر ملجأ في كل بيت. وهذه مسؤولية الحاج سالم. أما المسألة الثانية التي أريد أن أبحثها مع الحاج سالم فهي قضية التموين. نحن نستطيع القتال إلى ما شاء لنا الله، ولكن وجود التموين مهم مثل وجود الرصاص كما نعرفون.

- اطمن، لدينا مخزون كبير من القمح، وهذا الاحتياط كان دائماً موجوداً، ليس لمواجهة الحروب بل لمواجهة سنوات المحل. وأظن أننا لن نموت عطشاً، فهناك ما يكفي من ماء، ولكننا بحاجة لتشكيل لجنة من العسكريين والمدنيين لجمع التموين بصورة منظمة من الناس.
- لا يعقل أن نأكل القمح وحده!
- هناك المواشي، هناك الكثير منها، ومن الأفضل للجميع أن نذبح من أن نموت بسبب القصف.
- ولكننا لا نستطيع أخذ مواشي الناس.
- هناك حل، من تأخذ منه بعض مواشيه إيصالاً موقعاً من قبلك، يتصّل على ما أخذناه منه وما سندفعه له فيها بعد. ثم من يقول لا في وضع كهذا؟

كانت الأرض حراء، غير قاسية، تستجيب للمعامل يسر، ومساعد توافر قضبان سكة الحديد والأخشاب التي تستخدم لتثبيتها في وجود أسقف قوية وأمانة للملاحي، في حين كانت استحكامات الجيش مُغلقة تقريباً، يسير فيها الجنود دون أن يستطيع أحد اكتشافهم. أغلقت جهات الهادية، ولم يعد هناك مجال للاتصال بالخارج إلا عن طريق التسلل.

كانت السرعة التي نُفذت فيها الأوامر مذهشة للجميع، حتى اليهود الذين وجدوا أمامهم أسلاكاً شائكة واستحكامات بهذه القوة. حاول المصايرون التقدم، فوجئوا. كانت خطوط الدفاع هادئة إلى حد غير عادي، حين وصلوا قريباً من الأسلاك، اكتشفوا أن الأمر كان كميناً، بسرعة انسحبوا، لكنهم خسروا الكثيرين.

مساءً، تقدّم عدد من الجنود اليهود والنعين رايات بيضاء بهدف سحب جيش قتلاهم. شمع لهم بذلك.

- لن نسحبهم قبل وصول ضبانات من القائد بأنكم لن تطلقوا النار.

- دعوهم يأخذون قتلاهم.

كان خوف المحاضرين كبيراً من أن تنفّخ الجثث وتغدو الروائح المبيحة منها أكثر قسوة من الرصاص، والمواء جيب من الغرب.

في الهجوم الثاني الذي تمّ ليلاً، استطاعوا عبور الحاجز الأول، لكنهم فوجئوا بحقول الألغام، انطلقت في السماء قذائف التنوير، ولاحقتهم الرصاص حتى اختلوا تماماً. عادت الرايات البيضاء للظهور من جديد.

بعد ذلك تغبّر كل شيء.

ثلاث طائرات حربية عبرت الأجواء، طافت في سماء القرية فصاح الجنود المحاصرين بفرح: طائراتنا!! وقبل أن يلمعوا إسمائهم عادت الطائرات من جديد وشنت غارتها الحاطفة. كانت تلقي (الكيازين) التي تُشعل النار وتندثر كل ما تصيبه، مباشرة سقط أحدها على شجرة التوت في حوش المضافة فاجتثها من جذورها.

- لقد رأيت الشجرة تُحترق في المواء كأنها ورقة. قالت منيرة.

ليلاً، كان على أهل القرية التسلل لإحضار طعام لمواشيهم، لكن الحصار ضاق أكثر، وتحولت السهول المحيطة بالقرية إلى رساد مع تزايد قصف الطائرات والمدفعية، وغدا الطعام الوحيد هو اللحم الذي يُطبخ مع الفصح المجروش، الذي يتم تحضيره في قدر كبير.

بعد أقل من ثلاثة أسابيع، بدأت النظافة تتضاءل، طالت لحى الجنود، نفر شعرهم، ولم يعد هناك مجال لمعرفة الضباط من الجندي إلا عما علّق على كتفيه أو ذراعيه. وتضاعفت قوة النار بحيث تحوّلت أشجار الصبار إلى فحم، تلك التي لم يجدوا سواها في الفترات الأخيرة طعاماً للمواشي بعد إحراق أشواكها.

اقترح الحاج سالم على القائد أن يتسلل بعض رجال القرية إلى الخليل للاجتماع مع وحدات الجيش هناك، لطلب المساعدة: صحيح أن قرار الحكومات واضح بشأن دعم الجنود المحاضرين، لكن من يعرف، ربما يستطيع الضباط التصرف وكسر هذه القرارات سراً.

وافق القائد فوراً على اقتراحه.

- سيذهب عليّ ابني قبل أبناء الآخرين.

وقال عبد الفتاح جابر سأذهب وقال جمعة صلاح وأنا الثالث.

كانت الجهة الشرقية هي الأقل خطورة، وقوات جيش إسرائيل الموجودة فيها أقل كثافة.

تم إخبار قوات الجيش المحاصرة بموعد الخروج، بعد أن زوّدا الثلاثة بمسدس واحد وكلمة سر هي (الحماة).

- وكنا نستخدم كلمات سرّ تضم حرف الحاء باستمرار، لأن اليهود والإنجليز ينطقونه (خاء)!!

فتحوا ثغرة في الأسلاك الشائكة ولتكنوا من المرور بسهولة، بسبب الظمئتان الإسرائيليةين لكونهم هم الذي يُحاربون.

من هذه الطمائية تسللوا، ظلّوا يسرون إلى القبيّة، بيت جبرين، الدوايمة، كانت هذه القرى قد احتلّت لذلك كانوا مضطرين للدوران خوفاً ومواصلة طريقهم في الوديان إلى الخليل. ظهر وأصلوها، كانت المدينة مثل يوم الحشر، الضياع يملأ الشوارع والناس لا تجد مكاناً يسترها، ونهر البشر التدفق نحوها لا يتوقّف. بحثوا عن مطعم يأكلون فيه، كانوا مرهقين وجائعين، وسألوا عن الجيش المصري فقالوا لهم: إن قيادة الجيش الآن في دار لحشة بين بيت لحم وبيت جالا.

حين علم الجنود بأن الثلاثة استطاعوا التسلل عبر الحصار، تعاملوا معهم كأبطال، أحضروا لهم الطعام، فالتهموا كل ما قدّم لهم، كما لو أنهم لم يأكلوا من شهر.

- هل يُمكن أن هنالك آباء في بلدكم، منذ شهرين ونحن نسمع القذائف تتساقط عليكم، وفي الليل ترى الانفجارات أبغيتنا، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً!!

بعد قليل حضر القائد على عجل، وقبل أن يقول كلمة راح يماثلهم وحين انتهى إلى جمعة صلاح راح يردد: الله ما أحلّ رائحة الأرض فيكم!!

- كنا نظنّ أن راحتنا لم تعد تطاق. قال جمعة لعليّ فيما بعد. ثم قال له: اقرب لأشمتك!

وعندما شتمه، قال: كما قلت لك، لا تُطاق!!

أخرج علي رسالة أيوب عبده وتناوله إياها، فتحبها وراح يقرأها: غدا سأوقر لكم كل ما يمكنني توفيره. أما الآن فأظن أن عليكم أن تستريحوا، وتذهبوا لتستحموا.

- ألم أقل لك، واثقتنا لا تطاق. قال جمعة صلاح لعلي.

في الصباح سلمهم القائد تسعة آلاف جنيه، حمل كل منهم ثلاثة آلاف منها، وزودهم ببعض الاحتياجات البسيطة، شاي، سجاتر، قهوة، وملح، فقد اضطروا في الفترة الأخيرة إلى تناول الطعام بلا ملح. حملتهم مصفحة، وظلّت تسير بهم إلى أقرب نقطة آمنة من الهادية، أنزلتهم، فأكملوا طريقهم عبر الوديان.

كانت فرحة الجنود بوصول السجاتر والشاي هي الفرحة الأكبر، بعد أن عاتوا طويلاً من تبع (الحيثي) الذي يجعلهم يسعلون طوال الوقت.

في صبيحة اليوم التالي، قرروا توزيع المال على الناس مقابل المواشي التي نَمّ ذبحها، في البداية أخذ بعضهم المال بفرح، ولكنه أدرك بعد قليل أن هناك من يُقدّمون حياتهم دفاعاً عن القرية فكيف يقبضون المال مقابل مواشيهم.

حين أهاد هاشم شحادة البالغ الذي استلمه، جاء الناس، وقفوا في صف طويل أمام خندق القائد وأعاد كل منهم ما استلمه بصمت.

كان المشهد مؤثراً فصر الدمع من عيون الضباط والجنود.

أدرك الإسرائيلون أنهم لن يستطيعوا احتلال الهادية بالقوة، فأرسلوا عن طريق موظفي هيئة الأمم المتحدة أنهم يريدون التفاوض للوصول إلى حل. ووصل ممثل من الحكومة المصرية فجأة، قيل أن يرّد القائد على ذلك الاقتراح.

- إلى متى ستبقى على هذه الحال؟ سأل ممثل الحكومة قائد القوة.

- أي حال؟؟

- هذا الوضع لا بد أن ينتهي ذات يوم، وموقف الحكومة واضح في هذا المجال وأنتم تعرفونه.

- وأنت تعرف أنني لا أستطيع أن أقرر شيئاً قبل الرجوع إلى الضباط الآخرين.

- ومتى أنتقل جوابك؟

- اليوم هو الاثنين، لنقل الأربعاء. أهذا مناسب؟

- مناسب.

صعد ممثل الحكومة لسيارة هيئة الأمم التي أتت به، وعاد من حيث أتى خلف الأسلاك الشائكة.

توقّف التصفّ تماماً بانتظار الجواب، عادت الحركة للشوارع وأصبح بإمكان الناس التجول بحرية. في مساء عقد القائد اجتماعاً لضباطه، حضره الحاج سالم وعدد من رجال القرية، وشرح لهم ما يدور. كان الجميع بحاجة إلى فترة هدوء يلتفتون فيها أنفاسهم، الجنود وأهل القرية: لن نخسر شيئاً، سنكسب الوقت وهذا الأمر لصالحنا.

وتقرر اختيار ثلاثة ضباط للذهاب والاجتماع بموظفي الأمم المتحدة واليهود.

كانوا أشبه بعمرسان حين غادروا الهادية، وقد حرص قائد القوة أن يكونوا كذلك لإعطاء انطباع قوي ومهم عن الأوضاع في داخل القرية.

- من عاش تلك اللحظات لا يمكن أن ينساها أبداً!!

- لن أقول لكم شيئاً، ولن أعلبكم أي تعليقات. قال هم القائد.

- كن مطمئناً.

إلى الحيمة التي تجهّزت لهذا الغرض على بعد خمسة كيلو مترات، ذهب الضباط الثلاثة، صافحهم، جلس الجميع.

نهض أحد الضباط الإسرائيلين، في يده علبة سجاتر، تناول لظفي وكبّال سيجارين، اعتذر عُمر: بعد قليل أحضروا الشاي، ولم يكن هناك سوى الصمت.

نهض كبّال، ووسط دهشة الجميع أخرج علتي سجاتر، فتحبها وبدأ بتوزيع السجاتر على الحضور. سحب الضباط الإسرائيليون نفساً من السجّارة وسأله مستغرباً: وهل لديكم كثير من هذا التبغ؟

- لدينا ما يكفينا ونفيض عن حاجتنا.

- ولكن، لا أظن أن الذخيرة التي لديكم ستفيكم مثلاً سيكفيكم التبغ.

- لدينا ما نحتاجه وأكثر.

- هذا يعني أن التفاوض معكم لن يُجدي؟

- لقد طلبتم الاجتماع بنا وجاتنا لتعرف ما تريدون.

- سنعتبركم أسرى حرب، ولستم أفضل من جنود هتلر الذين استسلموا.
ستعيشون بدل أن تموتوا في القتال أو بسبب الجوع!!
- وما علاقتنا نحن بجيش هتلر، فأنتم الذين تمتدنون علينا وتريدون إخراج الناس من بلادهم.

- ولكن هذه البلاد بلادنا، وقد وعدنا الرب بها.
- لكنكم كنتم بحاجة للبفور كي يتحقق هذا الوعد.
- لن أجادلك. ولكني أؤكد بأننا ستعاملكم معاملة الدول وليس معاملة العصابات كما تسموننا. ثم إن قضيتكم ليست هنا، فأنتم تقفون على أرض غيركم، وربما كان الأفضل لكم أن تعودوا لتقاتلوا الجيش البريطاني في بلادكم، الجيش البريطاني الذي نجحنا هنا بالتخلص منه وإعلان استقلالنا!

- لقد استمعت إلى ما تريد، وأقول لك إننا جئنا هنا من أجل عقد اتفاقية لوقف إطلاق النار ونقل الجرحى خارج خطوط النار، إلى مستشفياتنا، لمساعدتهم على الإفراج عن إصابتهم. لا شك أن وضعكم أفضل من وضعي، أنا لا أخادع نفسي، لأنني لن أستطيع بصمودي تغيير ميزان القوى في حرب انتهت، لكن في استطاعتي أن أتخذ شيئاً واحداً هو شرف جنودي، ولذا سأحارب حتى الرصاصة الأخيرة.

- ونحن نضمن لكم أيضاً شيئاً واحداً إذا ما استسلمتم هو أن نعاملوا معاملة الأسرى، وأظن أن عليكم أن تختاروا بين الأمرين: الشرف أو الحياة.
تدخل موظفو هيئة الأمم وقد أحسوا بأن الحرب على وشك أن تندلع تحت سقف الحيمة، فضغطوا باتجاه عقد هدنة لمدة شهر.

قبل أن يغادر كمال أخرج عليه سجناء آخرين من جيبه، وترك العُلب الثلاث فوق الطاولة وسط دهشة الجميع. واستقلوا سيارة هيئة الأمم المتحدة عائدين.

لم تدم الهدنة أكثر من عشر ساعات، فعند منتصف الليل، تسلمت قوة إسرائيلية من الجهة الجنوبية، وبصمت قامت ببيع عشرات الجنود الذين كانوا مطمئنين لبده سريان تلك الهدنة الصغيرة، وواصلت طريقها إلى داخل القرية، وكما فعلوا في المرة الأولى، استخدموا السلاح الأبيض لقتل أكبر عدد ممكن من الناس بصمت، وحين وصلوا قلب حارة التجار، انته عدد من الجنود للحركة الغريبة، طلبوا كلمة السر، فهب الرصاص نحوهم حاصداً اثنين منهم، وهنا تغير الوضع كله.

ناجي الذي غدا واحداً من أفراد القوة النظامية، كان عائداً من نوبة حراسته في الجهة الغربية، أدرك ما يدور، اختفى في إحدى الزوايا، وحين اقتربوا إلى قنبلة يدوية باتجاههم، حاولوا الانسحاب فألقى قنبلة أخرى، تابعهم بإطلاق نار من بندقيته. اختفوا. كانت قواتهم قد أصبحت فوق الجسر الذي يصل نصفي القرية، اندفع الناس والجيش المحاصر من كل الاتجاهات يحاولون سد هذه الثغرات التي مزقت دفاعات القرية دون رحمة.

بعد لحظات دوى انفجار كبير، لقد نسفوا الجسر.
- ما الذي يمكن أن تفعلوه؟ كان السؤال الوحيد الذي يتكرر.
- افعلوا أي شيء، إلا الاستسلام.

حين استطاعت مصفحات الجيش المحاصر عبور كثافة التيران إلى حيث تدور المعارك، بدأ الأمر بالتغير لصالح الفادية، وتم الإطباق على القوة الإسرائيلية التي نسفت الجسر، وعزلها تماماً. وعندما أدرك الناس أن الشوارع خطيرة، بدأوا يتنقلون من سطح إلى سطح، وبصورة غير متوقعة، أرعدت السماء وبدأ مطر شديد بالهطول، ولم يعد هنالك مجال لمعرفة المدافعين من المهاجمين.

حين أطل الصباح كان المشهد مرعباً، ويُذكر تلك الليلة السوداء التي بوغست فيها القرية، القتل في كل مكان، وفي الملاجئ عشرات الجثث التي مزقتها القنابل التي ألقيت داخلها. الملاجئ التي تحولت إلى قبور حقيقية، بحيث لم يكن على الناس فيها بعد سوى أن يقوموا بإغلاق أبوابها بعد وضع المزيد من الجثث داخلها.

راحت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، أحس أيوب عبده بذلك، قال: لم يبق لدينا الكثير من الذخيرة. سترسل إليهم وتخبرهم أننا نريد أن نستسلم.

- ماذا؟ صاح أكثر من ضابط.
- لقد خدعونا، وعليهم الآن أن يعرفوا معنى الذي فعلوه. سأعدهم مفاجأة التي لم يتوقعوها.
وشرح للضابط خطته البسيطة.

قبل أن يفكر قائد القوة بإرسال رسالة لمراقبي الهدنة، كانوا قد جاؤوا يعتذرون ومعهم ممثل الحكومة. فجاهم: سنستسلم، على أن يعتبرونا أسرى حرب كما وعدوا.

- تستسلمون؟؟

- نعم، بعد ثلاثة أيام من هذا اليوم. في العاشرة صباحاً. هناك ساحة كبيرة في المنطقة الشمالية، ستخرج إليها يرايات بيضاء..

انفجرت أسارير مرابي الهدنة ومدنوب الحكومة، كانوا يريدون الانتهاء مما هم فيه بأي وسيلة، حيث لم يبق سوى هذه الهدنة. وكانت فرحة الإسرائيليين بها سمعوه تفوق الوصف.

في العاشرة صباحاً من يوم الاثنين، امتلأت الساحة الكبيرة بأولئك الذين جاؤوا لكي يعيشوا لحظة الاستسلام التي لم يعلموا بها.

العاشرة ودقيقة واحدة، الصمت تحمَّيَ والعيون ترتقب ظهور الرايات البيضاء. العاشرة ودقيقتان، الأعناق تشرتب، والقلوب تحرق بشدة.

دار أيوب عبده على الخنادق، وسأله هل أنتم مستعدون؟

- مستعدون.

- الآن إذن.

انفجر كل شيء، وتبدد ذلك الصمت إلى غير رجعة، انطلقت المدافع تنصف بلا رحمة، وفتحت المصفحات تيران ورشاشها، ولم يعد هناك سوى الصراخ الذي غمر الأرجاء كلها. كانت الضربة موجعة جداً. وأدرك الإسرائيليون أن الهدنة لن تسقط بالقوة أبداً.

بعد ثلاثة أيام عاد مراقبو الهدنة من جديد. كانوا غاضبين، فجاء الرد: خذعة بخذعة، والبادي لأظلم.

وعلى مدى أسابيع ظلوا ينتقلون بين الجانبين، إلى أن توصلوا لاتفاق: يخرج الجيش المحاصر بسلامه كاملاً، دون أن يتعرض له أحد. يحل لمن أراد من أهل الهدنة أن يبقى وأن يعيش حياته التي عاشها في الماضي، ومن أراد الخروج فياستطاعه مرافقة القوات المنسحبة.

قرروا البقاء.

- هل هناك بلاد يمكن أن نتسع لنا؟! واحوا برؤة دون.

- نحن لم نخرج بحرب، فلماذا نخرج بعد انتهائنا من تلقاء أنفسنا. قال الحاج سالم.

- سيصون كل أحقادهم علينا ولن يتركوا نعيش حياتنا أبداً.

- سنبقى رغم كل شيء.

لم يترك قائد القوة مجلساً إلا وذهب إليه، وعلى مدى أسبوعين شرح لكل إنسان في القرية تفاصيل الخطوة التالية. لكنه لم يكن مطمئناً إلى شيء: أخشى أن يكون الأمر خدعة ثانية. لكنكم تعرفون، إذا لم تقبل بهذه الاتفاقية فسيذهبون الجميع.

أدرك أهل القرية أن بعض الرجال يجب أن يخرجوا مع الجيش سواء رضوا بذلك أم لا، وعلى رأسهم الحاج سالم لأن اليهود إذا ما أسكوا بهم فإنهم سيقتلهم.

حين تحركت القوات، وقف الناس على الجانبين يودعون الجنود، ولم يبق أحد لم يعاقبه قائد القوة.

- لولا وجودكم لما استطاع الجيش الصمود كل هذه الفترة. كان يردد.

على طول الشارع الرئيس وقفت مصفحات وسيارات الجيش، ولم يكن هناك غير الدموغ. أما النساء فقد كانت تئلى بمطر.

حاول قائد القوة استحضار كل الليالي التي عاشها هنا، وإذا به أمام تلك الجملة التي غيّرت مسار حياته إلى الأبد: لقد اعتبرناكم خسائر حرب.

سارت القافلة، وفي السيارة الأخيرة، تم وضع الأسرى الخمسة.

- إذا تصرفوا جيداً سأعيد لهم أسرهم، أما إذا أساءوا فلن أعيدهم.

حاول الإسرائيليون الوصول إلى اتفاقية بشأنهم، على مدى أسابيع، لكن قائد القوة كان يعتبرهم ورقة لا يجوز التفریط بها قبل الوصول إلى حل واضح.

أمام مركز كان الجيش البريطاني يستخدمه، انتظرت القوات الإسرائيلية وصول القوة المنسحبة، مرّت القافلة، توقفت للحظات، كان قائد القوة واقفاً، انتظر القائد الإسرائيلي منه أن ينزل من العربية، لكنه لم يفعل.

تقدم القائد الإسرائيلي خطوات ودعاء أن ينزل.

رفض.

وأشار إليه أيوب إلى الجنود أن يطلقوا سراح الأسرى.

عندما وصلت القوة إلى الحدود الدولية الجديدة، توقفت القافلة، غادر قائد القوة سيارته، كانت هناك عربة مصفحة في انتظاره.

ركبها.

- ومنذ ذلك اليوم، لم يره أحد. أوكد لك!!

في اليوم الثامن عشر لم يكتفوا برصاصة تُطلق، اندفعت المصفحات وسيارات الجيب اليهودية بجنود داخل القرية مع إطلاق نار شديد في الهواء. ثم غادرت دون أن تصيب أحداً.

كان مراقبو الهدنة قد اتخذوا من مدرسة البنات مقراً لهم. تسلم هاشم شحادة وإساعيل راضي وتيسير جمعة إلى المراقبين ليلاً. وغدوهم: سنعمل ما باستطاعتنا.

قبل غروب شمس اليوم التالي، عادت المصفحات وسيارات الجيب، لكن الرصاص انهمر هذه المرة على أبواب البيوت وشبابيكها.

تسلل هاشم شحادة وإساعيل راضي وحسين ابن العزيزة إلى مراقبي الهدنة، فجاء الجواب أكثر وضوحاً مما تصوّروا: هذه الاتفاقية التي حملونها، لا معنى لها لأنهم لا يعرفون بها، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً لكم، كل ما نستطيع فعله أن نطلب منهم التوقف عن مضايقتكم، وما أنتم ترون، كلامنا لا يعنيه أيضاً.

أقفلت أبواب الحياة تماماً، نفق ما تبقى من مواش لعدم وجود شيء تأكله، ولم يعد هناك فسحة للخروج للزراعة ولا لإحضار طعام ولا حتى للصلاة. وحده الحمام كان يطير للبحث عن طعامه، في البداية كان يعود سريعاً، وحينئذ اشتدّ الحصار بدأ يغيب طويلاً، إذ لم يعد قادراً على التقاط طعامه في السهول القريبة.

أما شميّة، فكانت تتابع الرفوف بعينين دامعتين، وكلما نزلت واحدة من الحمامات الهزائة التي تكاثرت، لأنها لم تلتصق بأي واحدة منها، إلى الخوش ورأىها تيسير أمامها باختيار، راحت تكيي بصمت مزير.

- لديكم خياران، إما الذهاب إلى غزة وإما إلى الخليل. قال مراقبو الهدنة لنا.

ظهرت غيوم عالية في السماء، اتبشت سيوف بروق جارحة ودوى رعد حاد كالصمم، وبدأ كما لو أن الأرض قد غدت خارج الأرض، وفجأة تساقط مطر غزير، باتوا على يدين بالله لن يتوقف أبداً، لكنه، وكما انهمر فجأة توقف فجأة، غلغلاً صمتاً عميقاً كأنه الموت.

بعد أحاديث بالسة ومناقشات لم تُفصّل شيء، بدأ الناس يجمع أشياءهم أمام بيوتهم، بانتظار يوم الرحيل. وجاء عدد آخر من مراقبي الهدنة لتنظيم خروج الناس.

عتبات الجحيم

البرج الذي تبعثرت حجارته في جميع الاتجاهات راح ينمو من جديد. وما إن رأى الناس ذلك حتى أدركوا ما ينتظرهم على عتبات الغد.

بعد أسبوع هادئ مرّت عربة جيب تُقلّ أربعة مسلحين يهود، لم تفعل شيئاً. ألقوا نظرة على من في الحقول. وابتعدوا.

عادت العربة بعد يومين بصمت، وغادرت بصمت. وفي اليوم الثالث أطلقت رصاصة واحدة استقرت في رأس علي الأعرج الذي كان يحرث أرضه. وابتعدت. في اليوم الرابع عادت مرة أخرى. توقفت، نزل منها جنديان. كان رشيد صالح يحرث أرضه.

- ما الذي تفعله هنا، ألا تتعلمون؟

- أحرث أرضي. وهذا موسم الزراعة.

- لا تُعَب نفسك بلا طائل، اذهب وخيّر الناس، هذه الأرض لنا وليست لكم..

تجمّعت القرية داخل القرية أكثر، تجمّع كبار البلد لبحث ما يدور، وقبل أن ينتهي اجتماعهم، طافت عربة جيب حول القرية مطالبة الناس عبر مكبرات الصوت التزام بيومهم بسبب حظر التجول من الساعة الثانية من بعد الظهر حتى السادسة مساءً. لم يُطع الناس الأمر.

في الثانية والنصف دوّت رصاصة واحدة، أدرك الناس أنها قادمة من البرج، وأمام بوابة بيته سقط عادل الحلو. وعلى مدى سبعة عشر يوماً لم يتوقف القنص، رصاصة من هناك وقبيل من هنا، فلم يعد الناس يخرجون على الظهور في النهار.

- ستأتي سيارات الأمم المتحدة، وتنقل الجميع، عليكم مغادرة البيوت والانتظار على طرف الشارع العام.

خمس ساعات مرّت، لم تحضر أي سيارة نقل، ثم هبط الليل، حاولت أكثر من عائلة العودة إلى بيتها.

- هذا ممنوع!!

- ما هو المنوع؟

- أن تعودوا لبيوتكم من جديد.

- ولكننا لا نستطيع المبيت هنا.

- ستأتي العربات في أي لحظة.

عادوا لأماكنهم. طُرد ملابسهم لحيط بهم وبعض أكياس القمح التي أحسوا بأنهم سيكونون بحاجة إليها.

في الرابعة صباحاً، نزلت قطرة ماء، وفي لحظات قليلة انهمر مطر غزير أشد من ذلك المطر الذي مرق القرية قبل أيام.

حين أطل الصبح، كانوا في أسوأ حالة يمكن أن يكون عليها بشر. مبتلن بالماء ومطعونون بالبرد وملونون بالطين.

- ستعود إلى بيوتنا.

- لن يعود أحد.

نُصبت خيام صغيرة، وتحوّلت أغطية إلى خيام، وراحت القذائف تتساقط على القرية، حتى بات الناس يخشون التفكير في يومهم، فيمجرد أن كان أحدهم يقول:

سأعود إلى بيتي. كانت قذيفة ما تسقط على البيت وتدمره أو يقتلهم لغم من أساساته.

بدأت الحادية تصفر يوماً بعد يوم، تلاشى أمام عيونهم وهم ينظرون إليها، وتحوّل الدبر إلى سحابة من دخان، وعندما أدركوا أنهم يريدون نحو القرية من الوجود

بعد أحد عشر يوماً أشرقت شمس حارة، وقلّت حرارتها لتتساعد على مدى أربعة أيام حتى غدت حارقة تماماً. وغاب ليل وهبط ليل،

وغاب نهار

وهبط ليل

وليل وليل وليل وليل وليل

وأطل نهار،

التفتوا لأكياس القمح فوجدوا أن البذور قد تفتحت وشقت مسامات الخيش.

جمع الناس الحطب وبدأوا بتحصيل حبوب القمح (القلية) التي لم يجدوا غيرها بين أيديهم. وبدا المشهد مرعباً في ظل صباح الصغار الذي لم يعد يتوقف.

- كانت الأسابيع التي عشناها على جانبي الشارع أكثر قسوة من أيام الحصار. صدّقني.

حين وصلت العربات الكبيرة أخيراً عصر أحد الأيام، لم يكن باستطاعة الناس تسلّطها، كان الانتظار قد أنهكهم تماماً. بصموية عثرت سمية على ساقها اللتين لم

تعد تحس بوجودهما، بهضت، تطلّعت إلى تلك التلة، حيث قبر زوجها، اغتمضت عينها وفتحتها غير مصدقة ما تراه واندفعت تركض صوب الحادية.

لحقوا بها أعادوها..

- اتركوني. صرخت. ألا ترونها. إنها هناك!!

- ما هي؟

- الحماة، ألا ترونها إنها هناك.

- أين؟

- عند قبره، على التل. إنها هناك ألا ترونها؟ اتركوني، أريد أن أراها، مرة واحدة فقط، أريد أن أعثر لها. أن أقول لها ساعهني. اتركوني.

أمسكوا بها، تفلتت.

في النهاية لم يجدوا حلّاً سوى حلّها إلى الشاحنة.

هدأت فجأة،

التفت على نفسها كما لو أنها صرة ثياب لا أحد يعرف صاحبها، صرة وجدت نفسها في شاحنة، شاحنة لا أحد يعرف إلى أين تضي أو أين ستقف.

بعد غروب الشمس بقليل تحرّكت الشاحنات،

فسمعوا صوت سمية قادماً من بئر عمتها، كانت تغني:

عَمِّي يَا أَبَا الْفَتَّانِ
نُورِي عَا الْعَتَمَة
خَوْفِي الطَّرِيقَ يَطْوِلُ يَا
وَيَطْوِلُ مَعَكَ حَتَّى
وَيَطْوِلُ مَعَكَ حَتَّى

انحدرت شلالات الدمع على وجه منيرة وأحفادها وعفاف وأولادها وحسين وأولاده وأم الفار، الذين كانوا قد تجتمعوا في صندوق تلك الشاحنة البيضاء. دوت عدة انفجارات، التفجوات، فإذا بالنار تلتهم عدداً من بيوت القرية. حذقت العريزة التي كانت تبكي بصمت مسندة وجهها إلى الحافة الحديدية للصندوق. كانت إحدى القنابل قد سقطت في بيت أبيها، اندلعت النار فيه وسقطت قنبلة أخرى فاشتعل برج الحمام. راحت العريزة تراقب النار التي تتصاعد ملتهمة البرج وما فيه، وعندما رأت ذلك المشهد الذي لن تنساه أبداً.

كان الحمام يطير محترقاً، قاطعاً مسافات لم تفكر يوماً أن حماماً بأجنحة مشتعلة يمكن أن يبلغ نهايتها، وحينها راح يسقط في البساتين والكروم والسهول المحيطة كانت نار جديدة تشتعل. وحينها وصلت العربات إلى تلك النقطة العالية التي تنبج للناس مشاهدة الهادئة للمرة الأخيرة، كانت ألسنة الحرائق تلتهم الجهات الأربع.

كُو كُنْتُ قَائِداً عَرَبِيّاً، لَمَّا وَلَقِقْتُ عَلَى أَيْ اتِّفَاقٍ مَعَ إِسْرَائِيلَ، فَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِي، فَكُنْ أَخَذْنَا بِلَادَهُمْ نَعَمْ، إِنْ اللَّهِ وَعَدَنَا بِهَذِهِ الْأَرْضِ وَلَكِنْ هَذَا أَمْرٌ لَا يَهْمُهُمْ... فَلَيْهَذَا لَيْسَ إِلَهُهُمْ... وَهَذَا حَصَلَ مِنْذُ أَلْفِي عَاصِمٍ، فَمَا الَّذِي يَدْعُوهُمْ لِأَنْ يَعْبُرُوهُ اعْتِسَاماً؟ وَكَانَتْ هَذَلِكَ الْإِسْلَامِيَّةُ وَمَنْ ثُمَّ النَّازِيِّينَ، وَهَتْلَرَ، وَأَشْوَتْسَ، فَهَلْ كَانَ ذَلِكَ ذَنْبُهُمْ؟ إِنْهُمْ يَرَوْنَ شَيْئاً وَاحِداً فَقَطْ: لَنَّا جِئْنَا وَسَرَقْنَا بِلَادَهُمْ، فَمَاذَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا بِهَذَا؟

ديفيد بن غوريون

تطابق ديفيد بن غوريون نقله عنه ناعوم غولدمان، الرئيس

الأسبق للمؤتمر الصهيوني العالمي، في كتابه (مفارقة اليهودية)

Nahum Goldmann, *The Jewish Paradox*, (New York: Fred Jordan Books, 1978), 99.

فهرس الرواية

7	الكتاب الأول: الريح
183	الكتاب الثاني: التراب
391	الكتاب الثالث: البشر

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

في الملهاة وجذورها

فما بالشيء، لهوا: أولع به.
فما، ليهايانا عن: إذا سلوت عنه وتركته ذكره وإذا غفلت عنه.
ولسنت المرأة إلى حديث المرأة: أينست به وأعجبها.
قال تعالى (لاهي قلوبهم) أي متشاغلة عما يُدْعَوْنَ إليه. وقال (وأنت عنه
تلهى) أي تتشاغل.
وتلاهاوا: أي لها بعضهم ببعض.
ولهوت به: أحبيته.
والإنسان اللاهي إلى الشيء: الذي لا يفارقه. وقال: لاهى الشيء أي
دناؤه وقاربه. ولاهى الغلام القطام إذا دنا منه.
واللهوة واللّهية: العطية. وقيل: أفضل العطايا وأجزها.

(لسان العرب)

- مواليد عثمان من أبيوين فلسطينيين أقتلوا من أرضها عام 1948
صدر له شعراً (الطبعات الأولى):

الحبلى على مشارف المدينة، 1980. لظفر في الداخل، 1982. الحوار الأخير قبل مقتل
المصفور بدقات، 1984. نمان بستره لونه، 1984. أناشيد الصباح، 1984. القنى النهر
والجدران، 1987. عواصف القلب 1989. حطب أخضر، 1991. فظيحة التعلب،
1993. الأمل الشعري - مجلد يضم تسعة دواوين، 1994. شرقات الحريف، 1996.
كتاب الموت والموتى، 1997. بسم الأم والإنسان، 1999. مرابا اللالكسة، 2001. حجرة
النار، 2007. لو أنني كنت مايسرتو، 2008.

الروايات: (الطبعات الأولى):

براري الحصى، 1985. الأمواج العربية، 1988. حصى، 1990. مجرد 2 فقط،
1992. حارس المدينة الضائعة، 1998.

لللهة الفلسطينية (الطبعات الأولى):

طوبور الحذر، 1996. طفل المحاذ، 2000. زينون الشوارع، 2002. أعراس أمّنة،
2004. تحت شمس الضحى، 2004. زمن الحيل البيضاء، 2007. اللاتعة القصيرة
لجائزة البوكر العربية، 2009.

الشرقات: (الطبعات الأولى):

شرقة الغليبان، 2005. شرقة رجل الثلج، 2009. شرقة العمار، 2010.

كتب أخرى (الطبعات الأولى):

- هزائم المتصربين - السبتيان بين حرية الإبداع ومتعلق السوق، 2000
- ديواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002
- السيرة الطائفة: أقتل من عدو، أكثر من صديق، 2006
- صور الوجود - السبتيان تأمل، 2008
- ترجم عدد من أمهاله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، ونشرت
مختارات من قصائده بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية..
- أقام ثلاثة معارض فونوغرافية وشارك في معرض (كتاب يرسمون) معرض
مشترك ثلاثة كتاب - عمان، 1993
- نال سبع جوائز عن أمهاله الشعرية والروائية من بينها:
- جائزة عرار للشعر، 1991. جائزة تيسير سيول للرواية، 1994
- جائزة سلطان المعويس للشعر العربي، 1997

اعتمدت هذه الرواية

على كثير من المذكرات والكتب من بينها:

يوميات أكرم زعير، مذكرات محمد عزت دروزة وكتابه القضية الفلسطينية في
مختلف مراحلها، مذكرات خليل السكاكيني، منشورات مؤسسة إيتاش الأسرة -
رام الله، كتاب عبد الرحيم الحاج محمد لزياد عودة، صحفي من فلسطين يتذكّر
لكنعان أبو خضرة، في خضمّ النضال العربي الفلسطيني ليهجت أبو غربية،
ديمومة القضية الفلسطينية للدكتور جوزيف مسعد، الدفاع عن حيفا مذكرات
رشيد الحاج إبراهيم، حنا نقارة محامي الأرض والإنسان من إعداد حنا إبراهيم،
دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني تأليف: وليد ربيع، عبد العزيز أبو
هدايا، عمر حمدان، محمد علي أحمد، الرملة تتكلم لوليد راغب الخالدي، أعمال
الباحث الفلسطيني نمر سرحان، قضاء يافا في العهد العثماني للدكتور محمد سالم
الطراونة، رواية مقلع الغساني والمسيرة اليدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن
لنجيب نصار، مذكرات فوزي القاقوجي 1914 - 1932، الحكاية الشعبية في
المجتمع الفلسطيني للدكتور عمر عبد الرحمن الساريسي، القضاء عند البدو
لعارف العارف، الموسوعة الفلسطينية، العروش والجويوش لمحمد حسنين هيكل،
كتابات غسان كنفاني ومصطفى كبا عن ثورة 1936، ذاكرة المغلوبين للدكتور
فيصل دراج، الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936 - 1939 - الرواية
الإسرائيلية الرسمية، يوميات الحرب 1947 - 1949 دافيد بن - غوريون،
استدارة الظل ليوسف فضل، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917 -
1948 ليان نوييس الحوت، رسالة عشق إلى يافا لظاهر أديب قباوي، حوار مع
الرئيس جمال عبد الناصر أجراه دافيد مورجان مندوب صحيفة الهستدات تايمز،
ولّى ذلك كثير من الصحف والمجلات.

IBRAHIM NASRALLAH
THE TIME OF WHITE HORSES

زمن الخيول البيضاء

«إنها بحق الرواية التي كانت النكبة الفلسطينية تنتظرها ولم تحظ بها من قبل. تاريخ دقيق غاية في الدسائسية والتصوير المبدع للوضع الفلسطيني منذ زمن العثمانيين إلى سنة 1948. فالتداع الأهمية لأنها تتكلم بوضوح أسباب النكبة وعلاقتها ونزوحها الطاغية التي قادت شعبنا إلى عذاب مقيم. كما أنها تصل غاية التشويق الروائي المثير. بحيث أن القارئ لا يود تركها أبداً. إنها العمل الروائي المبدع الأهم الذي سوف يفسر عبر الزمن الرفع مأساة شعبنا وأسباب تكوينه. كم سألني الكثير من الأجانب «متى يظهر العمل الفلسطيني الذي يقدم لنا الإلياذة الفلسطينية؟» وها هي الآن بين يدينا».

— د. سلفى الخضراء الجيوسي

«زروة إبداعية بالغة الشفافية. وزمن كثيف أطرافه دول وإمبراطوريات ومشروعاته أكبر من بساطة ناس القرى».

— د. خالد الحروب

«رائعة، عذبة وشجية، مستعيش في الذاكرة كأحداثها وشخصياتها التي رُسمت بمهارة شاعر وروائي كبير».

— د. حاتم الصكر

«رواية فريدة وجميلة، ترصد تشكّل الهوية الفلسطينية عبر رحلة سردية مليئة بانفاجات».

— د. علي بن نعيم

«قريبة (الهادية) اختزال مكثف لفلسطين. وقد جاءت لحظة النهاية الترحم بدقة مأساة ومهارة نادرة المنسوط الكبير الأربع».

— طارق وادي

«الأوسع مدى، والأعمق رؤية، والأوضح فناً في كتابة الملحمة الروائية الفلسطينية».

— د. محمد عبد القادر

ISBN 978-9963-87-463-0



9 789963 874630



e-mail: info@aspbooks.com
www.aspbooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.aspbooks.com - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com

نيل وفرات. كوم

جميع الحقوق محفوظة
على شبكة الانترنت

www.mlazna.com-RAYAHEEN